

جمهوريـــــــــــة العـــــــــــراق
وزارة التعلـــيم العـــالي والبحـــث العلمـــي
جامعـــــة البصـــــرة / كليـــــة الآداب
قســـــم اللغـــــة العربيـــــة

أَسْرَارُ التَّعْبِيرِ بِحَرْفِ الجَرِّ فِي نَهْجِ البَلَاغَةِ

"دِرَاسَةٌ نَحْوِيَّةٌ تَحْلِيْلِيَّةٌ"

أطروحة يتقدَّمُ بها الطَّالب

قاسم درهم كاطع السعيدي

إلى مجلس كلية الآداب في جامعة البصرة ، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتور

خليل خلف بشير



١٤٣٩هـ   ٢٠١٧م

إقرار المشرف

أشهد أنَّ إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ (أسرار التعبير بحرف الجر في نـهج البلاغة ، دراسـة نـحويَّـة تحليليَّة) التي تقدَّم بـها الطالب (قاسم درهم كاطع) جرى بإشرافي في قسم اللغة العربية في كلية الآداب ـ جامعة البصرة ، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها .

الإمضاء :

المشرف : أ.م.د. خليل خلف بشير

التاريـخ : / / ٢٠١٧ م

وبناءً على التوصيات المتوافرة أُرشّح هذه الأطروحة للمناقشة .

الإمضاء :

رئيس قسم اللغة العربية

أ.م.د. محمد عبد كاظم الخفاجي

التاريـخ : / / ٢٠١٧م

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة أنَّنا قد اطلعنا على هذه الأطروحة الموسومة بـ (**أسرار التعبير بحرف الجر في نهج البلاغة ـ دراسة نحويَّة تحليلية**) وقد ناقشنا الطالب (**قاسم درهم كاطع**) في محتوياتها ، وفيما له علاقة بها ، ووجدنا أنها جديرة بالقبول لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بتقدير (   ) .

الإمضاء :

أ.د. عدنان عبد الكريم جمعة

رئيساً

التاريخ :   /   / ٢٠١٧م

الإمضاء :

أ.د. أسعد خلف عبد العوادي

عضواً

التاريخ :   /   / ٢٠١٧م

الإمضاء :

أ.م.د.محمد نوري محمد

عضواً

التاريخ :   /   / ٢٠١٧م

الإمضاء :

أ.م.د.عرفات فيصل عبد الوهاب

عضواً

التاريخ :   /   / ٢٠١٧م

الإمضاء :

أ.م.د.حسين علي حسين

عضواً

التاريخ :   /   / ٢٠١٧م

الإمضاء :

أ.م.د.خليل خلف بشير

عضوا ومشرفاً

التاريخ :   /   / ٢٠١٧م

مصادقة مجلس الكلية

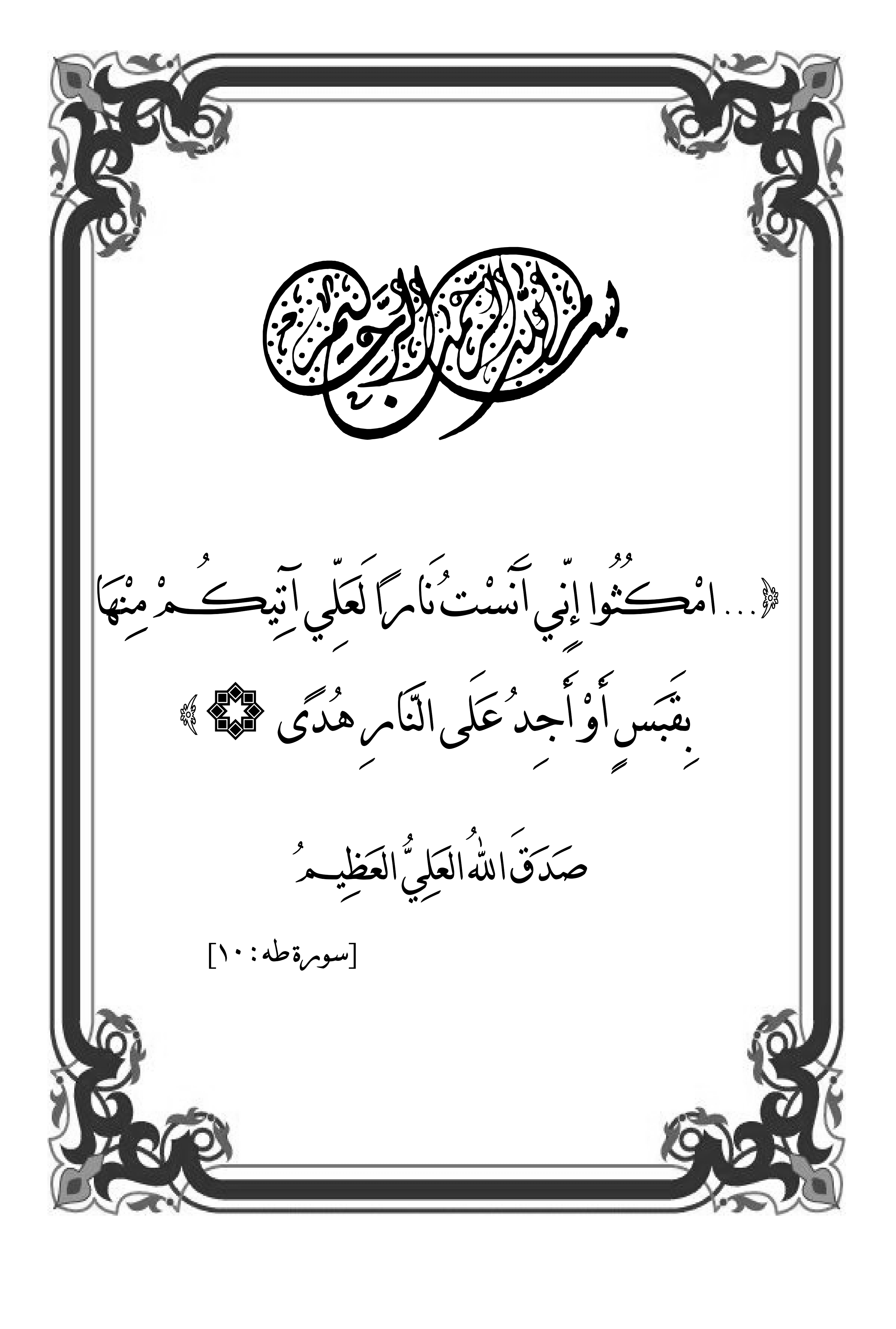
أصادق على ما جاء في قرار لجنة المناقشة أعلاه

الإمضاء :

أ.د.مجيد حميد جاسم

عميد كلية الآداب

التاريخ :   /   / ٢٠١٧م

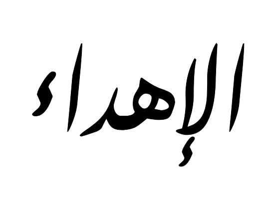


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا
بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾

صَدَقَ اللهُ العَلِيُّ العَظِيمُ

[سورة طه: ١٠]



سيدي يا أبا الحسن . . .

إلى ظِلال أناملك التي تحنو على يتامى المسلمين

في زمن كثُرت فيه اليتامى

إلى وجيب قلبك في محراب العاشقين

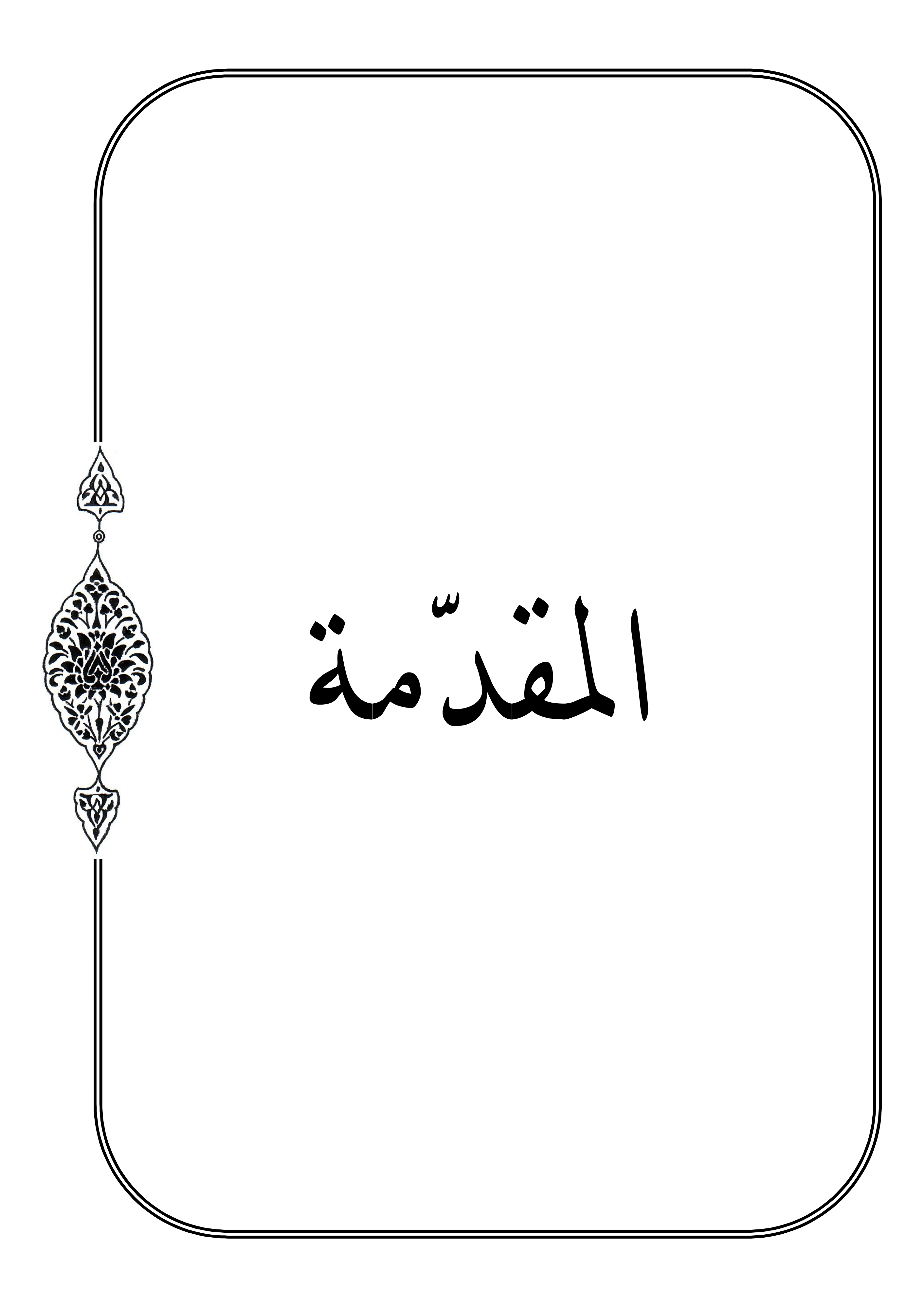
في زمن قلَّ فيه المتبتلون

إلى عدلك الذي تتعطش له قلوب المظلومين

في زمن نضَب فيه العدل

إلى روحك القدسيَّة . . . أُهدي هذا الجهد المتواضع

المحتويات



المقدّمة

المقدِّمة

الحمد لله الذي اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء وسيِّد المرسلين ، محمَّدٍ المصطفى ، وعلى آله بدور الصِّدق والسَّداد ، حجج الله في سائر البلاد ، ولاسيَّما يعسوب الدِّين وإمام المتقين عليٌّ أمير المؤمنين (عليه السَّلام) .

أمَّا بعد ؛ فلا يخفى على ذي مُسكة ما في دراسة النصوص الأدبية التراثية من فوائد جمَّة ؛ لأنَّها تُسهم في الكشف عن بدائع اللغة العربية وكنوزها ، ولا سيَّما إذا كانت تلك النصوص هي نصوص نهج البلاغة التي تتبوأ الصدارة في مراتب الفصاحة والبلاغة ؛ لصدورها عن عدل القرآن ، وثاني معاجز المصطفى ؛ لذا دفعتني رغبة جامحة إلى التدبُّر في نصوص هذا النهج ؛ لاستخراج أسرار التعبير وما ينطوي عليه من لطائف لا تُنال إلَّا بالغوص في لُجج تعبيره ، مع إدراكي خطر الولوج في هذا النص المقدَّس ؛ لمعرفتي أنَّ مَن أراد أن يتلمَّس شيئاً من عبقات النهج فلا بُدَّ أن يجيء إليه بحسٍ مُرهَف ، وقلبٍ يخشى ويتوقَّى ... وعندئذٍ يتفتَّح النهج عن أسراره وأنواره ، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متَّقياً ، خائفاً ، حسَّاساً ، مهيَّأً للتلقِّي...

وما إن بدأتُ رحلتي مع أوَّل المباحث حتَّى تيقَّنت أنَّ نهج البلاغة بحرٌ لا ساحل له ، وأدركت حينها أنَّ الإحاطة بكلِّ تلك المباحث تحتاج إلى رسائل متعدِّدة ؛ فاقتصرت على طرف من تلكم المباحث البكر ، واستقرَّ الرأي على (أسرار التعبير بحرف الجرِّ في نهج البلاغة ، دراسة نحويَّة تحليليَّة) .

ولم أتوقف عند نسبة النهج ؛ لأنَّها مسألة قد أشبعها الباحثون وأُفردت لها كتب خاصَّة[1]، بل إنَّ ما ظهر لي من الأسرار التي هي قطرة من بحر بلاغة منشئه يدلُّ

---

[1] ينظر : مصادر نهج البلاغة وأسانيده ، لعبد الزهراء الحسيني الخطيب ، وتمام نهج البلاغة ، للسيد صادق الموسوي ، ومسند نهج البلاغة ، لمحمد حسين الحسيني الجلالي ، والمشككون بنهج البلاغة والرد عليهم ، لعلي الفتال ، ونهج البلاغة في دائرة التشكيك ، للشيخ يوسف علي سبيتي ، ونهج البلاغة لمن ، للشيخ محمد آل ياسين ، ونهج البلاغة فوق الشبهات والتشكيكات ، للشيخ أحمد سلمان .

على أنَّ صاحب هذا الكلام ذو شأنٍ عظيم وعلمٍ واسعٍ في كلِّ المجالات ، وأنَّه رجلٌ ولد في زمنٍ لا يعرفه ؛ لذا أجد أنَّ نَظمَ كلامِه يعبرُ الزمنَ لِيصلَ إلى الأجيال المتلاحقة .. وفي هذا كفاية عن البحث في هذه المسألة ؛ فالأثر يدلُّ على المؤثِّر ، وصفاتُ الأثر تكشف عن صفات المؤثِّر .. وهكذا كان النهج .

واقتضت طبيعة البحث أن يكون في تمهيد وأربعة فصول وخاتمة ، وقد مثَّل التمهيدُ الأساسَ النظري للوصول إلى الرأي المختار في استجلاء معنى الحرف في المواضع المشكِلة ، ومن البديهي أن يقتضي ذلك تمحيصَ الآراء المتعلِّقة بمعنى حروف الجرِّ المستعملة في المواضع التي تتعمَّق فيها الدلالة ، ثمَّ الخلوص إلى قول تطمئن إليه النفس وتُبنى عليه مباحث الأطروحة ، ثمَّ قسَّمتُ المادة التي حصلت عليها من طريق الاستقراء على أربعة فصول ، تضمَّن الفصل الأوَّل ما يتعلق بأسرار التعبير بأحرف الجرِّ الأحاديَّة ، وجاء في ثلاثة مباحث ، شمل المبحث الأوَّل أسرار التعبير بحرف الباء ، وتضمَّن المبحث الثاني أسرار التعبير بحرف الكاف ، أمَّا المبحث الثالث فدرس أسرار التعبير بحرف اللام ، ودرس الفصل الثاني أسرار التعبير بأحرف الجر الثنائيَّة ، وتوزَّع على ثلاثة مباحث ، شمل المبحث الأوَّل أسرار التعبير بالحرف (عن) ، وتضمَّن المبحث الثاني أسرار التعبير بالحرف (في) ، وتناول المبحث الثالث أسرار التعبير بالحرف (من) ، أمَّا الفصل الثالث فخُصِّص لأسرار الأحرف الثلاثيَّة والرباعيَّة ، وجاء في ثلاثة مباحث أُفرِد المبحث الأوَّل لأسرار التعبير بالحرف (إلى) ، واختصَّ المبحث الثاني بأسرار الحرف (على) ، وتناول المبحث الثالث أسرار حرفي الجرِّ (ربَّ وحتَّى) ، أمَّا الفصل الرابع فقد كان في أسرار المعاني المشتركة (التعليل ، والقسم ، والمصاحبة) ، وبعد أن استوى البحث على سوقه جاءت الخاتمة متضمِّنة لأهم النتائج التي ترتَّبت على هذه الدراسة .

أمَّا المنهج الذي اتبعتُهُ في الدراسة وعرض النصوص فكانَ منهجاً تحليليًّا ؛ لأنَّ الوصول إلى المعاني الغامضة يحتاج إلى تفكيك المعنى إلى أجزائه ، وقراءة معطيات السياق بشكلٍ دقيق ، ومعرفة ما يرتبط بالمقام من الأمور التاريخية أو العقائدية أو النفسية أو غيرها .

ولكون الآراء النحويَّة مبنيَّة ـ في أحسن أحوالها ـ على أدلَّة قرآنية ؛ لذا اقتضت مناقشتُها الوقوفَ عند تلك الآيات ؛ لبيان جهة الضعف في الاستدلال . فضلاً عن أنَّ ميدان البحث المخصَّص بالكلام المذكور في نهج البلاغة حتَّم علينا التقيُّد بمعاني حروف الجر التي جاءت في النهج دون غيرها ممَّا هو مسطور في كتب النحو .

ولمَّا لم يكن موضوع الأسرار مطروحاً في البحوث التي تناولت نهج البلاغة ؛ انطلقت هذه الدراسة إلى جمع ما تناثر من معلومات تتعلق بأسرار حروف الجر من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، فاعتمدت على مصادر ومراجع متنوعة ، كان في مقدمتها الكتب النحوية ولا سيَّما المختصة بحروف المعاني ، ككتاب الأزهية في علم الحروف للهروي (ت ٤١٥هـ) ، ورصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (ت ٧٠٢هـ) ، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (ت ٧٤٩هـ) ، ومغني اللبيب لابن هشام (ت٧٦١هـ) ، وغيرها .

أمَّا شروح نهج البلاغة فقد كانت عوناً في استنطاق النصوص وفهم المراد منها ، وقد اعتمدت الأطروحة على ما يقرب من عشرين شرحاً ، كان في مقدمتها منهاج البراعة للخوئي (ت١٣٢٤هـ) ؛ لتميُّزه عن سائر الشروح بالوقوف على معاني حروف الجر ، وأفدتُ من بقيَّة الشروح ، كشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي (ت٦٥٦هـ) ، وشرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني (ت ٦٧٩هـ) ، وغيرهما ، مع الاعتماد في توثيق نصوص النهج على تحقيق الدكتور صبحي الصالح ، وتصحيح الروايات المختلفة على نسخة ابن ميثم ؛ لأنَّها بخط الشريف الرضي.

وشكَّلت الكتب المتعلقة بالتعبير القرآني رافداً أساسياً للأطروحة ؛ للتقارب الأسلوبي بين تعبير نهج البلاغة وتعبير القرآن الحكيم ، وكان في طليعة تلك الكتب كتب تفسير القرآن الكريم ، ولا سيَّما المُهتمَّة بالجانب الدلالي ، كتفسير الكشَّاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، وروح المعاني للآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) ، والتحرير والتنوير لابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) ، وغيرها من الكتب اللغويَّة والدلاليَّة المبثوثة في متن البحث وهوامشه .

ولا بُدَّ من الاعتراف بأنَّ رحلة البحث لم تكن بالسهلة واليسيرة ؛ لأنَّ الموضوع يتعلَّق بكلام سيِّد الأوصياء (عليه السَّلام) ، والحكم على مسألة معيَّنة فيه ليس بالأمر الهيِّن ، وهي من الدِّقة بمكان بحيث تحتاج إلى التحرِّي والتثبُّت من ذلك في مظانِّه ،

وهذا يلقي عبئاً ثقيلاً على كاهل الباحث يتمثل في ضرورة تأمُّل النص العلوي وفهمه بالشكل الذي يفضي إلى الأمن من التفسير الخاطئ .

وقبل أن أختم هذا التقديم يوجب عليَّ العرفان بالجميل أن أسدي الشكر الجزيل لأستاذي المشرف الأستاذ المساعد الدكتور خليل خلف بشير ، لما أولاني والرسالة من عناية ومتابعة ، فله منّي دعاء الولد البارّ بأبيه بأعداد الدقائق التي اجتمعنا فيها على صفحات هذا العمل نقاشاً وقراءةً وتعديلاً وصياغةً وتحسيناً وحبكةً منهجيةً . عافاه الله تعالى ومنحه القوَّة في البصر والبصيرة ، وكذلك الشكر والامتنان لأصحاب الفضل على هذه الرسالة وصاحبها وفي مقدمتهم الأخ الكريم حيدر كاظم الجبوري مسؤول وحدة الببليوغرافية والتوثيق في شعبة البحوث والدراسات في العتبة العلويَّة المقدَّسة ، والأخوة العاملين في مؤسسة علوم نهج البلاغة التابعة للعتبة الحسينيَّة المقدَّسة ، ولا سيَّما الأخ المهندس أحمد الكربلائي ؛ لما قدموه لي من مساعدة ودعم كبيرين ، وكذا أوجه شكري الجزيل إلى قسم اللغة العربية مُمَثَّلاً برئيس قسمه الأستاذ المساعد الدكتور محمد عبد كاظم الخفاجي ، وأساتذتي في السنة التحضيرية الذين أحاطوني بالعناية وغمروني بالمحبَّة ، وأشكر كلَّ من أعانني بمشورة نافعة ، أو كلمة طيبة ، أو دعوة خالصة ؛ فجزاهم الله عنِّي خير جزاء المحسنين ، إنَّه هو السميع المجيب .

وبعد .. فإنِّي لا أدَّعي الكمال في هذا العمل المتواضع ؛ إذ الكمال لله وحده ، ولا أدَّعي أنِّي قد أحطت بكلِّ ما يتصل بأسرار حروف الجر في نهج البلاغة ، فكلُّ محاولة في دراسة كلام سيِّد البلغاء والمتكلمين تبقى عاجزةً عن الوصول إلى عظمته وكُنهِ أسراره ، ممّا يجعل كلامه منهلاً للأجيال المتلاحقة ، فما كان في هذا البحث من صواب فالفضل فيه لله المتفرِّد بالعطاء ، وما كان فيه من نسيان أو خطأ أو زلل ، ممَّا خانني فيه الفهم ، أو قادني إليه الوهم ، فمردُّه إلى النفس القاصرة العاجزة ، وعذري أنّي قد بذلتُ جُهداً جهيداً للكشف عن أحد الجوانب اللغويّة في هذا النصِّ العلويِّ المبارك .

وفي الختام أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يتقبَّل هذا العمل بخالص قبوله ، ويجعله ذخراً لي يوم ألقاه ، ويتجاوز عن سيئاتي وجهالتي ؛ إنَّه أهل التقوى وأهل المغفرة ، والحمد لله ربِّ العالمين .

الباحث



التمهيد

التمهيد

بيان القول المختار في معنى حرف الجر

منشأ الخلط بين معاني حروف الجر :

إنَّ مَن يُنعِمُ النظرَ في حقيقة حروف الجرِّ سيجد أنَّها تُمثِّل عصا التحكُّم في توجيه المعنى ؛ لِما لها من دور دلاليٍّ نابعٍ من دقَّة المعاني التي تؤدِّيها ، والحرية الرُّتبيَّة التي تتَّسِمُ بها بمعية مدخولها ممَّا يؤدي الى جعلها بؤرة دلاليَّة في أحايينَ كثيرة ، ولعلَّ هذا الأمر هو الذي حمل النحويين على فكِّ قيود القواعد عنها والقول بأنَّ حروف الجرِّ يُتَوَسَّعُ فيها ما لا يُتَوَسَّعُ في غيرها[١].

وبناءً على السّعة في الدِّلالة والرُّتبة فإنَّ معاني حروف الجرِّ قد يقتربُ بعضُها من بعضٍ إلى حدٍّ كبيرٍ ممَّا يستدعي من المتكلِّمِ الملاءمةَ بين قصده ولفظه ، ومراعاة المطابقة بين ما يعتمل في ذهنه من المعاني وما يعبِّر به من ألفاظ عن تلك المعاني ، وهذا ما يستدعي منَّا الوقوف على حقيقة هذه المسألة ؛ لأنَّها جُزءُ علَّة في الاختلاف بين العلماء في تفسيرهم لظاهرة سمَّوها (التضمين أو النيابة) .

والحقيقة أنَّ المتكلم تارة يتوخَّى الدِّقَّة في التعبير ، وأخرى لا يتوخَّى تلك الدِّقَّة ، والخلط بين المستويين في استخراج القواعد لا يُنتِجُ حُكماً صحيحاً ؛ لأنَّ المستوى الثاني مبنيٌّ على التَّسامُح في استعمال الألفاظ من جهة تحميل دلالتها أكثر من المطلوب منها أو أقل ممَّا يُريد المتكلم إيصاله إلى المخاطب ، وهذا الأمر غير موجود في المستوى الأول الذي يتمتَّع بالقصديَّة التَّامَّة والوعي الكامل لِما يصدر عن المتكلِّم من ألفاظ ، وقد ألمح الدكتور فاضل السامرائي الى ذلك بقوله : ((في الكلام الفني قد

---

[١] ينظر : همع الهوامع ، لجلال الدين السيوطي : ٤٣٢/١ .

يختار المتكلم حرفاً على حرف أو لفظاً على لفظ ؛ لأداء معنى معين أو لدلالة معينة ، وربَّما لم يستعمل الحرفين في معنى واحد ، كما يستعمله المتحدِّثون في أمورهم اليوميَّة ... وهذا الاستعمال الفني هو الذي يدفع اللغة إلى أمام فيجعلها أكثر دقَّة ، وتخصُّصاً ، وغناء ، ونماء لا الاستعمال العامي الساذج غير المخصَّص ولا الدقيق)) [١].

ومن هنا فإنّه من غير المنطقي أن نحاسب النُّصوص التي تتَّسم بالقصديَّة والهدفيَّة ، ولا سيَّما الدِّينيَّة منها كالقرآن الكريم ونهج البلاغة ، نحاسبها بما نتج عن استقراء نصوص لا تتَّسِمُ بالقصديَّة التَّامَّة ، أو أنَّ أصحابها لجأوا إلى وضع حرف مكان حرف آخر لضرورة شعرية أو زخرفة لفظيَّة .

وعند التأمُّل في حقيقة هذه المسألة يظهر لنا أنَّ فهم العلماء لهذه الظاهرة مبنيٌّ على إيجاد ما يصحِّح وقوع حرف الجر في غير سياقه المناسب له ، وليس هدفهم تلمُّس الفروق الدلاليَّة المترتبة على ذلك ؛ ولهذا فجهدهم مُنصَبٌّ على إيجاد المخرج الذي يُصحِّح استعمال حرف الجر في غير سياقه المستعمل فيه ، فهم ((معنيون بجانب الإعراب قبل كلِّ شيء ، أمَّا جانب المعنى فأمره عندهم هيِّن ، إذ يقع الحرف عندهم موقع حرف آخر أو يضمَّن الفعل معنى فعل قريب من معناه)) [٢] ولهم في ذلك مذهبان :

المذهب الأوّل : مذهب التضمين .

المذهب الثاني : مذهب النيابة .

---

[١] معاني النحو ، د. فاضل السامرائي : ٣/٩ ــ ١٠ .

[٢] نحو القرآن ، د. أحمد عبد الستَّار الجواري : ٦٠ .

وسنناقش الأدلة التي بُنيَ عليها المذهبان ؛ لنرى مدى صلاحيتهما لتفسير ورود حرف الجر في غير موضعه المعتاد ، ثُمَّ نُبيِّن القول المختار في المسألة .

مناقشة مذهب التضمين :

هو مذهب أغلب البصريين [١] وينطلق أساساً من أصل مسلَّم به عندهم وهو أنَّ لكلِّ حرف من حروف الجر معنًى واحداً يدلُّ عليه ، جاء في الجنى الداني : ((مذهب البصريين إبقاء الحرف على موضوعه الأول ، إما بتأويل يقبله اللفظ ، أو تضمين الفعل معنى فعل آخر، يتعدى بذلك الحرف . وما لا يمكن فيه ذلك فهو من وضع أحد الحرفين موضع الآخر على سبيل الشذوذ)) [٢]ولمَّا وجدوا أنَّ بعض حروف الجر يقع في المواقع التي تتطلب غيره ، وهذا الأمر يتعارض مع ما قرَّروه سابقاً ؛ لأنَّه يعني أنَّ الحرف الواحد له أكثر من معنى واحد حملهم ذلك على القول بالتضمين ، وهو على نوعين :

١. **التضمين النحوي** : ويقصد به ـ كما عرَّفه المجمع العلمي في القاهرة ـ : ((أن يؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير مؤدَّى فعل آخر أو ما في معناه فيُعطى حكمه في التعدية واللزوم)) [٣] وقَصر الحكم على التعدية واللزوم يجعل التعريف غير جامع ؛ لأنَّ التضمين لا يقتصر على ذلك فقط ، وهذا ما يشير إليه ابن جني (ت ٣٩٢هـ) بقوله : ((اعلم أنَّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر

---

[١] ينظر: مغني اللبيب ، لابن هشام :١٥١/١، وشرح التصريح على التوضيح ، لخالد الأزهري :٤/٢ ، وهمع الهوامع :٢/ ٣٣٧، وحروف الجر بين النيابة والتضمين ، د. أحمد مطر العطية ، مجلة التراث العربي ، اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق ، العدد ١١٢ ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨ م : ٢٣٩ ، وقد أثبت الدكتور أحمد مطر أنَّ نسبة مذهب التضمين إلى البصريين غير دقيقة ، وكذا الحال مع نسبة مذهب النيابة إلى الكوفيين ؛ لوجود بعض العلماء من البصريين والكوفيين ممَّن يقول بالمذهبين .

[٢] الجنى الداني ، لحسن بن قاسم المرادي : ٤٦ ، وينظر : همع الهوامع : ٢ /٤٦٣ .

[٣] النحو الوافي ، لعباس حسن : ٤٦٠/٢ ، وينظر : معاني النحو : ١٣/٣ .

بآخر فإنَّ العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأنَّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر)) [1] وهذا الكلام يشير بوضوح الى وقوع التضمين بين فعلين من صنف واحد ، كما يشير الى أنَّ التضمين يُحافظ على معنًى واحد لحرف الجر ؛ لأنَّ التأويل سيطال الفعل لا الحرف ، وقد أوضح ابن هشام السبب الذي دعاهم الى تأويل الفعل دون الحرف بقوله : ((إنَّ الحرف باقٍ على معناه ، وانَّ العامل ضُمِّن معنى عامل يتعدى بذلك الحرف ؛ لأنَّ التجوّز في الفعل أسهل منه في الحرف)) [2].

والقول بالتضمين النحوي يشير إلى وجود بنيتين عميقتين اندمجتا في بنية سطحية واحدة بعد حذف حرف الجر من الأولى وحذف الفعل من الثانية ، ولتوضيح ذلك نسوق المثال الآتي :

نأيتُ من صحبةِ الكسولِ .... (بنية سطحية) .

نأيتُ عن صحبةِ الكسولِ + ضجرت من صحبةِ الكسولِ (بنيتان عميقتان) .

٢. **التضمين البياني** : ويعرفه الصبَّان (ت ١٢٠٦هـ) بقوله : ((هو تقدير حال تناسب الحرف))[3] وهذا يعني أنَّه مجاز بالحذف .

والتضمين البياني يشتمل على بنية عميقة واحدة ، ولنأخذ المثال نفسه ونطبِّق الكلام عليه :

نأيتُ من صحبة الكسول .... (بنية سطحية) .

نأيتُ ضجِراً من صحبة الكسول ....(بنية عميقة) .

---

[1] الخصائص ، لابن جني : ٣١٠/٢ .

[2] مغني اللبيب : ٨٦١/١ .

[3] حاشية الصبَّان على شرح الأشموني ، لمحمد بن علي الصبان : ٣٤/١ .

وبناءً على دلالة البنية السطحية استظهروا نكتة دلاليَّة للتضمين ـ بصورتيه ـ إذ هو ((يولِّد معنًى جديداً فهو يأخذ معنى من الفعل المذكور ومعنى من الفعل المقدَّر فيتولَّد منهما معنًى جديد يجمع بين المعنيين))[1] ، وهذا ينتج ـ بنظرهم ـ كسب معنيين في تعبير واحد [2] أحدهما مستفاد من اللفظ ، والآخر مستفاد من السياق لا من اللفظ نفسه[3]؛ لئلا يقعوا في إشكالية دلالة اللفظ الواحد على معنى واحد في آن واحد ، وهو ممنوع .

ويبدو أنَّ هذه النتيجة هي التي أغرت كثيراً من الباحثين فقبلوا التضمين وتبنّوه ، بل إنَّ بعضهم بالغ في ذلك فأرجع أكثر المواضع التي قيل فيها بالنيابة إلى التضمين.

وعلى خلاف هذا النظر ـ المقصور على النتيجة ـ نجد مجموعة من الباحثين الذين نظروا في أدلة التضمين ، فقابلوه بالرفض ، ولم يرتضوه ، ولم يرتِّبوا النتيجة السابقة عليه ، بل جعلوها دليلاً على اضطراب أدلته ، وهو ما صرَّح به الاستاذ عباس حسن (ت ١٣٩٨هـ) بقوله : ((ما زالت أدلة التضمين واهية منهارة ـ إن صحَّ تسميتها أدلة !! ولم أجد في الآراء السالفة كلها ولا في أمهات المراجع التي صادفتها ما يزيل الضعف . والرأي الأقوى في جانب الذين يمنعونه)) [4].

ويبدو أنَّ الحقَّ ـ في نفي التضمين ـ مع أصحاب هذا الرأي ؛ لأنَّ النتيجة مبنية على دليلها ، فإذا لم يصمد الدليل أمام النقد فهي ـ بلا شكٍّ ـ ضعيفة ومنهارة ، والتضمين من هذا القبيل ؛ إذ إنَّه يصطدم بإشكاليات ، أبرزها [5] :

---

(١) الجملة العربية والمعنى ، د. فاضل السامرائي : ٢٠١ .

(٢) ينظر : والبرهان في علوم القرآن ، لمحمد بن عبد الله الزركشي : ٣٣٨/٣ ، ومعاني النحو : ١٣/٢ .

(٣) ينظر : النيابة والتضمين في حروف الجر في القرآن الكريم : رنا سفيان سلمان ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م : ٣٧ .

(٤) النحو الوافي : ٤٦٠/٢ .

(٥) اقتصرنا هنا على إيراد ما يتصل بالتضمين الذي له علاقة بحروف الجر ؛ لئلا يطول البحث فيخرج عن محله .

١ـ إنَّ استعمال العرب الفصحاء للفعل أو ما يشبهه متعدياً بنفسه أو بحرف جرّ مع عدم الدليل على أسبقيَّة أحد الاستعمالين في الوجود والتعدي واللزوم لا يترك مسوغاً للقول بالتضمين ؛ لأنَّ التضمين يُفرَض فيه وجود أصل في الاستعمال دخله التضمين فأخرجه عنه الى استعمال آخر .

ومن لطيف ما وقع فيه النحويون ما قرَّروه في تعدي فعل الاحسان إذ جعلوا أنَّ الأصل فيه أن يتعدَّى بـ (إلى) ، جاء في البحر المحيط : ((و(أحسن) أصله أن يتعدَّى بإلى قال : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] وقد يتعدَّى بالباء قال تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة : ٨٣] كما يقال أساء إليه ، وبه قال الشاعر [(١)]:

أسيئي بنا أو أَحسِنِي لا مَلُومَةً   لدينا ولا مَقلِيَّةً إن تَقَلَّتِ

وقد يكون ضُمِّن (أحسن) معنى (لطف) ، فعدَّاه بالباء)) [(٢)] ولا يُعلَمُ مستند أبي حيان(ت ٧٤٥هـ) في جعله تعدِّي الفعل (أحسن) بـ (إلى) هو الأصل ، ثم رتَّب على تعدِّيه بالباء تضمينه للفعل (لطف) مع أنَّه لم يرد متعدِّياً بـ (إلى) في القرآن الكريم إلا مرَّة واحدة هي قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] وورد خمس مرات معدّى بالباء ، وكذا ورد معدّى باللام مرتين [(٣)] .

٢ـ إنَّ المناسبة بين اللفظ المذكور وما يمكن تضمينه ـ لو قبلنا بما يقولونه في مسألة الأصل والفرع ـ لا تقتصر على لفظ واحد ، بل يمكن أن نتوسَّع إلى مجموعة من الألفاظ تناسب اللفظ المذكور وتتفق معه في القرينة المذكورة ، وهذا يؤدي إلى اضطراب المعنى وضبابيته ، وهو ما لا ينسجم وبلاغة التعبير .

---

(١) ديوان كثير عزة : ٦٧ .

(٢) البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي : ٣٢٨/٦ ، وينظر : روح المعاني ، للآلوسي: ٥٧/٧ .

(٣) ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، د. محمد الأمين الخضري : ١٩٧ .

ولتوضيح ذلك نقف عند بعض الألفاظ التي ضُمِّنت للفعل (نصرناه) لتصحيح تعديته بالحرف (مِن) في قوله تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الانبياء : ٧٧] ، فقد ضُمِّن معاني كثيرة ، منها :

أ ـ تضمين الفعل (نصرناه) لمعنى الفعل (منعناه) ، يقول أبو حيان : ((وعدَّاه بمن كما عدَّاه في : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ [الانبياء : ٧٧] و ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ﴾ [غافر : ٢٩] أي : ومنعناه ، و فمن يمنعنا)) [1] ، ويقول ابن عاشور : ((وعُدِّي (نصرناه) بحرف (من) لتضمينه معنى المنع والحماية ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٥] ، وهو أبلغ من تعديته بـ (علَى) لأنَّه يدلُّ على نصر قوي تحصل به المَنعَةُ والحماية فلا يناله العدوّ بشيء . وأمَّا نصره عليه فلا يدلُّ إلَّا على المدافعة والمعونة)) [2] .

ب ـ تضمين الفعل (نصرناه) لمعنى الفعل (نجيناه) : وهو ما ألمح إليه بعض المفسرين ، جاء في المحرر الوجيز : ((وقوله تعالى : (ونصرناه) لمَّا كان جُلُّ نُصرته النجاة ، وكانت غلبة قومه بغير يديه بل بأمر أجنبي منه حَسُن أن يكون (نصرناه من) ولا يتمكن هنا (على) كما يتمكن في أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) ، مع قومه (عليه السلام) وذكر هؤلاء الأنبياء (عليهم السلام) ضرب لمثل لقصة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، مع قومه ونجاة الأنبياء وهلاك مكذبيهم ضمنها توعد للكفار من قريش)) [3].

ج ـ تضمين الفعل (نصرناه) لمعنى الفعل (خلَّصناه) : يقول الماوردي (ت ٤٥٠هـ) : ((﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ... معناه : خلصناه منهم بسلامته دونهم)) [4].

---

[1] البحر المحيط : ٣/٦٦٠ .

[2] التحرير والتنوير ، لابن عاشور : ١١٣/١٧ ، وينظر : بحر العلوم ، للسمرقندي : ٤٣٣/٢ ، والكشف والبيان عن تفسير القرآن ، للثعلبي : ٢٨٤/٦ .

[3] المحرر الوجيز ، لعبد الحق بن غالب الأندلسي : ٩٠/٤ .

[4] النكت والعيون ، للماوردي : ٤٥٦/٣ .

والمتأمِّلُ للأفعال التي ضُمِّنت للفعل (نصر) يرى ضابطة التضمين تنطبق عليها جميعاً ، بل تنطبق على غيرها من الأفعال كـ (أخرجناه ، أنقذناه ، عصمناه ، أجرناه ...) ؛ لأنَّ هذه الأفعال تتعدَّى بالحرف (من) وتتناسب معنوياً مع الفعل (نصر) ، ولكنَّ السؤال الأهم يتعلق بمراد المتكلم ، فهل يريد المتكلم كلَّ هذه الأفعال أو بعضها ؟ وما الدليل على قصر كلامه على فعل دون آخر مع تساويهما في التعدِّي والمناسبة ؟ أليس هذا من قبيل الترجيح بلا مُرجِّح ؟!

ولو تجاوزنا هذه المسألة ورجعنا الى المعجمات اللغوية لوجدنا أنَّ الافعال المضمَّنة تختلف في دلالاتها ، فالمَنْعُ ((أَن تَحُولَ بين الرجل وبين الشيء الذي يريده وهو خلافُ الإِعْطاءِ))[1] ، وأمَّا النجاة فهي تعني ((الذَّهاب والانكشاف من المكان))[2] ، وأمَّا الخلاص فلا يكون إلَّا ((إذا كان قد نَشِبَ ثم نَجا وسَلِم))[3] ؛ لأنَّ الخالص ((هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه)) [4] ، ولا نعلم أيَّ معنى من هذه المعاني أراد المتكلم تضمينه الفعل (نصر) مع كلِّ هذه الفروق الدلاليَّة .

ويبدو أنَّ الدكتور فاضل السامرائي يميل إلى المعنى الثاني ؛ لأنَّه يقول : ((أمَّا (نصرناه منهم) فإنَّه بمعنى (نجَّيناه منهم) ... وقد تقول : ما الفرق بين قولنا : (نجيناه من القوم) وقولنا : (نصرناه من القوم) ؟ والجواب أنَّ التنجية تتعلق بالناجي فقط ... أمَّا النصر منه ففيه جانبان في الغالب : جانب الناجي ، وجانب الذين نُجِّي منهم ، فعندما تقول : (نصرته منهم) كان المعنى أنَّك نجيته وعاقبت أولئك ، أو أخذت له حقُّه منهم)) [5].

---

[1] لسان العرب ، لابن منظور . (منع) : ٣٤٣/٨ .
[2] مقاييس اللغة ، لابن فارس . (نجو) : ٣٩٧/٥ .
[3] لسان العرب . (خلص) : ٢٦/٧ .
[4] المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني : ٢٩٢ .
[5] معاني النحو : ١٢/٣ ـ ١٣ .

والحقيقة أنَّه مهما حاول الدكتور السامرائي أن يسوِّغ لنا هذا التضمين فإنَّه لا يصلُّ بنا إلى ما يطمئنُّ له القلب ؛ لأنَّنا لا نرى اكتفاء التعبير القرآني بذكر أحد الفعلين وتضمينه الفعل الآخر ، وإن كانا واردين في سياق واحد ، يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ • وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الانبياء : ٧٦ ـ٧٧] .

٣ـ عدم ترتُّب الفائدة ـ كسب معنيين من لفظ واحد ـ واطرادها في جميع موارد التضمين ، وهذا ما يكشف القناع عن الدافع الرئيس للقول بالتضمين ، وهو تصحيح استعمال حرف الجر مكان حرف جر آخر ، ولنا أن نتساءل عمَّا يقدِّمه التضمين من معنًى جديد في ما ذهب إليه الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة :١٤٣] يقول : ((فإن قلت : فهلَّا قيل : لكم شهيداً ، وشهادته لهم لا عليهم . قلت : لمَّا كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له ، جيء بكلمة الاستعلاء)) [١] ولا يخفى ما في هذا التضمين من محاولة لتصحيح اللفظ ، فالشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له سواء شهد له أم عليه ؟ لأنَّ ((الشهادة قول صادر عن علم)) [٢] ، وهذا يعني وجود معنى الرقابة والهيمنة في الشهادة بما هي شهادة ، وهذا الأمر يتطابق مع الأصل اللغوي للشهادة ؛ فإنَّ ((الشين والهاء والدال أصلٌ يدلُّ على حضور وعلم وإعلام ، لا يخرُج شيءٌ من فروعه عن الذي ذكرناه)) [٣] .

وبعد ما تقدَّم أرأيت كيف صرف هذا التضمين الذي هو من قبيل تحصيل الحاصل ، صرف همَّة الزمخشري عن عادته في استنطاق التعبير واستكناه أسراره الكثيرة ؟ ومن تلك النُّكت الدِّلالية ما جاء في تفسير الأمثل : ((و(شهادة) الأمّة

---

[١] الكشاف ، للزمخشري : ١٩٩/١ ، وينظر : إرشاد العقل السليم ، لأبي السعود : ١٧٣/١ .

[٢] المفردات في غريب القرآن : ٤٥٦ .

[٣] مقاييس اللغة ، (شهد) : ٢٢١/٣ .

المسلمة على النّاس ، و(شهادة) النّبي على المسلمين ، قد تكون إشارة إلى الأُسوة والقُدْوَةِ ؛ لأنَّ الشاهد يُنتخَب من بين أزكى النّاس وأمثلهم ، فيكون معنى هذا التعبير القرآني أنَّ الأُمّة المسلمة نموذجيّة بما عندها من عقيدة ومنهج ، كما أن النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فرد نموذجيّ بين أبناء الأُمّة))[1].

٤ـ إضاعة معنى الفعل عند تضمينه معنى فعل آخر ، وليس في هذا كسب معنيين ، بل خسارة ما في اليد من معنًى بكلِّ ما يحمله من إيحاءات ، ولنتأمَّل في ما ذكره بعض المفسرين من تضمينٍ للفعل (راغ) لِنرى مدى الجور الذي جرَّه التضمين على المعنى وكيف أفقد التعبير رونقه وبهاءه ؟ ، قال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩١ ـ ٩٣] جاء في التحرير والتنوير : ((وفعل (راغ) معناه : حاد عن الشيء ، ومصدره الرَّوغ والروغان ، وقد أطلق هنا على الذهاب إلى أصنامهم مخاتلة لهم ولأجل الإشارة إلى تضمينه معنى الذهاب عدّي بـ (إلى) ... ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ وقد استعمل الفعل (راغ) هنا مضمّناً معنى (أقبل) من جهة مائلة عن الأصنام لأنَّه كان مستقبلها ثم أخذ يضربها ذات اليمين وذات الشمال)) [2] ، وجاء في الكشاف : ((﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ ﴾ فذهب إليها في خفية ، من روغة الثعلب ... ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فأقبل عليهم مستخفياً ، كأنَّه قال : فضربهم (ضَرْباً) لأنَّ راغ عليهم بمعنى ضربهم . أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً . أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً)) [3].

ولعلَّ التفكير في عدول التعبير من (فراغ إلى) إلى (فراغ على) هو الذي دفعهم نحو التحرّي عمَّا يبرّر اختلاف الحرف ، فلجأوا إلى تضمين الفعل في الحالتين ،

---

[1] الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل ، لناصر مكارم الشيرازي : ٤٠٧/١ ، وينظر : الميزان في تفسير القرآن ، للطباطبائي : ١٨٦/١ .

[2] التحرير والتنوير : ١٤٣/٢٣ ، وينظر : التفسير الوسيط ، لمحمد سيد طنطاوي : ٩٧/١٢ .

[3] الكشاف : ٥٠/٤ ، وينظر : البحر المحيط : ١١١/٩ .

فضمَّنوه معنى (ذهب) ليناسب (إلى) ، وضمَّنوه معنى (أقبل) ليناسب (على) ، وهم لا يشعرون بما يجرُّه هذا الصنيع من إلصاق المعنيين المتضادين بهذا الفعل ، وهو ما يجعله من الأضداد مع كونه ليس منها [١].

ولا ريب في أنَّ القدرة الدلاليَّة التي تكمن في الفعل (راغ) وما يقوم به السياق من تفجيرها لا يمكِّن الذائقة البيانية من القبول بهذا التضمين ، فأصل ((الروغ : الميل إلى الشيء بسرعة على سبيل الاحتيال . يقال : راغ فلان نحو فلان . إذا مال إليه لأمر يريده منه على سبيل الاحتيال)) [٢] وجاء في لسان العرب : ((راغ إلى كذا ، أَي : مالَ إليه سِرّاً)) [٣] ، وممَّا تقدَّم يظهر أنَّ راغ يدلُّ على أربعة أشياء مجتمعة هي : الميل والسرعة والاحتيال والسرية ، ولو وظَّفنا هذه المعطيات الدلاليَّة لظهر لنا الفرق بصورة جليَّة بين هذا الفعل والفعلين المضمَّنين ، فالفرق بين (راغ إلى) و(ذهب إلى) هو أنَّ (راغ إلى) : يدلُّ على انطلاقه (عليه السلام) باتجاه غير مراد ؛ ليخدع مَن خلفه بذلك ، ثمَّ ميله بسرعة نحو الهدف المقصود ، وتنفيذ المَهمَّة بضرب من الحيلة (تحطيم كلّ الأصنام ما عدا الصنم الكبير) وبسرية تامة . وهذا المعنى لا يُدلي به (ذهب إلى) ؛ لكونه يدلُّ على الانطلاق نحو الهدف المقصود لا غير .

أمَّا الفرق بين (راغ على) و(أقبل على) فيستدعي منَّا أن نتفكَّر في مشهد تحطيم الاصنام من قصة الخليل (على نبينا وآله وعليه السلام) لنظفر بنكتة قرآنية لطيفة ؛ إذ إنَّ هذا المشهد ورد في سورتين ، وعُرض بطريقتين من التعبير ، تتناسبان والسياق الواردتين فيه ، يقول عزَّ وجلَّ في سورة الانبياء : ﴿ **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الانبياء : ٥٧ ـ ٥٨] ويقول تعالى في سورة

---

[١] ينظر : أثر حروف الجر في ظاهرة الأضداد ، دراسة في معجم لسان العرب ، للدكتور محمد قاسم أسود ، مجلة ديالى ، جامعة ديالى ، العدد ٦٥ ، ٢٠١٥ م : ٣٩٧ .

[٢] التفسير الوسيط : ٩٧/١٢ .

[٣] لسان العرب . (روغ) : ٤٣٠/٨.

الصافات : ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩١ ـ ٩٣] وعند تسليط الضوء على الآية الأخيرة من كلِّ مشهد ، سنحسُّ بالتعانق بين معنييهما ، فقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ يوحي بالسرعة والدمار الكبير الذي حلَّ بالأصنام مع الحيلة التي فعلها (عليه السلام) بتركه كبيرهم ، وهذا هو ما يدلُّ عليه قوله تباركت أسماؤه : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ فالفعل (راغ) يدلُّ على تحطيم فيه حيلة ومكيدة ، واستعمال (على) يُشعِر باستيلاء إبراهيم (عليه السلام) واستعلائه على الاصنام ، وهيمنة الضرر وثقله الكبير عليها بحيث حولها إلى قطع صغيرة ؛ لامتلاء هذا الحرف بما يدلُّ على المشاق والثقل كما يقول ابن جني[١]، فإذا ضممنا المعنيين إلى بعضهما آخذين بالحسبان السرعة التي يوحي بها الفعل (راغ) والشدة التي تشع من الحرف (على) مع مؤازرة الضرب باليمين سنحصل ـ بلا شكٍّ ـ على المعنى الذي تنوء بحمله لفظة (جذاذاً) في المشهد الأول .

وبعد كلِّ هذا فقد اتضح معنى (راغ عليهم) وهو ما لا يفي به (أقبل على) : الذي لا يدلُّ على أكثر من التوجه نحو الاصنام والاستعلاء عليها [٢].

---

[١] ينظر : الخصائص : ٢٧٣/٢ .

[٢] ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٩٨/٧ .

مناقشة مذهب النيابة :

النيابة في حروف الجر تعني ((إسقاط حرف الجر من التركيب الجملي الذي يستدلُّ عليه من الأصل المفترض لهذا التركيب المستعمل الذي تقتضيه قواعد التركيب في العربية ، وإحلال حرف جر آخر محله في الاستعمال ، فيأخذ عنه كثيراً من خصائصه لا كلها ؛ لأنه ليس إيَّاه))(١).

والنيابة في حروف الجر هي مذهب أغلب الكوفيين (٢) ؛ لأنَّهم يجيزون تعدُّد معاني حرف الجر الواحد (٣) الأمر الذي يؤدِّي إلى التداخل بين معاني حروف الجر أحياناً ممَّا يلزم منه جواز التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من حرف واحد ، ((فإذا تقارب الحرفان ، فإنَّ هذا التقارب يصلح للمعاقبة وإذا تباين معناهما لم يجز . ألا ترى أنَّ رجلاً لو قال : مررت في زيد أو : كتبت إلى القلم ، لم يكن هذا يلتبس به فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز)) (٤).

والحقيقة أنَّ النيابة تعني وجود بنية عميقة واحدة مستوحاة من وجود الحرف في غير محلِّه المألوف ، ومثال ذلك :

شربتُ بـماء النهر ....(بنية سطحية) .

شربتُ من ماء النهر .... (بنية عميقة) .

ولمَّا لم يكن هذا التحويل منطوياً على نكتة دلالية ، حاول بعض المحدثين أن يُبرِّرَ ظاهرة النيابة في حروف الجر ، فالأستاذ عباس حسن ـ بعد استحسانه هذا

(١) النيابة والتضمين في حروف الجر في القرآن الكريم : ١٤ .

(٢) ينظر: الجنى الداني :٤٦، وحاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣١٢/٢ ، والنحو الوافي :٣٦١/٢ .

(٣) ينظر : النحو الوافي :٤١٨/٢.

(٤) الأصول في النحو ، لابن السرَّاج : ٤١٤/١ ـ ٤١٥ .

المذهب ـ ذهب إلى أنَّ النيابة من قبيل المشترك اللفظي ، يقول : ((لا غرابة في أن يؤدي الحرف الواحد عدَّة معان مختلفة . وكلُّها حقيقي ـ كما قلنا ـ ولا غرابة أيضاً في اشتراك عدد من الحروف في تأدية معنى واحد ، لأنَّ هذا كثير في اللغة ، ويسمى : المشترك اللفظي))[1] ، وبناء على ذلك فإنَّه ((لا سبيل للحكم القاطع بأنَّ معنى معيناً منها أسبق في الاستعمال من معنى آخر ، وإذاً لا سبيل للحكم الوثيق بأنَّ واحداً من تلك المعاني هو وحده الحقيقي وأنَّ ما عداه هو المجازي أو التضميني)) [2].

وأمَّا الدكتور فاضل السامرائي فمع أنَّه يرى أنَّ الأصل عدم النيابة إلا أنَّه فسَّر التناوب بين حروف الجر بقوله : ((حرف الجر قد يستعمل في العربية لأكثر من معنى ... وقد تقترب المعاني من بعضها ، أو يتوسَّع في استعمال المعنى فيستعمل بعضها في معنى بعض أو قريب منه)) [3] وهو بهذا التوجيه يتابع الكوفيين في تعدد معاني الحرف الواحد إلَّا أنَّه يوجِّه التناوب بينها وفق ما قال به البصريون من المجاز على سبيل الاستعارة[4] ، يقول : ((قد يقترب معنيان أو أكثر من معاني الحروف ، فتتعاور الحروف على هذا المعنى))[5].

ويبدو أنَّ سهولة هذا المذهب وابتعاده عن التعسُّف ـ كما يقول السيوطي (ت ٩١١هـ) [6] ـ هو الذي جعل الكوفيين ومَن تابعهم يتمسَّكون به ، ومع ذلك فهو لم يحظَ برضا جميع النحويين ، كالخليل (ت ١٧٥هـ) وسيبويه (ت ١٨٠هـ) كما نقل ذلك

---

[1] النحو الوافي : ٢/٤٢٠ .

[2] المصدر نفسه : ٢/٤٢٠ .

[3] معاني النحو : ٣/٧ .

[4] ويلاحظ أن ركني الاستعارة ـ هنا ـ متحققان : فالصلة بين معنيي الحرفين موجودة (التقارب) والقرينة المانعة متوفرة (اللفظ الذي يتطلب الحرف المستعار له)

[5] المصدر نفسه : ٣/٧ .

[6] ينظر : همع الهوامع : ٢/٤٦٣ ، وتيسيرات لغوية ، للدكتور شوقي ضيف : ٨٦ ، وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى إلى أنَّ أكثر النحويين ـ بعد ابن جنِّي ـ رجَّح مذهب النيابة .

عنهم أبو حيان [١] فضلاً عن إنكار بعض الباحثين المحدثين له ، يقول الدكتور محمد الأمين الخضري : ((وهذا منهم ميل إلى الأيسر من القول ، بدلاً من البحث في أغوار النُّصوص لالتماس الفروق بين معاني الحروف ، وما تضفيه على سياقها من دلالات خاصَّة تكشف عنها أغراض النظم ودواعيه)) [٢] وهذا الاختلاف بين النحويين استدعى منَّا التأمُّل في معطيات مذهب النيابة والتبيُّن من صحتها ، وتسجيل الملاحظات الآتية عليها :

١ـ إنَّ هذا المذهب فيه إهمال كبير لجانب المعنى ؛ فالعدول من حرف إلى آخر لا بدَّ أن يرافقه عدول في المعنى[٣]، وتفسير الحرف المذكور بحرف آخر يؤذِن بإلغاء دلالته والقضاء على إيحائه ، ويكفي في التدليل على ذلك ما تعجُّ به الكتب التي تناولت حروف المعاني من أمثلة لم يسلم منها حتى الكلام المعجِز ، جاء في مغني اللبيب في معرض كلامه عن معاني اللام : ((والثامن: موافقة إلى ، نحو قوله تعالى : ﴿ **بأنّ ربَّكَ أوحى لها ...**﴾ [الزلزلة : ٥]))[٤] أ وَليس القول بالنيابة جناية على استعمال (اللام) مع الفعل (أوحى) في هذه المرة الوحيدة في القرآن كلِّه على الرغم من أنَّه ذكر (إلى) مع هذه المادة في تسعة وستين موضعاً [٥]؟!

٢ـ عدم صلاحية النيابة لتفسير جميع الموارِد التي يُدَّعى فيها ذلك ، فكيف تُقبَل وهي تصلح في مورد ولا تصلح في المورد المشابه ؟! فالفعل نصر ـ مثلاً ـ عندما يتعدَّى بالحرف (من) ، فلنا أن نقول : إمَّا أنَّه يتعدَّى بـ (على) فقط ؛ فتُفسَّر (مِن) بـ (

---

[١] ينظر : البحر المحيط : ١١٣/١ .

[٢] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٣٣٣ ، وينظر : التضمين النحوي في القرآن الكريم ، د. محمد نديم فاضل : ٢٦/١ .

[٣] ينظر : البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب : ٢٨٦ .

[٤] مغني اللبيب : ١/ ٢٨٠ .

[٥] ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي : ٨٥٦ ــ ٨٥٧ .

على) في الموارد كلِّها ، وإِمَّا أنَّه يتعدَّى بالحرفين ، ولا داعي للقول بالنيابة في الموارد كلِّها ، ولكنَّ تبعيض القول يشير إلى خلل في القاعدة ، ولنتبيَّن ذلك فيما قاله بعض المفسرين في آيتين ورد فيهما الفعل (نصر) متعدياً بـ (مِن) ، يقول السمرقندي (ت ٣٧٣هـ) : ((وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ، أي : على القوم))[١] ويقول : ((فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ، يقول: فمن يمنعني من عذاب الله إن رجعت إلى دينكم ، وتركت دين الله تعالى؟)) [٢] ، ولنا أن نسأل القائلين بالنيابة ، هل يجوز لنا أن نقول : إنَّ (من) في الآية الثانية بمعنى (على) ؟ ولا ريب أنَّ مَن لديه أدنى معرفة سيدرك ما في هذا التأويل من قلب للدلالة وتغير للمقصود ؛ إذ يصير المعنى : مَن ينصرني على الله ، وهو غير مراد قطعاً [٣].

٣ـ إنَّ القول بالنيابة والتسليم به ، وعدّه نظرية تنطبق على كلِّ كلام عربي ـ كما يظهر ذلك من تطبيقها على التعبير القرآني ـ يُلغي قصدية الأديب البارع في اختيار الحرف اختياراً لا يسدُّ محلَّه حرفٌ آخر ، وهذا الأمر يحطُّ من منزلة المتكلم الحاذق ويجعله في مصافّ المتكلم العامِّي الذي لا يُدرِك أسرار اللغة ، فضلاً عن أنَّه يهبط بالأسلوب المعجز الذي يشعُّ بمختلف الدلالات إلى مستوى التعبير العادي الذي لا يتوخى قائله أكثر من الدِّلالة العامَّة غير آبهٍ بالفروق وانحراف الدِّلالة ، وهذا ما ألمح إليه الزجاج (ت ٣١١هـ) بقوله : ((والحروف قد تقاربت في الفائدة ، فَيَظن الضعيف العِلم باللغة أنَّ معناهما واحد)) [٤].

---

[١] بحر العلوم : ٤٣٣/٢ ، وينظر : جامع البيان في تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر الطبري : ١٨ /٤٧٤ .

[٢] بحر العلوم : ١٥٨/٢ ، وينظر : جامع البيان في تأويل آي القرآن : ٣٧١/١٥ .

[٣] ينظر : التضمين النحوي وأثره في المعنى ، للدكتور هادي أحمد فرحان الشجيري ، مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية ، العدد ٣٠ ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م : ٣١١ .

[٤] معاني القرآن وإعرابه ، لأبي إسحاق الزجاج : ٤١٦/١ .

٤ـ إنَّ عدد المعاني للحرف الواحد يتنامى بشكل مستمر تبعاً لاستظهار القائلين بها ، وهذا يؤدِّي إلى فوضى لغوية تختلط فيها الدلالات وتضيع فيها المعاني ، ويكفي في التدليل على ذلك أن نقارن بين ما ذكره الهروي وما ذكره ابن هشام ، فـ (إلى) تدلُّ على ثلاثة معانٍ عند الهروي [١] في حين أنَّها تدلُّ على ثمانية معانٍ عند ابن هشام [٢] ، و (في) لها ستة معانٍ عند الهروي [٣] في حين أنَّها تدلُّ على عشرة معانٍ عند ابن هشام [٤] ، وهكذا الأمر في بقيَّة الحروف .

التعاضد الدلالي بين حرف الجر وسياقه :

بعد كلِّ ما تقدَّم فإنَّه لا يمكننا القبول بالمذهبين كليهما ، ولا سيَّما في النُّصوص الدِّينيَّة التي تتَّصف بالقصديَّة التَّامَّة ، وتنبع من متكلم عارف برموز اللغة ودفائنها كأمير المؤمنين (عليه السلام) ، كيف لا وهو القائل : ((**وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ**)) [٥] ، ولكنَّ عدم القبول بالمذهبين لا يحلُّ المسألة ولا يُعفينا من البحث عن تفسيرها وفق رؤية شمولية في المعالجة تتجاوز الإشكالات السابقة وتُبنى على قاعدة رصينة ؛ لذا سنتكئ في ذلك على ثلاث مقدِّمات يُسلِّم بها جمهور النحويين ؛ للتوصُّل إلى قول يمكن التعويل عليه في الكشف عن أسرار هذه الظاهرة :

المقدمة الأولى : من المُسلَّم به أنَّ السياق له سلطة كبيرة في توجيه المعنى ؛ لأنَّ ((الأغلبية العظمى من التعبيرات الإشارية في اللغات الطبيعية معتمدة على السياق بطريقة أو بأخرى))[٦] ، فالسياق هو المفتاح لما انغلق عليه الحرف من معنى يُظهِر

---

[١] ينظر : كتاب الأزهية في علم الحروف ، لعلي بن محمد النحوي الهروي : ٢٧٢ .

[٢] ينظر : مغني اللبيب : ٢٧/١ .

[٣] ينظر : كتاب الأزهية في علم الحروف : ٢٦٧ .

[٤] ينظر : مغني اللبيب : ٢٢٣/١ .

[٥] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٥٤ .

[٦] اللغة وعلم اللغة ، لجون ليونز : ٢٣٢ .

منه بالمقدار الذي يحقق مراد المتكلم الحاذق ((إذ إنَّ الكلمة توجد في كلِّ مرَّة تُستعمَل فيها في جوٍّ يحدِّد معناها تحديداً مؤقتاً ، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلَّ عليها)) [١].

المقدمة الثانية : تشترك حروف الجر في الربط بين مكونات السياق ، وإيجاد النسبة بين مدخولها ومتعلقها ، ويشهد لدلالة الحرف على الربط ما عبّر عنه الخليل وسيبويه بالإضافة ، جاء في الكتاب : ((قال الخليل : إنّما تجيْ بهذه الحروف ؛ لأنَّك تضيف حلفك إلى المحلوف به)) [٢] ، ويقول سيبويه : ((وأمَّا الباء وما أشبهها ، فليست بظروف ولا أسماءٍ ، ولكنَّها يضاف بها إلى الاسم ما قبله أو ما بعده . فإذا قلتَ : يا لَبَكْرٍ ، فإنَّما أردت أن تَجعل ما يَعمل في المُنادَى من الفعل المضمر مُضافا إلى بكرٍ باللام . وإذا قلتَ : مررتُ بزيدٍ ، فإنَّما أضفتَ المرورَ إلى زيد بالباء ، وكذلك هذا لِعبدِ الله . وإذا قلت : أنت كعبدِ الله ، فقد أضفتَ إلى عبد الله الشبَهَ بالكاف. وإذا قلت : أخذتُه من عبدِ الله ، فقد أضفتَ الأَخذَ إلى عبد الله بِمن ...)) [٣] ، وفي قولنا : سرتُ من البصرةِ إلى كربلاءَ ، تقوم (من) و (إلى) بوظيفة الربط بين الفعل والاسم وتوجِد النسبة بينهما ، فباستعمال حرفي الجر استطعنا أن نفهم أنَّ (البصرة) هي نقطة ابتداء السير ، وأنَّ (كربلاء) هي نقطة انتهائه [٤] .

المقدّمة الثالثة : من المسلَّم به عند جمهور النحويين أنَّ الحرف ليس له معنى في نفسه بل يتضح المراد منه عندما يحلُّ في السياق ، فحينئذٍ يُفصح عن مكنونه ويُسفر عن المراد منه ، يقول ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) : ((والحرف كلمة دلّت على معنى في

---

(١) اللغة ، لفندريس : ٢٣١ .

(٢) الكتاب ، لسيبويه : ٤٩٧/٣ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٢٠/١ ـ ٤٢١ .

(٤) ينظر : اللامات ، دراسة نحويَّة شاملة في ضوء القراءات القرآنية ، د. عبد الهادي الفضلي : ٦١ .

غيرها)) [١] ، وهذا يؤكِّد لنا حقيقة مهمَّة ، هي أنَّ معنى الحرف هو معنى وظيفي يُعبِّر عن علاقات في داخل السياق ، ولا ريب في أنَّ التعبير عن العلاقة هو معنى وظيفي لا معجمي ، فلا بيئة للحروف خارج السياق ؛ لأنَّ الحروف ذات افتقار متأصّل إلى الضمائم ، أو بعبارة أخرى : ذات افتقار متأصل إلى السياق [٢] .

ومع كلِّ ما تقدَّم فإنَّنا لا ننكر ما ذهب إليه الأستاذ عباس حسن من أنَّنا لا نستطيع أن نجزم بأسبقية أحد معاني حرف الجر ـ لو سلَّمنا بوجودها ـ ؛ لأنَّه مستعمل فيها جميعاً ، ولا سبيل لمعرفة تاريخ الألفاظ لنعرف الأصل والفرع ، ولكنَّ هذا الأمر لا يَسدُّ الطريق أمام التعرُّف على المعنى الرئيس للحرف ؛ إذ كلَّما زادت القرائن الدَّالة على ذلك المعنى زادت احتمالية أصالته الى حدٍّ يجعل احتمالية المعاني الأخرى ضئيلة جداً ، ولعلَّ هذا الأمر هو الذي دعا البصريين الى القول بدلالة الحرف على معنى واحد ، ومن تلك القرائن :

أ ـ ما نجده من تفاوت دلالي في معاني الحرف الواحد ـ إن سلَّمنا بتعدد المعاني ـ فدلالة الحرف على المعاني المستعمل فيها ليست دلالة متساوية وبالقوة نفسها ؛ لأنَّ واحداً منها يتبادر الى الذهن على طول الخط ، والتبادر علامة الحقيقة كما تقرَّر في محله [٣].

ب ـ إنَّ كثرة استعمال الحرف في معنًى ما أكثر من غيره من المعاني تكشف عن كون دلالته على ذلك المعنى هي الدلالة الأصلية ؛ لكونها مأنوسة للذهن ؛ لأنَّها تقفز

---

[١] شرح المفصل ، لابن يعيش : ٤٤٧/٤ ، وينظر : نتائج الفكر في النَّحو ، لعبد الرحمن بن عبد الله السُّهَيلي : ٥٩ ، واللامات ، د. عبد الهادي الفضلي : ٥٦ ، وقد عرض الدكتور الفضلي الآراء النحوية والأصولية بشأن معنى الحرف مشيراً إلى أنَّ معنى الحرف في غيره هو الرأي المشهور ، مع أنَّ الفضلي يتبنى رأياً آخر ، ذكره في (ص ٦٣) خلاصته أنَّ جميع الحروف تدلُّ على معنى في نفسها إلا حروف الجر فهي تدلُّ على معنى في غيرها .

[٢] ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسَّان : ١٢٧ .

[٣] ينظر : المعجم الأصولي ، لمحمد صنقور البحراني : ٤٣٦/١ .

إلى الذهن بمجرد سماع ذلك الحرف ، فهي تحتل المرتبة الأولى التي لا يُحتاج معها إلى مؤنة زائدة ، وقد أشار النحويون إلى هذه الحقيقة ؛ تبعاً لاستقرائهم الكلام العربي ، يقول المالقي في بيان معنى الملاصقة لباء الجر : ((وهذا المعنى في كلام العرب في الباء أكثر من غيره فيها ...)) [١].

ومثلما يأنس الحرف بمعنى ما لكثرة استعماله فيه فإنَّ السياق قد يأنس بحرف ما ويتطلبه أكثر من غيره ؛ لوجود ما يكثر استعمال الحرف معه كالفعل الذي يتعدى بذلك الحرف ، فإذا ذُكر ذلك الفعل في السياق استشعر المتلقي الحرف المناسب له ، وليس هذا الأمر مقتصراً على المتلقي وحسب ، بل إنَّ المتكلم نفسه إذا جاء بفعل يتعدى بحرف معيَّن ووصل إلى محل ذلك الحرف سبق لسانه الى النطق بذلك الحرف . فالسياق بما فيه من قرائن له رأيه في الحرف المختار؛ لذا كثرة الاستعمال تُنشِئ علاقة قوية بين الطرفين تصلُّ الى حدٍّ الوضع[٢]، وهذا التلاصق الناشئ عن الاستعمال له نظائر في العربية ، فالمعنى المجازي ـ مثلاً ـ عندما يشتهر في معناه الجديد لكثرة استعماله فيه يتحول إلى حقيقة يصطلح عليها (الحقيقة العرفية) [٣] .

ج ـ إنَّ هذا المعنى الرئيس يلازم الحرف ولا يفارقه حتَّى فيما قيل من دلالته على معانٍ أُخر ، بخلاف تلك المعاني التي تبدو كأنَّها طارئة تنبو عن الحرف وتنفصل عنه بوجود أدنى تأثير ، وقد ألمح ابن يعش إلى هذا الأمر في أثناء حديثه عن الحرف (مِن) يقول : ((إن ابتداء الغاية لا يُفارِقها في جميع ضروبها)) [٤] بل يبقى الحرف

---

[١] رصف المباني ، للمالقي : ١٤٤ .

[٢] يطلق الأصوليون على هذا الوضع مصطلح (الوضع التعيُّني) ويعرفه الشيخ محمد صنقور البحراني في كتابه (شرح الأصول من الحلقة الثانية :١٦٨/١) بقوله : ((ما يكون تحقّقه اتفاقياً بحيث يكون ناشئاً عن كثرة استعمال لفظ في معنى فينتج عن هذه الكثرة في الاستعمال أنس ذهني يوجب الانتقال من اللفظ إلى المعنى)) .

[٣] ينظر : الطراز ، ليحيى بن حمزة العلويّ : ٣٠/١ .

[٤] شرح المفصل : ٤٦١/٤ .

ملازماً لمعناه الأصلي حتى لو استُعمل في باب آخر ، ومعناه الأصلي هو المسوغ لاستعماله في هذا الباب ، يقول الانباري (ت ٥٧٧هـ) : ((فإن قيل : فَلِمَ حُملت (حتَّى) على الواو؟ قيل : لأنَّها أشبهتها ، ووجه الشبه بينهما أنَّ أصل (حتَّى) أن تكون غايةً ، وإذا كانت غايةً ، كان ما بعدها داخلاً في حكم ما قبلها ألا ترى أنَّك إذا قلت: جاءني القوم حتى زيدٌ ، كان زيد داخلاً في المجيء ، كما لو قلت : جاءني القوم وزيدٌ ، فلمّا أشبهت الواو في هذا المعنى ؛ جاز أن تُحمل عليها فإن قيل: فَلِمَ إذا كانت عاطفة وجب أن يكون ما بعدها من جنس ما قبلها ولا يجب ذلك في الواو؟ قيل : لأنَّها لَمّا كانت الغاية والدِّلالة على أحد طرفي الشيء ، فلا يتصور أن يكون طرف الشَّيء من غيره ، فلو قلت: جاء الرجال حتى النساءُ لجعلت النِّساء غاية للرجال ومنقطعًا لهم ، وذلك محال)) [1] ، ومن هنا يمكننا أن نرجِّح قول البصريين في دلالة حرف الجر على معنى واحد ، يتمثَّل بالمعنى الذي يكثر استعماله فيه ؛ لأنَّه عند التعارض بين معنيين أحدهما مجمع عليه والآخر مختلف فيه فالأول أولى ، وحتَّى لو تنزلنا وسلَّمنا بأنَّ المعاني الأخرى غالبة ، فالتعارض بينها وبين المعنى الأصلي يوجب الأخذ بالمعنى الأصلي [2] .

---

[1] أسرار العربية ، لأبي البركات الأنباري : ١٩٧- ١٩٨ .

[2] ينظر : الاقتراح في أصول النحو ، لجلال الدين السيوطي : ١٤٨ ((المسألة الثامنة : في تعارض الأصل والغالب) ، ١٥١ (المسألة الثانية عشرة : المجمع عليه أولى من المختلف فيه) .

الخلاصة :

ممَّا تقدَّم يظهر لنا أنَّه كلَّما زاد استعمال الحرف في معنى ما زاد الارتباط والتداعي بينهما حتَّى يصبح ذلك المعنى هو المعنى الأوحد للحرف ، وما توهمه بعض النحويين من تعدُّد المعاني فهو نتيجة طبيعية لتأثُّر معنى الحرف بمعنى السياق ، فالتعدُّد في استعمال الحرف في سياقات مختلفة يوقع الحرف تحت تأثير دلالة السياق ممَّا يؤثِّر في معناه الملازم له ، إلَّا أنَّه مهما قوي تأثير السياق فلا يمكن أن ينسينا معنى الحرف المطَّرد ؛ إذ تبقى رائحة ذلك المعنى ملازمة للحرف مختلطة بما يلقيه السياق من دلالات .

ولو أخذنا بهذه الأمور مجتمعة فسنجد أنَّ دلالة الحرف نابعة من التفاعل بين السياق ومعنى الحرف الملاصق له ، فإذا تطابقا أدلى الحرف بكلِّ معناه ، وإن لم يتطابقا كان لكلٍّ منهما نصيبه من المعنى ، ولتوضيح ذلك نقف عند قوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] ، وقد تأوَّل أغلب المفسرين حرف الظرفية على النيابة عن حرف الاستعلاء ، فيكون المعنى : لأصلِّبَنَّكم على جذوع النخل[١] ، أمَّا إذا أردنا أن نفسِّر هذه الظاهرة على طريقة التضمين ((وهو هنا تضمين فعل : (لأُصَلِّبنكم) معنى فعل آخر يتعدّى بحرف الجرّ (في) فعُدِّي تعديته ، وأصل الكلام : لأصلِّبنَّكم على جذوع النَّخل ولأُثَبّتَنَّكُم فيها بالمسامير التي تَدخُل في الجذوع ، فنابت التعدية بحرف الجرّ (في) مناب ذكر الفعل الذي حُذِف ، وضُمِّن الفعل المذكور معناه))[٢] وكِلا التأويلين ترد عليه الإشكالات السابقة ، أمَّا لو حلَّلنا التعبير المستعمل في الآية الكريمة فسيظهر لنا ما يأتي :

---

[١] ينظر : التفسير الوسيط : ٩/١٢٧ ـ ١٢٨ .

[٢] البلاغة العربية ، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة : ٢/٢٣٩ .

أوّلاً : لو تأمّلنا دلالة الحرف (في) ، فسنجد أنَّه حرف جرٍّ يكثر استعماله في معنى الظرفية[1] ، وهذا المعنى يتجلَّى بصورة تامة في السياق الذي يتطلَّب الظرفية ، نحو : الماء في الكوز . فـ (الماء) مظروف ، و(الكوز) ظرفه ، و(في) تدلُّ على تغلغل المظروف في ظرفه واستقراره فيه .

ثانياً : لو نظرنا الى جانب السياق فسنجد أنَّ الفعل (أُصلِّب) يتعدَّى في أكثر استعمالاته بالحرف (على) ؛ لأنَّ المصلوب يعلو الشجرة ويكون على سطحها ، وهذا الأمر هو الذي أغرى أكثرهم بالقول بنيابة (في) عن هذا الحرف دون غيره ، الأمر الذي يكشف عن ترجيح مذهب النيابة لمعنى السياق على معنى الحرف ، وهذا ما أشار إليه بعض الباحثين بقوله : ((ويظل رأي الكوفيين ومن تبعهم في قولهم بنيابة الحروف عن بعضها ... أقرب إلى مراعاة دور السياق في تحديد الحرف ، وفي طريقة تعدية الفعل)) [2].

فإذا جيء بالحرف (في) في سياق يكثر فيه استعمال الحرف (على) ، تجاذب الدِّلالةَ الطرفان حتَّى ينتهي الأمر بأن يخلع كلُّ واحد منهما على صاحبه شيئاً من معناه فيذوب النتوء الدلالي بينهما ، ويظهر المراد في حُلَّة أجمل من ذي قبل توحي بفخامة ما تحتها من مولود جديد ، ففي هذه الآية الكريمة يظهر جليَّاً أنَّ الدِّلالة يتنازع عليها طرفان : الأول : السياق المتمثل بـ (الصلب ، جذوع النخل) وهو ما يتطلب الحرف (على) . والآخر : الحرف (في) ودلالته على كون (المصلوب) مظروفاً ، و(الجذوع) ظرفاً له ، فالسياق يجرُّ المعنى إلى أعلى الجذع ، وجعل المصلوب مستعلياً عليه في حين أنَّ (في) تجرُّ المعنى إلى داخل الجذع وتجعل المصلوب متغلغلاً فيه .

---

[1] ينظر: رصف المباني : ٣٨٦ ، و همع الهوامع : ٢/٤٤٦ .

[2] دور الحرف في أداء معنى الجملة ، للصادق خليفة راشد : ٢١٣ .

وبناءً على ما تقدَّم من تفسير لهذه الظاهرة ؛ فإنَّنا لا نعطي الدِّلالة كلَّها للحرف (في) فيكون المعنى : في داخل جذوع النخل ، وهو ما يتعارض ومعنى الصلب الذي يكون على الجذوع لا فيها ، ولا نعطي الدِّلالة كلَّها للسياق ونلغي دلالة الحرف (في) ونجعله بمعنى (على) فنخسر بذلك إيحاء الظرفية والاستقرار ، بل نسلك الطريقة الوسطى ، فنعطي جزءاً من الدِّلالة للسياق ، وجزءاً للحرف (في) ؛ فينتج عن هذا التركيب أن تتخفَّف دلالة كلٍّ منهما وتتشرَّب في دلالة الآخر لتثمر ثمرة تحمل صفات الأصلين ، فيكون المعنى ـ والله أعلم ـ أنَّهم يُشدُّون على الجذوع شدًّا قوياً جداً ، فيتوارى لشدته جزءاً من أبدانهم في الجذع مع صلبهم بطريقة تجعلهم يعالجون الموت لفترة طويلة وإبقائهم ملتصقين بالجذوع لفترة أطول فتكون الجذوع لهم بمنزلة القبور ، ويؤيِّد هذا المعنى ما نجده من صيغة التفعيل في الفعل (أصلِّب) الدالة على التكثير[1]. وبهذا يتَّضح أنَّ القول بالنيابة أو التضمين يُفقِّد التعبير كلَّ الظلال المعنوية التي نتجت عن الاندماج الدلالي بين الحرف والسياق .

وبعد أن توضَّح لنا مفتاح ظاهرة وقوع الحرف في غير موضعه ؛ فقد تسنَّى لنا الآن أن نغوص ـ استناداً إلى هذه النظرة ـ في بحر نهج البلاغة لنستخرج اللآلي التي لم ترَ النور بعد .

ولا بُدَّ من الاشارة ـ هنا ـ إلى أنَّ الموارد التي تنطوي على أسرار تعبيرية مرتبطة بحروف الجر في نهج البلاغة فُسِّرت على أساس مذهب النيابة أو التضمين ، مع ملاحظة أنَّ شُرَّاح النهج تأوَّلوا أكثرها وفق مذهب النيابة ، أمَّا مذهب التضمين فلم يحظَ إلَّا بالقليل منها ؛ وبهذا سيُقدِّم المنهجُ المختارُ في تأويلها قراءةً جديدةً تُسهم في الكشف عن بعض جواهر التعبير بحرف الجر في نهج البلاغة .

---

[1] ينظر : الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس : ١١٤ ، و ارشاد العقل السليم : ٢٩/٦ ، ومن أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ١٢٧ ـ ١٢٨، والجملة العربية والمعنى : ١٧٨ .

ومن الجدير بالذكر أنَّ بعض أحرف الجر لم ترد في نهج البلاغة ، وهي : (خلا ، وعدا ، وحاشا ، ومنذ ، ومذ) [1]، والطريف ـ هنا ـ أنَّنا لم نجد هذه الأحرف في القرآن الكريم أيضاً .

[1] أشار صاحب الكلِّيات إلى عدم ورود (مذ ، منذ) في القرآن الكريم ، جاء في (الكليات ، لأبي البقاء الحنفي : ٨٠٣) : ((والقُرْآن العزيز على كَثْرَة جملَته وغزارة تأليفاته لم يَأتِ فيهِ (مُذْ) و (مُنْذُ))) ، وأشار الباحث عبد الواحد خلف وساك آل عجيل في أطروحته (حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية) إلى عدم ورود أحرف الجر (خلا ، وعدا ، وحاشا ، ومنذ ، ومذ) في نهج البلاغة ، ينظر : حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية ، (أطروحة دكتوراه)) ، جامعة البصرة ،كلية الآداب ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م : ١٠ .



أسرار التعبير بأحرف الجرِّ الأحاديَّة في نهج البلاغة

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأوَّل : أسرار التعبير بحرف (الباء)

المبحث الثاني : أسرار التعبير بحرف (الكاف)

المبحث الثالث : أسرار التعبير بحرف (اللام)

الفصل الأوَّل

أسرار التعبير بأحرف الجرِّ الأُحاديَّة في نـهج البلاغة

المبحث الأوَّل

أسرار التعبير بحرف الباء

الباءُ حرفُ جَرٍّ مبنيٌّ على الكسر، يدخل على الظَّاهر والمُضمَر ، واختُصّ بالبناء على الكسر ؛ لأنَّه في كلِّ مواضعه يَجُرُّ ، فجُعلت حركته من جنس عمله[1] ، ويرى المبرد (ت ٢٨٥هـ) أنَّ علَّة بنائه على الكسر مرتبطة بعدم الخوف من الالتباس ، يقول : ((لأَنَّ الباء لا يشركها مثلها فتخاف لبساً ، فبِنيتُها أَبداً الكسر مَعَ الظَّاهر والمضمر ، تقول : مررتُ بِزيدٍ وبِك وبِه وبِهم)) [2].

ولا تكاد الباء ـ عند أئمة النحويين ـ تفارق الاستعمال في معنى الإلصاق ، ولهذا الأمر أرجع كثير من المحقِّقين سائر معاني الباء إلى معنى الإلصاق ، بل جعلوه معنًى لا يفارقها ، وإن انجرَّت معه معانٍ أخرى [3] ، يقول سيبويه : ((وباء الجر إنَّما هي للإلزاق والاختلاط ، وذلك قولك : خرجت بزيدٍ ، ودخلت به ، وضربته بالسوط : ألزقت ضربك إيَّاه بالسوط . فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله)) [4] ، وهذا الاتساع ـ كما ألمح العكبري (ت ٦١٦هـ) ـ يعود إلى مشابهة تلكم المعاني لمعنى الإلصاق ، يقول : ((وأمّا (الباء) فللإصاق في الأَصل وتستعمل في غيره على التَّشبيه

---

[1] ينظر : اللمحة في شرح الملحة ، لابن الصائغ : ٢٤٠/١ ـ ٢٤١ .

[2] المقتضب ، للمبرد : ٢٥٥/١ .

[3] ينظر : الجنى الداني : ٤٦ .

[4] الكتاب : ٢١٧/٤ .

بالإلصاق ، كقولك : مررت بزيد ، أَي : حاذيته والتصقت به ، وتقول : أُخِذ بذنبه ، أَي: ذنبه سبب لذلك ، والسَّبب يلازمه حكمه غَالِباً ، والملازمة تقرب من الإلصاق))[١].

وذهب بعض النحويين إلى تعدُّد معاني الباء وفقاً للسياق الذي ترد فيه ، وهذا يعتمد بالدرجة الرئيسة على ما يستظهره كلُّ واحد منهم ، وهو ما أدَّى إلى الاضطراب في عدد معانيها ، فالمرادي ذكر لها ثلاثة عشر معنًى[٢] ، في حين أوصلها ابن هشام الأنصاري في أوضح المسالك الى اثني عشر معنًى[٣] ، وفي مغني اللبيب إلى أربعة عشر معنًى[٤].

ويبدو أنَّ الشواهد الواردة في نهج البلاغة تؤيِّد القائلين بدلالة الباء على الإلصاق ، أمَّا ما قيل من معانٍ أخر ، فمردُّه إلى أنَّ دلالة الإلصاق قد تتأثر ـ أحياناً ـ بالسياق الذي ترد فيه الباء ممَّا يوهم تغيُّر دلالتها ، وانتقالها عن معناها .

والحقيقة أنَّ هذا التلاقح بين معنى السياق ومعنى الباء يفتح للأديب البارع مجالات دلاليَّة تمكِّنه من الاستعمال الدقيق لحرف الباء ، وتوظيفه في إنشاء الدلالات النسبية الممكنة للإلصاق بالاستفادة من تأثير امتزاج معنى الإلصاق بالسياقات المختلفة ، ممَّا يجعل الباء موشوراً يرينا ألواناً مختلفة ، يظهر من خلالها الدفين من أسرار هذا الحرف وايحاءاته .

وما أروع وأكثر ما جاء في نهج البلاغة من استعمال للباء في معنى الإلصاق كقوله (عليه السلام) : ((**سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَ مَجْلِسِكَ وَ حُكْمِكَ وَ إِيَّاكَ وَ الْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ**

---

(١) اللباب في علل البناء والإعراب ، لأبي البقاء العكبري : ٣٦١/١ .

(٢) ينظر : الجنى الداني : ٣٦ .

(٣) ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لابن هشام : ٣١/٣

(٤) ينظر : مغني اللبيب : ١٣٧/١ .

الشَّيْطَانِ)) [(١)] فالفعل (سَع) : فعل أمر مأخوذ من وَسِعَ يَسَعُ ، و ((الْوَاوُ وَالسِّينُ وَالْعَيْنُ : كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الضِّيقِ وَالْعُسْرِ))[(٢)] ، ودلالة (الـ) الجنسية في لفظة (الناس) تتناغم مع مفهوم السّعة في الفعل ؛ إذ تُشير إلى عدم الاقتصار على بعض الناس بهذه السّعة ، بل مساواتهم فيها ، لا يختصُّ شيء من الثلاثة بجماعة خاصة كما يفعل المتجبّرون ، وبهذا لا يتحقق الخروج من عهدة الأمر بسعة الوجه والمجلس والحكم إلَّا بالمساواة بين الناس في بسط الوجه لهم من غير عبوس فيه ولا قطوب ، ومساواتهم في تقريبهم منه في المجلس ، ومساواتهم بالعدل وترك الميل لبعضهم[(٣)].

وأمَّا الباء في (بوجهك) فهي للإلصاق[(٤)] ، ويبدو أنَّه جيء بالباء لتكون السّعة منسوبة إلى الوجه والمجلس والحكم ، فيتضافر الحرف وسياقه في انتاج الدِّلالة ، فالسياق يدلي بطلب السّعة للناس في الوجه والمجلس والحكم ، والباء تجعل السّعة ملتبسة بهذه الثلاثة وملتصقة بها لا تفارقها في أيِّ وقت ، فكأنَّ الأمرَ متوجِّه إلى جعل السعة صفة لوجه الوالي ومجلسه وحكمه ، وهذا المعنى لا يُتحصَّل بدون الباء ، فلو قيل : أوسع للناس وجهَك ومجلسَك وحكمَك . لَفُهِم منه الدِّلالة على الأمر بالسّعة من غير جعلها صفة للمأمور .

وممَّا يلفت النظر ما نجده من تشبُّع بعض السياقات بدلالة الإلصاق ، الأمر الذي يجعل كلَّ معنًى فيها آخذاً بطرف المعنى الآخر ، يقول (عليه السلام) : ((الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ)) [(٥)] ومجيء الباء للإلصاق[(٦)] في

---

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٦٥ . والطيرة : ما يستطار له الإنسان . ينظر : مقاييس اللغة . (طير) : ٤٣٦/٣ .

(٢) مقاييس اللغة . (وسع) : ١٠٩/٦ ، وينظر : لسان العرب . (وسع) : ٣٩٢/٨ .

(٣) ينظر : حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة ، لمحمد بن الحسين البيهقي : ٢/ ٥٩٥ ، و توضيح نهج البلاغة ، للسيد محمد الشيرازي : ٢٥٣/٤ ، و شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار ، للمجلسي : ٣١٧/٣ .

(٤) ينظر : في ظلال نهج البلاغة ، لمحمد جواد مغنية : ٢٠٠/٤ .

(٥) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٧٧ .

(٦) ينظر : منهاج البراعة ، لحبيب الله بن محمد الخوئي : ٨٧/٢١ .

هذه المواطن الثلاثة يوحي بشدَّة الاتصال بينها ، وملازمة بعضها لبعض ، فالنجاح والظفر ملتصقان بالحزم الذي هو ضبط الأمر وإتقانه[1] ، والحزم ملتبس بإجالة الرأي ؛ لأنَّ الرأي المُتقَن لا يتحقَّق إلَّا بعد تقليب الأمور ظهراً لبطن ودراسة الآراء والاحتمالات وسدِّ المنافذ التي يمكن أن تكون غير صحيحة ، واختيار أفضل الآراء والاحتمالات[2] ، وإجالة الرأي لا تؤتي أُكُلَها إذا فارقت الكتمان ؛ لأنّ ((إظهار السرّ فيما يُرى من الرأي في الحرب وغيرها يستلزم ظهور العدوّ على ذلك والعمل فيما يعارضه ويفسده وذلك من فاسد الرأي)) [3].

ولم تكن دلالة الباء على الإلصاق في نهج البلاغة بهذا الوضوح في كلِّ المواضع ؛ لذا سنقف على السياقات التي يتراءى فيها أنَّ الباء جاءت لتأخذ دلالتها من حرف آخر ، وسنرى أنَّ الباء استُعملت فيها لتنتج نوعاً من المعنى المتفرِّد .

إيثار الباء على حرف المجاوزة (عن) :

ذكر الأشموني (ت ٩٠٠هـ) وبعض النحويين أنَّ الباء تأتي للمجاوزة كـ (عن) نحو قوله تعالى : ﴿**فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا** ﴾ [الفرقان : ٥٩] مستدلين على صحَّة استظهارهم بآية أخرى هي قوله سبحانه : ﴿**يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ** ﴾ [الأحزاب : ٢٠] [4]، وهذا هو مذهب النيابة الذي يقول به الكوفيون .

وقد تابعهم به بعض شُرَّاح نهج البلاغة ففسَّروا الباء بـ (عن) ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الخوئي في شرحه لقول الامام (عليه السلام) : ((**اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ**

---

(1) ينظر : المصباح المنير ، لأحمد بن محمد الفيومي . (حزم) : ١٣٣/١ .

(2) ينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس الموسوي : ٥/ ٢٤٣.

(3) شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٢٦٨/٥.

(4) ينظر : شرح الأشموني لألفية ابن مالك ، لعلي بن محمد الأُشْمُوني : ٨٩/٢ ، وشرح التصريح على التوضيح : ٦٤٧/١ .

الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لَا يَعْدِلُونَ بِهِ جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ)) [١] يقول الخوئي : ((والباء في قوله : ولا يعدلون به ، إمَّا بمعنى (عن) ، كما ذهب إليه الكوفيّون في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [٢]، أي : عنه ، ويؤيّده ما في بعض النسخ بدل (به) (عنه) أو صلة بمعناها الأصلي)) [٣] ، وقد انتصر أحد الباحثين لهذا الرأي رادًّا ما ذهب إليه الدكتور محمد الأمين الخضري في التفريق بين تعدِّي الفعل (عدل) بالباء وتعدِّيه بـ (عن) ، فهذا الفعل ـ كما يرى الخضري ـ يتعدَّى بـ (عن) للدلالة على الانحراف ، ويتعدَّى بالباء للدلالة على التسوية [٤]، يقول الباحث : ((ولا أرى تسوية في قول الإمام السابق ؛ لأنَّه وصف القوم بالجور وهم لا يعدلون به ، أي : عنه ، فالباء بمعنى (عن) ، ويؤيِّد ذلك أنَّ الإمام عدَّى الفعل (يعدلون) بـ (عن) في قوله : ((لا يعدلَنَّ أحدُكم عن القرابة))[٥]))[٦] ، وليت الباحث اطَّلع على بعض شروح النهج ليرى أنَّ خمسة من شرَّاحه يقولون بما يقول به الدكتور الخضري ، ومنهم ابن أبي الحديد ، يقول : ((لا يعدلون به ، أي : لا يعدلون بالجور شيئا آخر، أي : لا يرضون إلا بالظلم والجور، ولا يختارون عليهما غيرهما)) [٧] ، بل إنَّ الخوئي نفسه ذهب الى هذا الرأي بعد بضع صفحات من قوله الأول ، يقول : ((لا يعدلون به ، أي : عنه إلى غيره أو لا يجعلون له مثلاً وعديلاً)) [٨].

---

[١] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٨٢ . والنُّكُب : المائلون . ينظر : مقاييس اللغة . (نكب) : ٤٧٤/٥ .

[٢] سورة الفرقان ، الآية : ٥٩ .

[٣] منهاج البراعة ، للخوئي : ٨/ ١٧٢ .

[٤] ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٢٠٧ .

[٥] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٦٥ .

[٦] حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٢١ .

[٧] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٠٦/٨ ، وينظر : توضيح نهج البلاغة : ٢٦٤/٢ ، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار : ٤٢١/١ ، وشرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٣٥٢/٢ ، منهاج البراعة ، لقطب الدين الراوندي : ٤٢/٢ .

[٨] منهاج البراعة ، للخوئي : ٨/ ١٨٠ .

وما ذهب إليه الشرَّاح يتوافق تماماً مع دلالة الباء على الإلصاق ، وفقاً للرؤية المبنية على الجمع بين دلالة الحرف ودلالة السياق ، فالأصل اللغوي للفعل (عدل) يؤيِّد ذلك ، يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : ((العَينُ والدَّالُ واللَّامُ أَصلان صحيحان ، لكنَّهما متقابلان كالمُتضادَّين : أَحدهما يَدلُّ على استواء ، والآخر يَدلُّ على اعوجاج)) [١] وبهذا تكون دلالته على المساواة متأتية من معناه اللغوي فـ ((العَدلُ والعِدلُ والعديل سواءٌ ، أَي : النَّظير والمثيل)) [٢] وإذا كان كذلك ، فقولنا : عدلت به ، يعني : جعلت جعلت المثيل ملتصقاً به ، والتصاق المثيل به يقتضي مساواته له . هذا في الإثبات ، أمَّا في النفي وهو قوله (عليه السلام) : لا يعدلون به ، فيعني أنَّهم مولعون بالظلم لا يجعلون عِدلاً للجور الّذى يرتكبونه .

وممَّا حُمِلت فيه الباء على معنى (عن) قوله (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا وَالْمُخْلِدَ إِلَيْهَا وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا**)) [٣] يقول الراوندي الراوندي (ت ٥٧٣هـ) : ((وروي (ولا تنفَّس) ، أي : لا تفرج ، يقال : نَفَّسَتْ عنه ، أي : رفهت ، ونفَّس اللّه عنه كربته ، أي : فرَّجها . والباء بمعنى (عن))) [٤].

ففي (لا تنفس) روايتان ، الأولى بالتخفيف ، والثانية بالتشديد ، وبهما يتغير ما يتطلبه السياق من حروف الجر ، فعلى رواية التخفيف (لا تنْفَسُ) تكون الباء في سياقها ؛ لأنَّ (نَفِسَ) يدلُّ على الإمساك والبخل[٥] ، وهو ما يتناسب ومعنى الإلصاق ، فعدم نفاسة الدنيا بالمُنافِس فيها ، يعني أنَّها لا تُلصق النفاسة به ، فيكونَ نفيساً

---

[١] مقاييس اللغة . (عدل) : ٤/٢٤٦ .

[٢] لسان العرب . (عدل) : ١١/٤٣٢ .

[٣] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٥٦

[٤] منهاج البراعة ، للراوندي : ٢/١٧٣ .

[٥] ينظر : لسان العرب . (نفس) : ٦/ ٢٣٨.

عندها ، وهو ما يستلزم زهدها فيه وعدم بخلها به ، ويكون المعنى : إنَّها لا تبخل بمن رغب فيها ، بل تسمح به للمهالك وترميه بغرائبَ من النّوائب[1].

وأمَّا على رواية التشديد (لا تنَفَّسُ) ، فالباء في سياق يتطلب (عن) ؛ لأنَّ التنفيس هو التفريج والترفيه والتوسعة ، جاء في لسان العرب : ((نَفَّستُ عنه تَنْفِيساً ، أَي : رَفَّهتُ . يُقال : نَفَّس اللَّه عنه كربته ، أَي : فرَّجها ... ونَفَّس اللَّه عنك ، أَي : فرَّج ووسَّع))[2] ، وعلى هذا يكون تفسير الباء بـ (عن) من ثمرات تغليب معنى السياق كما هو واضح ، ويلزم من ذلك الإهمال الكامل لمعنى الباء ؛ لأنَّه حين فُسِّر السياق بما يناسب الحرف (عن) تساهلوا بالباء فجعلوها بمعنى (عن) ، ويبدو أنَّ ما ذهبوا إليه غير دقيق ؛ لوجود الفارق المعنوي بين قولنا : نفَّسَتِ الشدَّةُ عن بكرٍ ، ونفَّسَتِ الشدَّةُ ببكرٍ . فمعنى الجملة الأولى : انفرجت الشدَّةُ عن بكرٍ ، أي : إنَّ انفراج الشِّدَّة أمرٌ ذاتيٌّ ليس لبكرٍ يدٌ به ، ومعنى الجملة الثانية : انفرجت الشدَّة ببكر ، أي : إنَّ انفراج الشِّدَّة لم يكن أمراً ذاتيّاً ، بل هو حاصلٌ بفعل بكر من جهة إتيانه بما يؤدي الى تفريجها .

وبهذا التأويل نحصل على معنًى أنيق هو أنَّ الدنيا ليس من شأنها أن تُفرِّج عمَّن وقع في حبائلها (مَن نافس فيها) ، بل إنَّ هذا الصيد لو حاول بنفسه أن يفلت من قبضتها لما سمحت له بذلك ، ولا ريب في أنَّ هذا التعبير البليغ يصوِّر ـ بما لا مزيد عليه ـ قُبحَ الدنيا وشدَّةَ وطأتها .

---

[1] ينظر : ، وشرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٦١/١٠ ، واختيار مصباح السالكين ، لميثم بن علي البحراني :٣٦٥ ، والدرة النجفية ، لإبراهيم بن حسين الخوئي : ٢٠٤ ، وفي ظلال نهج البلاغة : ٨/٣ ، و توضيح نهج البلاغة : ٧٨/٣ .

[2] لسان العرب . (نفس) : ٢٣٦/٦ .

إيثار الباء على حرف الظرفية (في):

قارب بعض النحويين بين معنى (الباء) ومعنى (في) عندما تدخل (الباء) على ما يدلُّ على الظرفية ؛ لأنَّ الباء تدلُّ على الإلصاق الذي هو ((اختِلاطُ الشَّيء بالشَّيء)) [1] ، فإذا كانت دالة على ملاصقة الحدث السابق لها للزمان أو المكان الذي هو مدخولها ، فهذا يعني حصول ذلك الحدث فيهما [2] ، ومن هنا ذهبوا إلى أنَّ (الباء) تأتي بمعنى (في) .

وما ذهبوا إليه ليس بالرأي السديد ؛ لأنَّ الباء عندما تقع في سياق مشحون بالدلالة على الظرفية ، فمن الطبيعي أن يلقي ذلك السياق على معنى الإلصاق شيئاً من ظلال الظرفية ، فيشتدُّ معنى الملاصقة في الباء ، ويتوسّع نطاقه بالمقدار الذي لايؤدِّي إلى إلغائه ، وهذا يعني أنَّ معنى الإلصاق حينئذٍ يمكن أن لا يكون منحصراً بأطراف الظرف الذي يكون مدخولاً للباء ، بل يصدق على الاتصال بأيِّ جزء من أجزاء الظرف ، مع جعل الباء تنحو بما يتعلق بمدخولها نحو الاستقرار الجزئي الذي هو من سمات الظرفية .

ومن موارد ذلك في نهج البلاغة قوله (عليه السلام) : ((**لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ**)) [3] ، ذهب الخوئي الى أنَّ ((الباء في قوله : بالشام ، بمعنى (في))) [4] ، ولكنَّ السؤال الذي لا نجد جوابه في كلام الخوئي هو : لماذا لم يتساوَ التعبيران (بالشام ، في ضواحي كوفان) ؟ وهل يجوز العكس بأن نقول : في الشام ، بضواحي كوفان ؟

---

[1] البرهان في علوم القرآن : ٢٥٢/٤ .

[2] ينظر : إملاء ما من به الرحمن ، لأبي البقاء العكبري : ٢٤٥/١ .

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٤٧ .

[4] منهاج البراعة ، للخوئي : ٨/ ٣٥٩ .

والذي يبدو هو أنَّ المعنى المتوخَّى من الحرفين لا يُسلِمُ نفسه بسهولة ما لم نتوسَّع في قراءة المشهد الذي يُحدِّثنا عنه (عليه السلام) ، فهو يُخبِر عن رجل كثير الضلال اختلف الشرَّاح في تشخيصه ؛ لأنَّ الشام بلاد تكثر فيها الفتن كما يظهر من خطب النهج ، فذهب الراوندي وبعض الشراح الى أنَّ الضليل هو السفياني[١] ، واحتمل غيره أنَّه معاوية أو عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ)[٢] ، في حين رجَّح ابن أبي الحديد وكثير من شرَّاح النهج[٣] كونه عبد الملك بن مروان ، وهو ((أرجح لأنَّ معاوية في أيام أمير المؤمنين (عليه السلام) كان قد نعق بالشام ودعاهم إلى نفسه ، والكلام يدلُّ على إنسان ينعق فيما بعد))[٤] ، وأمَّا السفياني فيخرج في آخر الزمان ، على أنَّ النظم لا يساعد في الدِّلالة عليه ؛ لأنَّ دخول (قد) على الفعل (نعق) يقرب حصوله من الحال ، وممَّا يرجح كون ذلك الضليل هو عبد الملك بن مروان ما ورد من إخبار الإمام (عليه السلام) عن مروان وولده بقوله (عليه السلام) : ((**أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ وَ هُوَ أَبُو الْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ وَ سَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَ مِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ**))[٥] .

ولو تصفَّحنا وجوه المعنى في قوله (عليه السلام) لدلَّنا ذلك على أنَّ الباء تنطوي على معنى دقيق لا يُدرك إلَّا بالغوص ، فالنعيق هو ((الصوت الذي له أعوان))[٦] ، أو هو دعاء الراعي للشاء وزجرها [٧] ، وهذا المعنى يناسب حال أهل الضلالة الذين لا يتأمَّلون فيما يقرّر معهم فهم كالبهائم التي يُنعَقُ عليها ؛ فهي لا تسمع إلَّا جرس

---

[١] ينظر : منهاج البراعة ، للراوندي : ٦٣/٢ ، وشرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٦٩/٢ ، و حدائق الحقائق : ٦١٦/١

[٢] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لميثم بن علي بن ميثم البحراني : ١١/٣ .

[٣] ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٢٢٩/٢ ، وبهج الصباغة ، لمحمد تقي التستري : ٧/٦ ، وتوضيح نهج البلاغة : ٢/ ١٣٠ .

[٤] شرح نهج البلاغة ، لابن ابي الحديد : ٩٩/٧ .

[٥] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٠٢ .

[٦] توضيح نهج البلاغة : ٣١٥/٢ .

[٧] ينظر : مقاييس اللغة . (نعق) : ٤٤٥/٥ ، ولسان العرب . (نعق) : ٣٥٦/١٠ .

النغمة ودويّ الصوت[١] ، وعندما نتأمَّل في حكمة الجمع بين النعيق والباء التي تدلُّ على الملاصقة في قوله (عليه السلام) : ((نعق بالشام)) سيظهر لنا أنّه نعيق على أطراف الشام لا في داخلها ، وهو إشارة الى فتنة يقوم بها ذلك الضلِّيل ، وهذا عين ما فعله عبد الملك بن مروان حين شخص بنفسه الى حرب مصعب بن الزبير ، فجمع جيشه على أطراف الشام من جهة العراق مع تكرار هذه الحالة لأكثر من مرَّة ، جاء في تاريخ الطبري : ((وكان عبد الملك ... لا يزال يقرب من مصعب ، حتى يبلغ بطنان حبيب ، ويخرج مصعب إلى باجُمَيرا ، ثم تهجم الشتاء فيرجع كلُّ واحد منهما إلى موضعه ، ثم يعودان)) [٢] ، وهذا المعنى لا يفي به غير حرف الإلصاق الذي يدلُّ على الملاصقة لا التوغل في الشيء فضلاً عن الدِّلالة على عدم الاستقرار ، ومن هنا لا يرجِّح الباحث ما ذهب إليه ابن أبي الحديد من تفسير نعيق عبد الملك بالدعوة الى نفسه بالخلافة [٣] ؛ لأنَّ هذا لا يتلاءم مع دلالة الباء ، وسياق الكلام الذي يتحدث يتحدث عن حربه مع مصعب ، فضلاً عن أنَّ أباه مروان هو من دعا لخلافة عبد الملك بجعله ولياً لعهده ، وقد تمَّت مبايعته طبقاً لذلك[٤] .

وحسبك في براعة استعماله (عليه السلام) لحرف الباء ما تلقيه من نداوة على سياقها فيخضرّ بها المعنى عند قوله (عليه السلام) : ((**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ** ...)) [٥] وذهب أحد الباحثين إلى أنَّ الباء

---

[١] روح المعاني : ٤٣٩/١ .

[٢] تاريخ الطبري ، لأبي جعفر الطبري : ١٥١/٦ ، وينظر : الطبقات الكبرى ، لابن سعد : ٢٢٧/٥ ، ولكن ابن سعد ذهب الى أن سبب رجوع عبد الملك هو مؤامرة عمرو بن سعيد عليه ودعوته لأهل الشام وإسراعهم إليه ، مما حمل عبد الملك على الرجوع ودخول دمشق بعد ست عشرة ليلة من قيامه على سورها .

[٣] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد المعتزلي : ٩٩/٧ ، يقول : ((وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان ؛ لأن هذه الصفات والأمارات فيه أتم منها في غيره ؛ لأنه قام بالشام حين دعا إلى نفسه وهو معنى نعيقه)) .

[٤] ينظر : تاريخ بغداد وذيوله ، للخطيب البغدادي : ٣٨٧/١٠ ، وتاريخ الاسلام ، للذهبي : ٢/ ٩٧٠ .

[٥] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٠٦ .

في قوله (عليه السلام) : ((بالمغرب)) تفيد الظرفية [1] ، ويبدو أنَّ ظرف المكان بعدها هو السبب الذي دعاه الى ذلك ؛ لأنَّ المقصود بـ (المغرب) بلاد الشام لكونها تقع غرب الكوفة [2].

ولعلَّ قصر النظر على لفظة واحدة من السياق والانحياز لها بخس لحق بقية اللفظ في إبراز دوره والإدلاء بمعناه ، ولو أنَّ الباحث نقَّب في أطراف المعنى الثلاثة (عيني ، الباء ، المغرب) لوصل إلى سرِّ استعمالها دون (في) ، فالعين هو الجاسوس ، وطبيعة عمله تقتضي منه الحركة الدائبة وعدم الاستقرار في موضع واحد ؛ لأنَّه يتطلب معرفة الأخبار ويتتبعها ويفتش عن بواطنها [3] ، وإضافة العين إلى ضمير المتكلم تدلُّ على أنَّ الامام (عليه السلام) بعثه الى هناك ليأتيه بأخبار معاوية [4] ، ومن هنا يظهر أنَّ هذا المخبِر ليس من أهل الشام ولا هو مستقر فيها ، بل هو مكلَّف بواجب المراقبة والتحرِّي ، فإذا ما انتهت مَهمته رجع أدراجه وعاد إلى مستقره .

إيثار الباء على حرف الابتداء (من) :

تقرَّر في بعض كتب النحو أنَّ الباء ((قد تقع مكان (من) ، كقوله تَعَالَى : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [5] تكون بمعنى : يشرب منها)) [6] وقد تقدَّم ما في هذا التأويل من ضعف ؛ لأنَّ ((العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع

---

[1] ينظر : حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ١٩ .

[2] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٤٠

[3] ينظر : لسان العرب . (عين) : ٣٠٣/١٣ ، والمصباح المنير . (جسس) : ١٠١/١ .

[4] ينظر : منهاج البراعة ، للراوندي : ١٢٢/٣ ، ومعارج نهج البلاغة ، لعلي بن زيد البيهقي : ٣٨١ .

[5] سورة الانسان ، الآية : ٦ .

[6] حروف المعاني ، للزجاجي : ٤٧ ، وينظر : مغني اللبيب : ١/ ١٤٣ .

خصوصية اقتضت ذلك)) [1] ، ويبدو أنَّ هذه الخصوصية تكمن في استخراج معنى واحد تختلط فيه دلالة السياق بدلالة الحرف ، فالباء تُدلي بدلالة الإلصاق ، والسياق الذي يوحي بالحرف (من) يدلُّ على ابتداء الانفكاك عن مدخول الحرف ، والجمع بين المعنيين يدلُّ على أنَّ الانفكاك والمفارقة لو حصلا فبنحو من الصعوبة والتكلُّف ، مع المسارعة الى عودة الالتصاق ثانية .

ولو تأمَّلنا ما ورد في نهج البلاغة ممَّا فسره الشُّرَّاح بالنيابة أو التضمين لاتضح صِحَّة هذا المدَّعى ، يقول (عليه السلام) واصفاً الملائكة : ((**قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ وَ شَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِه**)) [2] وفسَّر العلَّامة المجلسي (ت ١١١١هـ) ظهور الباء مع ظرف المكان (الكأس) بقوله : ((والباء في قوله (عليه السلام) : (بالكأس) إمّا للاستعانة أو بمعنى (من) ، وربَّما يُضمَّن في الشرب معنى الالتذاذ ليتعدّى بالباء))[3] ، وتابعه الخوئي في ذلك[4] .

ويبدو أنَّ هذه التأويلات الثلاثة نابعة من النظرة المقصورة على جزء من أجزاء الجملة للوصول الى مراد المتكلم ، فالنظر إلى (الكأس) من حيثية كونها آلة للشرب ينحو بالباء نحو معنى الاستعانة ، والنظر إلى ما في الكأس من شراب ـ بوصفها ظرفاً له ـ يجعل الباء بمعنى (من) ، وأمَّا الإبقاء على دلالة الباء على معنى الإلصاق فهو يستلزم تضمين الفعل (يشرب) معنى فعل آخر يتعدى بالباء كـ (يلتذ) كما ذهب المجلسي أو (يروى) كما يذهب بعض المحققين[5] ، أو الاحتمالين كما يذهب بعض

---

[1] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير : ١٤٥/٢ .
[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح): ١٢٨
[3] شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار : ٢٨٦/١ .
[4] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٧٥/٦ .
[5] ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٣٨/٣ ـ ٣٣٩.

المفسرين[١] ، ولا أدري لِمَ عُدِل عن الفعلين الى الفعل (يشرب) على الرغم من أنَّهما يستلزمان الشرب ، بخلاف الشرب الذي هو أعم منهما ؟! والحقُّ أنَّ هذه التأويلات لا تنفكُّ عن المحاولة لتصحيح اللفظ ، ولا تُحلِّق بالمعنى إلى مستوى قائله أو تكشف النقاب عن سرَّ الباء .

وقد حاول الدكتور محمد الأمين الخضري أن يجد المخرج الى واحة المعنى في مجيء الباء مع الفعل(يشرب) في موضع مشابه لما في أيدينا ، وهو قوله تعالى : ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ**﴾ [الانسان : ٦] ، فقال : ((وأجد في الباء ـ هنا ـ دلالة تهمس بأنَّ العين هي مستراحهم ، والمكان الذي يجدون فيه متعة العين ، وسعادة النفس ، فالكأس بأيديهم وهم على حافة العين يشربون ، كلَّما فرغت الكأس ملأوها منها ، ولذة الشرب ممزوجة بلذة العين ، فجاءت الباء دالة على التصاقهم بالعين وقربهم منها)) [٢] وهو ـ بهذا التأويل ـ لا يبتعد كثيراً عمَّا ذكره الزركشي (ت ٧٩٤هـ) بقوله : ((وقيل : لا مجاز أَصلاً بل العين هاهنا إشارةٌ إلى المكان الَّذي ينبعُ منه الماءُ ، لا إلى الماءِ نفسِه نحو : نَزَلتُ بِعَينٍ فصار كقوله : مكاناً يُشرَبُ به)) [٣] ولأنَّ المكان محفوف بالجمال فهو يستلزم لذة العين ، وهل يوجد في الجنة مكان لا تلتذ به العين وهي التي يصفها خالقها بأنَّها ﴿ **فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ** ﴾ [الزخرف :٧١] ؟ وهل يفقد المعنى الدّلالة على الالتذاذ إذا قيل : (يشرب فيها) ؟ ولو سلَّمنا بصحَّة هذا التفسير ، فهل يصلح للانطباق على ما في أيدينا من قول ربيب القرآن ؟ لذا سيكون عدم الاطراد قرينة على ضعف التفسير .

---

[١] ينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، لعبد الله بن أحمد النسفي : ٥٧٧/٣ .
[٢] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ١٩٧ .
[٣] البرهان في علوم القرآن : ٣٣٨/٣ .

ولعلَّ الأوفق بالمعنى هو أنَّ ميل الشاربين الى المشروب وتعلقهم به وتكرارهم له مرة بعد أخرى هو السرُّ وراء مجيء الباء مع الفعل (شرب) وهو ما يظهر الفرق بين استعمال (الباء) و (من) ، فالمعنى مع (الباء) يدلُّ على ميل الشارب ورغبته وارتباطه بالمشروب ، فكلَّما توقف عن الشرب وانصرف عنه كرَّ راجعاً إليه ، ولا يدلُّ مع (من) على أكثر من كون مدخولها هو مبدأ الشرب . وهذا هو حال الملائكة فهم قد ذاقوا معرفة ربِّهم فلم يجدوا أطيب منها ولا أعذب ؛ لكونها فاقت جميع اللذات الأخرى ، وهذه المعرفة استدعت منهم أن يعيشوا حبَّه وهواه ويعشقوا كلَّ ما يرغب فيه ويحبُّه [١] فهم يغترفون من معين محبته ؛ فبِشُربهم يرتقون الى ما هو أعلى وأعذب فيزدادون هياماً به ؛ لأنَّه تشعَّب في أرواحهم وتمكَّن من حبات قلوبهم وحلَّ في سويدائها ، فالكأس روية والقوم عطشى .

ومن رشحات هذا العالم الملكوتي نرحل مع الباء إلى حيث مكان الإمام (عليه السلام) في (ذي قار) لنستمع الى أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يكتب رسالته إلى أهل الكوفة[٢]، فيضع نقطة الباء ليرفع المعنى ويرتقي به ، يقول (عليه السلام) : ((**وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**))[٣] .

وقد بيَّن ابن أبي الحديد معنى الباء الواردة بقوله : ((وقوله : قد قلعت بأهلها وقلعوا بها . (الباء) ـ هاهنا ـ زائدة في أحد الموضعين ، وهو الأول ، وبمعنى (من)

---

[١] ينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس :٢/٨٨ .

[٢] ينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ١٦/٢٠١.

[٣] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٨٣ .

في الثاني ، يقول : فارقت أهلها وفارقوها))[1] ، وليس في هذا القول ما يُشير إلى السرِّ في استعمال (الباء) وإيثارها على (من) ؛ لمراعاته جانب اللفظ دون المعنى .

ولعلَّ النظر في السياق الذي يكتنف الباء يكفي في إبراز دلالتها ؛ فالقلع ((يَدلُّ على انتزاع شيءٍ من شيءٍ ... ويُقال : هذا منزل قُلعَةٍ ، إذا لم يكن موضع استيطان))[2] ، والقَلْعة ((النَّخلة التي تُجتَثُّ من أَصلها قَلعاً أَو قَطعاً ... وَمَجلِسُ قُلْعَةٍ إذا كان صاحبه يحتاج إلى أَن يقوم مرَّةً بعد مرَّة))[3] ، وهذا يشير الى الارتباط القوي بين طرفي القلع ، والعلاقة الحميمة بينهما ، فتحقيقه لا يكون إلَّا قهرياً ، وهذا المعنى لا يصلح له سوى الباء ؛ لأنَّها تُعزِّز معنى الارتباط وتعمِّقه ، فتُظهر بذلك ما ينطوي عليه فؤادُ المتكلم من ألم الفراق والترحيل .

وما جاء في هذه الرسالة ينسجم تماماً مع هذا المعنى الذي ينبعث من الباء ، فالإمام (عليه السلام) يشير الى فتنة أصحاب الجمل التي حدثت في دار الهجرة (المدينة المنورة) ضده ، وبيَّنها بقوله (عليه السلام) : ((**قَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ**)) أي : عليه (عليه السلام) [4] ، فانقلبت أحوال المدينة واضطربت أحوال ساكنيها وأمورهم ، وجاشت جيش المرجل من الهرج والمرج ، فاضطر الامام وأصحابه المهاجرون والأنصار ـ مَن بقي منهم ـ إلى تركها والخروج إلى العراق ، وجعل الكوفة مهاجره ومقرّ خلافته[5].

[1] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١/٨ .
[2] مقاييس اللغة . (قلع) : ٥/٢١ .
[3] لسان العرب . (قلع) : ٨/٢٩٠.
[4] ينظر : تصنيف نهج البلاغة ، للبيب بيضون : ٤٨٨ .
[5] توضيح نهج البلاغة : ٣/٤٢٦ .

إيثار الباء على حرف الغاية (إلى) :

من المعاني التي قيل : إنَّ الباء تدلُّ عليها هو انتهاء الغاية ، فتكون نائبة عن حرفها (الى) ، جاء في الجنى الداني : ((أن تكون بمعنى (إلى) ، نحو : قوله تعالى : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ [يوسف : ١٠٠] أي : إليَّ . وأُوِّل على تضمين (أحسن) معنى : لطف))[١] . ولعلَّ هذا التوجيه نابع من التقارب بين معنى الانتهاء والإلصاق ، فالغاية التي تنتهي عندها دلالة (الى) يمكن أن تكون بداية لمعنى الملاصقة الذي تدلُّ عليه (الباء) فيلتقي الحرفان عند هذه النقطة .

وعُدَّ من تطبيقات ذلك قوله (عليه السلام) : ((**مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُم**))[٢] ، وقد خلط الشيرازي بين مذهب النيابة والتضمين عند بيانه قوله (عليه السلام) : ((يُمال بكم)) ، يقول : (((وما أنتم بركن يمال بكم) أي : يميل الانسان إليكم لتحفظوه من كوارث الزمن)) [٣] فقد فسَّر الباء بمعنى (الى) على طريقة الكوفيين ، ثم قال : ((وإنَّما جيء به (باء) الجر دون (الى) لإشراب الفعل معنى (يصول))) [٤] وهنا ضمَّن الفعل (يُمال) معنى الفعل (يصول) لتصحيح مجيء الباء وهذه طريقة البصريين .

ويبدو أنَّ المعنى اللغوي لـ (رُكْن) هو الذي ألجأه الى القول بالنيابة ، لأنّ الركون هو ((السكون إلى الشَّيء والميل إليه))[٥] ، ورُكن الشيء هو جانبه الأقوى[٦]، وقد ورد

---

[١] الجنى الداني : ٤٥ .

[٢] نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٧٨ . وسجيس الليالي : كلمة تقال بمعنى أبداً . ينظر : مقاييس اللغة . (سجَّ) : ٦٥/٣ .

[٣] توضيح نهج البلاغة : ١٨٠/١ .

[٤] توضيح نهج البلاغة : ١٨٠/١ .

[٥] لسان العرب . (ركن) : ١٨٦/١٣ .

[٦] ينظر : مقاييس اللغة . (ركن) : ٤٣٠/٢ .

ورد هذا المعنى في الذكر الحكيم على لسان لوط (على نبينا وآله وعليه السلام) ، قال تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود :٨٠] .

وأمَّا القول بالتضمين فمردُّه الى ما يطلبه المقام ؛ لأنَّ تعدِّي الميل بـ (الى) يتناسب وموقف المدافع الضعيف الذي يحتاج إلى مَن يلتجئ إليه ويرد عنه عدوه كما يظهر ذلك ممَّا تقدَّم ، ولا يتناسب مع مَن يريد الهجوم وإرغام المتمردين على النزول على الطاعة ـ كما هو حاله (عليه السلام) ـ فقولنا : مالَ القائدُ الى جنده ، يختلف عن قولنا : مالَ القائدُ بجنده ، فالأوَّل يدلُّ على موقف الملتجئ الى غيره ، في حين يُبيِّن الثاني ملازمة الجند لقائدهم في الميل على العدو وعدم انفصالهم عنه أو تخاذلهم .

ولو تابعنا الظرف الذي قيلت فيه الخطبة لتبيَّن لنا الأثر الدلالي للباء ، وكيف أنَّها ولِدَت في تعبير لا يحتمل سواها ؟ ولظهر لنا ما يفعله تفسير الباء بـ (الى) من تغيير للمقام ؟ فالإمام (عليه السلام) قبل هذه الخطبة كان قد خطبهم في النهروان ـ بعد فراغه من أمر الخوارج ـ يستنفرهم لجهاد أهل الشام ، فاعتذروا بجملة أعذار وطلبوا أن يرجع بهم الى الكوفة أياماً ثمَّ يخرج بهم ، فرجع بهم غير راضٍ ، فأنزلهم نُخيلة وأمرهم أن يلزموا معسكرهم ويقلُّوا زيارة أهلهم فلم يقبلوا وجعلوا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى لم يبقَ معه إلَّا القليل منهم ، فلمَّا رأى ذلك دخل الكوفة فخطب الناس واستنفرهم للجهاد فلم ينفروا ، فتركهم أياماً ثمَّ خطبهم بهذه الخطبة[١].

وهنا يظهر أنَّه (عليه السلام) في مقام بيان تخاذلهم في النفور الى الجهاد والاخبار بحقيقة واقعهم ، فهم ليسوا ذوي قوة متماسكة ، بل تتشظى قوتهم وتتفرق عزيمتهم لأدنى سبب ، وهذا هو ديدنهم على مرَّ الأزمنة [٢]، وهذا هو المضمون الذي تُفصِح

---

[١] ينظر : توضيح نهج البلاغة : ١٧٨/١ ، و شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢٦٦/١ .

[٢] ينبغي الالتفات ـ هنا ـ إلى أنَّ أكثر جيش الإمام (ع) لم يكونوا ممَّن يعتقدون بإمامته الفعلية أو يؤمنون بعصمته ؛ بل ينظرون إليه من جهة كونه قائداً سياسياً للأمة ، وبهذا نستطيع أن نفهم الذم والمدح المتوجِّه للكوفة ؛ فالمقصود بالمدح =

عنه الباء فهي الأليق بهذا المعنى والمقام ؛ إذ إنَّها في هذا السياق المنفي تدلُّ على عدم الإلصاق ، وهو ما يشير الى استعصائهم وعدم التصاقهم بقائدهم وإطاعتهم أوامره في تنفيذ الميل على العدو ، كما تشير الى هشاشة صفوفهم ، وكثرة مخالفتهم ، وسرعة تفرقهم عنه (عليه السلام) عند الميل على العدو ، وهو ما برهنت عليه تجارب حروبهم ، ولا سيَّما في صفِّين ، وحسبك (حادثة رفع المصاحف) فهي تكفينا مؤونة الاستدلال.

إيثار الباء على حرف الاستعلاء (على) :

يظهر أنَّ هذا الاستعمال قليل في النهج ، ولكنَّا يمكن أن نوجِّه دلالة الباء على الإلصاق عند ورودها في سياق يشي بدلالة الاستعلاء عن طريق الجمع بين الدلالتين ، و لاريب في أنَّ هذا السياق يوجِّه المعنى نحو الابتعاد عن الشيء وكونه غيرَه مع بقاء المكنة منه ، أمَّا الباء فتجرُّ المعنى نحو الشيء وتوصله به حتى يختلط به ويهيمن عليه ويحكِّم قبضته فيه ، وتفسير (الباء) بـ (على) يُلغي معناها ويقضي على دلالتها.

ومن بديع ذلك ما جاء في قوله (عليه السلام) : ((**فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمَشَيَّدَةِ وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ الصُّخُورَ وَالْأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ الَّتِي قَدْ بُنِيَ بالْخَرَابِ فِنَاؤُهَا**)) [1] ، يقول الخوئي : ((وقوله : قد بُنِيَ بالخراب ، الباء بمعنى (على) ، و يؤيّده ما في بعض النّسخ (على الخراب) بدله)) [2] ، وهنا يُضاف داعٍ جديد يبعث على التدقيق يتعلق بالرواية التي يؤيدها المعنى ويرجِّح مبناها . وليس من الصحيح أن نضرب

= أولئك الصلحاء الملتفون حول إمامهم أمثال مالك الأشتر ، أمَّا الذم فهو متوجِّه إلى المنافقين المشكِّكين أمثال الأشعث الكندي .

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٤٨ ــ ٣٤٩ .

(٢) منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٢٣/١٤ .

بعضها ببعض ثمَّ نخسر المعنيين ، والحقُّ أنَّ كِلا الحرفين ممكن على المستوى اللفظي ؛ فالبناء يتطلب العلو والارتفاع ؛ لأنَّه وضع شيء على شيء آخر ، وهذه الدلالة تنحو بالنظم صوب الحرف (على) ، إلَّا أنَّ المعنى يشرق مع حرف الباء ويسير في ركب الموعظة ويوغل في تربية الخراب وتهويله ، بدءاً من اختيار لفظة (الفِناء) التي لا تبارح معنى الانقضاء ؛ لأنَّ ((الفِناء من فَنِيَ يفنى ، وذلك أَنَّ الدَّار هنا تفنى ؛ لأَنك إِذا تناهيتَ إِلى أَقصى حدودها فَنِيَتْ)) [1] وهكذا فالفِناء الممتد في لحد الميت وجوانبه[2] ستمتد إليه يد الخراب ، وسينهدم في يوم ما ، ولاسيَّما أنَّه قد بُني بالتراب الذي هو أسرع في التحلُّل والفناء والاندراس [3]، بل رُبَّما انهدم في يد بانيه أو بعد تشييده بلحظات ، فهو ملتصق بالخراب ، يخالطه الخراب من اللحظة الأولى ، وهذا المعنى لا تفي (على) بالدلالة عليه ؛ لأنها تدلُّ على أنَّ الخراب في غير ذلك البناء ، فهو جديدٌ ، ولكنَّه مبنيٌّ على الخراب ، وهذا ما ألمح إليه ابن ميثم بقوله : ((قد بنى بالخراب فناؤها . أي : على خراب ما كان معموراً من الأبدان والمساكن)) [4] فـ (على) للاستعلاء المجازي[5] .

وإن شاء أحدٌ أن يتلمَّس الفرق بين الباء و(على) فلا ريب في أنَّه سيطَّلع على شيء من أسرارهما عندما يجتمعان في مركب واحد من التعبير ، كما في قوله (عليه السلام) : ((**وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا**

---

[1] لسان العرب . (فني) : ١٥/١٦٥ .
[2] بهج الصباغة : ١١/٥٦١ .
[3] ينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٤/٦٢ .
[4] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٤/٩٢ .
[5] منهاج البراعة ، للخوئي : ١٤/٣٢٣

أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ)) [1].

فالفعل (أنزَلَ) بما يحمله من دلالة على هبوط شيءٍ ووقوعه[2] يقترب من الحرف (على) ؛ لملازمته معنى الاستعلاء ، ويتأكَّد ذلك عندما يُصار إلى المحافظة على علو شأنِ المُنزَل وبيان مزيته ، مع تكريم المُنزّل عليه ، جاء في درة التنزيل : ((كلُّ موضع عُدّي فيه الإنزال بـ (على) فإنَّ المراد به أنَّه شرّفك وأعلى بذلك ذكرك)) [3] ، ولا ريب أنَّ النصر من هذا القبيل ، أمَّا الكبت فهو ((الغَيظُ والغَمُّ))[4] الناشئ عن الهزيمة وكسر الشوكة على أيدي المسلمين ، ومجيء الباء معه يُلوّح للناظر بمعنًى دقيق ؛ إذ إنَّها تدلُّ على كونه غير متوقَّع في حسابات أئمة الضلال ، بل أُلصِق بهم إلصاقاً لا يكاد يفارقهم ، وتغلغل الى جزء من أجزائهم ، وهذا ما يؤكد الانسجام بين الكبت والباء ، فالكبت مأخوذ من ((الكَبْدُ ، فقلبت الدالُ تاء ، أُخِذَ من الكَبِد وهو مَعدِن الغيظ والأَحقاد ، فكأَنّ الغيظ لمَّا بلغ بهم مَبلَغه أَصاب أَكبادهم فأَحرقها))[5] وعلى أيِّ حال ، فالغيظ ملتصق بهم وإن أظهروا خلافه ، وتكلَّفوا ضده ، فضلاً عن ذلك ففي استعمال (على) نكتة لطيفة ، فالنصر ممَّا يرغب المنتصر بإظهاره وإعلانه ، فبشائره تفد على البلد قبل وصول المنتصرين ، بخلاف المنهزم فهو يحاول إخفاء هزيمته عن الآخرين ، وإن كانت ملاصقة له تحرقه بلهيبها ، على أنَّ التفاوت بين (الباء) و(على) يمكن أن يشير الى أمر يتعلق بكفتي الحرب وكونهما غير متساويتين من حيث الحسابات العسكرية ، فكفَّة المسلمين من هذه الجهة غير راجحة وتدلُّ على هبوط

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٩٢ .

[2] مقاييس اللغة . (نزل) : ٤١٧/٥ .

[3] درة التنزيل وغرة التأويل ، للخطيب الإسكافي : ١١٠٧ .

[4] تاج العروس ، للزَّبيدي . (كبت) : ٥٣/٥ .

[5] المصدر نفسه . (كبت) : ٥٣/٥ ، وينظر : تهذيب اللغة ، للأزهري . (كبت) : ٨٩/١٠ .

مرتبتهم ، فهم في نقطة منخفضة بخلاف المشركين الذين يرون لهم السيطرة والهيمنة وهذا ما يستلزم إنزال ما يرفعهم ويرجِّح كفتهم .

بين همزة التعدية والباء :

تشترك الهمزة والباء في تعدية الفعل ، إلَّا أنَّ الهمزة هي الأصل في ذلك ؛ لأنَّها أكثر استعمالاً في التعدية[1] ، وهذا ما جعل النحويين يحملون الباء المعدِّية عليها ، ويجعلونها تعاقب الهمزة ؛ يقول السيوطي : ((وتسمى باء النقل أيضاً وهي المعاقبة للهمزة في تصيير الفاعل مفعولاً ، وأكثر ما تعدِّي الفعل القاصر ، تقول في : ذهب زيد : ذهبتُ بزيد وأذهبتُه)) [2] ويلاحظ على هذا الكلام أنَّه خلط بين مفهومي التعدية والنقل ، وهما مختلفان ؛ لأنَّ همزة التعدية لها تأثير في الفعل وذلك بإضافتها التعدِّي له ، بخلاف همزة النقل ، فهي تنقل الفعل من الثلاثي إلى الرباعي من غير أن تضيف له معنى التعدية[3].

وقد اختلف النحويون في دلالتيهما ، فذهب ابن هشام الى التساوي بينهما في الدِّلالة [4]، في حين ذهب الرضي (ت ٦٨٦هـ) إلى التفريق بين التعديتين ، يقول : ((ولا يغيِّر شيء من حروف الجر معنى الفعل ، إلَّا الباء ... والذي تغيِّر الباء معناه ، يجب فيه ، عند المبرد : مصاحبة الفاعل للمفعول به ، لأنَّ الباء المُعدِّية ـ عنده ـ بمعنى (مع) ، وقال سيبويه : الباء في مثله ، كالهمزة والتضعيف ، فمعنى ذهبت به: أذهبته ، يجوز فيه المصاحبة وضدها)) [5] .

---

[1] ينظر : شرح المفصل : ٤/ ٤١٨ .
[2] همع الهوامع : ٤١٧/٢ .
[3] ينظر : رصف المباني : ٤٨ ـ ٥١ .
[4] ينظر : مغني اللبيب : ١/ ١٣٨ .
[5] شرح الرضي على الكافية : ٤/ ١٣٩ ـ ١٤٠، وينظر : الكتاب : ١٥٣/١ .

وإذا كانت الباء تفيد المصاحبة ، فالهمزة لها دلالة أخرى ؛ إذ إنَّها تعني ((حمل الشيء على أصل الفعل ، فمعنى أعلمتُكَ زيداً منطلقاً : حملتك على أن تعلم زيداً منطلقاً)) [1].

وقد لخَّص الأحمدي الفرق بينهما بقوله : ((وذهب به استصحبه وذهب معه ... وأذهبه وأذهب به أزاله)) [2] وإن كان قوله : (أذهب به) بالجمع بين الهمزة والباء غير جائز ؛ لأنَّهما متعاقبتان كما تقدَّم ، يقول ابن يعيش : ((واعلم أنّه متى عدَّيتَ الفعل بالهمزة ، أو التضعيف ، لم تجمع بين واحد منهما وحرف الجرّ)) [3].

ولا شكَّ في أنَّ النحاة الذين ذهبوا الى التفريق بين دلالة الباء وهمزة التعدية كانوا في منتهى الصواب ، إلَّا أنَّ تأويلهم الباء بمعنى (مع) لم يكن دقيقاً ؛ لأنَّ ((المصاحبة في الباء غيرها في (مع) ... والفرق بين الباء و(مع) أنَّ (مع) لإثبات المصاحبة ابتداء ، والباء لاستدامتها))[4] .

وهذا يُظهر براعته (عليه السلام) في تطويع اللغة وتفجير طاقاتها ، فهو (عليه السلام) يستعمل الهمزة في الموضع المناسب لها ، يقول (عليه السلام) : ((**اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ**))[5] وذهب محمد جواد مغنية (ت١٤٠٠هـ) الى أنَّ (أجاءتنا) بمعنى (أتتنا)[6] ، وليس في

---

[1] شرح الرضي على الكافية : ١٤١/٤.

[2] معجم الأفعال المتعدية بحرف جر ، لموسى بن محمد الأحمدي : ٦٧.

[3] شرح المفصل : ٢٩٩/٤ ـ ٣٠٠ ، وينظر : درة الغواص في أوهام الخواص ،للقاسم بن علي محمد الحريري : ٢٣ .

[4] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٢٠٣ - ٢٠٤ ، وسيأتي الفرق بين (الباء) و (مع) في الفصل الخاص بالمعاني المشتركة .

[5] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٠٠.

[6] ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٢/ ٣١٨ .

في ما ذهب إليه وجهٌ مقنعٌ ؛ للفرق بين (جاء) و (أتى) من جهة[1]، وبين (جاء) و (أجاء) من جهة أخرى ، وهو ما أشار إليه بعض شرَّاح النهج إذ فسَّروا (أجاءتنا) بمعنى (ألجأتنا)[2] ، وهو ما يُظهر الأثر الدلالي للهمزة ، فعند دخولها على الفعل (جاء) غيَّرت معناه ، فدلَّ على أنَّ المقاحط المجدبة هي التي حملتهم على المجيء .

ولا يخفى جمال التعبير ودقَّة المستَنبَط على مَن يمتلك بصيرة نافذة في تلمُّس المعنى في قوله (عليه السلام) وهو يتحدَّث عن ساعة الاحتضار ، يقول (عليه السلام) : ((**يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ وَ فِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ**))[3] ، ومعلوم أنَّ فناء العمر وذهاب الدهر أمران لا مفرَّ منهما ؛ فليس في مكنة الانسان أن يوقف عجلته أو أن يُسرِّع من دورانها ، ولكنَّ هذه الحتمية لا تُلغِي اختياره في أن يعمل فيهما ما يشاء ، ويصرف ساعات عمره فيما ينفعه ويعمِّر آخرته ؛ ولعلَّ هذا هو السرُّ في المجيء بهمزة التعدية في هذا الموضع لكونها تُشير الى هذا الجانب الذي مُنِحَ للعبد ، وهو جانب واسع يتمكَّن الانسان من توظيفه وتوجيهه الوجهة النافعة ، فإذا ما وجَّهه للَّهو والمعاصي فقد أهلك نفسه وخسر آخرته ، وهو ما يوجب شدَّة ندمه عليه ؛ فالمسجَّى ((يفكِّر في أغلى ما عنده ... يفكِّر في عمره الذي انقضى ومضى كيف أفناه في اللهو ومتع الدنيا وملذاتها فتأكل الحسرة قلبه ويتمنَّى أن يكون قد قدّم ليومه هذا ولما بعده)) [4].

وما أروع الانزياح من همزة التعدية الى الباء في قوله (عليه السلام) : ((**فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ**))[5] ، وهنا تتنامى الدِّلالة

---

[1] ينظر : الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري: ٣٠٩ ، و من أسرار التعبير في القرآن ، صفاء الكلمة ، د. عبد الفتاح لاشين : ٦٦ .

[2] ينظر : حدائق الحقائق : ٦٣١/١ ، وشرح نهج البلاغة ، لابن ابي الحديد : ٨٢/٩ .

[3] ينظر : نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٦٠ .

[4] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢/ ٢٣٨ .

[5] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٤٦.

ويتدفق المعنى بما لا مزيد عليه ؛ فالإخبار عن المستقبل المغيَّب والتفنُّن في الجمع بين الهمزة والباء شحن العبارة فأوصلها حدَّ الاعجاز ، فقد ((كنَّى في هذه الخطبة عن نفسه وأعلمهم فيها أنَّهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له))[١] ، وهو ما عبَّر عنه بهمزة التعدية في قوله (عليه السلام) : (ألنتم له رقابكم) أي : أسلستم له القياد واستمعتم إليه وعرفتم مكانته وعظمته[٢] ، فتحقُّق ما أفصحت عنه همزة التعدية هو نذير انفصام عروة الدين وعلامة تصدُّع أركان الهدى ، وهو ما أثبتته الأيام ، يقول ابن أبي الحديد : ((نُقِلَ أنَّ أهل العراق لم يكونوا أشد اجتماعاً عليه من الشهر الذي قُتِلَ فيه (عليه السلام) . و جاء في الأخبار أنَّه عقد للحسن ابنه (عليه السلام) على عشرة آلاف ، ولأبي أيوب الأنصاري على عشرة آلاف ، ولفلان وفلان حتى اجتمع له مائة ألف سيف وأخرج مقدمته أمامه يريد الشام فضربه اللعين ابن ملجم وكان من أمره ما كان)) [٣].

وأمَّا باء التعدية في قوله (عليه السلام) : (فذهب به) ، فهي تدلُّ على التصاق الموت به ومصاحبته لروحه (عليه السلام) والعروج بها إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ولم تقف دلالة الهمزة والباء عند هذا الحد ؛ لأنَّ الجمع بينهما يشير الى معنى لا يعرفه إلَّا من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فبينما يخضع له غيره وينقاد له فيكون في عنفوان القوَّة السياسيَّة والعسكريَّة إذ يأخذه الأجل ويختطفه المنون ، فيا لها من عظة لمتعظ !

---

[١] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٦٤/٢ .

[٢] ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٩٠/٢ .

[٣] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٩٣/٧ ، وينظر : شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار : ٣٣٦/١

المبحث الثاني

أسرار التعبير بحرف الكاف

الكافُ حرفُ جرٍّ مبنيٌّ على الفتح ، وبهذا تختلف عن (اللام والباء) فهما مبنيان على الكسر ؛ وقد فرض بعض النحويين احتمالات متعددة في تعليل ذلك ، جاء في اللباب : ((فإن قيل : لِمَ فُتِحَت (الكاف) وَكُسِرَت (اللَّام ، والباء) ، قيل : الأَصل في الحروف الأحاديَّة الفتحُ ؛ لأنَّها يُبتدأ بها ، والابتداء بالساكن الذي هو الأَصل الأوَّل مُحالٌ ، فحرِّكت ، والضرورة تندفع بأخفَّ الحركات . إلاَّ أنَّ (الباء واللَّام) كُسِرَتا لما ذكرنا قبلُ ، فأمَّا (الكافُ) فتكون حرفاً وتَكون اسماً ، فبعدت من اللَّام والباء فردَّت إلى الاصل . وقيل : إنَّ الكاف من أَعلى الحلق ففيها نوع من استعلاء فكسرها مستثقل . وقيل : هي قريبة من مخرج الياء فيثقل كسرها كما يثقل كسر الياء)) [١].

وهذا الحرف مختصٌّ بالظاهر مطلقاً ، بمعنى أنَّه لا يختصُّ بظاهر دون آخر [٢] ، ولا يدخل على المضمر إلَّا في الشعر[٣] ، وذهب ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) في شرح التسهيل إلى أنَّ سبب ذلك يعود إلى استغنائهم عنها بكلمة (مثل) التي تدخل على المضمر ، يقول : ((فكما استغني في الغاية مع المضمر بإلى عن حتى ، استغني في التشبيه مع المضمر بمثْل عن الكاف . إلَّا أنَّ الكاف خالفت أصلها في بعض الكلام لخفّتها ...)) [٤].

---

[١] اللباب في علل البناء والإعراب : ١/ ٣٦٢ .

[٢] ينظر : شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، لمحمد بن عبد المنعم الجَوجَري : ٢/ ٥٥٤.

[٣] ينظر : الجنى الداني : ٨٩ .

[٤] شرح تسهيل الفوائد ، لابن مالك : ١٧١/٣، وينظر : الكتاب : ٣٨٣/٢ .

ولم يتجاوز عدد المعاني التي ذكرها النحويون لحرف الكاف دلالتها على أربعة معانٍ ، هي (التشبيه ، وبمعنى على ، والتعليل ، والتوكيد) [1]، إلَّا أنَّ ابن هشام الأنصاري نقل عن بعض النحويين معنى آخر للكاف هو دلالتها على المبادرة وذلك إذا اتصلت بما ، واصفاً هذا المعنى بأنَّه غريبٌ جداً [2] .

ولا ريب في أنَّ دلالتها على التشبيه هي الدلالة الأصلية لهذا الحرف ؛ ولذا نجد بعض النحويين قد قصر دلالة الكاف عليه ، ومنهم المالقي ، جاء في رصف المباني عند بيان أقسام الكاف : ((الجارة لا تكون أبداً إلا للتشبيه))[3] ، وسار في هذا الاتجاه بعض المحدثين إذ أرجعوا الدلالات الأخرى إلى معنى التشبيه ، يقول الدكتور فاضل السامرائي : ((وما ذُكِرَ لها من معانٍ أخرى ترجع في حقيقتها إلى معنى التشبيه))[4] ويؤيِّد هذا الرأي ما نجده من كثرة استعمال الكاف في معنى التشبيه إلى الحدِّ الذي يجعلنا نطمئن بأنَّه المعنى الرئيس لها ، وأمَّا الدلالات الأخرى التي ذكروها فهي من باب تغليب دلالة السياق على دلالة الحرف .

وقد اهتم البيانيون بمبحث التشبيه وما يرتبط به اهتماماً كبيراً ؛ لأنَّ ((التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيداً ؛ وهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغنِ أحدٌ منهم عنه))[5] ، وهذا هو الذي دعا عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) إلى القول بأنَّ ((التشبيه والتمثيل والاستعارة ... أصولٌ كبيرة ، كأنَّ جُلَّ

---

(١) ينظر : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٩٧/٢ ، و شرح التصريح على التوضيح : ٦٥٤/١ ، و ضياء السالك إلى أوضح المسالك ، لمحمد عبد العزيز النجار : ٢٨٦/٢ .

(٢) ينظر : مغني اللبيب : ٢٣٧/١ ، ومثَّل ابن هشام له بمثالين مصنوعين ، هما : سلِّم كما تدخل وصلِّ كما يدخل الوقت .

(٣) رصف المباني : ١٩٥ .

(٤) معاني النحو : ٥٢/٣ .

(٥) الصناعتين ، لأبي هلال العسكري : ٢٤٣ .

محاسن الكلام إن لم نقل كُلَّها متفرّعة عنها ، وراجعة إليها ، وكأنها أقطابٌ تدور عليها المعاني في مُتصرَّفَاتها ، وأقطارٌ تُحيط بها من جهاتها))[1] .

ويبدو أنَّ أهمية التشبيه في نهج البلاغة ترتبط بقدرته على إيجاد بعض المعاني الخاصَّة لدى المتلقِّي كالترغيب أو التنفير أو غيرهما ممَّا يتناسب وأنواع النثر المذكورة في نهج البلاغة ، وقد ألفَتَ ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) إلى هذه النكتة التي يؤدِّيها التشبيه ، بقوله : ((إنّك إذا مثّلتَ بالشيء فإنّما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبَّه به أو بمعناه ، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه ، ألا ترى أنّك إذا أشبهتَ صورةً بصورةٍ وهي أحسن منها ، كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبهتها بصورة أقبح منها، كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً يدعو إلى التنفير عنها)) [2] ، فإذا انضمَّ إلى ذلك اختيار الطريقة المناسبة لإبراز المشابهة دقَّ المعنى وتفاوتت الدلالة ؛ لأكثر من جهة :

الجهة الأولى : وجود أداة التشبيه أو عدم وجودها ، فهناك تناسب طرديٌّ بين وجود الأداة ووجود الفروق بين المشبَّه والمشبَّه به ، فكلَّما وجِدت (الأداة) وجِد الفرق إلى جانب التشابه بينهما ، أمَّا إذا حذفت الأداة فسيكون ذلك مدعاة لإلغاء الفروق بين الطرفين ، وهذا ما صرَّح به الجرجاني بقوله : ((إنّ المشبِّه الشيءَ بالشيء من شأنه أن ينظرَ إلى الوصف الذي به يجمع بين الشيئين ، وينفيَ عن نفسه الفكر فيما سواه جملةً ، فإذا شبَّه بالأسد ، ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، ألقى ما عداها فلم ينظر إليه ، فإنْ هو قال : زيدٌ كالأسد ، كان قد أثبتَ له حظّاً ظاهراً في الشجاعة ، ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال : هو الأسد ، تناهَى في الدعوى ، إمَّا قريباً من المحقِّ لفرط بسالة الرجل ، وإمَّا متجوِّزاً في القول ، فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يَعدَم منها شيئاً))[3] ، وهذا القول يشير بوضوح إلى ما يترتب على وجود أداة التشبيه أيَّاً كانت تلك الأداة ، وهو الدلالة على اثنينيَّة المشبَّه والمشبَّه به ،

---

[1] أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني : ٢٧ .

[2] المثل السائر : ٣٧٨ .

[3] أسرار البلاغة : ٢٥٠ ، وينظر : المثل السائر : ٣٧٧ .

مع اثبات التشابُه بينهما ، وهذا بخلاف المشابهة التي لا تعتمد على أداة التشبيه ؛ إذ يُدَّعى فيها أنَّ المشبَّه هو المشبَّه به لا أنَّهما شيئان ؛ لأنَّ حذف الأداة يدلُّ على ((أنَّ الطرفين قد تقارنا بلا حائل ، وتعارفا بلا وساطة ، فليس بينهما مفاضلة ولا مفارقة ، وأنَّ الحدود بينهما قد أُلغيت وصار المشبَّه به هو المشبَّه))[١].

الجهة الثانية : التفاوت في بيان مقدار التشابه ، أي : مقدار وجود الصفة في المشبَّه ، فالشيء الواحد قد يشترك مع غيره في صفة ما ، ولكنَّ اشتراكه يختلف من شيء إلى آخر ؛ فقد يكون قوياً أو متوسطاً أو ضعيفاً ، وهنا تبرز دلالة الأداة ، فكلِّ أداة من أدوات التشبيه تترشَّح عنها نسبة من التشبيه تميزها عن دلالة الأداة الأخرى ، وإن اشركتا في المعنى العام لهما (التشبيه) . وهذا الأمر يقتضي أن نتلمس الفروق الدلالية بين أدوات التشبيه التي قيل بترادفها .

بين الكاف ومثل :

لم يُشِر النحويون إلى الفرق بين معنى (الكاف) و (مثل) ، بل يظهر من كلامهم ما يدلَّ على التساوي الدلالي بينهما ؛ يقول ابن السرَّاج (ت ٣١٦هـ) : ((وأمَّا كاف التشبيه فقولك : أنت كزيدٍ . ومعناها معنى : مثل))[٢] ؛ ولهذا جوَّز كثير من النحويين أن تكون الكاف اسماً في الاختيار ، فإذا قلت : زيد كالأسد ، احتمل الأمرين ؛ إذ يجوز أن تكون حرفاً واسماً ، بل بالغ بعضهم فذهب إلى أنَّ الكاف لا تكون إلَّا اسماً مستدلاً على ذلك بما استظهره من التطابق الدلالي بينها وبين مثل [٣] ، وليس هذا الأمر مقتصراً على القائلين باسمية الكاف في الاختيار، بل يشاطرهم الرأيَ في ذلك النحويون القائلون بحرفية الكاف ، يقول المبرد : ((إنَّ الشَّاعر حيث اضطر إلى

---

[١] البيان في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين : ٣٧ .

[٢] الأصول في النحو : ٤٣٧/١ .

[٣] ينظر : الجنى الداني : ٧٩ .

الكاف الَّتي للتشبيه أَن يجعلها اسماً أجراها مجرى مثل ؛ لأنَّ المعنى واحد ، نحو قولك : زيدٌ كعمرو . إنَّما معناه : مثل عمرو)) [١].

وعلى هذا الأساس فسَّر النحويون جملة من الظواهر النحوية ، كدخول حرف الجر عليها ، جاء في علل النحو : ((وأمَّا (الكاف) التي للتشبيه ، فتكون حرفاً واسماً ، فإذا كانت اسماً قدرتها تقدير (مثل) ، وجاز أَن يدخل عليها حرف الجرّ))[٢] ، والمسوّغ لهذه الظاهرة ـ كما يرى سيبويه ـ هو أنَّ العرب فعلوا ذلك ؛ لأَنَّ ((معنى الكاف معنى مثل)) [٣] ، وهذا هو السبب ـ بنظر الفارسي (ت ٣٧٧هـ) ـ في فتح همزة (إنَّ) بعد الكاف ، يقول : ((قال : وسألته عن قوله : كما أنّه لا يعلم ذاك ، فتجاوز اللهُ عنه ، وهذا حقٌّ ، كما أنّك هنا ، فزعم أنَّ العاملة في (أنّ) الكاف ، وما لغوٌ، ويدُلُّك على أنَّ الكاف العاملة قولهم : هذا حقٌّ مثلما أنّك هنا. قال أبو علي : أي يعمل (مثل) في أنَّ ، وفتحُه إيّاها كفتح الكاف إيّاها ، وإنّما فُتِحَت (أنّ) بعد الكاف كما فُتِحَت بعد (مثل) ؛ لأنّها مضاف إليها ، والمضاف إليه يكون اسماً، و (أنَّ) إذا وقعت موقعَ اسم فُتِحَ))[٤].

وقد لجأ بعض المشتغلين في تفسير اختلاف التعبير في القرآن الكريم إلى هذا التشابه ، فالغرناطي (ت ٧٠٨هـ) ـ مثلاً ـ أرجع اختلاف الضمير في قوله تعالى : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران : ٤٩] وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠] إلى اختلاف اللحاظ بالنسبة لكاف التشبيه ، جاء في ملاك التأويل : ((للسائل أن يسأل عن تذكير الضمير وتأنيثه ... عودة الضمير على اللفظ وما يرجع إليه أولى

---

[١] المقتضب : ٣٥٠/٤ .
[٢] علل النحو ، لابن الورّاق : ٢٠٨.
[٣] الكتاب : ٣٢/١ ، و ينظر : شرح المفصل : ٥٠٤/٤ .
[٤] التعليقة على كتاب سيبويه ، لأبي علي الفارسي : ٢/ ٢٥٣ .

وعودته على المعنى ثانٍ عن ذلك ، وكِلا التعبيرين عالٍ فصيح فعاد في آية آل عمران على الكاف ؛ لأنَّها تعاقب مثل ، وهو مذكر فهذا لحظ لفظي ، ثم عاد في آية المائدة إلى الكاف من حيث هي في المعنى صفة ؛ لأنَّ المثل صفة في التقدير المعنوي فحصل مراعاة المعنى ثانياً على ما يجب)) [1].

وإذا حاولنا التنقيب عن أصل الفرق بين الكاف ومثل في كلمات القائلين بوجود الفروق الدلالية بينها ، فسنجد بعض اللغويين الذين تتبَّعوا الاستعمال العربي لإيجاد الفرق بينهما ، فذهب إلى أنَّ كاف التشبيه تدلُّ على أمرين مجتمعين :

الأوَّل : عدم التماثل التام بين المشبَّه والمشبَّه به ، وهو ما يعني تشابههما في جهة واحدة ، لا من جميع الجهات .

الثاني : تحديد هذه الجهة التي يشترك بها المشبَّه والمشبَّه به ، وذلك بقصرها على الصفات دون الذوات .

وممَّن أشار إلى هاتين الدلالتين أبو هلال العسكري (ت : نحو ٣٩٥هـ) ـ عند تفريقه بين الكاف ومثل ـ يقول : ((الفرق بين كاف التشبيه وبين المثل : أنَّ الشيء يشبَّه بالشيء من وجه واحد لا يكون مثله في الحقيقة إلَّا إذا أشبهه من جميع الوجوه لذاته ... والتشبيه بالكاف يفيد تشبيه الصفات بعضها ببعض ، وبالمثل يفيد تشبيه الذوات بعضها ببعض تقول : ليس كزيد رجل ، أي : في بعض صفاته ؛ لأنَّ كلَّ أحد مثله في الذات ، وفلان كالأسد ، أي : في الشجاعة دون الهيأة وغيرها من صفاته ، وتقول : السواد عرض كالبياض ، ولا تقول : مثل البياض)) [2] ، وقد اعترض الدكتور فاضل السامرائي على تخصيص (مثل) بتشبيه الذوات دون الصفات ؛ لأنَّ

---

[1] ملاك التأويل ، لأحمد بن إبراهيم الغرناطي : ٨٣/١ .
[2] الفروق اللغوية : ٤٤٤ .

العرب تقول : هي مثل الشمس[1] ، ولا يخفى أنَّ ذات الانسان ليست مماثلة لذات الشمس ، فيتعين كون التشبيه متجهاً صوب صفة الحسن والجمال [2] ؛ لأنَّ ((الأشياء تشابه من وجوه ، وتباين من وجوه ؛ فإنَّما ينظر إلى التشبيه من أين وقع ؟ فإذا شبِّه الوجه بالشمس والقمر، فإنَّما يراد به الضياء والرونق ، ولا يراد به العظم والإحراق))[3].

وبناءً على ذلك يكون الحد الفاصل بين الكاف ومثل هو عموم المشابهة بين الطرفين عند التشبيه بمثل والاقتصار على بعض الوجوه عند التشبيه بالكاف ، ولو تأمَّلنا في هذا الفارق فسوف يتبيَّن لنا الخلل الذي ينطوي عليه ؛ لأنَّ (مثل) فيها إمكانية الدلالة على عموم المشابهة ، لا أنَّها تدلُّ على ذلك بصورة دائمة ؛ إذ ((يمكن في حالات خاصة أن ترصد جميع الأوجه لدرجة التقارب أو التماثل بين الظاهرتين ، كما في قوله تعالى بالنسبة إلى قضية مواراة أحد ابني آدم ، حيث رصد الشبه بين مواراته ومواراة الغراب للطائر على درجة من التماثل ، إذ إنَّ كليهما من ذوي الأرواح ، وكليهما مقتول ، وكليهما يوارى تحت التراب ...الخ)) [4] ، وهذا ما ألمح إليه الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) عند بيانه لدلالة (مثل) ، يقول : ((عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أيّ معنى كان ، وهو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة ؛ وذلك أنّ النّدّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط ، والشّبه يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط ، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمّيّة فقط ، والشّكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط ، والمِثل عامّ في جميع ذلك)) [5].

---

[1] ومنه قول الخنساء : أَغَرُّ أَزْهَرُ مِثْلُ البَدْرِ صُورَتُهُ   صَافٍ عَتِيْقٌ فَمَا فِي وَجْهِهِ نَدَبُ (ديوان الخنساء : ١١٣)

[2] ينظر : معاني النحو : ٥٣/٣ .

[3] الكامل في اللغة والأدب ، لمحمد بن يزيد المبرد : ٤١/٣ .

[4] دراسات فنية في صور القرآن ، د. محمود البستاني : ٦٢٧ .

[5] المفردات في غريب القرآن : ٧٥٩ .

ولهذا يؤيِّد الباحث ما استنبطه الدكتور محمود البستاني من رأي بديع في بيان المستوى الدلالي للكاف والمواقع التي تصلح لها ، وذلك في معرض كلامه عن سر استعمال الكاف في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران : ٥٩] يقول : (((الكاف) إذا قيست بأدوات التشبيه الأخرى (كأنَّ ، مثل) تستخدم (في اللغة القرآنية التي تتسم بالدقة) في مواقع خاصّةٍ تمثّل ما هو مألوف من درجات التشابه بين الشيئين في درجة متوسطة ... ولذلك قد استخدمت الكاف في تشبيه عيسى بآدم في حالة متوسطة هي : كون عيسى يشابه آدم من حيث الإعجاز، ويخالفه من حيث الأصل)) [1].

وممَّا هو جلي في الفرق بين موضع (الكاف) وموضع (مثل) قوله (عليه السلام) : ((**فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ وَ لَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَال**)) [2] ، ولكي نصل إلى سرِّ إيثار أداتي التشبيه ووضعهما موضعهما اللائق بهما ينبغي لنا الإحاطة بكلِّ ما له إسهام في الكشف عن معنى النص ، وأوَّل ما يطالعنا بهذا الصدد هو أنَّ النص ملتقط من كتاب كتبه الإمام (عليه السلام) إلى معاوية جواباً لكتابه إليه[3] ، ويظهر أنَّ المقصود بـ (مَن) في قوله (عليه السلام) : ((**إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي**)) معاويَّة [4] ، وأمَّا السوابق فهي ـ كما ذكر المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ـ ((الأشياء التي

---

[1] دراسات فنية في صور القرآن : ٧٤ ـ ٧٥ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٦٨ .

[3] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٦١/٤ .

[4] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٤ /٥٠ ، إلَّا أنَّ ابن أبي الحديد توسّع في المعنى فقال : ((قوله : إذ صرت يقرن بي مَن لم يسع بقدمي . إشارة إلى معاوية في الظاهر ، و إلى مَن تقدَّم عليه من الخلفاء في الباطن)) وهو ما أيَّد الخوئي في (منهاج البراعة : ٣٩١/١٧) صحته بما جاء في الخطبة الشقشقية من قوله (عليه السلام) : ((**فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِر**)) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٨ ، ويؤيّده أيضاً ما جاء في رسالة معاوية من تقديمه الثلاثة وتفضيلهم ، يقول : ((... أمّا بعد فإنّ اللّه اصطفى محمّدا بعلمه و جعله الأمين على وحيه و الرسول إلى خلقه و اجتبى له من المسلمين أعوانا أيّده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم للّه ولرسوله الخليفة من بعده وخليفة الخليفة من بعد =

استحق بها أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الفضلَ [و] هي : السبق إلى الإيمان ، والهجرة ، والنصرة لرسول اللّه (صلى الله عليه وسلم) ، والقربى منه والقناعة ، وبذل النفس له ، والعلم بالكتاب والتنزيل ، والجهاد في سبيل الله ، والورع ، والزهد ، والقضاء ، والحكم ، والفقه ، والعلم ، وكلٌّ ذلك لعلي (عليه السلام) منه النصيبُ الأوفر، والحظ الأكبر، إلى ما ينفرد به من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين آخى بين أصحابه : أنت أخي ، وهو (صلى الله عليه وسلم) لا ضد له ، ولا ند ، وقوله صلوات الله عليه : أنت مني بمنزلة هرون من موسى ، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي ، وقوله عليه الصلاة والسلام : مَن كنت مولاه فعلي مولاه ، اللّهم والِ من والاه ، وعَادِ من عاداه ، ثمَّ دعاؤه عليه السلام وقد قدَّم إليه أنسٌ الطائرَ : اللّهم أدخل إليَّ أحَبَّ خلقك إليك ليأكل معي من هذا الطائر، فدخل عليه علي ، إلى آخر الحديث ، فهذا وغيره من فضائله وما اجتمع فيه من الخصال ممَّا تفرق في غيره)) [1].

وبتأمُّل ما جاء في هذا النص نجد ورود الحرفين في سياق منفي ، ولكن (الكاف) جاءت في حيز نفي التشابه بينه (عليه السلام) وبين معاوية ، و(مثل) في حيز نفي التشابه بينه (عليه السلام) وبين أيِّ واحد من المسلمين ، ويبدو أنَّ السرَّ في استعمال (الكاف) في الموضع الأوَّل ، هو إرادة نفي أيِّ تشابه بينهما على مستوى السوابق ولو في جزء من سابقة من سوابقه (عليه السلام) التي يعرف القاصي والداني أنَّه (عليه السلام) فاز بها أجمع ، وهو ما يستلزم نفي اتصاف معاوية بأيَّة سابقة ؛ إذ ((لا سابقة لمعاوية الَّا الكفر و القيام ضد الاسلام ، لمحاربة الرسول (صلّى اللّه عليه و آله وسلم)))[2] .

وأمَّا مثل فقد استعملت في الموضع الأليق بها ، فهي في سياقها المنفي لا تدلُّ على نفي السوابق عن غيره (عليه السلام) من المسلمين ؛ لأنَّ بعضهم حاز قسماً منها ، وهو ما يستلزم التشابه بينه وبين الإمام (عليه السلام) في هذا القسم ، وهنا يبرز أثر الأداة

= خليفته والثالث الخليفة عثمان المظلوم . فكلّهم حسدت و على كلّهم بغيت . عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك البجر ...)) شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٦١/٤ .

[1] مروج الذهب ، لعلى بن الحسين المسعودي : ٣٤٦/١ ، وينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٣٨/١٧ .

[2] توضيح نهج البلاغة : ٤٤٢/٣

(مثل) فهي تنفي درجة التماثل بين ما عنده (عليه السلام) وما عند غيره ، فهو (عليه السلام) أعلمهم وأقضاهم وأشجعهم وأزهدهم و...

ومن لطيف استعمال الكاف ما نجده من هيمنة لهذا الحرف على بعض النصوص التي تشتمل على متشابهات متعددة في وجه ما مع اشتمال كلٍّ واحد منها على خصائص لا توجد في مشاركيه ، وهذه هي الدلالة التشبيهية الوسطى لحرف الكاف ، يقول (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَ تَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ؛ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ ، وَالْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ**)) [1] ، ومقام هذه الخطبة يُنبئ عن الهدف الذي يُصوِّب التشبيه نحوه ، فقد ذُكِرَ أنَّه لمَّا عزم الإمام علي (عليه السلام) على الخروج من الكوفة إلى الحرورية ، وكان في أصحابه منجِّم ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، لا تَسر في هذه الساعة و سِر على ثلاث ساعات مضين من النهار؛ فإنَّك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصحابك أذى و ضرّ شديد ، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت[2]. وهذا الإخبار ـ مع علم الإمام (عليه السلام) ببطلانه ـ سيؤثِّر على عزيمة الجيش إذا خالفه الإمام (عليه السلام) ؛ ولهذا خطبهم (عليه السلام) بهذه الخطبة ، قبل مخالفته لإخبار المنجِّم ، فأراد أوّلاً أنَّ ينفِّرهم من التنجيم فشبَّهه بالكهانة والسحر والكفر ؛ لأنَّ ((التنفير يكون بإبراز جوانب قُبحِه ، عن طريق تشبيهه بما هو مكروه للنفوس ، أو تنفر النفوس منه))[3] .

وأمَّا السرُّ في استعمال الكاف دون غيرها من أدوات التشبيه في الموارد الثلاثة ، فيبدو أنّه راجع إلى قدرتها الدلالية على بيان الجهة التي يشترك فيها الأفراد الأربعة (المنجِّم ، والكاهن ، والساحر ، والكافر) ، فحرف الكاف ؛ بما له من خصوصية دلاليَّة يشير إلى جهة واحدة يرتبط بها المشبه بالمشبه به في الموارد الأربعة ، وهذه

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٠٥.

[2] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١، ثم ذكر ابن أبي الحديد أنَّه (عليه السلام) سار في الساعة التي نهاه عنها المنجِّم ، فظفر بأهل النهر و ظهر عليهم ، ثم قال : لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم ، لقال الناس : سار في الساعة التي أمر بها المنجِّم ، فظفر و ظهر ، أما إنَّه ما كان لمحمد (صلى الله عليه وآله) منجِّم و لا لنا من بعده حتى فتح الله علينا بلاد كسرى و قيصر ، أيُّها الناس توكَّلوا على الله و ثقوا به ؛ فإنَّه يكفي ممَّن سواه .

[3] البلاغة العربية : ٢/ ١٦٩.

الجهة هي الجهة التي تترتب عليها نتيجة واحدة هي الدخول الى النار ، فالمنجم ـ في نهاية المطاف ـ كالكافر يستحق النار ، وفي ذلك تنفير وتحذير يجعل الإنسان يقف من التنجيم موقفاً لا يتعاطاه أو يعمل به [١] .

وقد تباينت كلمات الشرَّاح في بيان الصفة التي يشترك بها الأفراد الأربعة ، فذهب السيِّد عباس الموسوي إلى أنَّها الإخبار عن الأمور الغيبية بمقدمات ظنية بل قد تكون وهميَّة[٢] ، واحتمل الخوئي احتمالات متعدِّدة لم يرجِّح أحدها ، يقول : ((و وجه الشّبه إمّا الاشتراك في الاخبار عن الغايبات أو في الكذب والإخبار بالظنّ والتخمين والاستناد إلى الامارات الضعيفة والمناسبات السّخيفة أو في العدول والانحراف عن سبيل الحقّ والتمسك في نيل المطالب ودرك المآرب بأسباب خارجة عن حدود الشّريعة وصدّهم عن التوسل إلى اللّه بالدعاء والصدقة وساير أصناف الطاعة)) [٣] وأمَّا ابن ميثم البحراني ، فقد رجَّح الوجه الأخير ، وهو الأقرب إلى الصواب ؛ لأنّ التشبيه يستدعي أن يكون الوصف أظهر في المشبَّه به منه في المشبَّه[٤] ؛ ولذا تقرَّر في البلاغة أنَّ ((من أبرز عيوب التشبيه ألَّا تكون الصفة المراد نسبتها إلى المشبَّه ظاهرة في المشبَّه به ، فهذا ينقض الغرض الأصلي من التشبيه))[٥] ، فوجه الشبه في الكلّ هو ما يشتركون به من العدول والانحراف عن طريق اللّه بالتنجيم والكهانة والسحر والكفر وما يلزم من ذلك من صدّ كثير من الخلق عن سبيل اللّه ، مع احتفاظ كلِّ واحد منهم بما يُميِّزه عن الآخر ، فالكاهن يتميّز عن المنجّم بكون ما يُخبر به من الأمور الكائنة إنّما هو عن قوّة نفسانيّة له ، وهذا أدعى إلى فساد أذهان الخلق وإغوائهم لزيادة اعتقادهم فيه على المنجّم ، وأمّا الساحر فيتميّز من الكاهن بأنّ له قوّة على التأثير في أمر خارج عن بدنه آثاراً خارجة عن الشريعة مؤذية للخلق كالتفريق بين الزوجين ونحوه وتلك زيادة شرّ آخر على الكاهن أدعى إلى فساد أذهان الناس

---

[١] ينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٤٤٨/١

[٢] ينظر : المصدر نفسه : ٤٤٨/١

[٣] منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٦٢/٥

[٤] ينظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم بن محمد القرطاجني : ٢٣ ، و بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، لعبد المتعال الصعيدي : ٤١٥/٣ .

[٥] في البلاغة العربية (علم البيان) ، د. محمد مصطفى هدارة : ٤٢ .

وزيادة اعتقادهم فيه وانفعالهم عنه خوفاً ورغبة ، وأمَّا الكافر فيتميّز عن الساحر بالبعد الأكبر عن اللّه تعالى وعن دينه وإن شاركه في أصل الانحراف عن سبيل اللّه [1].

بين الكاف وكأنَّ :

مثلما حاول النحويون التقريب بين الكاف ومثل بإلغاء الفروق بينهما ؛ فإنَّهم حاولوا التقريب بين الكاف وكأنَّ بجعل الثانية مركبة من كاف التشبيه و(إنَّ) التوكيدية ، يقول سيبويه : ((وسألت الخليل عن كأنَّ ، فزعم أنهَّا إنَّ ، لحقتها الكاف للتشبيه ، ولكنَّها صارت مع إنَّ بمنزلة كلمة واحدة))[2] ، وقد علَّل ابن جني دخول الكاف على (إنَّ) بقوله : ((ومن إصلاح اللفظ قولهم : كأنَّ زيداً عمرو . اعلم أنَّ أصل هذا الكلام : زيدٌ كعمرو ، ثم أرادوا توكيد الخبر فزادوا فيه (إنَّ) فقالوا : إنَّ زيداً كعمرو ، ثم إنَّهم بالغوا في توكيد التشبيه فقدَّموا حرفه إلى أول الكلام عناية به وإعلاماً أنَّ عقد الكلام عليه ، فلمَّا تقدَّمت الكاف وهي جارّة لم يجز أن تباشر (إنَّ) ؛ لأنَّها ينقطع عنها ما قبلها من العوامل فوجب لذلك فتحها ؛ فقالوا : كأنَّ زيداً عمرو)) [3]، والحقيقة أنَّ هذا الرأي لا يصلح تفسيراً للقول بتركيب (كأنَّ) في جميع الموارد ؛ لأنَّ الكاف لا يمكن أن تدخل على خبر (إنَّ) عندما يكون فعلاً ، فقولنا : كأنَّ زيداً يقرأ ، لا يمكن أن يكون أصله : إنَّ زيداً كيقرأ ، فضلاً عن ذلك فإنَّه لا يجوز تشبيه الاسم بالفعل .

ويبدو أنَّ هذا السبب هو الذي جعل السهيلي (ت ٥٨١هـ) ينحو منحًى آخر في بيان أصل كأنَّ ، فذهب إلى أنَّ الكاف باقية على أصلها في الدخول على المشبَّه به ،

---

(1) ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٢/٢٢١ .

(2) الكتاب : ٣/١٥١.

(3) الخصائص : ١/٣١٨ ، وينظر : الاصول في النحو : ١/٢٣٠ ، والإنصاف في مسائل الخلاف ، لأبي البركات الأنباري : ١/١٦١ ، و اللباب في علل البناء والإعراب : ١/٢٠٥ ، التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين ، لأبي البقاء العكبري : ٣٦٠ ، وشرح الأزهرية ، لخالد بن عبد الله الأزهري : ٢٧ .

ولكنَّ التشبيه بها ـ بعد تركيبها مع أنَّ ـ تخصَّص بتشبيه الأخبار بعضها ببعض ، فهي تدلُّ على أنَّ الخبر الداخلة عليه شُبِّهَ به خبر آخر ، يقول : (((كأنَّ) مخالفة لأخواتها من وجه وموافقة من وجه ، من حيث كانت مركبة من (كاف) التشبيه ، و (أنَّ) التي للتوكيد ، فكان أصلها : إنَّ زيداً الأسد ، أي : مثل الأسد ، ثم أرادوا أن يبيِّنوا أنَّه ليس هو بعينه ؛ فأدخلوا الكاف على الحديث المؤكد إنَّ ، لتؤذن أنَّ الحديث مشبَّه به ، وحكم (إنَّ) إذا دخل عليها عامل أن تفتح الهمزة منها ، فصار اللفظ : كأنَّ زيداً الأسد ... ووقع في خبرها الفعل نحو قولك : كأنَّ زيداً يقوم . والجملة نحو : كأنَّ زيداً أبوه أمير ... والكاف تدلُّ على أنَّ خبراً أشبه من هذا الخبر، وذلك الخبر الذي شُبِّه بهذا الخبر هو الذي دلَّ عليه (زيد) فكان المعنى : زيد قائم وكأنَّه قاعد . و زيد أبوه وضيع وكأنَّ أبوه أمير ، فشبَّهت حديثاً بحديث ، والذي يؤكِّد الحديث (أنَّ) والذي يدلُّ على التشبيه (الكاف) فلم يكن بدٌّ من اجتماعهما))[1]، ولا يخفى ما في هذا التفسير من بُعد عن المعنى المراد ، فلا ريب أنَّ المعنى المتبادَر من قولنا : كأنَّ زيداً أسدٌ ، هو تشبيه زيد بالأسد في شجاعته ، لا تشبيه قول مقدَّر هو : زيدٌ جبان وكأنَّه أسد ، فضلاً عن ذلك فالمشبَّه من الأركان الأساسية التي لا يمكن حذفها في باب التشبيه ؛ لأنَّ حذفه يعني انقلاب التشبيه إلى الاستعارة .

وأمَّا البيانيون فقد اتجه بحثهم ـ مع إيمانهم بتركيب كأنَّ ـ صوب المعنى ؛ فرأوا أنَّ الفرق بين الكاف وكأنَّ من ثلاثة أوجه [2]:

الأوَّل : أنَّ الكاف يليها المشبَّه به ، وكأنَّ يليها المشبَّه .
الثاني : أنَّ الكاف تدلُّ دائماً على التشبيه ، بخلاف كأنَّ فهي تفيد التشبيه ، إذا كان خبرها جامداً أو مؤولاً به ، أمَّا إذا كان خبرها مشتقاً فهي تفيد الشك .

---

[1] نتائج الفكر : ٢٦٦.

[2] ينظر : علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع) ، لأحمد بن مصطفى المراغي : ٢٣٢ ، و المنهاج الواضح للبلاغة ، لحامد عونى : ٧٦/١ ، و البلاغة العربية : ١٦٣/٢ .

الثالث : التشبيه بكأنَّ أبلغ من التشبيه بالكاف ، لما فيه من التوكيد ، لتركُّبها من : الكاف ، وأنَّ .

ويبدو أنَّ هذه الفروق نابعة من التغيُّر الوظيفي لكاف التشبيه بعد تركيبها مع إنَّ ؛ لأنَّ « الكلمتين إذا رُكِّبتا وكان لكلٍّ منهما معنًى على حدة أصبح لهما بعد التركيب معنًى جديد وحكم جديد » [١] وتحديد المعنى الجديد ـ بلا شكٍّ ـ راجع إلى الاستعمال العربي الصحيح ؛ ولهذا خالف الدكتور محمود البستاني ما ذهب إليه البلاغيون من كون التشبيه بـ (كأنَّ) أبلغ من التشبيه بـ (الكاف) ، ورأى أنَّ الفارق بينهما هو « أنَّ الكاف تتناول أوجه الشبه بين الشيئين في المنحنى المتوسط وأنَّ (كأنَّ) تتناول ما دون ذلك »[٢] مستدلاً على صحَّة رأيه بما لاحظه في الذكر الحكيم من التفاوت الدلالي في استعمال الكاف في تشبيه (الشرر) بـ (القصر) واستعمال كأنَّ في تشبيه (الشرر) بـ (جمالة صفر) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ • كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : ٣٢ ـ ٣٣] ، يقول : « نجد أنَّ الشرر قد شُبِّهَ بالبنيان من حيث الضخامة من خلال أداة (الكاف) ، وهذا ما يتناسق تماماً مع المنحنى المتوسط ، أي : التشبيه المألوف الذي يتناول أوجه الشبه المتقاربة بين الشيئين ، إذ إنَّ كُلًّا من الشرر والبنيان متقاربان في الحجم ، وهذا على عكس اللون ، فصفرة كلٍّ من البنيان أو الشرر لا تصل إلى درجة التقارب التي لحظناها بين الشرر والبنيان ، من حيث الحجم ، بل هي أقلُّ من المنحنى المتوسط أو المألوف ، ولذلك قد استخدمت الأداة (كأنَّ) لتشير إلى الدرجة الأقل في التشابه » [٣].

وما توصَّل إليه الدكتور البستاني مبني على عدم المطابقة في اللون بين المشبَّه والمشبَّه به ؛ لأنَّ الشرر عبارة عن مادة محترقة ، فهي ذات لونين : لون المادة

---

(١) في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي : ٢٣٨ .

(٢) دراسات فنية في صور القرآن : ٦٨٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٨٢ .

المتفحِّمة ، ولون اللهب الأصفر ، فيكون لون الشرر أسود تعلوه الصفرة ، ووصفها بالأصفر فقط يعطي النسبة الأقل من التشابه .

والحقيقة أنَّ هذا نابع من قصر النظر على الصفة (صُفر) التي تعطي بمفردها اللون الأصفر فقط ، وهو غير مراد هنا ؛ لأنَّه مخالف للاستعمال العربي ؛ لأنَّك ((لا ترى أسوَدَ من الإبل إلّا وهو مُشرَب بصفرة ، فلذلك سمَّت العرب سودَ الإبل : صفراً ، كما سَمّوا الظبَّاء : أُدماً لما يعلوها من الظلمة في بياضها))[1] ، وهذا ما نقله جملة من المفسرين واللغويين[2] ، يقول الزجاج : ((يقال للإبل التي هي سود تضرب إلى الصُّفرَة : إبل صُفر))[3] ، ويقول ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) : ((والبعير الأصفر هو الأسود ؛ لأنَّ سواده تعلوه صفرة))[4] ؛ ولهذا فالأداة (كأنَّ) لا تشير إلى الدرجة الأقل من التشابه ، بل هي تشير إلى درجة أعلى من (الكاف) وأقل من (مثل) ، وهو ما يبرهن عليه التشبيه السابق ؛ فإنَّ ((الشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقيَّة من لون النار أشبه شيء بالإبل السود)) [5].

فضلاً عمَّا تقدَّم فالمتتبع لما جاء في بعض الآيات الكريمة التي استعمل فيها الحرفان (الكاف ، وكأنَّ) سيجد ما يَنقُضُ رأي الدكتور البستاني ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ** ﴾ [النمل : ٤٢] ومعلوم أنَّ العرش المسؤول عنه هو عرشها الحقيقي الذي أُجرِيَ عليه بعض التعديلات ، ويدلُّ على ذلك الآيات السابقة ﴿ **قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ... قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل : ٣٨ـ٤١].

---

[1] معاني القرآن ، لأبي زكريا الفراء : ٢٢٥/٣ .

[2] ينظر : مجمع البيان ، للفضل بن الحسن الطبرسي : ٢٠٩/١٠ ، و نظم الدرر ، لإبراهيم بن عمر البقاعي : ١٧٩/٢١ ، وإرشاد العقل السليم : ٨١/٩ ، وفتح القدير ، لمحمد بن علي الشوكاني : ٤٣٤/٥ ، وروح المعاني : ١٩٥/١٥، و فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، لمحمد صديق خان البخاري : ١٩/١٥ .

[3] معاني القرآن وإعرابه : ٢٦٨/٥ .

[4] غريب القرآن ، لابن قتيبة الدينوري : ٤٣٣ .

[5] فتحُ البيان في مقاصد القرآن : ١٩/١٥ .

ويبدو أنَّ السر في استعمال كاف التشبيه في السؤال مرتبط بدلالتها على الدرجة الوسطى في التشابه ـ كما تقدَّم ـ ؛ لئلَّا يتضمن السؤال تلقيناً للجواب ، فلو صِيغَ السؤال بطريقة أخرى لتمكَّن المتلقي الحاذق من اصطياد ما يوحي بالجواب ؛ ولذا ((لم يقُل : أهذا عرشُكِ ؛ لئلاً يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتَّنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتَّى يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه الصَّلاة والسَّلام بسخافة العقل)) [(١)] .

وأمَّا عدول بلقيس إلى الأداة (كأنَّ) في الجواب ، مع علمِها بحقيقةِ الحالِ ، فلم تجزم في الصورة المحتملة بأحد الجائزين من كونه إيَّاه أو من كونه ليس إيَّاه [(٢)]، فبلقيس ((أجابت بما أنبأ عن كمال عقلها حيث لم تجزم بأنَّه هو ؛ لاحتمال أن يكون مثله بل أتت بكأنَّ الدالة ـ كما قيل ـ على غلبة الظن في اتحاده معه مع الشك في خلافه))[(٣)] ، وهو ما أشار إليه السيد الطباطبائي (ت١٤١٢هـ) بقوله : ((وقوله : قالت كأنَّه هو . المراد به أنَّه هو ، وإنَّما عبَّرت بلفظ التشبيه تحرزاً من الطيش والمبادرة إلى التصديق من غير تثبت ، ويكنَّى عن الاعتقادات الابتدائية التي لم يتثبت عليها غالباً بالتشبيه))[(٤)] ، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ (كأنَّ) تدلُّ على درجة أقوى من الدرجة المتوسطة في المشابهة ، وقد أحسن ابن المنير الاسكندري في الكشف عن سرِّ استعمالها في جواب بلقيس ، يقول : ((وفي قولها : كَأَنَّهُ هُوَ . وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال ، بأن تقول : هكذا هو ، نكتة حسنة ... فلا بُدَّ في اختيار كأنَّه هو من حكمة ، فنقول : حكمته ـ والله أعلم ـ : أنَّ كأنَّهُ هو عبارة مَن قرُب عنده الشبه

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٢٨٨/٦ ، وينظر : التبيان في تفسير القرآن ، لمحمد بن الحسن الطوسي : ٩٨/٨ ، ومجمع البيان : ٣٨٧/٧ ، والبحر المحيط : ٨/ ٢٤٢ .

(٢) ينظر : الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية ، لنعمة الله بن محمود النخجواني : ٦٤/٢ ، واللباب في علوم الكتاب ، لعمر بن علي النعماني : ١٦٩/١٥ .

(٣) روح المعاني : ٢٠٢/١٠

(٤) الميزان في تفسير القرآن : ٣٦٥/١٥

حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين ، فكاد يقول : هو هو ، وتلك حال بلقيس . وأمَّا هكذا هو ، فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير ، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها والله أعلم))[1].

وكلام الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة شاهد على هذا الأمر ؛ إذ استعملت (كأنَّ) فيه للدلالة على الدرجة العالية من التشابه ، في الوقت الذي استعملت فيه الكاف للدلالة على الدرجة المتوسطة من التشابه ، يقول (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ وَ التَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ ، مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ وَ إِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ ، كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعًى وَبِيٍّ وَ مَشْرَبٍ دَوِيٍّ ، وَ إِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا وَ شِبَعَهَا أَمْرَهَا**))[2]، وهنا نجد تشبيهين اختلف الشرَّاح في بيان المراد بالثاني منهما (هي كالمعلوفة) ، فذهب بعضهم إلى أنَّه تشبيه آخر للغافلين[3] ، وذهب آخرون إلى أنَّه تشبيه للنَعَم[4] ، وظاهر العبارة يؤيِّد القول الأخير لئلَّا يبقى الضمير المؤنث (هي) بلا مرجع .

ولم أجد في كلام الشرَّاح ما يشير إلى السرِّ في استعمال (كأنَّ) في التشبيه الأول ، ثمَّ العدول عنها إلى (الكاف) في التشبيه الثاني ، والذي يبدو لي أنَّه استعمل في كلٍّ واحد منهما أداة خاصة تبعاً لدرجة التشابه في الغفلة ، والزاوية التي يرصدها المشبِّه ويروم توضيحها ؛ فالتشابه بين غفلة هؤلاء الناس وغفلة النعم ـ من زاوية حياتهما ـ كبير جداً يقترب من درجة التماثل ، الأمر الذي استدعى استعمال الأداة كأنَّ ؛ لأنَّ مَن كان هدفه مجرد إشباع شهواته ـ بغض النظر عن الحلِّية والحرمة ـ فلا فرق بينه

---

(1) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف ، لابن المنير الإسكندري : ٣٦٩/٣ (هامش الكشاف) .

(2) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٥٠. والدوي : يقال داءت الأرض ، وأداءت ، ودويت دوى ، من الداء . ينظر : مقاييس اللغة . (دوى) : ٣٠٩/٢ .

(3) ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٤٧/٣ ، وشرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٣٢/٣ .

(4) ينظر : اختيار مصباح السالكين :٣٦٠ ، و توضيح نهج البلاغة : ٥٤/٣ .

وبين الحيوان إلَّا بالشكل والهيأة[١] ، ويُرسِّخ هذا المعنى ما ذُكِرَ من صفات تلك النعم التي تشير إلى صفات أولئك الغافلين ، فنفوسهم الأمّارة بالسوء هي القائدة لهم إلى المعاصي كما يفعل الراعي الذي يسوق الأنعام إلى المرعى الوبي ، وكون تلك اللذّات والمشتهيات محلّ الآثام الّتي هي مظنّة الهلاك الأخروي فهي تشبه المرعى الوبي والمشرب الدوي [٢].

أمَّا تشبيه غفلة هذه النعم أو غفلتهم بغفلة نعم أخرى أعدت للذبح ، فهو تشبيه من زاوية المآل والعاقبة ، وذو درجة متوسطة وتشابه يتضمن اختلافاً بينهما ؛ لأنَّ النعم التي أُعدَّت للذبح يُعتنى بعلفها وشرابها بخلاف تلك الراعية في مرعى وبي ومشرب دوي وإن اشتركت معها في الغفلة عن النهاية المأساوية لها ، وهي الموت . والأمر أكثر وضوحاً عند تشبيه الغافلين بالنعم من هذه الجهة ، وقد أشار ابن ميثم البحراني إلى ما به الاشتراك دون أن ينبِّه على الفرق بين الغفلتين ، وهو بهذا الصنيع لا يعتني بدلالة (الكاف) وما يترتب على العدول من الأداة (كأنَّ) إليها ، يقول : ((وجه الشبه أنّهم لعنايتهم بلذّات الدنيا من المطاعم والمشارب كالنعم المعتنى بعلفها ، وكون ذلك التلذّذ غايته الموت تشبه غاية المعلوفة وهي الذبح ، وكونهم غافلين من غاية الموت وما يراد بهم يشبه غفلة النعم عن غايتها من الذبح ، وكونهم يظنّون أنّ الإحسان إليهم ببسط اللذّات الدنيويّة في بعض الأوقات دائم في جميع أوقاتهم وأنّ شبعهم في هذه الحياة وريّهم هو غايتهم الّتي خلقوا لأجلها وتمام أمرهم يشبه غفلة النعم في حال حضور علفها في بعض الأوقات عمّا بعده من الأوقات وتوهّمها أنّ ذلك غايتها الّتي خلقت لأجلها، ووجه هذا الشبه مركّب من هذه الوجوه))[٣] ، ومع وجاهة هذا البيان في إيضاح جهة الاشتراك إلا أنَّنا نشعر بالفرق بين الغفلتين ؛ لأنَّ الأنعام تدرك ما من

---

[١] ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٥٢٢/٢ .

[٢] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٤٧/٣ .

[٣] المصدر نفسه : ٣٤٧/٣ .

شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجهد في جلبها أو دفعها غاية ما يمكنها ، ومسيرها نحو النهاية المأساوية ليس عن تقصير منها ، فلا تكون بمحلِّ الملامة ، أمَّا هؤلاء فليسوا كذلك ؛ لأنَّهم عطَّلوا عقولهم بتقصير منهم وإعراض ، فأوقعوا أنفسهم في مهاوي الشقاء الأبدي ؛ لذا فالأنعام تتميز عنهم من هذه الجهة ، فهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً .

وأحسب أنَّ الاستعمال الفني المتقن في نهج البلاغة يلفتنا إلى هذه النكتة في استعمال الأداتين ، فنجده (عليه السلام) يستعمل كأنَّ في التشبيه ليوحي بتقارب المتشابهين في حين يستعمل الكاف ليوحي ـ إلى جانب دلالتها على التشبيه ـ بوجود الاختلاف بينهما ، ففي تشبيهه لأصحاب الفرق الضالة بأئمة أنفسهم ، يقول (عليه السلام) : ((**كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ**)) [1]، ولم يقل (عليه السلام) : كلُّ امرئ منهم كإمام نفسه ؛ لأنَّ تصرفاتهم التي لها صفة الإمامة غير مقتصرة على شأنٍ واحد من شؤون الإمامة ، بل تتضمَّن نسبة عالية منها ، لا ينقصها سوى الإعلان عنها بين الملأ ، ويؤيِّد هذا الأمر ما ذكره (عليه السلام) قبل هذا التشبيه من صفات عشر اتصفوا بها ، يقول (عليه السلام) : ((**فَيَا عَجَباً وَمَا لِيَ لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ وَ لَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ وَ لَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ وَ لَا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا وَ الْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَ تَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ ...**)) [2]

وأمَّا في تشبيهه (عليه السلام) لمجتني الثمرة بالزارع فقد استعمل (عليه السلام) الكاف ولم يستعمل كأنَّ ؛ لوجود ما يختلفان فيه ، يقول (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ**

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٢١ .
[2] المصدر نفسه : ١٢١ .

الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ وَ ضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ هَذَا مَاءٌ آجِنٌ وَ لُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا وَ مُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ))[١] ، والجميل في هذا التشبيه والتشبيه السابق ما نلحظه من تأخير التشبيه عن الموعظة ـ هنا ـ وعن بيان صفات أصحاب الفرق الضالة ـ هناك ـ الأمر الذي ينبئ عن غرض دقيق يرتبط بالجانب النفسي للمتلقي ؛ لأنَّ مجيء التشبيه في أعقاب المعاني ((يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها ، مدحاً كانت ، أو ذمَّاً أو افتخاراً ، أو غير ذلك)) [٢].

وأمَّا السرُّ في استعمال (الكاف) في هذا التشبيه ، فهو مرتبط بدلالة الكاف على كون الطرفين (المشبَّه والمشبَّه به) غير متطابقين تماماً ، بل هما متشابهان في وجه ما ، مختلفان في وجوه ؛ وقد اختلف الشرَّاح في تشخيص هذا الوجه ، فذهب الخوئي والقزويني وغيرهما إلى أنَّ وجه الشبَّه بين (مجتني الثمرة لغير وقت إيناعها) وبين (الزارع بغير أرضه) هو عدم الانتفاع ، فمن اجتنى الثمرة قبل أن تدرك ، فهو لا ينتفع بها كما لا ينتفع الزّارع بغير أرضه من زرعه ؛ لعدم قدرته على الاقامة في محلّ زراعته ، وعدم إمكان سعيه في إصلاحها بسقيها وحراستها وجبايتها ونحوها ، وعلى هذا يكون المقصود من هذا التشبيه : أنَّ طلبه (عليه السلام) للخلافة بعد أن استولى عليها أبو بكر وجمع حوله الناس المستفيدين من مقامه فإنَّ منازعته والحال كذلك منازعة عقيمة لا ثمرة فيها ولا نفع وراءها [٣] .

ولم يرتضِ محمد تقي النقوي بهذا التوجيه ؛ مستدلاً على بطلانه بعدم صلاحية الأمر العدمي ليكون وجهَ شبهٍ بين المشبَّه والمشبَّه به ؛ لأنَّ الأمر العدمي لا يختصُّ

---

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٢ .

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح : ٣٨٥/٣ .

(٣) ينظر : وأعلام نهج البلاغة : ٥٣ ، ومنهاج البراعة ، للخوئي : ١٣٩/٣ ، وشرح نهج البلاغة ، لمحمد كاظم القزويني : ٢١٧/١ ، وشرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٢٨/١ .

به فرد دون آخر ، و(عدم النّفع) من هذا القبيل ؛ إذ هو غير مختصٍّ بالمشبَّه به ، فمثلاً : إنّ الإنسان والنّار والماء والكتاب وغيرها تشترك في عدم كونها فلكاً أو ملكاً أو غير ذلك ، فهل يجوز أن يقال : الإنسان كالكتاب في عدم كونهما فلكاً مثلاً ؟ والسّر في ذلك هو أنّ وجه الشّبه لا بدّ أن يكون لازماً للمشبّه به حتّى نثبته بسبب التّشبيه للمشبّه ، ففي المثال المشهور : زيد كالأسد . نجد أنَّ وجه الشّبه (الشّجاعة) من لوازم الأسد بمعنى عدم جواز انفكاكه عنه ، فإذا رأينا زيداً متّصفاً بها فنشبّهه به بادّعاء أنّ الشّجاعة صارت من لوازم زيد ، كما في الاسد ؛ ولذا فلا يمكن القول ـ هنا ـ بأنّ عدم الانتفاع الذّى يترتّب على الزّرع بغير أرضه ، من لوازم هذا الزّرع فلا يمكن انفكاكه منه ؛ فإنّ الزّرع بغير أرضه إذا كان برضاء من صاحبها فهو يفيد للزّارع ، كما أنَّ الزّرع للزّارع ولو كان غاصباً غايته لمالك الارض أجرة المثل ، فثبت وظهر أنّ عدم الانتفاع ليس من لوازم الزّرع بغير أرضه مطلقاً أينما وجد بل هو من لوازمه أحيانا [1]. وهذه جملة من الأمور التي يتميز بها الزارع بغير أرضه على مجتني الثمرة لغير وقتها .

ولذا فوجه الشبه هو الإتلاف لا عدم الانتفاع ؛ لأنَّ مجتنى الثّمرة قبل ايناعها متلف لكمالها الوجودي الغائي كما انّ الزّارع للبذر في أرض غير صالحة لها متلف للبذر ، وعلى هذا يكون المقصود من هذا التشبيه : انّ القيام في هذا الوقت إنَّما هو كمجتني الثّمرة قبل وقت ايناعها من حيث اتلاف كمال الحقّ والدّين ، وذلك لأنّ النّاس حديثو عهد بالإسلام وشجرة التّوحيد التّي غرسها النّبي (صلى الله عليه وآله) لم تصل الى كمالها الوجودي الذّى هو غاية لها لعدم وجود المؤمنين الخالصين الّا قليلاً وكثرة المنافقين ، فالقيام الحال هذه يوجب الاختلاف والنّفاق والتّشتت في الآراء وتسليط

[1] ينظر : مفتاح السعادة ، محمد تقي النقوي : ٤/ ٢٧ .

الأغيار وأمثال ذلك من المعوّقين عن حركه الدّين الى صوب الكمال ومنع الكمال الذّى بمنزلة الإتلاف له كإتلاف البذر في أرض غير صالحة [١].

إيثار الكاف على حرف الاستعلاء (على) :

أشار كثير من النحويين إلى دلالة الكاف على معنى (على) في معرض كلامهم عن معاني الكاف ، جاء في أوضح المسالك : ((والثالث : الاستعلاء ؛ قيل لبعضهم : كيف أصبحت ؟ فقال : كخير ؛ أي : عليه ؛ وجعل منه الأخفش قولهم : كن كما أنت ؛ أي : على ما أنت عليه))[٢] ، وهذا المعنى ـ إذا ما قيس بمعاني الكاف الأخرى التي ذكروها ـ قليل الورود في الاستعمال العربي ، كما صرَّح الأشموني[٣] ، ومع إقرارهم بقلَّة ورود هذا المعنى إلَّا أنَّ بعضهم ذهب إلى قياسيته ، يقول الأستاذ عباس حسن : ((واستعمالها في هذا المعنى ، والذي قبله قليل ، ولكنَّه قياسي)) [٤] .

وقد رأى المرادي عدم كفاية الأدلة الواردة في إثبات معنى الاستعلاء للكاف ، ولذا فهو يرى أنَّ الأولى أن تكون الكاف في مثل هذه المواضع دالة على التشبيه ، يقول : ((وأقول تأويل ذلك وردّه إلى معنى التشبيه أولى من ادِّعاء معنًى لم يثبت . وقد أوّل قوله : كخير على حذف مضاف ، أي : كصاحب خير . وأمَّا قولهم : كن كما أنت ، ففيه أربعة أوجه ... وليست الكاف بمعنى الباء ، ولا بمعنى على ، إذ لا دليل على ذلك)) [٥].

---

[١] ينظر : مفتاح السعادة : ٤/ ٣٢ .

[٢] أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٤٣/٣ ، وينظر : اللمحة في شرح الملحة : ٢٤٨/١ ، و ضياء السالك إلى أوضح المسالك : ٢٨٧/٢ .

[٣] شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٩٩/٢ .

[٤] النحو الوافي : ٥١٦/٢ .

[٥] الجنى الداني : ٨٥ ـ ٨٦ .

وما رآه المرادي هو الأليق بدلالة هذا الحرف ، وأمَّا ما لوحظ في الكاف من دلالة على الاستعلاء فمردُّها إلى الظلال المعنويَّة التي تترشَّح من السياق ، ويبدو أنَّ هذه الايماءات السياقية هي التي أغرت بعض شرَّاح النهج بهذا المعنى ؛ ولذا سنقف عند المواضع التي قيل فيها بدلالة (الكاف) على معنى (على) لنبيِّن السرَّ في استعمال (الكاف) فيها وإيثارها على حرف الاستعلاء ، ومنها قوله (عليه السلام) : ((**وَ كَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَ أَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ**))[1] ، يقول الخوئي : ((قوله (عليه السّلام) : فكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات ، كان فعل ناقص والضمير اسمه و (كذلك) خبره ، والكاف فيه إمَّا للتشبيه أو بمعنى (على) كما قاله الأخفش والكوفيّون ... أي : كان عباد اللّه كما وصفناه أو على ما وصفناه))[2] ، وقد رجَّح بعض الباحثين المعنى الثاني ، يقول : ((ونرجِّح القول الثاني ، أي : الكاف بمعنى (على) إذا جعلنا (مصابيح) خبر كان و(كذلك) شبه جملة متعلقة بـ (كانوا) ، فيكون المعنى : كانوا على ما وصفناهم سابقاً مصابيح))[3] ، ولا أرى لهذا الإعراب مدخلية في دلالة الكاف على معنى الاستعلاء ؛ فضلاً عن أنَّ ((التعليق بالأفعال الناقصة ضعيف ، وإنَّما يكون بالخبر الذي هو دال على الحدث لفظاً أو تقديراً))[4] ، بل الذي يبدو أنَّ إمكانية تقدير (على) في هذا الموضع هو المسوِّغ الرئيس لهذا التوجيه ، ولو دقَّقنا النظر فيما سبق هذا التشبيه من كلامه (عليه السلام) لوجدنا دلالة الكاف على التشبيه بما لا يقبل

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٣٤٢ .

[2] منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٤٨/١٤ .

[3] حروف المعاني في نهج البلاغة : ٣٩ ، ولم يُشر أحد من الشرَّاح الى هذا الاعراب ، بل ذكر الخوئي توجيهاً آخر يتناسب والقواعد المطردة ، يقول : ((و مصابيح تلك الظلمات فى بعض النسخ بالنصب و فى بعضها بالرّفع، فعلى النصب يجوز أن تكون بدلا من كذلك بدل تفصيل كما في قوله تعالى أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ. وَ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ و أن تكون حالا من اسم كان على القول بجواز عمل الفعل الناقص فى الحال، و على الرّفع فهو بدل من ضمير كانوا كابدال الّذين ظلموا من ضمير أسرّوا في قوله تعالى وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)) منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٤٨/١٤ .

[4] إعراب الجمل وأشباه الجمل ، د. فخر الدين قباوة : ٢٧٨ .

الشك ، فهو يصف المشبَّهين أولاً بقوله (عليه السلام) : ((يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ وَ يُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ وَ بَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ وَ مَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَ شِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ وَ حَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ))[1] ، ثمَّ يعطف على هذه الأوصاف تشبيهاً مختصراً يشتمل على ما تقدَّمه من أوصاف ، فهم يشبهون أدلَّة الصحراء من جهة معرفتهم بطرق النجاة ، وسرُّ استعمال الكاف هنا نابع من رصد هذه الجهة دون غيرها ؛ ولذا يكون المعنى : كانوا كأولئك الأدلّة في الطرق في الصحاري ، فإنَّ الصحاري والقفار إذا وجدت فيها أعلام منصوبة تدلُّ على الطريق ؛ فإنَّ السائر يستطيع أن يهتدي إلى مراده ويصل إلى غايته ويأمن مضلة الطريق ، وهؤلاء العباد كأعلام الهداية ؛ إذ بهم يهتدي الضالون والسائرون على غير الطريق ، فهم إشعاعات النور في أيام الظلمة ، وبهم ترتفع الغشاوة عن العيون وتنفتح القلوب للَّه و تتوجه إليه ، وهم يوصلون العباد إلى شاطئ الأمن والسلامة [2].

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٣٤٢ .

[2] ينظر : توضيح نهج البلاغة : ٣٦٧/٣ ، و شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢٨/٤ .

المبحث الثالث

أسرار التعبير بحرف اللام

هي لام مختصة بالدخول على الأسماء ، تجرُّ الظاهر والمضمر ، إلَّا أنَّها تكون مكسورة مع الظاهر ، كقولنا : الكتاب لِزيدٍ ، إلَّا مع المستغاث فهي مفتوحة ، نحو : يا لَزيدٍ لِعمرو ، وتكون مفتوحة مع الضمير ، كقولنا : الكتاب لَك ، إلَّا مع ياء المتكلم فهي تكسر لمناسبة الياء ، كقولنا : الكتاب لِي[1] . وقد علّل ابن جني ـ تبعاً لسيبويه ـ كسر اللام مع الظاهر بقوله : ((وأصلها وأصل كلِّ حرف مفرد وقع في أوَّل الكلمة أن يكون متحركًا بالفتح ، نحو : واو العطف ، وفائه ، وهمزة الاستفهام ، ولِام الابتداء ... إلَّا أنَّها كُسرت للفرق بينها وبين لام الابتداء ، وذلك نحو قولك في المِلك : إن زيدًا لِهَذا ، أي : هو في مِلكه ، وإن زيدًا لَهَذا ، أي : هو هذا ؛ فلو فتحت في الموضعين لالتبس معنى المِلك بمعنى الابتداء))[2] ، ورأى السيوطي أنَّ الكسر مُسبَّبٌ عن التخفيف وموافقة معمولها [3].

أمَّا دلالتها فهي كبقيَّة حروف الجر قد توسَّع بعض النحويين في سرد معانيها واقتصر الآخرون على ما يرون رجوع المعاني الأخرى إليه ؛ إلَّا أنّهم اختلفوا في أصل معانيها الذي لا يفارقها ، فذهب فريق الى معنى الملك والاستحقاق [4]، وذهب فريق

---

[1] ينظر : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، د. علي توفيق الحمد ، ويوسف جميل الزعبي : ٢٥٧ . جاء في ص ٢٥٩ : وقد تُكسَر لام المستغاث إن جاء معطوفاً على مستغاث قبله ولم تتكرر (يا) ، كقولنا : يا لَلرجالِ ولِلنساءِ لِلمحتاج .

[2] سر صناعة الاعراب ، لابن جني : ١٠/٢ ، وينظر : الكتاب : ٣٧٦/٢ ـ ٣٧٧ ، والوجوه والنظائر ، لأبي هلال العسكري : ٤٣١ .

[3] ينظر : همع الهوامع : ٤٥٦/٢ .

[4] ينظر : الكتاب : ٢١٧/٤ .

آخر الى معنى المِلك[1] ، ورجَّح غيرهم معنى الاختصاص ؛ لأنَّه أعمُّ هذه المعاني ، فالمِلك هو نوع من أنواع الاختصاص ، بل أقوى أنواعه ، ((وكذلك الاستحقاق ؛ لأنَّ مَن استحق شيئاً فقد حصل له به نوع اختصاص))[2] ؛ جاء في اللباب : ((وأمَّا (لَام الجرَّ) فمعناه الاختِصَاص وهذا يدخل فيهِ الملك وغيره ؛ لأنَّ كلّ ملك اختِصَاص وَمَا كلّ اختِصَاص ملكاً))[3] ، فضلاً عن ذلك فإنَّه يلزم من القول بعدم رجوع المعنيين المتقدِّمينِ الى معنى الاختصاص ، يلزم منه استعمال اللام ـ في بعض المواضع ـ في معنيين في آنٍ واحد ، جاء في مغني اللبيب : ((إذا قيل : هذا المال لزيدٍ والمَسجِد . لزم القَوْل بأَنَّها للاختصاص مَعَ كون زيد قَابلاً للملك ؛ لِئَلَّا يلزم استعمال المُشتَرك في معنييه دفْعَة ، وَأَكثرهم يمنعهُ)) [4] ، ولهذا صرَّح المرادي بمعناها الحقيقي بقوله : ((التحقيق أنَّ معنى اللام في الأصل هو الاختصاص ، وهو معنًى لا يفارقها ، وقد يصحبه معانٍ أخر. وإذا تؤمِّلت سائر المعاني المذكورة وجِدت راجعة إلى الاختصاص . وأنواع الاختصاص متعدِّدة ؛ ألا ترى أنَّ من معانيها المشهورة التعليل ، قال بعضهم : وهو راجع إلى معنى الاختصاص ؛ لأنَّك إذا قلت: جئتك للإكرام ، دلَّت اللام على أنَّ مجيئك مختص بالإكرام ؛ إذ كان الإكرام سببه ، دون غيره)) [5].

والحقيقة أنَّ معنى الاختصاص هو المعنى الذي توحي به اللام في سياقاتها المختلفة ، وما قيل فيها من معانٍ أخرى فمردُّه إلى تغيُّر طرفي الاختصاص ؛ ولذا رفض ابن السراج الرأي القائل بدلالة اللام على المِلك ، يقول : ((فأمَّا تسميتهم إياها لام الملك فليس بشيء ، إذا قلت : هذا غلام لعبد الله ، فإنَّما دللت على الملك من

---

[1] ينظر : المقتضب : ١/٣٩ ، ، والمقتصد في شرح الايضاح ، لعبد القاهر الجرجاني : ١/ ، وترشيح العلل في شرح الجمل ، للقاسم بن حسين الخوارزمي : ١٩٦ ٨٢٧ .

[2] الجنى الداني : ٩٦ .

[3] اللباب في علل البناء والإعراب : ١/٣٦٠ .

[4] مغني اللبيب : ١/٢٧٥ .

[5] الجنى الداني : ١٠٩ .

الثاني للأول ، فإذا قلت : هذا سيد لعبدِ الله . دللت بقولك على أنَّ الثاني للأول . وإذا قلت : هذا أخ لعبدِ الله ، فإنَّما هي مقاربة وليس أحدهما في ملك الآخر)) [1].

ومن دقائق استعمال حرف الاختصاص ما نجده من تلاحم معنوي بين التقديم والاختصاص في قوله (عليه السلام) : ((**لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ** (صلى الله عليه وآله) **مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ ، وَ لَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً ، هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَ عِمَادُ الْيَقِينِ ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي وَ بِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي وَ لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ وَ فِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَ الْوِرَاثَةُ**)) [2] وعبارة (لهم خصائص ...) لها أهمية عظيمة ، لا تقلّ عن أهمية الخطبة الشقشقية ـ كما يذكر القزويني[3]ـ لأنَّ الامام (عليه السلام) يُصرِّحُ فيها بأنَّ حق الولاية و الوصاية والوراثة من خصائص آل محمد (عليهم السلام) . لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ؛ فالولاية لها خصائص وشروط بها يحصل استحقاقها ، وهي لا توجد في غيرهم (عليهم السلام) ؛ وذلك ((بملاحظة كون (اللّام) حقيقة في الاختصاص الحقيقي مضافاً إلى دلالة تقديم الخبر الذي حقّه التّأخير على المبتدأ على انحصار هذه الخصائص فيهم))[4].

ويبدو أنَّ تنوع حروف الجر في هذه المقطوعة (إليهم ، بهم ، لهم ، فيهم) يُشير إلى حيثيات مختلفة اجتمعت في أهل البيت (عليهم السلام) ، وهذه الحيثيات مجتمعةً محصورةٌ فيهم تبعاً لدلالة التقديم على الحصر ، مع أنَّ بعضها يمكن أن يتصف به غيرهم ، وهنا يأتي دور اللام في بيان الصفات التي لا يمكن أن يتصف بها غيرهم ، وهذه النكتة الدلاليَّة لا يفي بها غير (اللام) ، فهي تؤذن باختصاصهم بميزات ذاتية لا يتمتع بها غيرهم ، كعصمتهم (عليهم السلام) وكونهم عِدْلَ القرآن وغير ذلك ممَّا هو مسطور في كتب العقيدة ممَّا لا يشاركهم فيه أحد من هذه الأمة فضلاً عن غيرها .

---

[1] الاصول في النحو : ١/٤١٣ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٧ .

[3] ينظر : شرح نهج البلاغة ، للقزويني : ١/١١٩ .

[4] منهاج البراعة ، للخوئي : ٢/ ٣٣٢ ، وينظر : مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة : ٢/ ١٢٩ .

ولنقف عند بديعة أخرى من بدائعه (عليه السلام) ، اعتمدت ريشة البيان فيها على حرف الاختصاص ، واستثمرت دلالته على أكمل وجه ؛ إذ ورد في بيان أسرار الخلق في قوله (عليه السلام) في وصف الخفَّاش : ((**فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ كَأَنَّهَا شَظَايَا الْآذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَ لَا قَصَبٍ** ...)) [1] والكلام عن الخفَّاش يقع ضمن الاستدلال ببدائع الكون وما فيه من خصائص على وجود المبدع الحكيم ، وقد أشار سبحانه الى هذا الدليل بقوله : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] [2] ، وهنا نرى تكرار حرف الاختصاص مع الضمير العائد للخفَّاش في قوله (عليه السلام) : (لها) للإشارة إلى خصوصيات هذا الطائر التي لا يشاركه فيها طائر آخر ، فهو يتميَّز من سائر الطيور بطلب معاشه في الليل ، وهي خاصية لا توجد في غيره من الطيور ، فضلاً عن أنَّه يتميَّز أيضاً بجناحيه ؛ فإنَّ كلَّ الطيور تطير بجناحين من ريش إلَّا الخفاش فهو يطير بجناحين من لحم مرن لا ريش عليه ولا غضروف ، وليست رقيقة فتنشق ولا كثيفة فتثقلها عن الطيران ، فما هو السرُّ ؟ ولماذا لا تكون الأجنحة كلُّها من نوع واحد لحماً أو ريشاً أو هما معا ؟ وهل القصد مجرد إظهار القدرة الدالة على وجوده تعالى وعظمته ؟ .. اللّه أعلم.. ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً [3].

ولو اقتصر الأمر على ما ذكره بعض النحويين من التداخل بين المعاني الثلاثة (الملك ، الاستحقاق ، الاختصاص) التي تدور في فلك واحد لهان الأمر ، ولكنَّ الذي نجده من تأويل (اللام) بأحرف أخرى يؤدِّي إلى مصادرة دلالتها وحرمان السياق

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢١٧ .

[2] في ظلال نهج البلاغة : ٢/ ٣٩٧ .

[3] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٨١/٩ ، و في ظلال نهج البلاغة : ٢/ ٣٩٧ .

من ايحائها ؛ ولذا سنقف عند تلك الأحرف التي زاحمت اللام ؛ لنزيح الستار عن معناها فيظهر لنا الفرق بين الحالتين .

إيثار اللام على حرف الظرفية (في) :

يبدو أنَّ الدور الأكبر ــ هنا ــ في تحديد معنى اللام يعود إلى مدخولها ، فإذا كان مدخولها دالاً على الزمان ، انعكس ذلك على معنى الحرف ؛ إذ يُجعل من دوال تلك الظرفية بخلع معنى حرف الظرفية عليه ، وهذا الأمر جلي في أمثلة النحويين ، جاء في شرح التصريح : ((وتأتي ... للظرفية نحو: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [1] أي: فيه)) [2] وجاء في الهمع ـ عند ذكره معاني اللام ـ : ((وَبِمَعْنى فِي ، نَحْو : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [3] ﴿ **لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا** ﴾ [4])) [5].

وجُعِل من هذا الوادي قوله (عليه السلام) : ((**صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا وَ لَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ وَ لَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِك**)) [6] يقول ابن أبي الحديد : ((ثمَّ أمره بأن يصلي الصلاة لوقتها ، أي : في وقتها)) [7] وذهب الراوندي إلى أنَّها للاختصاص ، يقول : ((و قوله : (صلِّ الصلاة لوقتها المؤقت لها) أي : المعيَّن لادائها فيه ، و لم يقُل : في وقتها ، فاللام فيه تخصيص)) [8] ، وهو ما ذهب إليه الدماميني (ت٨٢٨هـ) عند ردِّه على رأي الزركشي الذي فسَّر

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٢) شرح التصريح على التوضيح : ٦٤٥/١ ، وينظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي : ٤١٠/٤ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٤) سورة الْأَعْرَاف ، الآية : ١٨٧ .

(٥) همع الهوامع : ٤٥٤/٢ .

(٦) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٨٣ .

(٧) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٥/ ١٦٧ .

(٨) منهاج البراعة ، للراوندي : ٦٤/٣ .

فيه اللام بمعنى (عند) ، فيما يُشبه هذه المسألة ، وهو ما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) : ((الصلاة لوقتها))[1] .

ويُفهَمُ من تأويل ابن أبي الحديد أنَّ (اللام) تساوي (في) في الدِّلالة ، وهو غير دقيق ؛ لأنَّ اللام تشير الى وقت الصلاة الخاص ، وهو ما يُسمَّى وقت الفضيلة ، وهو أوَّل وقت الصلاة ، وهذا ما يُميِّزُ اللام من (في) ـ هنا ـ إذ لو قال (عليه السلام) : في وقتها ، فيمكن أن يكون الأمر موسَّعاً يشمل جميع الوقت الممتد بين بداية وقت الصلاة ونهايته ، وهو ما صرَّح به الشيرازي بقوله : (((صل الصلاة لوقتها الموقّت لها) نحو بين الطّلوعين لصلاة الصّبح ، ومن دلوك الشمس الى غسق الليل للظهرين ، ومن المغرب الى نصف الليل للعشائين ، (ولا تعجل وقتها لفراغ) عندك كأن تقدم الظهر على الدلوك (ولا تؤخرها عن وقتها) كأن تؤخر الظهر عن المغرب)) [2] ، وقرينة الحال والسياق تؤيِّد معنى الاختصاص ، فهذه الجملة من عهده (عليه السلام) إلى محمد بن أبي بكر حينما ولَّاه مصر ، وصلاح هذا الرجل وكونه عاملاً للإمام (عليه السلام) يقتضيان توصيته بأمور خاصَّة يقتضيها صلاحه ومنصبه ؛ لأنَّ الحاكم قدوة للرعية ، فينبغي أن يكون دقيقاً في أمور دينه . وأمَّا السياق فهو يحثُّ بوضوح على المسارعة إلى العمل وعدم الابطاء به ، فقوله (عليه السلام) : ((**فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ** ...)) وكذا نهيه عن تقديم وقتها أو تأخيرها عن وقتها المخصَّص كلُّها تُعزِّز معنى الاختصاص .

وقد يظنُّ ظانٌّ أنَّه ليس بنا حاجة إلى الدِّلالة على التخصيص في (اللام) الأولى ؛ لوجود لام التخصيص بعدها في قوله (عليه السلام) : ((المؤقَّت لها)) فتكون (((اللام) بمعنى (في) ، أمَّا التي فيها تخصيص فهي اللام في (لها) ، فيكون المعنى : صلّ

---

[1] **تعقبات العلامة بدر الدين الدماميني على الإمام بدر الدين الزركشي ، د. علي بن سلطان الحكمي : ٥٦ .**

[2] **توضيح نهج البلاغة : ٢٢/٤ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢٢٤/٤ .**

الصلاة في وقتها المخصَّص أو المؤقَّت لها))[١] ، والحقيقة أنَّ عبارة (المخصَّص لها) صفة لـ (وقتها) ، فالوقت الموسَّع مخصَّص للصلاة بالقياس إلى بقية الصلوات ، ووقت الفضيلة مخصَّص للصلاة بالقياس إلى وقتها الموسَّع .

ومن الموارد التي قيل فيها بنيابة (اللام) عن (في) قوله (عليه السلام) : ((**فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ**)) [٢] يقول محمد جواد مغنية : ((لها يعود الضمير على بقية الأيام ، و (اللام) بمعنى (في) ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [٣] أي : في يوم القيامة)) [٤] ؛ فيكون المعنى : فاستدركوا بقية أيامكم واصبروا فيها أنفسكم .

وللتوصل إلى معنى اللام لابُدَّ من معرفة ارتباط جملة اللام بالجملة التي قبلها ، وهو ما يحتاج إلى تحليلهما ، فالإدراكُ هو ((اللُّحُوقُ . يُقَالُ : مَشَيتُ حتَّى أَدرَكته)) [٥] ، ولمّا كان (استدرك) على زنة (استفعل) التي تدلُّ على طلب الفعل والتماسه والسعي فيه[٦] ؛ لزيادة مبناه بأحرف الزيادة التي وضعت للالتماس والمسألة[٧] ؛ ولذلك فإنَّ (استدركوا) يدلُّ على طلب اللحاق بما غُفِل عنه ، وهو يتحقَّق بملاحظة المنصرم من الأعمال ومحاسبة النفس عليها ، فإذا كان الإنسان قد قصّر فيما مضى من عمره فيجب أن يُلحِقَ ذلك بما يُصلحه ويجبره فيما بقي من عمره ، فيأتي بما فاته من

---

[١] حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٤٥ .
[٢] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :١١٦ .
[٣] سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ .
[٤] في ظلال نهج البلاغة : ١/ ٤٢٦ .
[٥] لسان العرب . (درك) : ٤١٩/١٠ ـ ٤٢١ .
[٦] ينظر : المفصل في صنعة الإعراب ، لمحمود بن عمرو الزمخشري : ٣٧٤/١ ، والشافية في علم التصريف ، لابن الحاجب الكردي : ٢١/١ .
[٧] الخصائص : ١٥٣/٢ .

الفرائض والخيرات ، ويتخلَّص من تبعات ما سلف من الذّنوب والخطيئات[1]. وأمَّا (الاصبار) فهو حبس النفس على الصبر وجعلها ملازمة له[2] ، ومن هنا تظهر أهمية اللام ودورها في رفد دلالة الجملتين بما لا يوفره حرف الظرفية ؛ فالفرق بين جملة (اصبروا أنفسكم في بقية أيامكم) وجملة (اصبروا أنفسكم لبقية أيامكم) ، يظهر عند وصلنا معنى هذه الجملة بمعنى الجملة التي قبلها ، وهي قوله (عليه السلام) : ((فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ)) فإيثار (اللام) على (في) يعود لما تحمله من تجلية للمعنى الذي يختصُّ به هذا الصبر في هذا الزمن ، وهو أنَّه يتضمَّن الصبر على العمل بما يقتضيه التكليف في الأيام الباقية ، ويتضمَّن الصبر على تدارك الفائت من العمل الذي اقتضته الأيام السابقة ؛ لأنَّ تدارك التقصير يقتضي الصبر ، فهو صبرٌ على تحقيق طاعتين في آن واحد ، وهذا الصبر لا يتحقَّق إلَّا في خصوص هذا المورد (بقية أيامكم) ، فيكون المعنى : اجعلوا أنفسكم تلازم الصبر ولا تفارقه لخصوص ما بقي من أيامكم .

إيثار اللام على حرف الابتداء (من) :

تأوَّل بعض النحويين والمفسرين حرف (اللام) بـ (مِن) في بعض المواضع التي وجدوا فيها ما يشير إلى دلالة الابتداء ، جاء في بصائر ذوي التمييز ـ عند ذكر معاني اللام ـ : ((اللام الموافقة لِمن : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾[3]))[4] أي : اقترب اقترب من الناس ، وجوَّز ابن عاشور أن تكون اللام بمعنى (مِن) في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ ﴾ [الحاقَّة : ٨] يقول : ((واللَّام في قوله : لهم يجوز أَن تُجعَل لشبه

---

[1] ينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٤/٢ ، و منهاج البراعة ، للخوئي : ١٣١/٦ .
[2] ينظر : مقاييس اللغة . (صبر) : ٣٢٩/٣ .
[3] سورة الأنبياء ، الآية : ١ .
[4] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٤١٠/٤ .

المِلك ، أَي : باقيةٍ لأَجل النَّفع . ويجوز أَن يكون (اللَّام) بمعنى (مِنْ) مثل قولهم : سَمِعتُ لَهُ صُرَاخاً)) [(1)].

والذي يبدو أنَّ هناك فرقاً بين قولك : سمعتُ له صُرَاخاً ، وقولك : سمعتُ منه صُراخاً . فمع دلالة السياقين على وجود سامع (ما تدلُّ عليه تاء الفاعل) ومسموع (الصراخ) ومسموع منه (مدخول الحرف) إلَّا أنَّ عملية السماع تختلف باختلاف الحرف ، فوجود (مِن) يدلُّ على أنَّ سمعك للصراخ بدأ منه بصورة مباشرة ، ولا يمنع كونك سمعت من غيره ، بخلاف (اللام) التي تخصِّص الصراخ به ، وهو ما يوحي بوجود أصوات أخرى لغيره تَميَّزَ عنها مدخول اللام بنوع اختص به وهو الصراخ .

وممَّا يؤيِّد ذلك ما جاء في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) من تعدِّي الفعل (سمع) باللام تارة ، وبـ (مِن) تارة أخرى ، كقوله (عليه السلام) في المنافق : ((**فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَ لَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ وَ لَكِنَّهُمْ قَالُوا صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ** (صلى الله عليه وآله) **رَآهُ وَسَمِعَ مِنْهُ**)) [(2)] وقوله (عليه السلام) في كتاب له إلى أميرين من أمراء جيشه : ((**وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فَاسْمَعَا لَهُ وَ أَطِيعَا وَ اجْعَلَاهُ دِرْعاً**))[(3)] ، فلو رُحْتَ تفسِّر (اللام) بـ (مِن) لأدّى ذلك إلى تشويش المعنى ؛ لأنَّ مقام الكلامين مختلف ، فالقول الأوّل في مقام بيان سمات المنافق الذي يكذب على النبي (صلى الله عليه وآله) ويريد إقناع الناس بصحَّة ما يقوله لهم من أحاديث وهو ما يستلزم ادعاءه السماع المباشر من النبي (صلى الله عليه وآله) بلا وساطة بينهما ، والحرف الأليق بهذا المقام هو حرف الابتداء ؛ لأنَّه يؤذن بابتداء السماع منه (صلى الله عليه وآله)، والأخذ المباشر عنه (صلى الله عليه وآله) وهو ما يُغرِي السامع بالتصديق والقبول . وأمَّا القول

---

(1) التحرير والتنوير : ١١٩/٢٩ .

(2) نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٣٢٥ .

(3) المصدر نفسه :٣٧٢ .

الثاني فهو بصدد بيان الطاعة لأمير الجيش الجديد ، وهو يستلزم تحديد جهة الأوامر وجعلها مختصة بهذا الأمير دون غيره ؛ حفاظاً على وحدة القيادة والابتعاد عن كلِّ ما يفرِّق الكلمة ، والحرف الأليق بهذا المقام هو حرف الاختصاص ؛ لأنّه يدلُّ على كون سماعهما للأوامر مختصاً به ، كما يستبطن عدم المخالفة باستماع أوامر غيره ، وقد ألمح الخوئي إلى هذا المعنى بقوله : ((قوله (عليه السلام) : **(** فاسمعا له و أطيعاه **)** تفريع على تأميره مالكاً عليهما وعلى مَن في حيّزهما فأمرهما أن يسمعا له و يطيعاه ، أي : أن لا يخالفاه ما أمرهما ؛ فإنّ مخالفة الأمير فيما أمر توجب التفرُّق الموجب للهزيمة و قلّما غُلِبَ قوم اجتمعت كلمتهم)) [(١)].

ومن هذا النحو ما جاء في كلامه (عليه السلام) في صفة الملائكة ، يقول (عليه السلام) : ((**هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْك**)) [(٢)] وقد ذكر التستري رواية أخرى تختلف عمَّا نحن فيه ، يقول : ((و رواه القمّي هكذا : ... هم أعلم خلقك بك ، وأخوف خلقك منك)) [(٣)] ويبدو أنَّ التغيير الذي في هذه الرواية لا يؤثِّر على المعنى ـ بنظر القائلين بالنيابة ـ لأنَّهم فسَّروا (اللام) في الرواية الأولى بـ (مِن) ، جاء في توضيح نهج البلاغة : ((**(**وأخوفهم لك **)** أي : أكثر الخلق خوفاً منك)) [(٤)].

وليت شرَّاح النهج التفتوا إلى ما ينشره العدول إلى اللام من دلالات لا تقتصر على معنى الاختصاص فقط ، فأوَّلُ ما يُلفِتُ النظرَ ـ هنا ـ هو أنَّ اللام كَسرت أُفُق التوقُّع عند المتلقي ؛ وهذا الأمر بمثابة وخزات تجذب انتباهه وتحرِّك فكره وشعوره [(٥)] ؛ نظراً لما ((يحدثه غير المتوقَّع هذا من مفاجأة تؤدي إلى استنفار المتلقِّي رُبَّما إلى امتلاكه

---

(١) منهاج البراعة ، للخوئي : ١١٩/١٨ .

(٢) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٥٩ .

(٣) بهج الصباغة : ٥٦٩/١ .

(٤) توضيح نهج البلاغة : ١٧٩/٢ .

(٥) ينظر : البلاغة والأسلوبية : ٢٤٠ .

بحيث يستقبل الرسالة الإعلامية بكلِّ انتباه)) [١] والمتلقي حينما يسمع اسم التفضيل المسند إلى ضمير الملائكة (أخوفهم) فإنَّه ينتظر ورود الحرف (مِن) لكثرة استعماله معه ، ولكنَّه يُفجأ بمجيء اللام الدالة على الاختصاص وهو أمرٌ ينبغي أن يسترعي لُبَّه ويوقظ فهمه لمعرفة السِّرِّ الذي حمل الإمام (عليه السلام) على العدول إليها ؛ ويبدو أنَّ استعمال اللام في هذا الموضع يشير إلى دقيقة من المعنى تتعلق بنوع الخوف الذي لدى الملائكة ، فهو خوف له خصوصية لا توجد في خوف سائر الخلق ؛ لأنَّه خوف منه وحده تعالى ، فهم لا يخافون شيئاً سواه عزَّ وجلَّ ، لكونهم أعلم الخلق بالله سبحانه . وأمَّا سائر المخلوقات فتكون مصادر الخوف عندها متعددة .

ايثار اللام على حرف الغاية (إلى) :

أشار بعض النحويين إلى أنَّ ورود اللام دالة على معنى الانتهاء قليل[٢] ، ومع ذلك فإثبات معنى الانتهاء للام لا يختلف عن إثبات معانيها الأخرى ، فالحاكم في ذلك كلِّه نوع السياق المكتنف لها ، فلو كان الفعل ـ في ذلك السياق ـ متعدِّياً بـ (إلى) ثمَّ جيء باللام معه ، فإنَّ ذلك يسوِّغ لهم إعطاءها دلالة الانتهاء ، وخلع دلالتها على الاختصاص منها ؛ لأنَّ هذه اللام صارت (لام إلى) على حدِّ تعبيرهم ، جاء في كتاب اللامات : ((فأما قوله تعالى : ﴿ وقالواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ [٣] ، فلا خلاف فيه أنَّ تقديره : هدانا إلى هذا ، فهذه لام إلى ، وفي هدانا ثلاث لغات يقال هديته الطريق كما قال الله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [٤] وهديته إلى الطريق ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٥] وهديته للطريق ، كما قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي

---

(١) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ، د. أحمد محمد ويس : ١٥٩ .

(٢) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك : ٧٥١/٢ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٤٣ .

(٤) سورة الفاتحة ، الآية : ٦ .

(٥) سورة الشورى ، الآية : ٥٢ .

هَدَانَا لِهَذَا﴾ [1] و﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [2] أي : إلى التي هي أقوم)) [3] ، ودلالة الانتهاء التي يثبتونها للام هي الدِّلالة على انتهاء المعنى الذي يسبق اللام ، وانقطاعه بوصوله إلى الاسم المجرور بها ، الداخل في ذلك المعنى[4] ، ويبدو أنَّ قولهم : الداخل في ذلك المعنى ، هو أوَّل إشارة إلى الفرق بين (اللام) و (إلى) ؛ إذ أنَّ دلالة (إلى) على الانتهاء ـ مع عدم القرينة على دخول ما بعدها في حكم ما سبقها ـ يغلب عليها عدم دخول ما بعد (إلى) في الحكم الذي قبلها[5] ، فقولنا : قرأت الكتاب الكتاب للصفحة الأخيرة ، يدلُّ دلالة قطعية على دخول الصفحة الأخيرة في القراءة ، وأمَّا قولنا : قرأت الكتاب إلى الصفحة الأخيرة ، فيحتمل الدخول وعدمه ، وإن كان الغالب عدم الدخول .

وهذا الكلام وإن بدا منه عدم التطابق التام بين (اللام) و (إلى) إلَّا أنَّه لا يخرج باللام عن دائرة النيابة ؛ ولذا حاول الخطيب الإسكافي أن يجد دلالة اللام التي تخرجها عن نطاق النيابة عند بحثه للفرق بين موارد (اللام) التي منها قوله سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الرعد : ٢] ومورد (الى) في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [لقمان :٢٩] يقول : ((وإنَّما خص ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء ، و(اللام) تؤدي معناها ؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ جريها لبلوغ الأجل المسمَّى ؛ لأنَّ الآيات التي تكتنفها آيات منبِّهة على النهاية والحشر والإعادة ... وسائر المواضع التي ذُكرت فيها (اللام) إنَّما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق ... فاختصَّ ما عند ذكر النهاية بحرفها ، واختصَّ ما عند الابتداء بالحرف

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٤٣ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٩ .
(٣) اللامات ، للزجاجي : ٦٥ .
(٤) ينظر : النحو الوافي : ٢/٤٧٢ .
(٥) ينظر : همع الهوامع : ٢/٤٢٩ .

الدالِّ على العلَّة التي يقع الفعل من أجلها))[1] ، ويُفهم من قوله : الدالّ على العلَّة ، إثبات معنى التعليل للام ، فـ (الأجل) علَّة للفعل (تجري) ، وهذا المعنى ـ إن قبلناه ـ غير تام أيضاً ؛ لأنَّ الدِّلالة على التعليل تتوقَّف على وجود العلَّة والمعلول اللذين يربط بينهما حرف الجر ، ويضفي دلالته عليهما ، ولا أدري ما نوع الارتباط العلِّي بين الشيء وأجله ؟ ولو سلَّمنا بثبوت العلِّية بين ما قبل اللام (تجري) وما بعدها (الأجل) ؛ فإنَّ (اللام) تدلُّ حينئذٍ على اختصاص الجريان بهذه العلة . ويشهد لهذا المعنى ما نجده من فرق في الدِّلالة بين قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ [المائدة : ٥٨] ففي الآية الأولى ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ اللام للتعليل[2] ، فتكون الصلاة هي علَّة الأذان ، والحقيقة أنَّ الأذان هو ((الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ معلومة مأثورة)) [3] فهو يرتبط بالصلاة ارتباطا زمنياً ؛ إذ هو لا يصح قبل حضور وقتها ، وليست الصلاة علَّة لتشريع الأذان ، بل هو مرتبط بدليله الخاص [4] ، وبناء على هذا فإنَّ اللام تدلُّ على أنَّ النداء الذي يترتب عليه وجوب السعي هو النداء الخاص بصلاة الجمعة ؛ لذا جاء بحرف الجر الدالِّ على الاختصاص .

وأمَّا الآية الثانية فالنداء فيها عام غير مختصٍّ بصلاة دون أخرى ؛ لذا جيء معها بحرف الغاية ، فالمخالفون إذا سمعوا النداء المفضي الى الصلاة اتخذوا النداء أو

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل : ١/١٠٥٧ ـ ١٠٥٩ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٨/٢١٩ .

(٣) التعريفات ، لعلي بن محمد الجرجاني : ١٦ .

(٤) ينظر : فقه الصادق ، للسيد محمد صادق الحسيني الروحاني : ٦/٢٨٠ ، وأمَّا ما يرتبط بحكمة وجود الأذان فيذكر الشيخ الصدوق بعض ما يرتبط بذلك ، يقول : ((فإن قال قائل : فأخبرني عن الاذان لِمَ أمروا ؟ قيل لعلل كثيرة . منها : ان يكون تذكيرا للساهي وتنبيها للغافل وتعريفا لمن جهل الوقت واشتغل عنه وداعيا إلى عبادة الخالق مرغبا فيها مقرا له بالتوحيد مجاهرا بالإيمان معلنا بالإسلام مؤذنا لمن يتساهى)) علل الشرائع ، لمحمد بن علي بن بابويه القمي : ١/٣٤٠ .

الصلاة هزواً ، جاء في التفسير الوسيط : ((أي : وإذا ناديتم ـ أيُّها المؤمنون ـ بعضكم بعضا إلى الصلاة عن طريق الأذان ، اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعاً لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم)) [1] ، وهكذا جاءت (إلى) في كلِّ الآيات التي سُبِقَت الصلاة فيها بأمر لا يتخصَّص بواحدة منها دون الأخرى ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [النساء : ١٤٢] وقال تباركت أسماؤه : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ...﴾ [المائدة : ٦] .

ولم يكن شرَّاح النهج بعيدين عمَّا قرَّره النحويون والمفسرون ؛ الأمر الذي انعكس على الدِّلالة ، وتردَّد صداه على المعنى ، ومن الموارد التي فُسِّرت فيها (اللام) بـ (إلى) قوله (عليه السلام) : ((**أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا وَلَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا وَ لَا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا وَلَأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا**)) [2] ، يقول الخوئي : ((واللام في قوله (عليه السلام) : لأوقاتها على رواية أجال بالجيم بمعنى (إلى) ، كما في قوله تعالى : ﴿ **أَوْحَى لَهَا** ﴾ [3] ، وكذلك على روايته بالحاء وجعله بمعنى التّحويل والصّرف ، وعلى جعله بمعنى الإيثاب فبمعنى (على) ... وأمَّا على رواية أجل بالجيم فللتعليل ، و بالحاء فبمعنى (في))) [4].

ويبدو أنَّ اختلاف هذه التأويلات ناشئ عن اختلاف اللحاظ السياقي ، فمعنى (اللام) تابعٌ لما يُرجِّحه الشارح من معنًى للسياق ، أمَّا (اللام) فهي تخضع لسياقها

---

[1] التفسير الوسيط : ٢٠٥/٤ ، وينظر : روح المعاني : ٣٣٨/٣ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٠ .

[3] سورة الزلزلة : الآية ٥ .

[4] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٥٣/١ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٨١/١ ، واختيار مصباح السالكين : ٦٤ ، وشرح نهج البلاغة ، لمحمد عبده : ٨/١ .

وتتخلى عن دورها في بيان التخصيص ، فليس لها إلّا أن تتمظهر بما يلقيه عليها السياق من معنى ، فعندما يجعل الشارحُ الأوقاتَ غايةً للإحالة ، ويجعل الفعل (أحال) مأخوذاً من الإحالة التي بمعنى التحويل ، فإنَّه سيفسِّر اللام بمعنى (إلى) ؛ لأنَّ تحويل الشيء يقتضي جهتين يبتدئ من إحداهما وينتهي بالأخرى ، فيكون التقدير : نقل كلَّ شيءٍ منها إلى وقته . وعندما يجعل الفعل (أحال) مأخوذاً من الإيثاب ، أي : وثب ، فعدّي بالهمزة ، فإنَّه سيفسِّر اللام بمعنى (على) ؛ لأنَّ الإيثاب يتحقق من جهة الفوق ، فيكون التقدير : أقرَّ الأشياء على أوقاتها . وعندما يلاحظ مدخول اللام (أوقاتها) ويختار الفعل (أحلَّ) فإنَّه سيفسِّر اللام بمعنى (في) ؛ لأنَّ الحلول يستلزم ظرفاً يقع فيه الحالُّ ويستقرُّ ، فيكون التقدير : أحلَّ الأشياء في أوقاتها ، وعندما يختار الفعل (أجَّل) ويستظهر السببية بين الإحالة والأوقات فيجعل الأوقات علةَ الإحالة ؛ فإنَّه سيجعل اللام للتعليل ، فيكون التقدير : أجَّل الأشياء لأجلِ أوقاتها.

ولا يخفى ما تشي به هذه التأويلات من إهمال للام وتغييب لمعناها ؛ إذ إنَّ العبارة توضِّح جعلية الارتباط الخاص منه تعالى بين الأشياء وأوقاتها ، وتخصيص كلِّ شيء بوقت معين لا يحيد عنه ، يقول الشيرازي : (((أحال الاشياء لأوقاتها) أي : انَّه تعالى أحال كلَّ شيء ممَّا يحدث في الكون لوقته ، فمثلاً أحال الفواكه لفصل الصيف ، والامطار لفصل الشتاء وهكذا ، والحاصل أنَّه تعالى جعل لكلِّ شيء وقتاً خاصاً به ، يظهر في ذلك الوقت حسب حكمته البالغة))[1] ، ولو أردنا أن نختبر صحَّة أحد المعاني المذكورة ، فعلينا أن نرى ما يتحصَّل عنه من دلالة تنسجم وهدف النص المرتبط ببيان خلق العالم المترشح عن فيض القدرة الالهية ، ((فالإمام (عليه السلام) يبيِّن البون الشاسع بين الخلق الإلهي والأعمال والأفعال التي تصدر عن المخلوقات))

[1] توضيح نهج البلاغة : ١٨/١، وينظر : الدرة النجفية :٢٢ .

[1] وهو ما يستلزم تنبيهه (عليه السلام) لما يرتبط بنظام الخلق ودقته وإحكامه . ونقل الأشياء إلى أوقاتها يدلُّ على أنَّها كانت في أوقات ما ثم نُقِلت الى أوقاتها ، وهذا يُخالف ما يقتضيه النظام المُتقَن ، فتكون دلالة اللام عند تفسيرها بـ (إلى) مناقضة لهدف النص . وإحلال الاشياء في أوقاتها أو إقرارها على أوقاتها لا يضيف شيئاً للمعنى ؛ لأنَّ وجود الشيء في عالم الامكان يقتضي ارتباطه بحيثية الزمان والمكان ، فتكون دلالة اللام عند تفسيرها بـ (في ، على) من باب تحصيل الحاصل . وأمَّا جعل الأوقات علة لظهور الأشياء فهو غير مقبول ؛ لأنَّ ظهور شيء في زمن ما لا يعني علِّية ذلك الزمان .

وأمَّا إعطاء اللام نصيبها من المعنى وإفساح المجال لدلالتها على الاختصاص فهو يصبُّ في مصلحة النص ويُبيِّن حيثيةً من حيثيات الحكمة والإتقان ؛ لأنَّ الحكمة تقتضي وضع الشَّيْء فِي مَوْضِعه[2] ، وتخصيص كلِّ شيء بزمن معين من هذا القبيل ؛ إذ هو ينبئ عن الملاءمة بين ذلك الشيء وزمانه المخصَّص له ، ممَّا يؤدي إلى انتفاع الناس به والاستفادة من وجوده ، يقول محمد جواد مغنية : (((أحال الأشياء لأوقاتها) إذا اختار اللّه أمراً فإنَّما يختاره لحكمة بالغة ، ولمصلحة تعود على الخلق ، لا عليه ، جلت عظمته ، فإذا اقتضت المصلحة وجود شيء في وقت معين أوجده سبحانه فيه ، لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه.. ولا مانع في حكم العقل أن تتعلق الارادة الأزلية بإيجاد الحوادث في أوقاتها الخاصة ما دامت على ما هي قبل الحادث وبعده)) [3].

---

[1] نفحات الولاية ، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١/٧٠ .
[2] ينظر : التعريفات : ٧٣ .
[3] في ظلال نهج البلاغة : ١/٢٨ .

ومن موارد (اللام) التي يُطلُّ منها التصوير الفني لحالة معنوية خاصَّة ما نجده في مخاطبته (عليه السلام) لشريح القاضي عندما بلغه ابتياعه داراً بثمانين ديناراً ، فأملى عليه كتاباً يجمع بين الزهد والموعظة ، يقول (عليه السلام) : ((**هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ اشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُور**)) [١] ولم يقف كثير من شرَّاح النهج عند دلالة اللام في قوله (عليه السلام) : قد أُزعِجَ للرحيل ، ولكنَّ الخوئي احتمل فيها النيابة أو الدِّلالة على التعليل ، يقول : ((**(أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ)** أُزْعِجَ بالبناء للمفعول ، أي : شخص به للرحيل ، يقال : أزعجه فانزعج ، أي : أقلقه وقلعه من مكانه فقلق وانقلع ، هذا إنْ كانت اللام للتعليل ، وإن كانت بمعنى (إلى) فالمعنى سيق إليه ، يقال : أزعجه إلى المعصية ، أي : ساقه إليها)) [٢].

وعلى هذين الاحتمالين تتحدَّد العلاقة بين الإزعاج والرحيل ، فعلى القول بنيابة (اللام) مناب (إلى) ، يكون الرحيل غايةً للإزعاج ومنتهى له ، وهذا يُشير إلى أنَّ الإزعاج مستمر إلى أن يحلَّ موعد الرحيل . وعلى القول بأنَّ اللام للتعليل ، يكون الإزعاج لأجل الرحيل ومُسبَّبٌ عنه .

وما يُلاحَظ على التأويلين السابقين هو أنَّ المعنى الأول لم يُراعَ فيه موقع الجملة ، بل سُلِّط الضوء على طرفيها دون مراعاة ما يتصل بها وهو الحرف (قد) وما يسبقها وهو كلمة (ميِّت) ، وهما قرينتان تشيران إلى شدَّة اقتراب الأجل ، فالتعبير عن الحي بصفة يصير إليها يؤذن بدنو تلك الصفة ؛ لأنَّ ((المُرَادُ بالمَيِّتِ : الصَّائر إلى الموت فهو من استعمال الوصف فيمن سيتَّصِفُ به في المُستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه)) [٣]، وأُطلِق ـ هنا ـ لفظ الميّت على من سيموت (البائع) مجازاً ؛ إطلاقاً لما بالفعل

---

[١] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٣٦٤ .

[٢] منهاج البراعة ، للخوئي : ١٧/ ١١٣ .

[٣] التحرير والتنوير : ٤٠٤/٢٣ ، وينظر : الكليات : ٨٥٨ .

على ما بالقوّة ، وتنزيلاً للمقتضى منزلة الواقع[1] ، ووجود (قد) يومِئ لهذا المعنى أيضاً سواء كانت للتقريب أم التحقيق ؛ فإذا نظرنا إلى جملة (قد أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ) من زاوية موقعها الإعرابي سنجد أنَّها تقع نعتاً لـ (ميِّت) فالمفروض أنَّها تعضد معنى الدنو وتقرِّر سرعة الرحيل ، وتفسير اللام بـ (إلى) لا يصبُّ في هذا المعنى ؛ لأنَّها تؤذن بتراخي الرحيل من جهة جعله غاية للإزعاج ، وهذا يُحدث شيئاً من التخلخل في الدِّلالة . وأمَّا جعل اللام للتعليل فلا يصح إلَّا بعد التسليم بدلالتها على الاختصاص ؛ لأنَّ الإزعاج ليس علة للرحيل ، فكم مِن فتًى صحيحٍ سالمٍ فاجأه الموت وهو يقضي أحلى أيام عمره؟

ومن هنا فاللام تدلُّ على أنَّ هذا الازعاج هو الازعاج الخاص بالموت (الاحتضار) وحلول المنية ، فيكون المعنى : اشترى داراً من إنسانٍ سيموت وقد اقترب ازعاج خاص برحيله . وقد ورد بعد هذا الكلام ما يؤيِّد أنَّ المراد بالإزعاج هو الخاص بالموت لا مطلق الازعاج ؛ إذ يقول (عليه السلام) : ((**اشْتَرَى هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ هَذِهِ الدَّارَ**)) [2]، والمزعج بالأجل هو ((المضطرب بسبب الأجل والموت))[3] .

إيثار اللام على حرف الاستعلاء (على) :

ذهب ابن هشام إلى أنَّ (اللام) تنوب عن (على) في الاستعلاء الحقيقي والمجازي ، جاء في مغني اللبيب : ((موافقة على في الاستعلاء الحقيقي نحو : ﴿ **ويخِرّونَ للأذقان** ﴾ [4] ... والمجازي نحو : ﴿ **وإنْ أسأتمْ فلها**

---

[1] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٤/٣٤٥ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٦٤ .

[3] توضيح نهج البلاغة : ٣/٤٣١ .

[4] سورة الإسراء ، الآية : ١٠٧ .

﴾[1])) [2] والحقيقة أنَّ كلام بعض النحويين يُشعر بأنَّ هذا الاستعمال قليلٌ جداً ، الى الدرجة التي جعلتهم يقصرونه على السماع ، وذلك للتباعد بين معنييهما ، جاء في رصف المباني : ((أن تكون بمعنى (على) وذلك موقوف على السماع ؛ لأنَّ الحروف لا يوضع بعضها موضع بعض قياساً إلَّا إذا كان معنياهما واحداً ، ومعنى الكلام الذي يدخلان فيه واحداً ، أو راجعاً إليه ولو على بُعدٍ)) [3] .

ويبدو أنَّ تسويغ النيابة ـ هنا ـ يعتمد بصورة كاملة على السياق الذي تقع فيه اللام ؛ لانعدام التقارب بينها وبين (على) ، فمعنى (يخرون) يستلزم الحرف (على) لأنَّه بمعنى (يسقطون) ، واستعمال ((الخرّ تنبيه على اجتماع أمرين : السّقوط ، وحصول الصّوت منهم بالتّسبيح))[4] ؛ فيكون المعنى ((يسقطون على وجوههم)) [5] ، وأمَّا الإساءة فيناسبها الحرف (على) ؛ لأنّه يُؤذِن بِمُؤاخَذَةٍ وتَحَمُّلِ أَعباءٍ بخلاف اللّام فهي تُؤذِن بالعطاء[6] ، فيكون المعنى ((فالإساءة عليها لما يترتب على ذلك من العقاب فاللام بمعنى على)) [7] ولهذا صُرِّح به في قوله تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصّلت : ٤٦] ، يقول الزركشي : ((أَي : فعليها ؛ لأَنَّ السَّيِّئة على الإنسان لا له بدليل قوله تعالى: ﴿ **فَعَلَيَّ إِجْرَامِي** ﴾[8])) [9].

---

[1] سورة الإسراء ، الآية : ٧ .

[2] مغني اللبيب : ٢٨٠/١ وينظر : معاني حروف الجر بين الوصف النحوي القديم والاستعمال اللغوي المعاصر ، لمارينا النجار : ٦٤ ، والمنصف في النحو ، لنصر الدين فارس ، وعبد الجليل زكريا : ١٥٥ ، والمعجب في علم النحو ، لرؤوف جمال الدين : ١٧٠ .

[3] رصف المباني : ٢٢١ .

[4] المفردات في غريب القرآن : ٢٧٧ .

[5] إرشاد العقل السليم : ١٩٩/٥ ، وينظر : أيسر التفاسير ، لجابر بن موسى الجزائري : ٢٣٢/٣ .

[6] ينظر : التحرير والتنوير : ٣١٩/٢٤ .

[7] روح المعاني : ١٩/٨ .

[8] سورة هود ، الآية : ٣٥ .

[9] البرهان في علوم القرآن : ٣٤١/٤ .

ولا ريب في أنَّ دعوى نيابة (اللام) عن (على) ستلقي بظلالها على المعنى المراد ؛ لأنَّها تؤدي الى حذف دلالة الاختصاص من الجملة واحلال معنى الاستعلاء محلَّها ولو تأملنا في معنى الآيتين لوجدنا ما يُرجِّح كفَّة الاختصاص ، فالآية الأولى بصدَّد بيان مزيَّةً تخصُّ سجود أهل العلم ، وهي مبالغتهم في التذلُّل والخشوع وكمال الطاعة والتعظيم[1] ، و(اللام) تدلُّ على اختصاص خرورهم بأمر زائد على المعتاد في السجود السجود وهو تعفير الأذقان التي هي آخر أطراف الوجه ، فيتحقق بذلك ((أنَّ هؤلاء يضعون كامل وجههم على الأرض قبال خالقهم))[2] ، وتفسير اللام بعلى لا يبيِّن ما يختصُّ به سجودهم . والآية الثانية جاءت بعد ذكر حالتين لبني إسرائيل ، يقول تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسوا خِلَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ۞ ثُمّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكرّةَ عَلَيهِمْ وَأَمْدَدْنَكُم بِأَمْوَلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثرَ نَفِيراً ۞ إِنْ أَحْسنتُمْ أَحْسنتُمْ لأَنفُسِكمْ وَإِنْ أَسأْتمْ فَلَهَا ...** ﴾ [الإسراء : ٥ ـ ٧] فأنت ترى الإخبار عنهم بـ ((أنَّهم سيعلون ويطغون ويفسقون ؛ فينتقم الله منهم باستيلاء عدوهم عليهم بالإذلال والقتل والأسر ثم يعودون إلى الطاعة فيعود تعالى إلى النعمة والرحمة))[3] ، وهنا تظهر الدِّقَّة في اختيار اللام ومناسبتها لما قبلها ؛ لأنَّ مردود إساءتهم اختصَّ بهم ، يقول الآلوسي : ((ووجه مناسبتها لما قبلها على ما قال القطب أنَّه لما عصوا سلَّط الله تعالى عليهم مَن قصدهم بالنهب والأسر ، ثُمَّ لمَّا تابوا وأطاعوا حَسُنت حالهم فظهر أنَّ إحسان الأعمال وإساءتها مختصٌّ بهم)) [4].

وقد حمل شارحو النهج بعض موارد (اللام) على نيابتها عن (على) ومن ذلك ما جاء في رسالة له (عليه السلام) إلى معاوية ، يقول (عليه السلام) : ((**وَ لَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ**

[1] ينظر : مفاتيح الغيب ، لمحمد بن عمر الرازي : ٤١٧/٢١ .
[2] الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل : ١٧٣/٩ .
[3] الميزان في تفسير القرآن : ٢١/١٣ .
[4] روح المعاني : ٢٠/٨ ، وينظر : الكشاف : ٦٥٠/٢ .

عَنْ غَيِّكَ وَ شِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ وَلَا جَبَلٍ وَلَا سَهْلٍ إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُهُ وَ زَوْرٌ لَا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ)) [1] يقول ابن أبي الحديد : ((ثم قال : والسلام لأهله ، لم يستجز في الدين أن يقول له : والسلام عليك ؛ لأنَّه عنده فاسق لا يجوز إكرامه ، فقال : والسلام لأهله ، أي : على أهله)) [2] وقد أيَّد أحد الباحثين هذا التأويل بقوله : ((والظاهر أنَّ كلام الشارح صحيح ؛ إذ لم يرد استعمال (اللام) مع السلام في اللغة ، فاستعمال أمير المؤمنين هذا خروج بـ (اللام) عن أصلها إلى معنى (على) لفائدة يشعر بها السامع ويستلذها ويتأكد بها الكلام)) [3] ، وهذا الكلام غير دقيق ؛ لأنَّ ذلك واردٌ في القرآن الكريم ، يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة : ٩٠- ٩١] .

وأمَّا تأويل الشارح فيُلاحظ عليه أنَّه لم يُؤخذ فيه المقام بنظر الاعتبار ؛ وإلَّا فلماذا قُيِّد السلام بـ (لأهله) في ثلاث رسائل من رسائله (عليه السلام) إلى معاوية من أصل ست عشرة رسالة ذُكِرَ السلام في ثماني رسائل منها ؟ ولمعرفة سرِّ هذا التباين ينبغي أن نُسلِّط الضوء على تلك الرسائل ؛ لنعرف الداعي لتقييد السلام في بعضها وإطلاقه في الأخرى ، فكثيرٌ منها ذُيِّلت بعبارة (والسلام) وهي تحتمل أكثر من تقدير ، إذ يمكن أن يكون المراد منها ((والسلام على من اتبع الهدى ، أو والسلام لأهله ، أو ...)) [4] ولعلَّ مردَّ ذلك إلى أنَّها ليست في مقام إعلان الحرب ـ مع علمه (عليه السلام) بحقيقة معاوية ـ بل في مقام بيان زيفه وضلاله ، وإلزامه الحجة ، ففي بعضها يطالبه بالبيعة ، وفي بعضها يحتجُّ عليه بما ألزم به نفسه ويرد عليه أكاذيبه ، وفي بعضها يبيِّن له

---

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٦٨ .

(2) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٤/٥٠ .

(3) المباحث النحوية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ) ، لسجاد عباس حمزة (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م : ٣٦٠ .

(4) ينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ١٧/ ١٧٥.

بطلان رأيه وهكذا ، وهذا المقام لا يستدعي تنفير الطرف المقابل وإعطاءه ما يتمسَّك به للطعن بحكومة الإمام (عليه السلام) ، ولنقف عند بعضها ، يقول (عليه السلام) : ((مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ... فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ وَ أَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ وَالسَّلَامُ))[١] ، ويقول (عليه السلام) : ((إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَ عُمَرَ وَ عُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ ... وَ لَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةُ لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ وَ السَّلَامُ))[٢] ، ويقول (عليه السلام) : ((وَ أَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ ... وَ لَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً وَ أَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَ كَرْهاً كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ إِمَّا رَغْبَةً وَ إِمَّا رَهْبَةً عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ وَ ذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً وَ لَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا وَ السَّلَامُ)) [٣].

وأمَّا الرسائل التي قُيِّد فيها السلام بـ **(لأهله)** فهي في مقام الجواب عن تهديدات معاوية للإمام (عليه السلام) ، ووعيد الإمام (عليه السلام) بالقضاء على فتنة معاوية ، ويبدو أنَّ عدم تقييد السلام ـ في الرسائل الثلاث ـ بهذا القيد يوقع في تناقض ، فبينما يهدده بالحرب والقتل يبلغه ما يُحتمَل فيه إعلان السلام والامان [٤]، مع أنَّه (عليه السلام) يقول : ((فَرَضَ اللَّهُ ... السَّلَامَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَاوِفِ))[٥] . والكتاب الذي نحن بصدده هو

---

[١] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٦٤ .

[٢] المصدر نفسه : ٣٦٦ .

[٣] المصدر نفسه : ٣٧٤ .

[٤] يقول (عليه السلام) : ((وَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ ... فَإِنْ كَانَ فِيهِ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ وَ إِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ * بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَ جُلْمُودِ

وَعِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَ خَالِكَ وَ أَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ ... وَ أَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ وَ السَّلَامُ لِأَهْلِهِ)) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٥٤ ، ويقول (عليه السلام) : ((وَ أُقْسِمُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَوْ لَا بَعْضُ الِاسْتِبْقَاءِ لَوَصَلَتْ إِلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ تَقْرَعُ الْعَظْمَ وَ تَهْلِسُ اللَّحْمَ وَ اعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ وَ تَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ وَ السَّلَامُ لِأَهْلِهِ)) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٦٣ .

[٥] المصدر نفسه : ٥١٢ .

جواب لكتاب معاوية الذي يقول فيه : ((و قد ذُكر لي أنّك تنصّل من دمه ، فإن كنت صادقاً فأمكنّا من قتلته نقتلهم به ونحن أسرع إليك ، وإلّا فانّه ليس لك ولا لأصحابك إلّا السيف))[1] ، فالكتاب يحمل تهديداً واضحاً بالحرب على الإمام (عليه السلام) ؛ ولهذا ينبغي أن يُخَصَّص السلام في هذه الرسائل ، وهو ما تدلُّ (اللام) عليه ؛ إذ هي تجعل السلام خاصاً بأهل السلام ، فيكون معاوية غير مشمول بهذا السلام ؛ لأنَّه من أهل الحرب وهذا المعنى لا يُتَحصَّل عند تأويل اللام بـ (على) ؛ لأنَّ معنى : السلام على أهله ، لا تدلُّ فيه (على) على اختصاص السلام بمدخولها .

وهذه النيابة التي زُحزحت فيها دلالة الاختصاص تكررت مع قوله (عليه السلام) : ((**فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلَانٍ بَعْدَه ... فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُم**))[2] إذ فُسِّرت اللام في (لسبيله) بمعنى (على) ، يقول الخوئي : ((اللّام في قوله (عليه السلام) : لسبيله ، بمعنى على ... أي : على سبيله الذي يسلكه كلُّ انسان وهو سبيل الآخرة))[3] ، وقد اعترض أحد الباحثين على هذا التأويل ؛ فذهب إلى أنَّ السبيل ((بمعنى الموت ، والموت لا يُسار عليه ؛ بل يُسار إليه ، فيكون المعنى : (حتى مضى إلى سبيله) . هذا إذا كان معنى السبيل هو الموت ، أمَّا إذا كان بمعنى (الطريق) أو (الطريقة) التي يسير عليها الشخص ، فتكون اللام قد تضمَّنت معنى (على) ولكن ليس بالمعنى الذي فسره الشارح (على سبيله الذي يسلكه كلُّ إنسان) بل هو : السير على الطريقة الخاصة التي سلكها أبو بكر في أنَّ الخلافة ليست بالنص والتعيين الإلهي ، بل بالاختيار من الناس ، ويساعد على هذا المعنى الفاء العاطفة المفيدة التعقيب إذ عطف (فأدلى بها) على (مضى لسبيله) فأفادت

---

[1] منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٠/ ٣٦٩ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٨ .

[3] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣/٤٩ ـ ٥٠ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١/١٦٢ .

المباشرة من غير مهلة ؛ لتدلَّ على أنَّ الأمر معدٌّ سابقاً ومدبَّر))[1] ، وذكر بعض الشرَّاح أنَّ اللام بمعنى (في) ، جاء في الدرة النجفية : ((واللّام في : لسبيله بمعنى (في) كما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا ﴾ [2] ، أي : في وقتها)) [3] وهو يتوافق في ذلك مع تفسير ابن هشام لهذه اللام ، يقول ابن هشام : ((مُوَافقَة (فِي) ، نَحْو : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [4] ... وَقَوْلهمْ : مضى لسبيله)) [5].

ولسنا بحاجة إلى الاستدلال على بُعد هذه التأويلات عن ظاهر اللفظ ، وتحميلها العبارة ما لا تحتمله ، فالفعل (مضى) يمكن أن يكون متعدياً بـ (إلى ، على ، في ، اللام ، الباء)[6] ، ولكنَّه يُعطي في كلِّ مرَّة دلالة تختلف عن الأخرى ، وهذا ما أشار إليه السيوطي بقوله : ((إنَّ الفعل قد يتعدّى بعدّة من حروف الجر على مقدار المعنى المراد من وقوع الفعل ؛ لأنَّ هذه المعاني كائنة في الفعل ، وإنّما يثيرها ويظهرها حروف الجر، وذلك أنّك إذا قلت : خرجت ، فأردت أن تبيِّن ابتداء خروجك قلت : خرجت من الدار، فإن أردت أن تبيِّن أنَّ خروجك مقارن لاستعلائك ، قلت : خرجت على الدابة ، فإن أردت المجاوزة للمكان ، قلت : خرجت عن الدار، وإن أردت الصحبة ، قلت : خرجت بسلامي))[7] ؛ ولذا فتعدية الفعل باللام تشير إلى المضي الخاص وهو الموت ؛ فكلُّ حيٍّ يمضي لمصيره الخاص به ، ويؤيِّد هذا المعنى ما قاله

---

[1] جهود حبيب الله الخوئي النحويَّة في شرح نهج البلاغة : ظافر عبيس عناد ، (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ،١٤٣١هـ-٢٠١٠م : ١٨٨ .

[2] سورة الأعراف ، الآية : ١٨٧ .

[3] الدرة النجفية : ٦٢ .

[4] سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

[5] مغني اللبيب : ٢٨١/١ .

[6] ينظر : لسان العرب . (مضي) : ٢٨٣/١٥ ـ ٢٨٤ .

[7] الأشباه والنظائر في النحو : ٩٩/٦ .

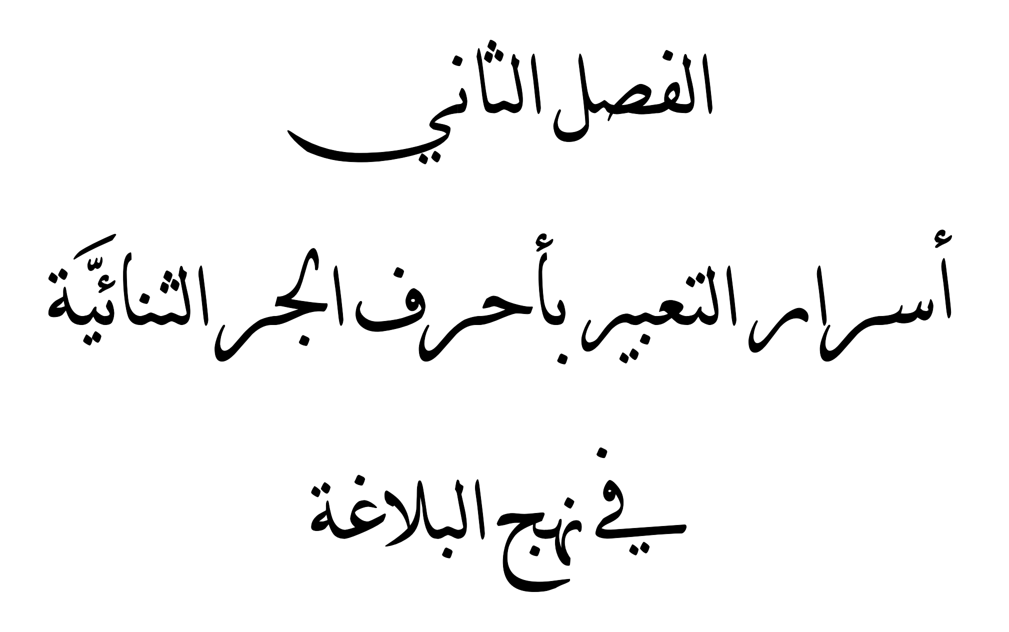
(عليه السلام) بحقِّ النبيّ المصطفى (صلى الله عليه وآله) ، يقول (عليه السلام) : ((وَ وَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيماً لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ وَ أَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ)) [1].

وأمَّا ما استظهره الباحث من كون السبيل هو سيرة أبي بكر في اختيار الخليفة ، وأنَّها راجعة إلى اختيار الناس ، فليس بمراد هنا ؛ لأنَّ أبا بكر نصَّ على الخليفة بعده وكتب كتاباً عيَّن فيه عمر بن الخطاب ، ولم يترك الأمر للناس ، وذلك في آخر لحظات حياته ؛ لذا عُطِف الإدلاء بالفاء ؛ للدلالة على التعقيب بلا مهلة ، وهذه الحادثة معروفة مشهورة ، ذكرها ابن أبي الحديد تحت عنوان (عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب) يقول : ((أحضر أبو بكر عثمان وهو يجود بنفسه ، فأمره أن يكتب عهداً ، وقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد عبد الله بن عثمان إلى المسلمين ، أمَّا بعد ، ثُمَّ أغمي عليه ، وكتب عثمان : قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، وأفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ ، فقرأه ، فكبَّر أبو بكر وسُرَّ ، وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي ، قال : نعم ، قال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله ، ثمَّ أتمَّ العهد ، وأمر أن يُقرأ على الناس فقرئ عليهم)) [2].

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٢٧ .

[2] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد :١٦٦/١، وقد علَّق القزويني على هذا العهد بما نصه : ((و كان عمر يومئذ حاضراً عنده ، وعلم بالوصية ، ولكنه لم يقل : ان الرجل ليهجر. أو: ان الرجل غلب عليه الضعف ، حسبنا كتاب اللّه ، مع ان ابا بكر كان يغشى عليه ، و هو غير معصوم عن الخطأ و الهجر و ليس من الذين لا ينطقون عن الهوى ، وكيف كان فالسبب معلوم في قوله هناك و سكوته هنا)) شرح نهج البلاغة ، للقزويني : ١٦٢/١.



الفصل الثاني

أسرار التعبير بأحرف الجر الثنائيَّة

في نهج البلاغة

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأوَّل : أسرار التعبير بالحرف (عن)

المبحث الثاني : أسرار التعبير بالحرف (في)

المبحث الثالث : أسرار التعبير بالحرف (من)

الفصل الثاني

أسرار التعبير بأحرف الجرِّ الثُّنائيَّة في نهج البلاغة

المبحث الأوَّل

أسرار التعبير بالحرف (عن)

هو حرفُ جرٍّ أصلي ، يدخل على الظّاهر والمُضمَر ، وهو مبنيٌّ على السكون إلَّا أنَّ الغالب في نونه أن تتحرك بالكسر إذا وقع بعدها ساكن مطلقاً ، نحو : انصرف عنِ الأذى انصرافك عنِ استقبال البلايا [1] .

وأمَّا معانيها فهي تتأرجح بين مذهب البصريين القائلين بوحدة المعنى ، وبين مذهب الكوفيين القائلين بتعدُّد معانيها تبعاً لاختلاف السياقات ؛ فالبصريون لم يثبتوا لها غير معنى المجاوزة الذي أشار إليه شيخهم سيبويه بقوله : ((وأمَّا (عن) فلِما عدا الشيء ، وذلك قولك : أطعمه عن جوع ... وتقول : جلس عن يمينه ، فجعله متراخياً عن بدنه وجعله في المكان الذي بحيال يمينه . وتقول : أضربت عنه ، وأعرضت عنه ، وانصرف عنه ، إنَّما تريد أنَّه تراخى عنه وجاوزه إلى غيره))[2] ، وأمَّا الكوفيون ومَن وافقهم فقد أثبتوا لها جملة معانٍ ، مع اختلافهم في عددها[3] ، واتفاقهم في تأويلها وفق مذهب النيابة .

وقد كان المتوقَّع من البصريين أن يتأوَّلوا متعلقها ـ في المواضع التي قيل بدلالتها على غير المجاوزة ـ على طريقة التضمين ، إلَّا أنَّهم ـ كما ذكر الصبَّان ـ لم يفعلوا

---

[1] ينظر : اللمحة في شرح الملحة : ٢٣١/١ ، والنحو الوافي : ٥١٣/٢ ، ومعجم القواعد العربية ، لعبد الغني بن علي الدقر : ٤٣٦/١ .

[2] الكتاب : ٢٢٦/٤ ـ ٢٢٧ .

[3] ينظر : مغني اللبيب : ١/ ١٩٦ ، وهمع الهوامع : ٢/ ٤٤٣ ـ٤٤٤ .

ذلك بل ((تكلَّفوا لها في المحالّ التي لا تظهر فيها المجاوزة معنى يصلح للمجاوزة ، ولم يرتكبوا التضمين ولا غيره ممَّا ارتكبوه في غيرها من الحروف))[1] ، ولا يخفى ما في ذلك من إشارة إلى عدم صلاحية التضمين واطراده في جميع الموارد التي خولف فيها مقتضى الظاهر .

ومع إيماننا بعدم كفاية النيابة أو التضمين ـ لو فُرِض وجوده هنا ـ في الكشف عمَّا يتوارى من دلالات لا تُسلِم نفسها للنظرة السطحية ، فإنَّنا نتوقف عند القدر المتيقَّن من دلالتها ، وهو يتمثَّل بالمعنى الذي اتفق عليه النحويون من البصريين والكوفيين ، فضلاً عن كونه المعنى الذي يكثر استعمالها فيه[2] ، وهو دلالتها على المجاوزة التي تعني ((ابتعاد شيء مذكور أو غير مذكور عمَّا بعد حرف الجر بسبب شيء قبله ؛ فالأول ؛ نحو : رميت السهم عن القوس ، والثاني ؛ نحو : رضي الله عنك ، أي : جاوزتك المؤاخذة بسبب الرضا . والمجاوزة قد تكون حقيقية كهذين المثالين ، وقد تكون مجازية ، إذا كانت في المعاني ؛ نحو : أخذتُ الفقه عن عالم متمكِّن ، أي : أنَّ الفقه جاوزه بسبب الأخذ منه)) [3].

وأمَّا سائر المعاني فيكفينا مؤونة الاستدلال على بطلانها ما أورده البصريون من أنَّ القول بنيابة (عن) عن حرف آخر يقتضي دلالته على معناه ، وهذا الأمر يستلزم جواز استعمالها في المواضع التي يقع فيها ذلك الحرف ؛ لأنَّها بمعناه ـ كما هو مفروض ـ وهو ما لا يقول به أحدٌ من النحويين ، جاء في همع الهوامع : ((والبصريون قالوا هي للمجاوزة في الجميع ولو كانت لها معاني هذه الحروف لجاز أَن

---

[1] حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣٣٥/٢ .

[2] ينظر : شرح تسهيل الفوائد : ١٥٩/٣ ، وتوضيح المقاصد والمسالك : ٧٦١/٢ ، و ضياء السالك إلى أوضح المسالك : ٢٨٤/٢.

[3] أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٣٩/٣ ، وينظر : ، شرح الرضي على الكافية : ٣١٩/٤ ـ ٣٢٠ ، وحاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣٣٥/٢ .

تقع موقعها ، فيُقال : زيد عن الفرس ، أَي : عليه وجئت عن العصر ، أَي : بعده وتكلم عن خير ، أَي : به)) [١].

ولو صرفنا النظر عن كلِّ ما سبق فإنَّنا نستشعر ـ على المستوى التطبيقي ـ وجود هذا المعنى في كلِّ المواضع التي ورد فيها الحرف (عن) ، مع تفاوت في وضوح وخفاء أحد الطرفين المتباعدين أو كليهما .

وربَّما كان لملاحظة نوع المؤثرات الموحية المصاحبة لحرف المجاوزة ما يُساعد في إظهار القيمة الدلالية لهذا الحرف ، كما نلمح ذلك في خطبته (عليه السلام) التي يعظ الناس فيها ويهديهم من ضلالتهم ، ويقال : إنَّه خطبها بعد مقتل طلحة والزبير[٢]، يقول (عليه السلام) : ((**بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ وَتَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعلْيَاءِ ، وَبِنَا أَفْجَرْتُمْ عنِ السِّرَارِ** ...))[٣] ، والمراد بالضمير في قوله (عليه السلام) : ((بنا)) الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وأهل البيت (عليهم السلام) ، وأمَّا الباء فذهب الشرَّاح إلى دلالتها على السببية ، فيكون المعنى : ((بسببنا دخلتم في فجر الدين ، وخلصتم من ظلمة الجاهلية المطبقة الّتي قرّب اللّه كشفها بطلوع نور النبوّة من أُفُق الدعوة ، وتنوّر باطنكم بنور الإسلام ، و اشتهرتم بين الناس))[٤] ، وحَمْلُ الباء على السببية يُضيِّق دائرة المعنى ويجعل دورهم مقصوراً على بداية الدعوة الاسلامية ، في حين أنَّ حملها على معنى الإلصاق يوسِّع دائرة المعنى ، فتكون الهداية لمن كان ملتصقاً بهم غير مخالف لهم على طول الخط ، ويؤيِّد ذلك قوله (عليه السلام) في الخطبة نفسها : ((**عزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عنِّي**))[٥] ،

---

[١] همع الهوامع : ٤٤٣/٢ ، وينظر : الجنى الداني : ٢٤٩ .

[٢] منهاج البراعة ، للراوندى : ١٣٦/١

[٣] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٥١ . وتسنمتم : عَلَوْتُم . ينظر : مقاييس اللغة (سنم) : ١٠٧/٣، وأفجرتم : التَّفَتُّحُ فِي الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ الْفَجْرُ : انْفِجَارُ الظُّلْمَةِ عَنِ الصُّبْحِ . ينظر : مقاييس اللغة (فجر) : ٤٧٥/٤ ، والسِّرَارُ : هو لَيْلَةَ يَسْتَسِرُّ الْهِلَالُ ، فَرُبَّمَا كَانَ لَيْلَةً ، وَرُبَّمَا كَانَ لَيْلَتَيْنِ إِذَا تَمَّ الشَّهْرُ . مقاييس اللغة . (سر) : ٦٧/٣ .

[٤] شرح نهج البلاغة ، لشارح من القرن الثامن : ١١٠ .

[٥] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥١ . و عزب : تباعد . ينظر : مقاييس اللغة . (عزب) : ٣١٠/٤ .

وهذا لا يعني إلغاء معنى السببية ؛ لأنَّه من دلالات السياق لا الحرف كما سيأتي في الفصل الخاص بالمعاني المشتركة .

ومن هنا يظهر البُعد الدلالي للحرف (عن) ، إذ كلَّما بقي العبد مرتبطاً بمصدر الهداية ، وهم محمد وآله (عليهم السلام) ابتعد عن ظلمات الجهالة ؛ فالتمسك بأهل البيت (عليه السلام) لا يخرج العبد من ظلمات الجهل ويخلصه من مطبات الشرِّ وحسب ، بل يُبعده عن ذلك ويجعله مجاوزاً له ، سائراً في الطريق المعاكس له ، وهو طريق الكمال والقرب الإلهي ؛ لأنَّ ((الدّين بما هو هو لا يقدر على إصلاح النّاس ما لم يكن له مبيّن ومفسّر ، إذ هو ليس الاّ مجموع الأحكام المقرّرة من قبل اللّه تعالى لإرشاد النّاس ... فينتج أنَّ تحصيل الكمال على ما ينبغي موقوف على وجود النّبيّ و الوصيّ))[1] ، ولمَّا كانت الأرض لا تخلو من حجة لله كما ورد في الأحاديث الشريفة[2] ؛ فإنَّ حركة تخليص الحق من الباطل وتحرير الأمَّة ـ ممَّا تعجُّ به الجاهليات القديمة والحديثة ـ غير متوقفة إلى أن يرث الله تعالى الأرضَ ومَن عليها .

ومن ذلك ما جاء في خطابه لأصحابه في بعض أيّام صفين وقد رأى ولده الإمام الهمام أبا محمّد الحسن (عليه السّلام) يتسرَّع إلى الحرب ، فقال (عليه السلام) : ((**امْلِكُوا عنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِي ، فَإِنَّنِي أَنْفَسُ بِهَذَيْنِ .يَعنِي الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ** (عليهما السلام) **علَى الْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعِ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ** (صلى الله عليه وآله)))[3] يقول ابن أبي الحديد : ((و (عن) متعلقة بمحذوف تقديره استولوا عليه وأبعدوه عنِّي ، ولمَّا كان المِلك سبب الحجر على

---

[1] مفتاح السعادة : ٣/ ٤٨٩ ، وينظر : الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة ، لمحمد الغروي : ٥٧ .

[2] ينظر : بحار الأنوار ، للشيخ محمد باقر المجلسي : ٢١/٢٣ ، ومن هذه الأحاديث ما روي عن أبي حمزة قال : ((قلت لابي عبد الله (عليه السلام) : تبقى الارض بغير إمام ؟ قال : لو بقيت الارض بغير إمام ساعة لساخت)) ، وعن جعفر بن محمد ، عن كرام ، قال : قال أبو عبد الله (عليه السلام) : ((لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الامام)) وقال: ((إن آخر من يموت الامام لئلا يحتج أحدهم على الله عز وجل تركه بغير حجة)) .

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٢٣. و لايهدني : الهَاءُ وَالدَّالُ : أَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ وَهَضْمٍ وَهَدْمٍ . ينظر : مقاييس اللغة . (هد) : ٧/٦ .

المملوك عبَّر بالسبب عن المُسبَّب كما عبَّر بالنكاح عن العقد ، وهو في الحقيقة اسم الوطء لما كان العقد طريقاً إلى الوطء وسبباً له . ووجه علو هذا الكلام وفصاحته ، أنَّه لمَّا كان في املكوا معنى البعد أعقبه بعن ، وذلك أنَّهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين (عليه السلام) إلا وقد أبعدوه عنه ، ألا ترى أنَّك إذا حجرت على زيد دون عمرو ، فقد باعدت زيداً عن عمرو ، فلذلك قال : املكوا عنِّي هذا الغلام))[1] ، وهذا الكلام أقرب ممَّا رجَّحه الخوئي بقوله : ((والأظهر عندي أنّها بمعنى البدل والعوض كما في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ [2])) [3] لأنَّ البدل أو العوض لا يفي بدلالة الابعاد والمجاوزة التي تترشَّح عن الحرف (عن) ، وإن كان منطوياً على نكتة دلالية ؛ لأنَّ قيام صحابة الامام (عليه السلام) بمنع الحسنين (عليهما السلام) عوضاً عنه ، فيه من الحكمة ما فيه ؛ لأنَّه لا يفتح ثغرة يتخذها العدو ذريعة في بثِّ الفتنة بين صفوف الجيش بحجة أنَّه (عليه السلام) يمنع ولديه ويقدِّم غيرهما .

ويبدو أنَّ استعمال الحرف (عن) في هذا المورد يشير إلى أمر آخر غير ما استظهره الشرَّاح ، وهو أنَّ المطلوب من المأمورين إبقاء الحسنين (عليهما السلام) في موقع دون موقع الامام علي (عليه السلام) ، وهذا الأمر يفهم من قوله (عليه السلام) : ((عنِّي)) فإدخال حرف المجاوزة على الضمير العائد عليه (عليه السلام) يشير إلى إبعاد خاص ، وهو الابعاد عن موقع الصدارة الذي هو الموقع الدائم لأمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهذا لا يعني إبعاد الإمامين عن ساحة الجهاد .

ولا يخفى أنَّ معنى المجاوزة في الموردين المتقدِّمين لم يقع تحت تأثير السياق الذي يوحي بحرفٍ آخر ، بخلاف الموارد التي سنقف عندها ؛ إذ يظهر منها للوهلة

[1] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٥/١١ .
[2] سورة البقرة ، الآية : ٤٨ .
[3] منهاج البراعة ، للخوئي : ٩٦/١٣ .

الأولى أنَّ هناك استبدالاً لحرف المجاوزة بحرف جرٍّ آخر ، فيكون المورد مصداقاً لقاعدة النيابة ، ولكنَّ هذه النظرة السطحية مبنيَّة على تهوين وظيفة حرف المجاوزة الذي هو ركن من أركان المعنى ، الأمر الذي يؤدِّي إلى توهين المعنى وتضعيفه ؛ وهذا يستلزم منا أن نتعمَّق في فهم هذه الموارد التي لا يمكن أن تكشف عن مكنونها ما لم يُسلَط الضوء عليها ؛ لإبراز طابعها الدلالي الخاص ، فينصهر فيها الحرف بسياقه ؛ ليكونا وحدة دلالية متكاملة .

إيثار (عن) على حرف الإلصاق (الباء) :

فتح الفرَّاء (ت ٢٠٧هـ) باب النيابة بين الحرفين أمام النحويين الآخرين عندما وجَّه ما نقله عن العرب ، بقوله : ((العرب تَقُولُ : رميت عن القوس وبالقوس وَعلَى القوس، يُراد بِهِ معنًى واحد))[١] ، وقد استدل ابن قتيبة بذلك لإثبات نيابة حرف المجاوزة عن حرف الالصاق في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عنِ الْهَوَى ﴾ [النجم :٣] يقول : ((قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عنِ الْهَوَى ﴾ [٢] ، أي بالهوى . والعرب تقول : رميت عن القوس ، أي : رميت بالقوس))[٣] ، ولم يلتفت ابن قتيبة إلى أنَّ النحويين يرون أنَّ الباء في قول العرب تفيد الاستعانة في حين يرون أنَّها في الآية الكريمة تفيد السببية ، وإلى هذا أشار السيوطي بقوله : ((وبمعنى (الباء) وفرق بينه وبين الاستعانة ومثله بالآية السَّابقة ، ومثَّل الاستعانة بنحو : رميت عن القوس ؛ لأَنَّهم يقولون (رميت بالقوس) حكاه الفرَّاء))[٤] ؛ ولهذا رجَّح ابن هشام والأشموني دلالة المجاوزة في هذا

[١] معاني القرآن ، للفراء : ٢٦٧/٢ .
[٢] سورة النجم ، الآية : ٣ .
[٣] تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة الدينوري : ٢٩٩ .
[٤] همع الهوامع : ٤٤٤/٢ ، و ينظر : شرح تسهيل الفوائد : ١٦٠/٣ .

الموضع ، جاء في المغني : ((الثامن مرادفة الباء نحو : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عنِ الْهَوَى ﴾ [1] والظاهر أنَّها على حقيقتها وأنَّ المعنى : وما يصدر قوله عن هوى)) [2].

ولا أفهم كيف وقع النحويون في مثل هذا المطب الخطير ؛ لأنَّ القول بورود تعبيرين عن العرب لا يقتضي التساوي بين معنييهما ، بل يكون الاستدلال بهذه الطريقة مغالطة واضحة ؛ لأنَّه سيؤدي إلى نتائج غير صحيحة ؛ فهل يمكن ـ اعتماداً على هذه الطريقة ـ القول بتساوي دلالة الواو والفاء في تعبيرين متشابهين ؛ بحجَّة ورودهما في أفصح الكلام ؟! كما في قوله تعالى : ﴿ يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا ... ﴾ [البقرة : ٣٥] وقوله سبحانه : ﴿ يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا ... ﴾ [الأعراف : ١٩] .

والغريب ـ هنا ـ أنَّ المرادي جعل ذلك دليلاً على بطلان ما ذهب إليه الحريري (ت٥١٦هـ) من التفريق بين هذين التعبيرين ، جاء في الجنى الداني : ((مثله ابن مالك بقوله : رميت عن القوس . فـ (عن) هنا بمعنى (الباء) في إفادة معنى الاستعانة ؛ لأنَّهم يقولون : رميت بالقوس . وحكى الفرَّاء عن العرب : رميت عن القوس ، وبالقوس ، وعلى القوس . قلتُ : وفي هذا ردٌّ على مَن قال : إنَّه لا يُقال : رميت بالقوس ، إلَّا إذا كان هو المرمي . وقد ذكر ذلك الحريري في درَّة الغوَّاص))[3] والحقيقة أنَّ الحريري لم يُنكِر نيابة (عن) عن (الباء) بشكل مطلق ؛ لأنَّه يشترط في صحَّة النيابة عدم حصول اللبس وعدم استحالة المعنى ، وهو غير موجود في هذا المورد ، جاء في درَّة الغوَّاص : ((وكذلك يقولون : رميت بالقوس ، والصَّواب أَن يُقال : رميت عن القوس أَو على القوس ... فإن قيل : هلَّا أجزتم أَن تكون (الباء) في هذا

---

[1] سورة النجم ، الآية : ٣ .

[2] مغني اللبيب : ١/ ١٩٨ . وينظر : شرح الأشموني لألفية ابن مالك : ٩٦/٢ .

[3] الجنى الداني : ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

الموطن قائمة مقام (عن) أَو (على) ، كما جاءت بمعنى (عن) في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سَأَلَ سَائل بِعذَاب وَاقع ﴾ [1] وبمعنى (على) في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسم الله مجْراهَا وَمرْسَاهَا ﴾ [2]. فالجواب عنه أَنَّ إقامة بعض حروف الجرّ مقام بعض إنَّما جُوِّز في المواطن التي ينتفي فيها اللبس ، ولا يستحيل المعنى الذي صيغ له اللفظ . ولو قيل ـ هاهنا ـ : رمى بالقوس ، لدلَّ ظاهر الكلام على أنَّه نبذها من يده ، وهو ضدُّ المراد بلفظه ؛ فلهذا لم يجز التأوّل للباء فيه)) [3].

وبناءً على ما تقدم فإنَّنا لا نُنكر ما ذكره الفرَّاء عن العرب من تعدِّي الفعل (رمى) بالباء وعن وعلى ، إلَّا أنَّنا لا نسلِّم بما استظهره هو من التساوي الدلالي بينها ؛ لِما يستلزمه من إضاعةٍ لمعاني تلك الحروف ؛ بل يؤدِّي ـ أحياناً ـ إلى التهاون الشديد في جانب المعنى بحيث يُصار إلى إنكار الفروق الدلالية الواضحة بين التعبيرات التي يعرفها مَن له أدنى خبرة بالعربية ، ومن ذلك ما ذكره المالقي بقوله : ((أن تكون بمعنى الباء ، نحو قولك : قمتُ عن أصحابي))[4] ، ولا أتصوَّر أنَّ عربياً يفهم من هذا القول سوى قيام المتكلم وانصرافه عن أصحابه ، ولا يأتي في ذهنه ـ ولو على بُعد ـ أنَّ المتكلم يقصد قيام المتكلم بأصحابه .

والحقيقة أنَّ تسليط مذهب النيابة على رقبة الأداء الفني ستجنح به نحو التخلِّي عن طابعه البلاغي الدقيق في رسم المشاهد وتصويرها على أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية ، وفي أوضاع خاصَّة من الأضواء والظلال ، وإنعام النظر في بعض ما قاله سيِّد البلغاء (عليه السلام) يُثبت صحَّة هذه المقولة ، فلو تأمَّلنا في تعدية الفعل (رضي) بالحرفين في نهج البلاغة ، لرأينا أنَّه استعمل في مواطن متعدِّدة إلَّا أنَّه تعدَّى في كلِّ

(1) سورة المعارج ، الآية : ١ .
(2) سورة هود ، الآية : ٤١ .
(3) درة الغواص : ٢٠٦ .
(4) رصف المباني : ٣٦٩ .

واحدٍ منها بما يناسبه من حرف ، فمن تعديته بحرف الباء قوله (عليه السلام) : ((**أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَع وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عنْ ضُرِّهِ وَ هَانَتْ علَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ علَيْهَا لِسَانَهُ**)) [١] ومن تعديته بالحرف (عن) قوله (عليه السلام) : ((**مَنْ رَضِيَ عنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ علَيْهِ**)) [٢].

ولو رُحت تستبدل أحد الحرفين بالآخر لانقلب المعنى وتغيَّرت الدلالة ؛ وهذا ما أشار إليه ابن عاشور بقوله : ((ورَضي ...إذا عُدِّيَ بالباء دَلَّ على أَنَّهُ صار راضياً بسبب ما دخلت عليه الباء ، كقوله : ﴿ **أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ** ﴾ [٣] ، وإِذا عُدِّي بـ (عن) فمعناه أَنَّه تجاوز عن تقصيره أَو عن ذنبه ﴿ **فَإِنْ تَرْضَوْا عنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضى عنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ** ﴾ [٤])) [٥] ومع صحّة ما ذكره ابن عاشور من وجود الفرق بينهما إلَّا أنَّنا لا نوافقه في ما ذهب إليه بخصوص الباء ؛ لأنَّها داخلة على المَرضِيِّ به ودالة على كون الرضا ملتبساً به ، ومخالطاً له ، فالذُّل في قوله (عليه السلام) : ((**رَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عنْ ضُرِّهِ**)) ليس هو السبب في الرضا ؛ لأنَّ الرضا حاصلٌ بسبب الكشف عن الضرِّ ، وأمَّا الباء فهي تنبئ عن سرٍّ آخر يتعاضد مع دلالة تقديم ما يسميه بعض النحويين (شبه الجواب) [٦] .

والذي يبدو أنَّ بناء الجملة الشرطية بهذا الشكل من تقديم شبه الجواب ، واستعمال الباء الدالة على الإلصاق يُميط اللثام عن الحالة النفسية التي تسبق عملية الكشف عن الضر ، وهي تقبُّل الذُّل في داخل النفس أوّلاً ، ثمَّ تقبُّل الذُّل والصَّغار الذي سيصدر من الناس ، فهو ـ بكشفه لضره ـ سيحصد ذُلين ، وهذا ما تكشف عنه

---

[١] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٤٦٩ . وأزرى : احتقر وتهاون . ينظر : مقاييس اللغة . (زرى) : ٥٢/٣ .

[٢] المصدر نفسه : ٤٦٩ .

[٣] سورة التَّوْبَة ، الآية : ٣٨ .

[٤] السورة نفسها ، الآية : ٩٦ .

[٥] التحرير والتنوير : ٢٣٣/١٠ ــ ٢٣٤ .

[٦] ينظر : النحو الوافي : ٤٥٠/٤ ، وينظر : أسلوب الشرط في نهج البلاغة ، دراسة نحوية تطبيقية : يُسرى خلف سمير سمير ديوان السّعيدي ، (رسالة ماجستير) ، الجامعة المستنصرية ، كلية الآداب ، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩ م : ١٨٨ .

البنية العميقة للجملة ؛ لأنَّ جواب الشرط محذوف دلَّ عليه الجملة الفعلية المتقدِّمة (رضي بالذُّل) ، وتوضيح ذلك :

رضي بالذُّل مَن كشف عن ضُرِّه ....(بنية سطحيَّة) .

رضي بالذُّل مَن كشف عن ضُرِّه رضي بالذُّل ....(بنية عميقة) .

ولا يخفى ما في ذلك من ((تنفير للإنسان عن شكاية فقره وضرّه للناس بذكر ما يلزم ذلك من المذلّة والرضى به)) [١].

وأمَّا استعمال (عن) في قوله (عليه السلام) : ((**مَنْ رَضِيَ عنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ علَيْهِ**)) فهو يدلُّ على أنَّ ذلك الراضي قد تجاوز عيوبه وأخطاءه ، والسبب في ذلك ـ كما أشار الشرَّاح [٢]ـ هو ما يتوهمه هذا المُعجَبُ بنفسه من بلوغ الكمال مع أنَّه في مهاوي النُّقصان ؛ ولذا فهو يرفع نفسه فوق قدرها ((فيصبح كلُّ ما يمارسه مع الناس من أخطاء وإساءات لا يلتفت إليها ، وكلُّ إساءة تُربِّي له عدوّاً وتخلق ساخطاً عليه وغاضباً على تصرفاته)) [٣].

ومن روائع استعمال الحرفين كلٌّ في موضعه اللائق به ، قوله (عليه السلام) في وصف الطاووس : ((**فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعقُولَ عنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعيُونِ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً وَأَعجَزَ الْأَلْسُنَ عنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ وَقَعدَ بِهَا عنْ تَأْدِيَةِ نَعتِهِ**))[٤] ، فالتعبير هنا هنا يختصر مشهداً يُصوِّرُ فيه عجزَ العقول عن إدراك ذاته سبحانه[٥] ، إلَّا أنَّه يشي مُنذُ البِدء بأنَّ أقصى ما يصلُ إليه اللسان البليغ من براعة البيان هو العجز عن

---

(١) شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم :٢٣٩/٥.

(٢) ينظر : معارج نهج البلاغة :٤٠٠ ، وحدائق الحقائق : ٦٠٣/٢ ، واختيار مصباح السالكين : ٥٧٨ ، وفي ظلال نهج البلاغة : ٢٢٠/٤ .

(٣) شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢١١/٥ .

(٤) نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٢٣٦ . و الْبَهْرُ : الْغَلَبَةُ . ينظر : مقاييس اللغة . (بهر) : ٣٠٨/١ .

(٥) جاء في منهاج البراعة ، للخوئي : ٥٨/١٠ : ((والغرض الدّلالة على عجز العقول عن إدراك ذاته سبحانه، فانّها إذا عجزت عن إدراك مخلوق ظاهر للعيون على الأوصاف المذكورة فهي بالعجز عن إدراكه سبحانه و وصفه أحرى، و كذلك الألسن عن تلخيص صفته و تأدية نعته أعجز)) .

وصف شيءٍ ظاهرٍ من مخلوقٍ صغيرٍ ، ففي قوله (عليه السلام) : ((**قَعدَ بِهَا عنْ تَأْدِيَةِ نَعتِهِ**)) تحسُّ بدقَّة اختيار الألفاظ وملاءمة بعضها لبعض ، فالقعود يُمثِّل حالة الهبوط والانحدار ؛ لأنَّه يدلُّ على ((الانتقال من علو إلى أسفل... [يُقال] لِمن هو قائم : اقعد))[1] ، وبهذا الاتجاه تسير دلالة المجاوزة التي يؤدِّيها الحرف (عن) ؛ لأنَّه ((يدلُّ علَى الانحطاط والنزول ، تقول : نَزَلَ عن الجبل ، وعن ظهر الدّابة ، وأخذ العلْمَ عن زيد ؛ لأنَّ المأخوذَ عنه أعلى رُتبةً من الآخذ))[2] ، ومع رحلة الهبوط هذه تأتي دلالة الباء لِتُرفِدِ الدلالة على الوهن بإلصاقها ذلك القعود بتلك الألسن ، فكأنَّها ملتبسةٌ بالضعف ، فلا تزيدها محاولة الكشف عن صفة ذلك المخلوق إلَّا بعداً عن مرادها .

إيثار (عن) على حرف الابتداء (من) :

ألمح سيبويه إلى التقارب الدلالي بين حرف الابتداء وحرف المجاوزة مع احتفاظ كلِّ حرف بدلالته المستقلة ، جاء في الكتاب : ((وقد تقع (من) موقعها أيضاً ، تقول: أطعمه من جوع ، وكساه من عريٍ ، وسقاه من العيمة))[3] ، وقد فسَّر ابن مالك هذا التعاقب على الاشتراك الدلالي بين الحرفين في معنى المجاوزة ، جاء في شرح التسهيل : ((ولاشتراك (عن) و(من) في معنى المجاوزة تعاقبا في تعدية بعض الأفعال ، نحو : كسوته عن عرْي ومن عري ، وأطعمته عن جوع ومن جوع ، ونزعت الشيء عنه ومنه ، وتقبّل عنه ومنه ، ومنع عنه ومنه ... فأوقع (عن) موقع (من) والمعنى واحد)) [4] .

---

(١) الفروق اللغوية : ١٦٤ .

(٢) الصاحبي في فقه اللغة : ١١٢ .

(٣) الكتاب : ٤/٢٢٧ .

(٤) شرح تسهيل الفوائد : ٣/١٥٨ ـ ١٥٩ .

أمَّا ابن الصائغ (ت ٧٢٠هـ) وابن هشام وغيرهما فقد أرسلوا ذلك إرسال المسلَّمات ، يقول ابن الصائغ : ((وتكون بمعنى (مِنْ) ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عنْ عبَادِهِ ﴾ [1] أي : من عباده))[2] ، وحمل الصبَّان قوله تعالى : ﴿ أولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عمِلُوا ﴾ [الأحقاف: ١٦] على ذلك[3] ، وقد استدل السيوطي على صحَّة النيابة بدليل قرآني في الآيتين بقوله : ((ومعنى (من) ، نحو : ﴿ **يَقْبَلُ التَّوبَةَ عنْ عبَادِهِ** ﴾ [4] ﴿ **نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا** ﴾[5] بِدَلِيل ﴿ **فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا** ﴾ [6]))[7] ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ذهب بعض النحويين إلى أبعد من ذلك ، فقدَّم دلالة الابتداء على دلالة المجاوزة ، مُدَّعياً افتقار معنى المجاوزة إلى تقدير محذوف ، فيكون محلًّا لانطباق القاعدة المشهورة : عدم التقدير أولى من التقدير ، جاء في النحو الوافي : ((أن تكون بمعنى : (من) نحو قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عنْ عبَادِهِ** ﴾ [8]، أي : من عباده ، وهذا أوضح من عدِّها للمجاوزة ؛ على معنى : الصادرة الصادرة عن عباده ، ولا تقدير فيه))[9] ، والحقيقة أنَّ اعتبارها للمجاوزة لا يتوقف على على التقدير المذكور ، بل يمكن تأويلها على مذهب التضمين ـ كما ذهب إلى ذلك الزركشي ـ فيكون مجيء (عن) في هذا الموضع لأنَّه ((ضَمَّنَ التَّوبةَ معنى العفو والصَّفح)) [10].

---

[1] سورة الشورى ، الآية : ٢٥ .
[2] اللمحة في شرح الملحة : ٢٣٣/١ ، وينظر : أوضح المسالك : ٤٢/٣ ، و شرح التصريح على التوضيح : ٦٥٤/١
[3] ينظر : حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣٣٦/٢.
[4] سورة الشورى ، الآية : ٢٥ .
[5] سورة الْأَحْقَاف ، الآية : ١٦ .
[6] سورة الْمَائِدَة ، الآية : ٢٧ .
[7] همع الهوامع : ٤٤٤/٢ .
[8] سورة الشورى ، الآية : ٢٥ .
[9] النحو الوافي : ٥١٤/٢ .
[10] البرهان في علوم القرآن : ٣٣٩/٣ .

وليس كلُّ النحويين نحا هذا النحو في معالجة هذه الموارد ، بل نجد مَن فرَّق بين دلالة الحرفين ، يقول الزمخشري : ((فإن قلتَ : ما الفرق بين (من) و(عن) في هذا ؟ قلتُ : إذا قلت : قسا قلبه من ذكر الله ، فالمعنى ما ذكرت من أنَّ القسوة من أجل الذكر وبسببه ، وإذا قلت : عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه ونظيره : سقاه من العيمة ، أي : من أجل عطشه ، وسقاه عن العيمة : إذا أرواه حتَّى أبعده عن العطش))[1] ، وجَعْلُ (من) دالة على السببيَّة لا يضع حدًّا فاصلاً بين الحرفين ؛ لأنَّ التعليل واحد من الدلالات التي أثبتها النحويون للحرف (عن) أيضاً ؛ ولهذا نجد أنَّ عبارة ابن يعيش أكثر دقَّة في بيان الفرق ، يقول : ((وتقول : أطعمه من جُوعٍ ، وعن جُوعٍ ، فإذا جئت بـ (مِنْ) كانت لابتداء الغاية ؛ لأنّ الجُوع ابتداء الإطعام ، وإذا جئت بـ (عن) فالمعنى أنَّ الإطعام صرف الجوع ؛ لأنَّ (عن) لِما عدا الشيءَ))[2].

ويبدو أنَّ منشأ التداخل بين الحرفين يعود ـ أحياناً ـ إلى عمق المعنى المقصود ، كما في قوله (عليه السلام) : ((**أَوَّلُ الدِّينِ مَعرِفَتُهُ وَ كَمَالُ مَعرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ ، وَ كَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وَ كَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ ، وَ كَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عنْهُ ... كَائِنٌ لَا عنْ حَدَثٍ مَوْجُودٌ لَا عنْ عدَمٍ**))[3] وقد صاغ الامام (عليه السلام) عباراته التوحيدية التوحيدية المنطوية على معارف عقائدية بأسلوب منطقي لم يعهد في كلام العرب ، ولم يستعمله العلماء إلّا بعد ترجمة المنطق[4] ، والجملتان الأخيرتان ـ بما تحملان من من معنى مكثَّف ـ مصوغتان بشكل دقيق ، وهذا الأمر يشير إلى أنَّ حرف المجاوزة يحتلُّ موقعاً دلاليَّاً في بيان المراد منهما .

(1) الكشاف : ١٢٢/٤

(2) شرح المفصل : ٥٠٢/٤

(3) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٩

(4) ينظر : دراسة حول نهج البلاغة ، لمحمد حسين الحسيني الجلالي : ٦١ .

وقد اختلف الشرَّاح في بيان المراد منهما ، فذهب بعضهم إلى أنَّهما بمعنًى واحد ؛ لأنَّه قد يستعمل كائن بمعنى موجود ؛ فتكون الثانية مؤكدة للأولى[١] ، إلَّا أنَّه ((ليس مقتضاها عين ما أفادته الأولى ؛ إذ كان في الكلمة الأولى مقصود آخر ، وهو تعليم الخلق كيفيّة إطلاق الكون على اللَّه وإشعارهم أنَّ الخلق المراد منها ليس ما يتبادر إليه الذهن من مفهومها حال إطلاقها وهو الحدوث))[٢] ، في حين ذهب آخرون إلى اختلاف المقصود بهما[٣] ، ولسنا بصدد إثبات ذلك أو نفيه ، إلَّا أنَّنا لا ننكر مدخلية دلالة حرف الجر في بيان نوع الارتباط بين مدخول الحرف ومتعلقه ، وهو ما يقتضي البحث في دلالتها لتحديد ذلك الارتباط .

وليس في كلام شرَّاح النهج ـ عدا الخوئي ـ ما يُبيِّن دلالة الحرف (عن) ، وهذا يعني حملها على معناها الأصلي وهو المجاوزة ، أمَّا الخوئي فقد تأوَّل معنى الحرف (عن) على النيابة ، فقال : ((وكلمة (عن) في الفقرتين بمعنى (من) ... ويجوز كونها في الفقرة الثّانية بمعنى بعد))[٤] ، والذي يبدو أنَّ معنى (من) التي ناب عنها حرف المجاوزة هي الدالة على السببيَّة ، ويؤيِّد هذا ما ذكره الخوئي نفسه من أنَّ التقييد بقوله (عليه السلام) : ((لا عن حدث)) جاء ((تنبيهاً على أنَّ وجوده سبحانه ليس وجوداً حدوثيًّا ، وأنّه سبحانه كائن بلا كينونية)) [٥] أي : ليس ناشئاً عن علة وسبب . وعلى هذا فالقول بالنيابة لا يعود على المعنى بزيادة ؛ لأنَّه يكون من باب تحصيل الحاصل

---

[١] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٧٨/١ ـ ٧٩ ، وحدائق الحقائق : ١٢٥/١ ، يقول ابن أبي الحديد : ((قوله (عليه السلام) : كائن ، وإن كان في الاصطلاح العرفي مقولاً على ما ينزه البارئ عنه ، فمراده به المفهوم اللغوي وهو اسم فاعل من كان بمعنى وجد ، كأنَّه قال : موجود غير محدث)) .

[٢] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ١٢٧/١ ، وينظر : الدرة النجفية : ٢١ .

[٣] ينظر : اختيار مصباح السالكين : ٦١ ــ ٦٢ .

[٤] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٤٣/١

[٥] المصدر نفسه : ٣٤٤/١

؛ لأنَّ الحرف (عن) ـ عند الخوئي [١] ـ له القدرة على الإيفاء بمعنى السببية ؛ لأنَّها إحدى دلالاته ، فالإبقاء على الحرف (عن) وحمله على السببيَّة أولى من القول بنيابته عن الحرف (من) .

ولعلَّ تصوير الانتقال من ظلمة العدم إلى نور الوجود ، وأسبقيَّة الأوَّل للثاني ـ بالقياس إلى الممكنات ـ مع البينونة بين سمات المرحلتين هو ما دعا لاستعمال حرف المجاوزة ؛ فإنَّ الكائنات والموجودات لا يمكن أن تصل إلى عتبة الوجود إلَّا بعد مجاوزتها حدَّ العدم ، وتحقّق كلّ أجزائها خارج دائرته ، وهذه القاعدة تنطبق على كلِّ الموجودات لا يشذُّ عنها فرد من الممكنات ، ولكنَّها ممتنعة التطبيق على واجب الوجود عزَّت أسماؤه ؛ لاستلزامها الفقر والنقص ؛ لذا جيء بحرف السلب (لا) قبل حرف المجاوزة ، يقول القزويني : ((الكائنات حادثة ، أي : لم تكن ثمَّ كانت ، ولكنَّ اللّه كائن لا كسائر الكائنات ، أي : غير مسبوق بالحدوث ، وكذلك الموجودات لم تكن ثُمَّ وجِدَت فهي مسبوقة بالعدم ، لكنَّ اللّه تعالى موجود ما سبقه العدم ، والفرق بين هاتين الكلمتين أنَّ الكلمة الأولى معناها نفي حدوث الزمان عنه تعالى ومعنى الكلمة الثانية نفي الإمكان عنه وأنَّه واجب الوجود ما سبقه العدم))[٢] ، وليس هذا وحسب ، بل حاجة الممكنات متجدِّدة في كلِّ لحظة إلى إفاضة الوجود عليها (زمانياً وذاتياً)، ففي كلِّ آنٍ هي مفتقرةٌ إلى ما يمدُّها بالوجود ، ويُبعِدُها عن دائرة العدم ، وهذا المعنى لا يمكن أن يؤدِّيه حرف آخر غير حرف المجاوزة .

ولنا أن نلمح إشعاع الحرف (عن) وإيحائه بالمجاوزة في قوله (عليه السلام) : ((**أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعةِ سَادَاتِكُمْ وَ كُبَرَائِكُمْ ، الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عنْ حَسَبِهِمْ وَتَرَفَّعوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ ،**

---

[١] ينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٦٥/١١ . في شرح قوله (عليه السلام) : ((فَاعتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعلِ اللَّهِ بِإبْلِيسَ ، إذْ أَحْبَطَ عمَلَهُ الطَّوِيلَ وَ جَهْدَهُ الْجَهِيدَ ...عنْ كِبْرِ سَاعةٍ وَاحِدَةٍ)) يقول الخوئي : ((و قوله: عن كبر ساعة، متعلق بقوله: احبط، و عن للتعليل كما في قوله تعالى : ﴿ وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عنْ مَوْعِدَةٍ ﴾ [التوبة : ١١٤])) .

[٢] شرح نهج البلاغة ، للقزويني : ٣٨/١ .

وَأَلْقَوْا الْهَجِينَةَ علَى رَبِّهِمْ)) [١] وقد فُسِّرت (((عن) في قوله : تكبّروا عن حسبهم . إمّا بمعنى (من) كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [٢] أو بمعنى اللّام كما في قوله تعالى : ﴿ وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ ﴾ [٣] فعلى الأوّل فهي بمعنى (من) النشويَّة ، وعلى الثاني فبمعنى اللّام التعليلية))[٤] ، ويبدو أنَّه ليس وراء هذا التأويل إلَّا التركيز على العلاقة بين التكبُّر والحسب ، وفهم سببيَّة الثاني لحصول الأول ، ثمَّ إسقاط هذا المعنى على الحرف بتأويله بأحد الحرفين الدالين على التعليل ، ويؤيِّد هذا الأمر ما ذهب إليه بعض النحويين من أنّ (عن) بمعنى (من أجل) لا بمعنى (من) فقط [٥] .

ومع أنَّ هذا التأويل عقيم المعنى ؛ لأنَّه من باب تحصيل الحاصل ـ كما مرَّ في المورد السابق ـ إلَّا أنَّ التسليم بصحَّته لا يستلزم الدلالة على ذمِّ السادة والكبراء ، بل قد يؤدِّي إلى عكس المطلوب ؛ لأنَّ العبارة ـ حينئذٍ ـ تدلُّ على أمرين : الأول : وجود حسب لهم ، والثاني : أنَّ تكبرهم ناشئ عن ذلك الحسب . وهذا لا يقتضي ذمَّهم ؛ لأنَّ التكبُّر الناشئ عن الحسب ، أي : المؤهلات والفضائل[٦] ليس أمراً منكراً بصورة مطلقة ، بل قد يكون أمراً محموداً ، وهذا لا يتناغم مع التحذير المتكرِّر في صدر القول ؛ إذ يُفقد التحذير مبرراته ، يقول الراغب الأصفهاني : ((التَّكبُّرُ يقال على

---

[١] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٨٩ . والهجينة : الفعلة القبيحة . ينظر : لسان العرب . (هجن) : ٤٣١/١٣ .

[٢] سورة الشورى ، الآية : ٢٥ .

[٣] سورة التوبة ، الآية : ١١٤ .

[٤] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٠٢/١١ . و(من) النشوية عند الخوئي هي الدالة على السببية ؛ لذلك يأتي تفسيرها إلى جانب اللام التعليلية ، جاء في منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٥٧/١١ في شرح قوله (عليه السلام) : ((لَا تُشْوِي أَحَداً لَا عالِماً لِعلْمِهِ وَ لَا مُقِلًّا فِي طِمْرِهِ وَعنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ عبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَ ...)) يقول الخوئي : ((والأظهر عندي أنّ عن في قوله : عن ذلك للتعليل ... أو بمعني من النشوية ... و المعني أنّ حراسة اللّه لعباده بالصلاة و الزكاة و الصيام لأجل مفاسد هذه المكائد أو أنّها ناشئة من ذلك الفساد)) .

[٥] ينظر : رصف المباني : ٣٦٩ .

[٦] ينظر : لسان العرب . (حسب) : ٣١٠/١ .

وجهين : أحدهما : أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره ، وعلى هذا وصف الله تعالى بالتّكبّر، قال : ﴿ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ [1]. والثاني: أن يكون متكلّفا لذلك متشبّعاً ، وذلك في وصف عامّة الناس ، نحو قوله : ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [2]... ومن وصِفَ بالتّكبّر على الوجه الأوّل فمحمود ، ومن وصِفَ به على الوجه الثاني فمذموم ، ويدلّ على أنَّه قد يصحّ أن يُوصَف الإنسان بذلك ولا يكون مذموماً ، قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [3] فجعل متكبّرين بغير الحقّ)) [4].

وأحسب أنّ في استعمال حرف المجاوزة دقَّة واحتياطاً في بيان المعنى المراد ؛ لأنَّه سيشكِّل نقطة الافتراق بين الذمِّ وعدمه ، فدلالة هذا الحرف على المجاوزة تومئ إلى أنَّ تكبُّرَ هؤلاء القوم تكبُّرٌ زائف ليس وراءه ما يمدُّه من الحسب والمؤهلات ، فهم يدَّعون ما ليس فيهم متجاوزين أحسابهم التي تكشف عن ماضيهم السيِّء ، ومواقفهم ضد الاسلام ، وحمل الحرف على هذا المعنى يصبُّ في دلالة التحذير ويقوّيها .

وممَّا يؤيِّد هذا المعنى ما ذكره الدكتور أحمد مختار(ت ١٤٢٤هـ) في بيان معنى الفعل تكبَّر عندما يتعدى بالحرف (عن) ، يقول : ((يتعدّى الفعل تكبّر بـ (عن) ، إذا لوحظ فيه معنى (ترفّع)))[5] ، وليس معنى هذا أنَّا نؤيِّد ما ذهب إليه الدكتور من تفسير استعمال حرف المجاوزة في هذا الموضع وفق مذهب التضمين ؛ لأنَّنا نُسند معنى الترفُّع إلى الحرف لا إلى الفعل ، فالترفُّع ونحوه ـ ممَّا يدلُّ على ترك المتعلق والانتقال عنه ـ ما هو إلَّا تعبير آخر عن المجاوزة التي يدلُّ عليها الحرف (عن) ؛

---

[1] سورة الحشر ، الآية : ٢٣ .

[2] سورة الزمر ، الآية : ٧٢ .

[3] سورة الأعراف ، الآية : ١٤٦.

[4] المفردات في غريب القرآن : ٦٩٨/١ .

[5] معجم الصواب اللغوي ، د. أحمد مختار عمر : ٢٥٢/١ .

وهذا ما أشار إليه المرادي بقوله : ((ولكونها للمجاوزة عدِّي بها : صدَّ ، وأعرض ، ونحوهما ، ورغب ، ومال ، إذا قصد بهما ترك المتعلق)) [(١)] .

إيثار (عن) على حرف الاستعلاء (على) :

من المسلَّم به عند كثير من النحويين أن تنوب (عن) عن (على) ، وقد استشهدوا على صحَّة ذلك بمجموعة من الآيات الكريمة والأشعار الفصيحة ، جاء في أوضح المسالك : ((الاستعلاء ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عنْ نَفْسِهِ** ﴾ [(٢)] ، أي: على نفسه ، وكقول الشاعر [(٣)] :

لَاهِ ابْنِ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ　　　عَنِّي وَلَا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي

أي : عليَّ)) [(٤)].

والحقيقة أنَّ النحويين لم يتفقوا على تعليلٍ واحدٍ في تبرير هذه الظاهرة ، فذهب بعضهم إلى التضمين ، في حين ذهب بعضهم إلى استنباط معنًى يتناسب ومعنى الحرف (على) ، كالعلو ونحوه ، وأمَّا آخر الدواء فهو اللجوء إلى العلة الصوتية المتمثلة بخفَّة الحرف (عن) ، ففي تعدي الفعل (بخل) بـ (عن) نجد أنَّ الدماميني ذهب إلى تضمين (بخل) معنى (بعد) ، يقول : (((يبخل) قد ضُمِّن معنى يبعد، أي : ومَن يبخل فإنَّما يبعد الخير عن نفسه))[(٥)] في حين يرى غيره أنَّ الفعل قد ضُمِّن معنى (ثقل) ؛ ((لأنَّ الذي يسأل فيبخل يُحمِّل السائل ثقل الخيبة ، مضافاً إلى ثقل

[(١)] الجنى الداني : ٢٤٥ ، وينظر : اللمع في العربية ، لابن جني : ٧٣ .

[(٢)] سورة محمد ، الآية : ٣٨.

[(٣)] البيت لذي الإصبع العدواني ، ينظر : المعجم المفصل في شواهد العربية ، د. إميل بديع يعقوب : ٢٣٩/٨ .

[(٤)] أوضح المسالك : ٤٠/٣ ـ ٤١ ، وينظر : شرح شذور الذهب : ٥٤٧/٢ ، و الاتقان في علوم القرآن : ٢٤٠/٢ ، وضياء السالك : ٢٨٦/٢ ، وبصائر ذوي التمييز : ١٠٣/٤ .

[(٥)] أوضح المسالك : ٤١/٣ ، وينظر : معاني النحو : ٤٨/٣ .

الحاجة . ففي (بخل) معنى (ثقل) ، فكان جديراً بأن يشاركه في التعدية بـ(على)) [١]
ويرى ابن مالك أنَّ كثرة استعمال الفعل (بخل) تقتضي التخفيف في تعديته ، فمع أنَّ الأولى أن يتعدَّى الفعل بـ (على) إلا أنَّه عُدِل إلى (عن) ؛ لأنَّها أخفُّ منها ، جاء في شرح التسهيل : ((وأيضاً فإنّ (شحّ) و(ضنّ) بمعنى (بخل) ، وتعديتهما في الغالب بـ (على) لا بـ (عن) ، فكانت (بخل) أحقَّ بذلك ؛ إلَّا أنَّ (بخل) أكثرُ استعمالاً فعُدّيت بـ (عن) نيابة عن (على) ؛ لأنَّها أخفُّ منها)) [٢].

وخلاصة الأمر فإنَّ القائلين بالنيابة أو التضمين لا يكترثون لما يلحق المعنى من حيف ، لاستلزام مقالتهم أن يتساوى المعنى في تعبيرين مختلفي اللفظ ، وهذا لا يتناسب وبلاغة العربية ، ويمكن أن يُستشهد لذلك التهاون بواحد من شواهدهم ، وهو قول الشاعر [٣] :

ورَجِّ الفتى للخيرِ ما إنْ رأَيتَهُ   عن السِّنِّ خيراً لا يزالُ يَزِيدُ

فقد هيَّأت القرائن المذكورة في البيت (السِّن ، يزيد) لتفسير حرف المجاوزة بحرف الاستعلاء ؛ لأنَّ الزيادة في سِنِّ ذلك الفتى تعني ارتفاع سني عمره ، فيكون المعنى : ((انّك إذا رأيت الفتى يزداد خيراً كلّما علَتْ به السّنّ ، فترقّب منه الخير الوافر، وأمِّل فيه الأمل البعيد))[٤] .

والذي يبدو للباحث أنَّ إبقاء الحرف على دلالته أبلغ في أداء المعنى من القول بالنيابة ؛ لأنَّه سيدلُّ على أنَّ ذلك الفتى يفعل أفعالاً في الخير تتجاوز سني عمره ؛ فهو يسبق أقرانه في الفضل ؛ فكان ممَّن يُرتجى له المقام الرفيع في قابل الأيام ، وهذا

---

[١] الجنى الداني : ٢٤٦.
[٢] شرح تسهيل الفوائد : ١٥٩/٣ ــ ١٦٠ .
[٣] البيت للمَعلُوط بن بَدَل القُرَيْعيّ ، ينظر : المعجم المفصل في شواهد العربية : ٣٠٦/٢ .
[٤] اللمحة في شرح الملحة : ٢٣٢/١ .

المعنى بخلاف المعنى السابق الذي يتماشى مع الحالة الطبيعية لأكثر الفتيان ، فهم يُقدِّمون العطاء الأكثر كلَّما تقدَّمت أعمارهم .

والذي يبدو ـ في مثل هذه المواضع ـ أنَّ هناك تقارباً يحصل بين معنيي المجاوزة والاستعلاء عندما يكون التراخي والمجاوزة من جهة العلو الحقيقي أو المجازي ، إلَّا أنَّ الفرق بينهما يكمن في دلالة (على) على العلو المطلق ، مع إيحاء بالملازمة والاستيلاء والتمكُّن ، أمَّا (عن) فهي تختصُّ بما كان متراخياً عن الشيء ، ومتباعداً عن محلِّه ؛ ولذلك نجده (عليه السلام) قد استعمل (على) للدلالة على شدَّة الاجتماع ، واستعمل (عن) للدلالة على مقدار التفرُّق في قوله (عليه السلام) : ((**أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ**)) [(١)].

ويرى الدكتور محمد الأمين الخضري أنَّ الظلال المعنوية لحرف الاستعلاء المتمثلة باستعماله في المغالبة والقهر لا تتناسب مع حرف المجاوزة الدالّ على التباعد بين طرفين من غير إيحاء بإلحاق الضرر بمدخول الحرف ؛ ولذلك يصح أن تقول : بخل عليه ، إذا قصدت أنَّه أوقع عليه الضرر بحبس المال عنه ، وتقول : بخل عنه ، إذا أردت أنَّه منع المال عنه ، فلا يكون أحد الحرفين بمعنى الآخر [(٢)].

ومع وجاهة هذا الرأي إلا أنَّنا لا نجده مطَّرداً ـ بالنسبة للحرف عن ـ في كلِّ المواضع ؛ لأنَّه قد استعمل فيما يدلُّ على المغالبة والقهر ، ومن ذلك ما نراه في كلامه (عليه السلام) في ترويض النفس وجهادها وهو يقتضي المغالبة والقهر إلى الدرجة التي جعلت منه جهاداً أكبر ، يقول (عليه السلام) : ((**أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا**

---

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٦٧ . وسيدالون : سيتحولون . ينظر : مقاييس اللغة . (دول) : ٣١٤/٢ .

(٢) ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٣١٨ .

فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عنْ مَعاصِي اللَّهِ)) [1] يقول السيد عباس الموسوي : ((شبَّه النفس بدابة صعبة ؛ فإنَّه إذا وضع لجامها في فمها منعها عمَّا لا يريد و وجَّهها إلى ما يُحبُّ و يُريد ، وكذلك النفس إذا أخذها بتقوى اللّه ؛ فإنَّ هذه التقوى تمنعه عن ارتكاب المعاصي والانحرافات وتردعه عن جميع المحرمات))[2] ، ولذا فالرأي السديد ـ كما يبدو ـ هو ما قدَّمناه من أنَّ الفارق بين الحرفين هو دلالة (عن) على التباعد سواء كان بالقهر أم بغيره ؟ ودلالة (على) على الاستعلاء والتمكُّن والملازمة ، وهذا يقتضي ـ غالباً ـ المغالبة والقهر ، ولكي يتضح الأمر أكثر ، نقف عند استعمال (على) مع الفعل (أمسك) الذي استعملت (عن) معه في القول المتقدِّم ، يقول (عليه السلام) في وصية له بعد منصرفه من صفين : ((**هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عبْدُ اللَّهِ علِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ؛ لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ وَيُعطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ ... وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي اللَّاتِي أَطُوفُ علَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ فَتُمْسَكُ علَى وَلَدِهَا**)) [3] ويبدو أنَّ التعبير بحرف الاستعلاء في هذا الموضع يشير إلى نكتة دقيقة ، فهو يدلُّ على أنَّ هذه الأَمَة ملازمة لولدها ؛ لأنَّها تُقَوَّم ويُحسَب ثمنها من حصَّة ولدها ، فلا يجوز لسائر الورثة التصرّف فيها مطلقاً ، وليس هذا وحسب ، بل إنَّ حرف الاستعلاء يومئ إلى استيلاء هذه الأمة على ولدها على الرغم من كونها حصته من التركة ؛ لأنَّها بمجرد أن تدخل في ملكية ولدها فإنَّها ستنعتق عليه قهراً ، يقول الخوئي : ((يعني أنّ الأمة الّتي لها ولد منّي كسائر الإماء من التركة ، فمن كان من إمائي اللّاتي لها ولد منّي ، أو هي حامل منّي فهي تتعلّق بولدها لا يجوز لسائر الورثة التصرّف فيها مطلقا ... فإذا صارت من

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٥٦ . والزَّمُّ : التَّقَدُّمُ فِي السَّيْرِ . ينظر : مقاييس اللغة . (زم) : ٥/٣ .

[2] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٠١/٤ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٢٧/٤ ، و الدرة النجفية : ٢٩٥ .

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٧٩

ميراث ولدها من تركتي تقوّم وتباع على الولد فتتحرّر قهراً ؛ لأنّ الولد لا يملك العمودين ، ومتى ملكهما عُتقا ، ولا يحتاج في ذلك إلى عتق الولد)) [1].

ولم أجد في كلام الشرَّاح ما يشير إلى مجيء (عن) نائبة عن (على) في نهج البلاغة إلّا في قوله (عليه السلام) : ((**عِبَادَ اللَّهِ لَا تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ ، وَلَا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، يَنْقُلُ الرَّدَى على ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ؛ لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعدَ رَأْيٍ ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَب**))[2] ، فمع أنَّ كلَّ الشرَّاح أثبتوا (على) في قوله (عليه السلام) : ((**يَنْقُلُ الرَّدَى علَى ظَهْرِهِ**)) إلَّا أنَّ الخوئي ؛ ينقل هذا النص مستبدلاً (على) بـ (عن) . واللطيف ـ هنا ـ أنَّه يعود فيفسِّر (عن) بـ (على) ، يقول : ((وينقل الرّدى عن ظهره ، (عن) بمعنى (على) كما في قوله [3]:

لَاهِ ابْنِ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ عَنِّي وَلَا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي

أي : للّه درّ ابن عمّك لا أفضلت في حسب عليّ ، وفي أكثر النّسخ على ظهره وهو الأنسب))[4] ، ولم يُبيِّن لنا الخوئي سبب كون التعبير بـ (على) هو الأنسب ، إلَّا أنَّ الموازنة بين التعبيرين تؤيِّد ذلك ؛ فإنَّ نقل الردى ، أي : الهلاك[5] ، إن أُريد الدلالة على منشئه ومصدره فسيكون التعبير بحرف المجاوزة هو الأنسب ، وإن أُريد الدلالة على بيان حالة الإنسان الجاهل المتَّبع لهواه ، فالتعبير بحرف الاستعلاء هو الأنسب . والحقيقة أنَّ مدخول الحرف (ظهره) لا يُساعد على معنى المجاوزة إلَّا إذا تأوَّلنا الظهر وجعلناه كناية عن الهوى ، وهو بعيد . وهذا بخلاف معنى الاستعلاء فهو يتناسب كلَّ التناسب مع مدخوله ؛ لأنَّ في ذكر الحرف (على) مبالغةً في بيان حالتهم

---

(1) منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٧٣/١٨ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٤٨/١٥.
(2) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٥٢.
(3) البيت لذي الإصبع العدواني ، ينظر : المعجم المفصل في شواهد العربية ، د. إميل بديع يعقوب : ٢٣٩/٨ .
(4) منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٤٦.
(5) مجمل اللغة ، لأحمد بن فارس . (ردى) : ٤٢٨/١ .

، وما يلقونه من الضرر بسبب جهالتهم وانقيادهم لأهوائهم ؛ والنقل على الظهر يؤذن بثقل المنقول على الناقل ، واستعلائه عليه ، وهيمنته على صاحبه هيمنة الراكب على المركوب ، فما أروع هذا التصوير ! وما أدقَّ هذا التعبير ! فضلاً عن ذلك ؛ فقوله (عليه السلام) : ((مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ)) يكشف عن دلالة الحرف (على) على الملازمة والمغالبة وإلحاق الضرر ، فالنقل من موضع إلى موضع يقتضي ملازمة المنقول للناقل وعدم انفكاكه عنه ، كما أنه يستلزم ازدياد هلاكهم بسبب الذين يُضلونهم ، فيكونون في زمرة الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥] .

المبحث الثاني

أسرار التعبير بالحرف (في)

هو حرفُ جرٍّ مبنيٌّ على السكون يدخل على الظاهر والمضمر[1] ، ولم يختلف النحويون في دلالتها على الظرفية ، إلَّا أنَّهم اختلفوا في دلالتها على معانٍ أخر فالمحققون من البصريين ـ وعلى رأسهم سيبويه ـ لم يُثبتوا غير دلالتها على الظرفية ، جاء في الكتاب : ((أمَّا (في) ، فهي للوعاء ، تقول : هو في الجراب ، وفي الكيس ، وهو في بطن أمِّه ، وكذلك : هو في الغل ؛ لأنَّه جعله إذ أدخله فيه كالوعاء له . وكذلك : هو في القبَّة ، وفي الدار . وإن اتسعت في الكلام فهي على هذا ، وإنَّما تكون كالمثل يجاء به يقارب الشيء وليس مثله))[2] ، وذهب غيرهم إلى تعدُّد معانيها ؛ فابن هشام يرى أنَّها تدلُّ على عشرة معانٍ[3] ، ويرى غيره أنَّها تدلُّ على تسعة معانٍ[4] ، أو ثمانية معانٍ[5] ، أو سبعة معانٍ[6] ، أو خمسة معانٍ[7].

ولا يخفى أنَّ هذه المعاني ـ مع الاختلاف في عددها ـ كلَّها متأخرة لم يذكرها متقدمو النحاة ، وهي مبنيَّة على ترجيح دلالة السياق على دلالة الحرف ، ولا يعني هذا أنَّ النحاة المتقدِّمين كانوا غافلين عن ذلك ، بل كانوا ملتفتين إلى تأثير السياق على دلالة الحرف ، إلَّا أنَّهم لم يبالغوا فيه ، فسيبويه ، والمبرد ، وغيرهما كانوا ملتفتين إلى تأثير السياق على دلالة (في) على الظرفية ، إلَّا أنَّهم حملوا ذلك على الاتساع لا

---

[1] ينظر : اللمحة في شرح الملحة : ١/ ٢٢٥.

[2] الكتاب : ٤/٢٢٦ ، وينظر : اللمع في العربية : ٧٣ ، وأسرار العربية : ١٩٤ ، والجنى الداني : ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

[3] ينظر : مغني اللبيب : ١/ ٢٢٣ .

[4] ينظر : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي : ٢٢٤ .

[5] ينظر : المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ، لمحمد الانطاكي : ١٤٠.

[6] ينظر : سُلَّم اللسان في الصرف والنحو والبيان ، لجرجي شاهين عطية : ٣٧٣ .

[7] ينظر : العوامل المائة النحوية ، لعبد القاهر الجرجاني : ١١٢ ـ ١١٣ .

على تعدُّد المعاني ، يقول المبرد : ((وأمَّا (في) ، فإنَّما هي للوعاء ، نحو : زيد في الدَّار واللص في الحبس فهذا أَصله ، وقد يَتَّسع القول في هذه الحروف وإن كان ما بدأنا به الأَصل ، نحو قولك : زيد ينظر في العلم فصيرت العلم بمنزلة المتضمِّن ، وإنَّما هذا كقولك : قد دخل عبد الله في العلم وخرج ممَّا يملك ، ومثل ذلك : في يد زيد الضَّيعة النفيسة ، وإنَّما قيل ذلك ؛ لأَنَّ ما كان محيطاً به ملكه بمنزلة ما أحيطت به يده))[1] ، وهذا ما صرَّح به السيوطي في الهمع بقوله : ((والبصريون قالوا لا تكون إلَّا للظرفية وما لا تظهر فيه حقيقة ، فهي مجازية))[2] ، ومن هنا ذهب المالقي إلى أنَّ ما ذُكِر من دلالات للحرف (في) مردُّها إلى الدلالة الأصلية لها ، يقول : ((اعلم أنَّ (في) حرف جار لما بعده ومعناها الوعاء حقيقة أو مجازاً ... فهذه حقيقة أمرها ، ثمَّ تجيء بمعنى حروف أخر إذا حُقِّقَت رجع معناها إليها)) [3] .

ويبدو أنَّ منشأ القولين (الاتساع ، تعدُّد المعاني) مرتبطٌ ـ على وجه الخصوص ـ بمدخول (في) ، فعندما لا يكون مدخولها ظرفاً ؛ فإنَّ ذلك ـ بنظرهم ـ يستلزم تأويل (في) بما يتناسب وهذا المدخول ، فتتعدد معانيها تبعاً لذلك . والحقيقة أنَّ (في) لا تتخلَّى عن معناها الأصلي مهما تغيَّر سياقها ، إلَّا أنَّها تتأثر ـ كبقية حروف الجر ـ بسياقها ، فتكون دلالتها على الظرفية ـ أحياناً ـ منضوية تحت ظلال ذلك السياق ، فتحتاج الى إعمال الفكر في استخراجها وتحديدها .

وقبل أن نقف على السياقات التي تحتاج إلى لطافةٍ في بيان معنى الظرفية ، ينبغي لنا أن نشير إلى ما يقتضيه معنى الظرفية من التغلغل والاستقرار والتمكُّن في الشيء فضلاً عن الدلالة على الأمور التي تتعلق بالباطن ، كما في قوله (عليه السلام) : ((إِنَّمَا

---

[1] المقتضب : ٤/١٣٩ .

[2] همع الهوامع : ٢/٤٤٦ .

[3] رصف المباني : ٣٨٦ .

بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وَ أَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ ، وَ لَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنى)) [1]

وذهب بعض الشرَّاح إلى أنَّ هذا الكلام إشارة إلى فتنة السقيفة ، ويمكن أن يُعَمَّم هذا الكلام لكلِّ أمر يُشبهه[2] ، ولو تأمَّلنا أمر الفتنة ـ كما وصفها (عليه السلام) ـ لظهر لنا أنَّ التعبير بحرف الظرفية يومئ إلى معنى لطيف ويشير إلى لفتة دقيقة ، فالفتنة لها وجهان ، نُقِش على وجهها الظاهر اسمُ الرحمن وأمَّا باطنها فهو الباطل ، فالإمام (عليه السلام) بيّن أنَّ التمويه والتضليل طريق يسلكه المُبتدِع ومنهج يتخذه ، فلو كان الحقُّ ظاهراً بيِّناً لاتبعه طلاب الحق وروَّاده الذين يهمهم الالتزام بالشريعة واتباعها ، ولو كان الباطل واضحاً ظاهراً لاجتنبه الناس وابتعدوا عنه ، ولكن المُبتدِع ـ بدهائه ـ يأخذ من الباطل مضمونه وحقيقته ومن الحق شعاره وثوبه ثمَّ يُلبس الثوب للمضمون ويأخذ بعرض ذلك أمام الناس ؛ فيستهوي الضعفاء وأصحاب العقول الخفيفة فيجرّهم إليه وإلى نهجه ويدعوهم إلى الإيمان بما يطرحه ، فترى الكثير يتبعون أثره ويرفعون شعاره ويحاربون من أجله[3] ، كما حصل ذلك مع الخوارج الذين رفعوا شعار (لا حكم إلا للَّه) يريدون به إفساد الأمة وضربها وتفتيت وحدتها ، وكما حصل مع أصحاب الجمل وصفين الذين اتخذوا قميص عثمان راية لبغيهم .

وتعبير الإمام (عليه السلام) بـ (في) إشارة إلى أنَّ موضع الخطر يكمن في باطن تلك الأحكام ومضمونها ، فهو ما يُخالف الشريعة ويتقاطع معها ، وأمَّا ظاهرها فهو

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٨٨ . والضغث : قَبْضَةٌ مِنْ قُضْبَانٍ أَوْ حَشِيشٍ . ينظر : مقاييس اللغة . (ضغث) : ٣٦٣/٣ .

[2] ينظر : مفتاح السعادة : ٩٥/٧ ، و شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١/ ٣٤٦ .

[3] ينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١/ ٣٤٦ .

الواجهة التي يفتتن بها ذوو النظرة السطحية ؛ لأنَّ الفتنة هي الإعجابُ بالشَّيء [1] ولذا قيل : ((إن كنت من أهل الفطن ، فلا تدر حول الفتن))[2] ، فالإمام (عليه السلام) ـ باستعمال حرف الظرفيَّة ـ يُلفت نظر العقلاء إلى ذلك الخطر الذي ينطوي عليه محتوى الدعوات الباطلة التي تُغلَّف بغطاء الصلاح ، وترفع شعار الإيمان ، وهذا المعنى الدقيق لا يمكن تحصيله بغير حرف الظرفية ؛ فلو كان التعبير : أحكام تبتدع تخالف كتاب الله ؛ لما ظهر لنا السرُّ الذي تُبنى عليه الفتنة لخداع الناس وتضليلهم ، وقد ألمح الخوئي إلى هذا المعنى بقوله : (((يخالف فيها) أي : في تلك الأحكام (كتاب اللّه) إذ الاحكام المبتدعة خارجة من الكتاب والسّنة مخالفة لهما لما قد عرفت سابقا أنّ البدعة عبارة عن إدخال ما ليس من الدّين في الدّين)) [3].

ومن موارد توظيف حرف الظرفية ما جاء في خطابه (عليه السلام) لأحد شعراء الخوارج ، وقد رفع شعارهم ونادى به وجهر في وجه أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلاً له : (لا حكم إلا للَّه) ، فأجابه (عليه السلام) : ((**اسْكُتْ قَبَحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ ، فَوَ اللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلًا شَخْصُكَ ، خَفِيّاً صَوْتُكَ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ**)) [4] وهنا يؤدي حرف الظرفية دوراً بارزاً في تحديد المساحة التي كان هذا الخارجي فيها متصفاً بالضآلة وخفاء الصوت ؛ فقد أبرزت (في) ما ينطوي عليه ذلك الرجل من نفاق وتقلُّب ؛ لأنَّ تقييد التعبير بها (فكنت فيه ضئيلاً ...) يشير إلى أنَّه كان متخفِّياً بداخل صفوف أهل الحق إلَّا ((أنَّه لم يكن يعمل لإعلاء الحق ، بل كان في معزل عن الحق

---

[1] لسان العرب . (فتن) : ٣١٧/١٣ ، وينظر : المصباح المنير . (فتن) : ٤٦٢/٢ .
[2] أساس البلاغة ، لمحمود بن عمرو الزمخشري : ٦/٢ .
[3] منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٩٣/٤ .
[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٦٨.

، يوم اعتلى وارتفع في زمن الرسول ، أو زمن الامام حين حارب الجمل و معاوية)) [1].

ولحرف الظرفية دلالة أخرى تحتاج إلى نظرة أرحب لفهمها ، فهذا الخارجي لم يكن ضئيل الشخص ولا خفي الصوت بصورة مطلقة ، بل كان كذلك في زمن ظهور الحق ، وهذا يشير إلى نكتة لطيفة تتعلق بأصحاب الأفكار الضالة وعلى رأسهم الخوارج ، فهم في زمن الوعي وانتشار الأفكار الحقَّة لا يجدون مَن يَعبأ بهم أو يلتفت إلى أقوالهم لفسادها وسذاجتها ، ولكنَّها تنمو وتظهر في بيئة الجهل والباطل ؛ فترتفع أصواتهم ويُصبح أصحابها ذوي شأنٍ ومكانة .

وبناءً على ما تقدَّم فإنَّ دلالة (في) على الظرفية لا تكون على نسق واحد من الظهور ، بل تدقُّ ـ أحياناً ـ إلى الدرجة التي تحتاج إلى فهمٍ أعمق للوقوف على أسرارها ، والكشف عن المراد منها ، وهو ما سنتناوله عند تحليل السياقات التي قيل فيها بنيابة حرف الظرفية عن حرف آخر .

---

[1] توضيح نهج البلاغة : ٣/١١٦ .

إيثار (في) على حرف الإلصاق (الباء) :

لا يبتعد معنى حرف الباء عن معنى الحرف (في) كثيراً ؛ إذ يمكن أن يلتقيا في محور دلالي جامع لمعنييهما ، فكلاهما يدلُّ على اتصال شيء بشيء آخر ، إمَّا على نحو المقاربة والتماس بينهما ، وهو ما يُعبَّر عنه بالإلصاق ، وإمَّا التوغل والحلول والاستقرار المُعبَّر عنه بالظرفية .

والحقيقة أنَّ النحويين القائلين بالنيابة لم يبيِّنوا السبب الذي دفعهم إلى تفسير الحرف (في) بمعنى (الباء) ، بل يكتفوا بذكر هذا المعنى للحرف (في) مع مثال أو أكثر ، وهذا يشير إلى أنَّهم بصدد إيجاد الانسجام الظاهري بين الحرف وسياقه ، وليس من همِّهم البحث عن النكتة المعنوية التي تترتب على ذلك ، جاء في مغني اللبيب : ((والخامس مرادفة الباء ، كقوله [(١)] :

وَيَرْكَبُ يَوْمَ الرَّوْعِ مِنَّا فَوَارِسٌ بَصِيْرُونَ فِي طَعْنِ الأَبَاهِرِ وَالكُلَى)) [(٢)].

والغريب في هذا المجال ما نجده من خلط لمذهبي النيابة والتضمين فيما ذكره ابن مالك عند إثباته معنى الباء للحرف (في) ، يقول : ((والموافقة الباء ، كقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ [(٣)] أي : يكثركم به)) [(٤)]

ولذلك نجد أنَّ النحويين الذين تحققوا من هذه الدلالة يُضعِّفون هذا التوجيه ؛ لأنَّه خروج عن الأصل الدلالي للحرف من غير حجَّة قاطعة ، يقول الرضي : ((وقيل : إنَّها بمعنى الباء في قوله :

---

(١) ينظر : شعر زيد الخيل الطائي ، لأحمد مختار البزرة : ٢٧ ، والمعجم المفصل في شواهد العربية : ١١١/٦ .

(٢) مغني اللبيب : ٢٢٤/١ ، وينظر : اللمحة في شرح الملحة : ١/ ٢٢٧ ، وشرح شذور الذهب : ٥٥٢/٢ ، وشرح الاشموني : ٨٨/٢ .

(٣) سورة الشورى ، الآية : ١١ .

(٤) شرح تسهيل الفوائد : ١٥٨/٣ .

وَيَرْكَبُ يَوْمَ الرَّوْعِ مِنَّا فَوَارِسٌ   بَصِيْرُونَ فِي طَعْنِ الأَبَاهِرِ وَالكُلَى

والأولى أن تكون بمعناها ، أي : لهم بصارة ، وحذق في هذا الشأن ›› [1].

وقد أشار بعض الباحثين إلى أنَّ السبب الذي يمكِّن من تفسير الحرف (في) بالباء هو وقوع (في) تحت تأثير السياق الدال على الاستعانة ، يقول : ‹‹ مرادفة (الباء) ، نحو : أنت خبير في هذا الأمر . ونرى أنَّ (في) هنا للظرفية المجازية بتقدير : في شؤون هذا الأمر . وذلك على العكس ممَّا لو قلنا : أنت خبير في استعمال السلاح ، إن صح هذا الاستعمال أصلاً . فتكون هنا مرادفة (الباء) بمعنى (الاستعانة) ، ويكون الأصح عندئذ أن نقول : أنت خبير باستعمال السلاح ، وليس في استعماله ›› [2].

ويبدو أنَّ التقارب الدلالي بينهما هو الذي مهَّد الطريق للنحويين القائلين بنيابة (في) عن (الباء) ، فإذا انضمَّ إلى ذلك دلالة السياق على الإلصاق ، فلا مناص حينئذٍ ـ عندهم ـ من حمل معنى حرف الظرفية على معنى حرف الإلصاق ، وسنرى ـ عند استعراض بعض النصوص ـ مصداق هذه الحقيقة في نهج البلاغة .

وممَّا يُستشهد به لهذه النيابة قوله (عليه السلام) : ‹‹ **فَيَا عَجَباً وَ مَا لِيَ لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا ، لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ وَ لَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ وَ لَا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَات** ››[3] ، وقد فسَّر الشيخ المجلسي حرف الظرفية بحرف الإلصاق ، فقال : ‹‹ قوله (عليه السلام) : ... (يعملون في الشبهات) في بمعنى الباء ، أو فيه توسّع ›› [4].

---

[1] شرح الرضي على الكافية : ٢٧٩/٤ .

[2] حروف المعاني بين الأصالة والحداثة : ٧٦-٧٨ .

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٢١ .

[4] شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار : ٢٤٤/١ .

ولكي يتضح مقدار الأثر الدلالي المترتِّب على تفسير (في) بالباء في هذه العبارة وما يؤديه من تغيير في المعنى المراد ، ينبغي لنا موازنتها بعبارة مشابهة جاءت على لسانه في وصف فئة أخرى ، يقول (عليه السلام) : ((**فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ وَ أَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ وَ أَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ** ...)) [(١)] فأنت ترى كيف اختلف الحرف في العبارتين ؟ ولنا أن نسأل القائلين بالنيابة عن الفرق بين العبارتين ، وهل يجوز لنا أن نستبدل أحد الحرفين بالآخر مع بقاء الدلالة على حالها وعدم تغيُّر المعنى المقصود ؟ والذي يبدو أنَّهم لا يرون ضيراً في ذلك !!

والحقيقة أن التأمُّل في السياق الذي أوثر فيه حرف الظرفية وموازنته بالسياق الذي أوثر فيه حرف الإلصاق يُمكِّننا من تلمُّس السرِّ الذي جعل كلًّا منهما أمكن في موضعه ولا يسدُّ صاحبه مسدَّه ؛ فالقول الأول (**يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ**) مسوق لبيان أحوال الفرق الضالة ، وأمَّا القول الثاني (**يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ**) فهو مسوق لبيان أحوال الظَّلَمة الذين يتربعون على عرش الرئاسة وسدة الحكم ، وبين الفئتين بون شاسع في التفكير والتدبير ؛ فبينما تتَسم الفرق الضالة بضحالة التفكير وغلبة الجهل إذ يتسم الظلمة بالدهاء والحيلة والمكر .

ولذا فالتعبير بحرف الظرفية هو الأليق بسياق الفئة الأولى ؛ لأنَّه مطابق لأحوالهم ، فهم ـ لفرط جهلهم ـ منغمسون في الشبهات منقادون لمضمونها ؛ لسرعة تقبُّلِهم لها واعتقادهم بصحتها ، فالشبهات تتغلغل في عقولهم وتملك كيانهم ويجعلون منها عقيدة يعملون بها ويستميتون في الدفاع عنها . ويكفينا في التدليل على صحة هذا المدَّعى ما آلَ إليه معسكر أمير المؤمنين (عليه السلام) من تقهقر وانشقاق في الجيش نتيجة

---

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٥٤ .

شبهة رفع المصاحف [١] التي ابتدعها ابن العاص ـ وهو من الفئة الثانية ـ فاتخذها السُذَّج ـ وهم من الفئة الأولى ـ عقيدة لهم ، فقد ((أجبر الخوارج أمير المؤمنين (عليه السلام) على منع الأشتر لقتال معاوية بعد رفع المصاحف ، فكفَّ ، ورجع إليهم ، قال لهم : أمهلوني عدو الفرس فإنِّي قد طمعت في النصر، فقالوا : إذن ندخل معك في خطيئتك ...)) [٢] وقد حصل كلُّ هذا على الرغم من كونه (عليه السلام) ((كان ينهى أصحابه عن موافقة التحكيم ، ويخبرهم بأنَّ رفع المصاحف حيلة وخديعة ومكر وتزوير، ولكنَّ اصحاب الجباه السود ـ سوَّد الله وجوههم كقلوبهم ـ أجبروه على ذلك وعصوه وخالفوه ، فآل أمرهم الى الندم والحسرة والخسران)) [٣].

وهذا بخلاف الفئة الثانية التي لا يناسب حالها إلَّا حرف الإلصاق ، فهو يشير إلى أنَّهم يتخذون الشبهة شعاراً يتمسكون به ما دام يخدم مصالحهم ويحقِّق مآربهم مع عدم اعتقادهم بصحة ما يقولون به ، فالشبهة ـ عند هؤلاء ـ ليست أكثر من حرب إعلامية تُتَّخذ لإسقاط الخصوم ، والقضاء عليهم ، كما فعل معاوية [٤]عند مطالبته أمير المؤمنين (عليه السلام) بدم عثمان ، وقد بيَّن الإمام (عليه السلام) مراد معاوية من المطالبة

---

[١] ويؤكِّد هذا ما جاء في نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٧٠ من بيان لمقدار جهلهم في قوله (عليه السلام) : ((يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَ لَا رِجَالَ ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ ...)) وقد بيَّن ابن ميثم البحراني في كتابه اختيار مصباح السالكين : ١٣١ وجه الشبه بقوله : ((ووجه شبه حلومهم بحلوم الأطفال: سرعتها عن أدنى سبب لا يصلح ان يقنع به العاقل كحلمهم عن اهل الشّام بخدعة رفع المصاحف))

[٢] بهج الصباغة : ١٢/ ٣٣٣

[٣] شرح نهج البلاغة ، للقزويني : ٢٨٠/٢ ، والجدير بالذكر أنَّ هذه الشبهة لم تنطلِ على بعض أصحابه (عليه السلام) ؛ فقد تكلم بعضهم ـ بعد رفع المصاحف ـ ((فقال الحضين بن المنذر– و كان أحدثهم سنّا– : إنّما بني هذا الدّين على التسليم فلا تدفعوه بالقياس، و لا تهدموه بالشبهة فإنّا– و اللَّه– لو لا أنّا لا نقبل إلّا ما نعرف لأصبح الحقّ في أيدينا قليلا، و لو تركنا ما نهوى لكان الباطل في أيدينا كثيرا ... و هو المأمون على ما قال، المأمون على ما فعل، فإن قال: لا. قلنا : و إن قال: نعم. قلنا: نعم)) بهج الصباغة : ٥١٨/٣ .

[٤] يقول العقاد واصفاً الانتهازية عند معاوية : ((كل دهاء يذكر لمعاوية فإنما يذكر الى جانبه رفد أو عطاء و ولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها في مبادلة النفع بينه و بينه، و لا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء ، و كان نقش الخاتم الذي تختم به بعد ولايته: (لكل عمل ثواب))) . معاوية بن أبي سفيان ، لعباس محمود العقاد : ٣٥ .

بدم عثمان في رسالته التي يقول فيها : ((وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ ، فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ ، فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ))[(١)] ، فالغاية الرئيسة من هذه الشبهة هي التّلبيس على النّاس وخداعهم ، بأنّه صاحب دم عثمان ، فتكون مطالبته بدم عثمان خدعة يراد بها الرّئاسة لا الثّأر ، كما يُخدع الصّبيّ عن اللّبن ، لغاية الانفصال عنه[(٢)] ، وقد نقل ابن قتيبة ما يؤكِّد هذا المعنى ، فقال : ((قال عمرو بن العاص لمعاوية : إنّ لعليّ في الحرب لحظاً ما هو لأحد من الناس ، و إنّه لصاحب الأمر. فقال معاوية : صدقت ، و لكن نلزمه دم عثمان . فقال عمرو: وا سوأتاه إنّ أحق الناس ألّا يذكر عثمان لأنا وأنت ، أمَّا أنت فخذلته ومعك أهل الشام ، واستغاثك فأبطأت عليه . وأمّا أنا فتركته عياناً وهربت إلى فلسطين . قال معاوية : دعني من هذا هَلُمَّ فبايعني . قال : لا أعطيك ديني حتى آخذ من دنياك . قال : سل تُعطَ ...)) [(٣)] وقد أشار العقَّاد إلى ما هو أدلُّ على كون ما ادَّعاه معاوية ما هو إلَّا مسوِّغ وذريعة لتشبُّثه بالرئاسة ، يقول : ((علَّل معاوية ثورته باتهام علي في دم عثمان ... فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك إليه ؟ ووجب عليه أن يُنفِّذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال ، إنَّه تبع علياً فيما صنع ... وقد ذكَّروه به وألحُّوا في تذكيره ... فلم تزده الصيحة المثيرة إلَّا إصراراً على الإغضاء والإعفاء)) [(٤)].

---

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٤٥٤.

(٢) ينظر : الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة :٦٧ .

(٣) الامامة والسياسة ، لابن قتيبة الدينوري : ٩٨/١.

(٤) عبقرية الإمام علي ، لعباس محمود العقَّاد : ٨٩ ، بل ذهب في كتابه (معاوية بن أبي سفيان : ٩١-٩٢) إلى أبعد من ذلك فقال : ((ذهب معاوية يطالب بدمه وينكر على علي بيعته لأنه لا يسلمه قتلة عثمان ، و آل الأمر كله بعد حين الى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء.. وكان يلقى الرجل منهم فلا يزيد عن أن يسأله ...: أ لست من قتلة عثمان؟ ثم يصرفه في أمان ، و قد يسكت عن سؤاله ، و يصرفه مزوَّداً بالعطاء)) .

إيثار (في) على حرف الاختصاص (اللام) :

لم يذكر النحويون نيابة (في) عن (اللام) عند بحثهم في المعاني التي يؤدِّيها حرف الظرفية ، إلَّا أنَّ بعضهم ذكر دلالتها على التعليل ، مستشهداً لذلك بشواهد فصيحة ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف :٣٢] [١]، في حين لم يُشِرِ الآخرون إلى تلكم الدلالة [٢].

ويبدو أنَّ معنى التعليل هو الذي سهَّل لشرَّاح النهج القول بنيابتها عن (اللام) ؛ لأنَّ التعليل من معاني اللام الأساسية [٣] ، فالخوئي ـ مثلاً ـ فهم من دلالة (في) على التعليل أنَّها نائبة عن اللام وتؤدِّي معناها ، يقول : ((ولفظة (في) في قوله : و مدّت العافية فيه ، بمعنى (اللّام) كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ ، و قوله (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) : إنّ امرأة دخلت النار في هرّة حبستها [٤])) [٥].

والحقيقة أنَّ اللام المنوب عنها لم تكن ـ عند القائلين بالنيابة من شرَّاح النهج ـ هي الدالة على معنى التعليل وحسب ، بل قد تكون دالة على معنى الاختصاص ، وقد تقدَّم ـ في مبحث اللام ـ أنَّ الاختصاص هو المعنى الرئيس لحرف اللام ؛ ولذا سنقتصر على الموارد التي لا ترتبط بمعنى التعليل ؛ لأنّنا سنقف على الحروف التي قيل بدلالتها على التعليل ـ إن شاء الله تعالى ـ في مبحث المعاني المشتركة .

---

[١] ينظر : الجنى الداني : ٢٥٠ ، ومغني اللبيب : ٢٢٤/١ ، وهمع الهوامع : ٢/ ٤٤٦ ، ومصابيح المغاني في حروف المعاني ، لمحمد بن علي بن إبراهيم : ٣١٦ ، وحروف الجر ، دلالاتها وعلاقاتها ، د. إبراهيم الشمسان : ٣٨ .

[٢] ينظر : كتاب الأزهية في علم الحروف : ٢٦٧ ـ ٢٧٢ ، وشرح المفصل : ٤٧٣/٤ ، ورصف المباني : ٣٨٨ ـ ٣٩١ .

[٣] ينظر : الجنى الداني : ١٠٩ .

[٤] ينظر : بحار الأنوار : ٦١ /٢١٨ ، وصحيح مسلم ، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : ١٧٦٠/٤ ، رقم الحديث : ٢٢٤٢ ، ونص الحديث : ((عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)) .

[٥] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٥٧/١١ .

ولكي نتعرَّف على المحور الدلالي الذي يمكن أن يلتقي به معنى الحرفين (الظرفية ، والاختصاص) بحيث يسوغ للقائلين بنيابة (في) عن (اللام) أن يبرِّروا وضع أحدهما موضع الآخر ، فلا بُدَّ لنا من احتمال وجود أمرين اختص أحدهما بالآخر ؛ فإذا جاء الحرف (في) ـ والحال هذه ـ فهو نائب عن حرف الاختصاص (اللام) . ولا يخفى ما في هذا التأويل السطحي من إضاعة للمقاصد الدلالية العميقة ، وللتدليل على ذلك نقف عند واحدة من البدائع القرآنية التي وقع المفسرون على شيء من أسرارها في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة:٦٠] فأنت ترى كيف فرَّق التعبير القرآني بين أصناف المستحقين للصدقة ، مستعملاً اللام تارة ، و(في) تارة أخرى ، على الرغم من كون الأقسام الثمانية مختصة بالصدقة ؟ فهل يمكن أن يكون القول بالنيابة قادراً على الكشف عن سرِّ هذا العدول ؟!

والحقيقة أنَّ محاولات الوصول إلى المغزى من اختلاف التعبير لم تعتمد على مذهب النيابة ، فالزمخشري حاول أن يكشف عن السر الذي يتوارى خلف هذا التعبير اعتماداً على معطيات السياق ، يقول : ((فإن قلت : لِمَ عدل عن (اللام) إلى (في) في الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ؛ لأنّ (في) للوعاء ، فنبَّه على أنَّهم أحقَّاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنَّة لها ومصبَّاً ، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ، و ...)) [1] ولم يكتفِ بعض الباحثين بما قاله الزمخشري ، بل ذهب إلى ((أنَّ الأصناف الأربعة الأوائل ... ملاك لما عساه يدفع إليهم فكان دخول اللام لائقاً بهم ، وأمَّا الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل ولا يصرف إليهم ولكن في مصالح تتعلق بهم ، فالمال الذي يصرف

---

[1] الكشاف : ٢٨٣/٢ .

في الرقاب إنَّما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفاً الى أيديهم حتَّى يعبِّر عن ذلك باللام المشعرة بتملّكهم لما يصرف نحوهم)) [١] .

ومن الموارد التي لم يُكشَف القناع عن مكنونها ؛ نتيجة للقول بالنيابة ، قوله (عليه السلام) : ((**فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ ، وَحَزْماً فِي لِينٍ ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ ... وَ طَلَباً فِي حَلَالٍ ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى ...**)) [٢] وذهب ابن أبي الحديد إلى نيابة (في) عن اللام ، فقال : ((قوله : وطلباً في حلال . حرف الجر ـ هاهنا ـ يتعلق بالظاهر ، و(في) بمعنى اللام))[٣] ، ويبدو أنَّ المِلاك في هذا التوجيه مرتبط بالمعنى اللغوي للطلب ، فهو يدلُّ على ((الفحص عن وجود الشيء ، عيناً كان أو معنًى)) [٤] ؛ ولذا فمعنى الطلب يقتضي وجود مطلوب ما ، ومن الطبيعي أن يكون الحرف الأليق بهذا الموضع هو حرف الاختصاص ، وعلى هذا يكون معنى العبارة : وطلباً للحلال . وبذلك يكون مدلولها مساوقاً لمدلول قوله (عليه السلام) : ((**وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ**)) [٥] ، وقوله (عليه السلام) : ((**مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ !**)) [٦] وليس ذلك بصحيح ؛ لأمرين :

الأوَّل : إنَّ العبارتين (أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ) و(طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ) بصدد بيان الأمر الذي تعلق به الطلب (المطلوب) ، وهو (معايب الناس ، وما عند الله) .

---

[١] إعراب القرآن الكريم وبيانه ، لمحيي الدين درويش : ١١٨/٤.

[٢] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٠٣ .

[٣] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٥٠/١٠ .

[٤] المفردات في غريب القرآن : ٥٢٢/١ .

[٥] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٢٩ . وأشنأهم : أبغضهم . ينظر : مقاييس اللغة . (شنأ) : ٢١٧/٣ .

[٦] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٤٧ .

الثاني : إنَّ الدور الدلالي لحرف اللام هو اختصاص ذلك الطلب بمطلوب معيَّن ، فالأولى تبيِّن اختصاص كثرة طلب أولئك المراد شنآنهم بمعايب الناس ، وأمَّا الثانية فتبيِّن اختصاص طلب الأغنياء المتواضعين بما عند الله تعالى .

ولو حاولنا تلمُّس الأمرين في العبارة ـ محلّ البحث ـ فإنَّا سنجد أنَّها ليست بصدد بيان مطلوب محدَّد ، بل المطلوب فيها أمر عام ، وهو كلُّ ما يقع تحت مفهوم (الحلال) ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنَّ إيثار حرف الظرفية فيها على حرف الاختصاص فيه لمسة بيانية تقتضي الوقوف عندها ، فحرف الظرفية يُشير إلى أنَّ مفهوم الحلال لا يقتصر على كونه مطلوباً ونتيجة يُحقِّقها الطالب ، بل يشمل المقدمات التي يَتَوَسَّل بها ذلك الطالب للوصول إلى مطلوبه ، فهي الأخرى يجب أن لا تخرج عن إطار الحلال ، فهو ((يطلب الرزق من أبوابه المشروعة المحلَّلة ويكتسب قوته بعرق جبينه وكدِّ يمينه لا تمتد يده إلى الحرام ، ولا ينال من الحرام مكسباً أو مغنماً))[1] ، فالحلال مستغرق للطلب ابتداء من أول مقدماته المتمثلة بحسن النية وسلامة الدوافع ، وانتهاء بتحقُّق المطلوب ، فالغاية لا تبرِّر الوسيلة ، فرُبَّ حلال يصل إليه المرء عن طريق الحرام ، وقد نبَّه على ذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما عوتب على التسوية في العطاء ، فقال (عليه السلام) : ((أ **تَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ**...))[2] .

إيثار (في) على حرف الابتداء (من) :

يظهر من كلمات النحويين وأمثلتهم أنَّ (في) تكون نائبة عن (من) عندما يكون مدخولها أعم ممَّا قبله بحيث يشتمل ما بعدها على ما قبلها ، فيكون ما قبلها بمثابة

---

[1] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٣/٣٦٣ ، وينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ١٢/١٣٩ ، و توضيح نهج البلاغة : ٣/٢٣٩ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٨٣ .

الجزء ممَّا بعدها ، وبهذا يقترب معناها من معنى (من) ، ويبدو أنَّهم لم يلحظوا أنَّ جزء الشيء ــ المدلول عليه بـ (في) ــ داخل في ذلك الشيء ؛ فيكون مدخولها بمثابة الظرف له . يقول المرادي : ((أن تكون بمعنى (من) ، كقول امرئ القيس [1]:

وَهَلْ يَعِمَنْ مَن كَانَ أَحْدَثُ عَهْدِهِ   ثَلاثِينَ شَهْراً فِي ثَلاثَةِ أَحوالِ؟

أي : من ثلاثة أحوال)) [2] فيكون (ثلاثين شهراً) ضمن ثلاثة أحوال ، فإذا احتُمِل غير ذلك ، فلا مجال للنيابة ، ومن هنا لم يرتضِ ابن جني هذا التأويل ؛ لأنَّه استظهر عدم التداخل بين الأمرين ، بل فهم وقوع أحدهما عقب الآخر ، يقول : ((وطريقه عندي أنه على حذف المضاف ، يريد : ثلاثين شهرًا في عقب ثلاثة أحوال قبلها. وتفسيره : بعد ثلاثة أحوال ، فالحرف إذاً على بابه))[3] ، ويبدو أنَّ هذا الخلاف هو الذي حدا بأحد الباحثين إلى القول بأنَّ ((هذا المعنى ضعيف ، يصعب تخريجه بشكل سليم ، وكان موضع خلاف فلا يؤبه له ؛ لأنَّه ليس معنًى اصطلاحياً ، ولا فطرياً أصيلاً)) [4].

ولكي يكون الأمر أكثر دقَّة ، فقد حدَّد بعض النحويين الحالة التي تتحقَّق فيها النيابة ، وهي كون (من) المنوب عنها دالة على التبعيض ؛ ولعلَّ هذا الأمر هو الذي جعل الصبَّان يوجِّه عبارة الأشموني بقوله : ((قوله : (موافقة من) أي : التبعيضية)) [5] ؛ لأنَّ حملها على (من) الابتدائية يقتضي أن تكون (ثلاثة أحوال) واقعة بعد

---

[1] ديوان امرئ القيس : ١٣٥ .

[2] الجنى الداني : ٢٥٢ ، وينظر : اللمحة في شرح الملحة : ١/ ٢٢٦، و شرح التصريح على التوضيح : ٦٥٠/١

[3] الخصائص : ٣١٦/٢

[4] حـروف المعاني بين الأصالة والحداثة : ٧٨ .

[5] حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣٢٧/٢ ، وينظر : النحو الوافي : ٥٠٨/٢ . وقد تقدَّم أنَّ (من) التبعيضية راجعة إلى (من) الابتدائية ، وهذا ما صرَّح به المبرد بقوله : ((وكونهُا فِي التَّبْعِيض راجعٌ إِلى هَذَا ، وَذَاكَ أَنَّك تَقول : أَخذت مَال زيد ، فإِذا أَردت الْبَعْض قلت : أَخذت من مَاله ، فإِنَّما رجعت بهَا إِلى ابْتِدَاء الْغَايَة)) المقتضب : ٤٤/١.

(ثلاثين شهراً) ، فيكون ((المعنى في البيت ثلاثين شهراً مبتدأة من انقضاء ثلاثة أحوال ، فتكون المدة خمسة أعوام ونصفاً)) [1] .

ولكن هذا الأمر لا يخلو من الإشكال ، لعدم التطابق بين دلالة (من) التبعيضية ودلالة (في) الظرفية ؛ لأنَّ (من) التبعيضية تكون دالة ـ دائماً ـ على أنَّ مدخولها جزء ممَّا قبله ، بخلاف (في) ؛ لأنَّ مدخولها قد يستوعب ـ أحياناً ـ ما قبله ، ومع عدم وجود القرينة على إرادة التبعيض بـ (في) فلا مناص حينئذٍ من استبعاد النيابة عن (من) في كلِّ الحالات ؛ لاحتمال إرادة التساوي بالحرف (في) بين الظرف والمظروف .

وقد يحتج القائلون بالنيابة بما يراه الكوفيون من أنَّه ((إذا عَمَّ الفعل الظّرف لم يتقدَّر عندهم فيه (في) ؛ لأَنَّ (في) يقتضي عندهم التَّبعيض))[2] ، وبناء على ذلك يمكن أن يجتمع التبعيض والظرفية في محلٍّ واحد . وهذا غير صحيح ، فما بني عليه ـ الحكم بالنيابة ـ فهو مثله ؛ لأنَّهم ((بنوه على أَنَّ (في) تقتضي التَّبعيض ، وإنَّما هي للوعاء ، قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ [3] فأدخل (في) على الأَيَّام والفعل واقع في جميعها بدليل : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [4] ، وَقَالَ : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ [5] ، فأدخل (في) على ضمير الأَيَّام والليالي والليالي مع أَنَّ الرُّؤيَة مُتَّصلة في جميعها)) [6] .

---

[1] حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٢/٣٢٧-٣٢٨ .
[2] همع الهوامع : ٢/١٤٧ .
[3] سورة فصلت ، الآية : ١٦ .
[4] سورة الحاقة ، الآية : ٧ .
[5] السورة نفسها ، الآية : ٧ .
[6] همع الهوامع : ٢/١٤٨ .

وللتدليل على صحَّة ما ذهبنا إليه نقف عند واحدة من ومضات البلاغة التي جعلها (عليه السلام) دستوراً لجُباة الزكاة ، يقول (عليه السلام) موصياً أحدهم : ((**انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً ، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِه ... وَاصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ ... فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ، فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْه ، فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا ، حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ**))[1] ، وما يلفت النظر ما نجده من المخالفة في استعمال حرف الجر بين قوله (عليه السلام) : ((**وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِه ... حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ**)) ؛ فعلى الرغم من كون المال المأخوذ هو بعض المال الكلِّي ، كما أنَّ (حق الله) هو بعض المال الكلِّي أيضاً ، بل هو المال الذي سيؤخذ ، فما هو السرُّ في استعمال (من) مع المال المأخوذ : (لاتأخذنَّ منه) أي : من ماله ، ثم العدول إلى (في) مع حق الله : (حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ) ؟ وهل يمكن أن يكون القول بنيابة (في) عن (من) كاشفاً عنه ؟

والحقيقة أنَّ شرَّاح النهج لم يشيروا إلى النكتة في هذا العدول ، إذ اكتفى بعضهم بالقول : (((ولا تأخذن منه أكثر من حقّ اللّه في ماله) أي : مقدار الزكاة)) [2] ومقدار الزكاة هذا هو المال المأخوذ ، كما أنَّه هو (حق الله) الواجب دفعه . والذي يبدو للمتأمِّل أنَّ (حق الله) باعتبار تعلُّقه بالمال ـ قبل الفرز ـ فهو غير مشخَّص ، بل مشاع في كلِّ جزءِ من أجزاء المال ، وهذا يقتضي استعمال الحرف الدالّ على التغلغل والاستيعاب ، وهو ما لا يفي في التعبير عنه غير حرف الظرفية ، ولكن (حق الله) ـ بعد فرز المال ـ يكون مُشخَّصاً ومعروفاً ؛ لذا استعمل معه الحرف الدال على الابتداء ؛ لأنَّه مبدأ الأخذ .

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٨٠ .

[2] توضيح نهج البلاغة : ٤/ ٩.

إيثار (في) على حرف الغاية (إلى) :

يبدو أنَّ القاعدة التي استند إليها النحويون في استنباط الحكم المتعلق بنيابة (في) عن (إلى) مبنيَّةٌ على نظرة أحاديَّة الجانب ، وهي وجود الحدث الذي يقتضي معناه الغاية ، فيتعدَّى بالحرف (إلى) ، وأمَّا مدخول الحرف فليس له أثرٌ كبيرٌ في هذه المعادلة . وهذا الأمر يظهر جليَّاً في الأمثلة التي سيقت لهذا المطلب ، جاء في النحو الوافي : ((أن تكون بمعنى : (إلى) الغائيَّة ؛ نحو : دعوت الأحمق للسداد ؛ فردَّ يده في أذنيه ، أي : إلى أذنيه ، كي لا يسمع النصح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [1] ، كناية عن عدم الردِّ ، وعن ترك الكلام ...)) [2]، فالفعل (ردَّ) يقتضي معناه الغاية ؛ وهو فعل يتعدَّى بالحرف (إلى) ، وبناءً على ذلك ينبغي تأويل الحرف (في) بالحرف (إلى) .

والذي يبدو للمتأمِّل أنَّ معنى الغاية لا يمنع وجود حرف الظرفية ؛ لأنَّ الغاية لها طرفان يبتدئ الحدث من أحدهما وينتهي بالآخر ، فمن جهة احتياج حدثها إلى دالٍّ على المدى الذي يتوقف عنده ، فهي تستلزم الحرف الذي يدلُّ على الانتهاء (إلى) . ومن جهة نقطة النهاية التي يتوقف عندها ذلك الحدث وكونها ظرفاً فهي تفتح المجال للحرف الدالَّ على الظرفية (في) ، فضلاً عن ذلك فإنَّ الحرف (إلى) يلتقي بالحرف (في) في إحدى دلالتيه ، يقول ابن يعيش : ((و(إلى) للانتهاء . وجائزٌ أن تقول : سرت إلى الكوفة ، وقد دخلت الكوفةَ ، وجائزٌ أن تكون قد بلغتَها ، ولم تدخلها ؛ لأنّ (إلى) نهايةٌ ، فجائزٌ أن تقع على أوّل الحدّ . وجائزٌ أن تتوغّل في المكان ، ولكن تُمنَع من مجاوَزته ؛ لأنَّ النهاية غايةٌ ، وما كان بعده شيء لم يُسَمَّ غايةً))[3] ،

---

[1] سورة إبْرَاهِيم ، الآية : ٩ .

[2] النحو الوافي : ٥٠٨/٢ ، وينظر : همع الهوامع : ٤٤٦/٢ .

[3] شرح المفصل : ٤٦٣/٤ .

والدلالة الثانية (التوغُّل في المكان) هي الظرفية بعينها ، إلَّا أنَّ بين الظرفيتين فرقاً يتمثّل بالدلالة على الاستقرار والتمكُّن عند استعمال (في) .

وأمَّا ترجيح استعمال أحد الحرفين فهو راجع إلى المعنى الذي يريده المتكلم ؛ فالحرف (إلى) يحتمل دخول ما بعده فيما قبله ، كما يحتمل عدم الدخول ، بخلاف الحرف (في) الذي له دلالة التوغُّل لا غير . وعلى هذا فلو دقَّقنا في المثالين السابقين ، لظهر لنا ما يبرر وجود الحرف (في) ، ولا حاجة بنا ـ حينئذٍ ـ إلى القول بالنيابة ؛ لأنَّ كلَّ مَن له دراية بتذوق أساليب الأداء سيجد فرقاً بين : ردَّ يده في أذنيه ، وردَّ يده إلى أذنيه ، وبين : ردُّوا أيديهم في أفواههم ، وردُّوا أيديهم إلى أفواههم ؛ لأنَّ (في) تدلُّ على المبالغة في عدم الاستماع وعدم الرد ، بخلاف الحرف (إلى) الذي يدلُّ على مجرَّد إنهاء اليد إلى الأذن أو الفم [(١)] .

وممَّا حُمِل على النيابة قوله (عليه السلام) : ((**وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ ، أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ** ...)) [(٢)] وقد فسَّرها الخوئي بحرف الغاية فقال : (((ف) لمّا كان الحال بهذا المنوال (بعث فيهم) أي : أرسل إليهم (رسله ، وواتر اليهم أنبيائه) أي : أرسلهم متواتراً))[(٣)] ، وما يدعونا إلى مناقشة هذا التأويل هو أنَّ الفعل (بعث) جاء متعدياً بالحرف (إلى) في تسعة موارد في نهج البلاغة[(٤)] ، ولم يتعدَ بالحرف (في) إلَّا في هذا المورد ، فما السرُّ في ذلك ؟

---

(١) ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ١٤٦ .
(٢) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٣ . واجتالتهم : صرفتهم عن قصدهم . ينظر :لسان العرب . (جول) :١٣٢/١١ .
(٣) منهاج البراعة ، للخوئي : ١٤٩/٢ .
(٤) ينظر : الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه ، للسيد جواد المصطفوي : ٤٤ .

وقد يقول قائل : إنَّ رأي الخوئي مبني على حمل هذا الموضع الوحيد على تلك المواضع . وهذا الأمر يمكن أن يكون صحيحاً إذا كانت الغاية متَّجهة نحو إيجاد الانسجام اللفظي بين الفعل وحرف الجر ، ولكنَّه يستلزم إجحافاً بحقِّ المعنى المراد ، وهذا الأمر يعاكس ما عليه العرب من اهتمامهم بالمعنى وتقديمه على اللفظ ؛ لأنَّ ((المعاني عندهم أشرف من الألفاظ)) [1].

ولكي يتضح الأمر جليَّاً ، نوازن بين هذا المورد وبين واحدٍ من تلك الموارد التسعة ؛ لنرى الفرق الدلالي الذي يترتب على استعمال كلّ واحد من الحرفين ، ولنتأمل قوله (عليه السلام) : ((**يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحاً بِالْغَرْبِ أَقْبِلْ وَ أَدْبِرْ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ! وَ اللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً**)) [2] ، فعند تحليل القولين نجد مقداراً مشتركاً بينهما ؛ فهما يفصحان عن مبعوث مأمورٍ بتبليغ رسالة إلى المبعوث إليه ، ولكنَّ التعمُّق في التحليل يرشدنا إلى أمور أخرى تمكِّننا من تلمُّس السرَّ في اختلاف حرفي الجر بينهما ؛ فإيثار حرف الظرفية في قوله (عليه السلام) : ((بعث فيهم)) يدلُّ على أنَّ المبعوث لم يقدم عليهم من مكان بعيد ، بل هو كائن بين ظهرانيهم ، وهذا هو ديدن الغالبية العظمى من الأنبياء والمرسلين ، فهم يسكنون بين الناس . وأمَّا حرف الغاية في قوله (عليه السلام) : ((بعث إليَّ)) فيدلُّ على أنَّ المبعوث قد جاء من مكان غير المكان الذي يقطنه المبعوث إليه ، وهو ما ينطبق على الرسل الذين أرسلهم عثمان إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فقد بعث إليه أن يخرج من المدينة إلى (ينبع) وهي تبعد عن

---

(1) الخصائص : ٢/٤٦٨ .

(2) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٥٨ . والنضح بالغرب : حمل الماء بالدلو العظيمة . ينظر : مقاييس اللغة . (غرب) : ٤/٤٢٠ .

مكان يبعد عن المدينة بمقدار عشرة فراسخ أو أكثر ، ثمّ بعث إليه أن يأتي من ينبع إلى المدينة ، ثمّ بعث ابن عبّاس ليبلغه أن يخرج إلى ينبع ثانياً [1].

وكذلك تبدو تلك الحقيقة التي أشرنا إليها عندما ننظر إلى مضمون الرسالة التي يحملها رسل الله تعالى ، والمهمة التي كُلِّفوا بها ، ونقارن ذلك بالرسالة التي يحملها رسل عثمان ، فهؤلاء يحملون رسالة عابرة لا يستدعي تبليغها إلا اليسير من الوقت ، ثمَّ يعودون أدراجهم ، في حين تمثِّل رسالة الأنبياء دستوراً ينظم حياة الناس ، ولذا يتطلب تبليغها وقتاً طويلاً قد يستغرق عمر ذلك الرسول ، وهو ما لا يفصح عنه إلَّا حرف الظرفية الذي يُفهم منه معنى ملازمة المُرسَل للمُرسَلِ إليه ، وعدم مفارقته له .

والحقيقة أنَّ الابداع في استعمال حرف الظرفية في نهج البلاغة ما ينِي يُكرِّر هذا المعنى الدقيق ويُنبِّه على هذه الخاصية ، فجواب أمير المؤمنين (عليه السلام) ـ عندما سُئِلَ عن الخيرِ ما هو ؟ ـ يقع في هذا الإطار ، يقول (عليه السلام) : ((**لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَ وَلَدُكَ ... وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ ، رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَ رَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ**)) [2] وفسَّر السيد الشيرازي وجود الحرف (في) على النيابة ، يقول : (((ورجل يسارع في الخيرات) أي : يسرع إليها))[3] ، وهذا الرأي ـ

---

[1] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٩٦/١٣ ، وشرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٢٢/٤ ، وقد جاء في كتاب (في رحاب نهج البلاغة : ١١٦) ما نصه : ((كان عثمان يسيء الظن بالإمام (عليه السلام)، فكان يراه مضرا به و مخلا في أمره إذ كان (عليه السلام) أمل الثوار و ذخرهم، لا سيما حينما كان بعضهم يجهر باسمه أميرا مختارا لهم بعد عثمان مهددين بخلعه و لهذا كان عثمان يريد منه (عليه السلام) أن لا يكون حاضرا في البلد كي لا ينظر إليه الثوار فيهيج بهم خواطرهم و آمالهم. و لكنه من ناحية أخرى كان يرى أنه (عليه السلام) هو الوسيط الوحيد الخيّر له إليهم، و أنه مما يطمئنهم و يسكنهم. فكان أحيانا يطلب إليه أن يخرج من المدينة إلى عين ماء له (بينبع) و هي تبعد عنها عشرة فراسخ أو أكثر و لكنه لا يلبث أن يحس بخلاء من فقده (عليه السلام) فيها فكان يبعث إليه أن يأتيه. و كان من الطبيعي أن هاجت بالثوار خواطرهم حينما رأوه، فبعث ابن عباس إليه يطلب منه العود إلى مزرعته فتألم الإمام (عليه السلام) من هذا ...)) .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٨٤ .

[3] توضيح نهج البلاغة : ٣٠٣/٤ .

كسابقه ـ مبني على كون الحرف (إلى) هو الحرف المستعمل في تعدِّي الفعل (سارع) ، ولكنَّه يلغي الفرق بين هذه العبارة التي جاء فيها الفعل (يسارع) متعدِّياً بالحرف (في) وبين سائر العبارات التي تعدَّى فيها بالحرف (إلى) ، كقوله (عليه السلام) : ((**وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَ لَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا**)) [1].

والحقيقة أنَّ النظرة الفاحصة تؤكِّد البون الشاسع بين التعبيرين ، وسنرى ـ بعد بيان الأثر الدلالي المترتب على استعمال حرف الظرفية ـ مصداق هذه الحقيقة ، فالمسارعة تعني المبادرة[2] ، واستعمال بناء (المفاعلة) الدالّ على المشاركة[3] يشير إلى وجود المنافسة في التسارُع بين هذا المسارِع وغيره ، وهذان الأمران (المعنى اللغوي ، والبناء الصرفي) يوحيان بالرغبة الشديدة في الأمر المسارَع إليه ، وعلى هذا الأساس ذهب بعض معربي القرآن الكريم إلى تضمين الفعل (سارع) معنى الفعل (وقع) الذي يتعدَّى بالحرف في[4] ، وذهب غيرهم إلى أنَّه ((كثيراً ما يتعدَّى أسرع بفي ؛ لما فيه من معنى الجد والرغبة ، فليست (في) بمعنى (إلى)))[5] ، ومذهب التضمين هذا ـ كمذهب النيابة ـ لا يعدو كونه معالجة لفظية لا تستطيع الإجابة عن الفرق بين

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤١٨ ، وقد أجاب ابن أبي الحديد إجابة شافية عن إشكال يمكن أن يُثار على هذا القول ، فقال ((فإن قلت : أما قوله : ((لو تظاهرت العرب علي لما وليت عنها فمعلوم)) فما الفائدة في قوله : و لو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت إليها ؟ و هل هذا مما يفخر به الرؤساء و يعدونه منقبة ؟ و إنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجاوز و عفا . قلت : غرضه أن يقرر في نفوس أصحابه ، وغيرهم من العرب أنه يحارب على حق ، وأن حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله (ص) وأن مَن يجاهد الكفار يجب عليه أن يغلظ عليهم ، ويستأصل شأفتهم ، أ لا ترى أن رسول الله (ص) لما جاهد بني قريظة ، وظفر لم يُبقِ و لم يعفُ ، وحصد في يوم واحد رقاب ألف إنسان صبراً في مقام واحد ؛ لما علم في ذلك من إعزاز الدين و إذلال المشركين ؛ فالعفو له مقام والانتقام له مقام)) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٩١/١٦ .

[2] ينظر : لسان العرب . (سرع) : ١٥٢/٨ ، والقاموس المحيط . (سرع) : ٧٢٨ .

[3] ينظر : شرح شافية ابن الحاجب ، لمحمد بن الحسن الرضي الإستراباذي : ١/ ٩٨ .

[4] ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لعبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي : ١٢٦/٢ ، والمجتبى من مشكل إعراب القرآن ، د. أحمد بن محمد الخراط : ١٥٤/١ .

[5] روح المعاني : ٨٣/٩ .

التعديتين ؛ فدلالة الفعل على الجد والرغبة موجودة في التعديتين ، فلِمَ استُعمِل الحرف (إلى) في مواضع واستُعمل الحرف (في) في مواضع أخرى ؟

والذي يبدو أنَّ دلالة المسارعة لها مساران ؛ تبعاً لحرف الجر المستعمَل ، فالحرف (في) بدلالته على الظرفية يشير إلى بيان المسار الذي يتحرك فيه المُسارِع ، فَحَدَّا المسارعة غير خارجين عن مفهوم الخيرات ، فهي رغبة واندفاع ومنافسة في حدود الخيرات ، لا تتزحزح عنها إلى غيرها ؛ لأنَّها مستقرة في الخيرات وملابسةً لها منذ ابتداء المسارعة وحتَّى انتهائها ، فهؤلاء لا يبدِّدون طاقتهم في غير هذا الأمر ، ومن هنا يمكننا أن نؤيِّد ابن أبي الحديد فيما ذهب إليه من ترجيح حرف الظرفية على حرف الغاية في قوله (عليه السلام) : ((**وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ**)) [1].

وهذا بخلاف استعمال حرف الغاية الذي يجعل من الخيرات هدفاً يتنافس المسارعون في الوصول إليه ، فالخيرات هي الغاية التي يسعون إليها ، فضلاً عن ذلك فإنَّ وجود الحرف (إلى) لا يمنع من وجود مسارعة أخرى باتجاه آخر ونحو غاية أخرى ، فقوله (عليه السلام) : ((لسارعت إليها)) يجعل رقاب العرب غاية للمسارعة ، ولا يمنع من مسارعته إلى غير العرب لو تظاهروا عليه ، فمسارعته غير محصورة بهم ، إلا أنَّه ذكر المصداق الأكمل ، لأنَّ العرب مشهورون بالشجاعة والإقدام .

إيثار (في) على حرف الاستعلاء (على) :

لعلَّ القول بنيابة حرف الظرفية عن حرف الاستعلاء من أشهر المعاني التي أثبتها النحويون القائلون بالنيابة للحرف (في) ، ويؤيَّد هذا أنَّ الزمخشري ـ مثلاً ـ لم يُناقِش

---

[1] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٤٢/١٨ ، وذهب آخرون إلى اختيار الحرف (إلى) كابن ميثم (شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم) : ٢٥٢/٥) ، والدكتور صبحي الصالح (نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٧٣) .

في مفصله إلَّا القول بدلالتها على الاستعلاء ، يقول : ((وفي معناها الظرفية ، كقولك : زيد في أرضه ... وقولهم في قول الله عز وجل : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [1] إنها بمعنى (على) عمل على الظاهر ، والحقيقة إنَّها على أصلها لتمكُّن المصلوب في الجذع تمكُّن الكائن في الظرف فيه))[2].

أما رأي الكوفيين القائلين بالنيابة ، فقد حاول الصَّبَّان ـ مستعيناً بعلم البيان ـ أن يجد التوجيه الملائم له ، ولكنَّه لم يكن ملتفتاً إلى ما يترتب على كلامه من إلغاء لرأيهم ، يقول : ((قوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أي : عليها ، فشبَّه الاستعلاء المطلق بالظرفية المطلقة ، فسرى التشبيه لجزئيات كلٍّ ، فاستُعير بناءً على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظة (في) لمعنى (على) ، وهو استعلاء جزئي ، هذا مذهب الكوفيين ، وجعلها البصريون للظرفية بناء على تشبيه المصلوب ، لتمكُّنه من الجذع بالحال فيه على طريق الاستعارة بالكناية ، أو تشبيه الجذوع بالظروف بجامع التمكُّن في كلٍّ على طريق الاستعارة بالكناية أيضاً ، و(في) على الوجهين تخييل ، وبهذا التحقيق يُعرَف ما في الحواشي من التساهل)) [3] وتحليل الصَّبَّان لرأي الكوفيين وتفسيره على أساس الاستعارة لا يتوافق مع ما ذهب إليه الكوفيون من نيابة حروف الجرّ ، بل يتوافق مع رأي البصريين القائلين بالتوسّع ؛ لأنَّ الاستعارة طريقة من طرق التوسّع في الكلام ، جاء في الطراز : ((اعلم أنَّ التوسّع اسم يقع على جميع الأنواع المجازية كلِّها ، واشتقاقه من السعة ، وهو نقيض الضيق ، فالضيق قصر الكلام على حقيقته من غير خروج عنها ، والتوسّع شامل لما ذكرناه من أنواع المجازات ، فإطلاق التوسّع على ما يندرج تحته من أنواع المجاز بمنزلة إطلاق الكلمة على ما يندرج تحته

---

[1] سورة طه ، الآية : ٧١ .

[2] المفصل في صنعة الإعراب : ٣٨١ ، وقد علل ذلك الخوارزمي في (كتاب ترشيح العلل في شرح الجمل: ٢٠٢) بقوله : ((وذلك لأن المصلوب يتضمنه الجذع كما أنَّ المرعى يتضمن الغنم)) .

[3] حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣٢٧/٢ .

من أنواعها الخاصَّة الاسم والفعل والحرف ، وهكذا اسم المجاز ، فإنَّه شامل لأنواعه من الاستعارة ، والكناية ، والتمثيل)) [1].

وقد تقدَّم تفسير هذه الظاهرة على وفق ما ذكرناه من التعاضد الدلالي بين الحرف وسياقه الذي لا يبدو منسجماً معه ، الأمر الذي يُلقي بظلال العناية والاهتمام على ما وراء هذه التشكيلة الجديدة ، وينبِّه المتلقِّي على ما تحمله من سرٍّ خفي يحتاج إلى تأمُّلٍ وتدبُّر .

ومن الموارد التي حُمِلت على النيابة قوله (عليه السلام) لشريحٍ القاضي : ((**بَلَغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً ، وَ كَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً وَ أَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً** ...)) [2] يقول الخوئي : (((أشهدت فيه شهوداً) أي : أحضرت فيه شهوداً ، أو تكون كلمة (في) الجارة بمعنى (على) ... ويقال : أشهد فلاناً على كذا ، أي : جعله شاهداً عليه ، فالمعنى : وجعلت قوماً شهوداً عليه)) [3] .

ويبدو أنَّ الاحتمال الذي يسوِّغ القول بنيابة (في) عن (على) مبني على عطف جملة (أشهدت فيه شهوداً) على جملة (ابتعت داراً) فيكون الضمير (الهاء) عائداً على معنى البيع المتصيَّد من الجملة السابقة ، فيكون التقدير : ابتعتَ داراً ... وأشهدتَ على البيع شهوداً . وهذا القول ـ مع اتصافه بالتكلُّف ـ هو ممَّا يمكن فيه إبقاء (في) على دلالتها الأصلية ، ويكون المعنى : ابتعتَ داراً ... وأشهدتَ في البيع شهوداً . فتدلُّ (في) على أنَّ الشهود كانوا حاضرين في وقت عقد البيع لا أنَّهم شهدوا على إقرار البائع بالبيع .

---

(1) الطراز : ١/١٠٤ .

(2) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٦٤ .

(3) منهاج البراعة ، للخوئي : ١٧/١٠٩ .

ومن هنَّا يظهر الفارق الدلالي بين حمل العبارة على النيابة (وأشهدتَ عليه) وإبقاء الحرف على معناه (وأشهدتَ فيه) ؛ فدلالة الجملة الأولى احتماليَّة ؛ إذ يُحتمل كون الشهود حاضرين عند عقد البيع ، كما يُحتمل كونهم شَهِدوا بعد تنجُّز عقد البيع ولزومه . أمَّا دلالة الجملة الثانية فهي قطعيَّة تدلُّ على كون الإشهاد قد تمَّ عند عقد البيع لا بعده .

ومن بدائع الأداء في استثمار هذا التعاضد بين حرف الظرفية وسياقه ما نجده في قوله (عليه السلام) في وصف المتقين : ((**فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ وَ حَزْماً فِي لِينٍ وَ إِيمَاناً فِي يَقِينٍ وَ حِرْصاً فِي عِلْمٍ وَ عِلْماً فِي حِلْمٍ وَ قَصْداً فِي غِنًى وَ خُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ وَ تَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ وَ صَبْراً فِي شِدَّةٍ وَ طَلَباً فِي حَلَالٍ وَ نَشَاطاً فِي هُدًى** ...)) [1] وقد وجَّه ابن أبي الحديد قوله (عليه السلام) : ((وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ)) ، على النيابة ، يقول : ((قوله : وحرصاً في علم . حرف الجر ـ هاهنا ـ يتعلَّق بالظاهر ، و(في) بمعنى (على) ، كقوله تعالى : ﴿ **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ﴾)) [2] ، وقد أيَّد أحد الباحثين ما ذهب إليه الشارح بقوله : ((والحقيقة أنَّ (حرص) لا يتعدَّى إلَّا بـ (على) فكلام الشارح صحيح و (في) بمعنى (على))) [3].

ولعلَّ الاستعمال الكثير للفعل (حرص) متعدِّياً بالحرف (على) هو منشأ القول بنيابة (في) عن (على) ، فالفعل (حرص) وما تفرَّع منه لم يرد في القرآن الكريم ولا في نهج البلاغة ـ إلَّا في المورد المتقدِّم ـ متعدِّياً بغير (على)[4] ، ومن موارد ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ** ﴾ [النحل: ٣٧] وقوله سبحانه : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٠٣ .
[2] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٥٠/١٠ .
[3] المباحث النحوية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٣٥٤ .
[4] ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٢٥٠ ، الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه : ٩٤ .

ولم يُشِر أحدٌ من الشرَّاح إلى السرِّ الذي يتوارى وراء هذا التركيب ، فهم لا يذهبون إلى ما هو أبعد من تفسيره بـ (طلب العلم)[1] . والحقيقة أنَّ النص معقود لبيان صفات المتقين الخاصة بهم التي تكون علامة عليهم تُميزهم من غيرهم من أهل الإيمان ، وهذا يعني أنَّها صفاتٌ نادرةُ الحصول في عامَّة الناس ، ووَسْم المتقين بصفة الحرص الذي يدلُّ على فرط الرغبة في الحصول على الشيء[2] يتطلَّبُ مزيداً من الدِّقَّة والحذر ؛ لأنَّ الحرص يمكن أن يكون من الصفات القبيحة ، كما يمكن أن يكون من الصفات الحسنة ، وتأويل قوله (عليه السلام) : ((حرصاً في علم)) ، بـ : حرصاً على علم ، لا يؤدِّي هذا الغرض ؛ لأنَّ الكثير من أبناء الدنيا له هذه الصفة ، فضلاً عن ذلك ، فإنَّ تقييد الحرص بـ (على علم) لا يمنع من احتمال الحرص على غير العلم ، وهنا يقع المحذور ؛ لأنَّ الحرص يكون من الملكات السيئة عند استعماله في غير مورده .

ولهذا فتقييد الحرص بحرف الظرفية (في علم) يؤدي إلى بيان المدى الدلالي الذي ينتهي عنده معنى الحرص ، فهو يرسم الحدود التي يتحرك بداخلها حرص المتقين ، وكونها لا تخرج عن دائرة العلم ، وعلى هذا فلا مجال لاحتمال الأنواع المذمومة من الحرص . ولتوضيح هذا المعنى نضرب المثال الآتي : نقول : زيدٌ يحرص على بيته ، وزيدٌ يحرص في بيته . ومعلوم أنَّ دلالة الجملة الأولى احتمالية ، فيمكن أن يحرص زيد على بيته وعلى سيارته وعلى بستانه وهكذا . وأمَّا دلالة الجملة الثانية فهي تحدد حرص زيد بما يدخل ضمن دائرة بيته ، ولا تشمل ما يقع خارج هذا النطاق . فضلاً عن ذلك فإنَّ حرف الظرفية يشي بشيءٍ آخر لا يؤدِّيه حرف الاستعلاء ، وهو التوغُّل

---

[1] ينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ١٣٦/١٢ ، وتوضيح نهج البلاغة : ٢٣٨/٣ ، و شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٣٦٢/٣ ، و نهج البلاغة نبراس السياسة ومنهل التربية ، د. لبيب بيضون : ٩٢ .

[2] ينظر : مقاييس اللغة . (حرص) : ٤٠/٢ .

في الشيء المستلزم المداومة والاستمرار ، فهؤلاء ليسوا كسائر المتعلمين ؛ لأنهم ((لا يعتبرون أنفسهم يوماً متخرجين من العلم)) [1].

[1] نهج البلاغة نبراس السياسة ومنهل التربية : ٩٢ .

المبحث الثالث

أسرار التعبير بالحرف (مِن)

هو حرفُ جرٍّ مبنيٌّ على السكون ، مكسورُ الأوَّل ، وأرجع بعضهم علَّة ذلك إلى أنَّ حرفها الأوَّل حقُّه الفتح ولكنَّه كُسِرَ قصداً للفرق بينها وبين (مَنْ) الاسمية[١] ، وأمَّا نونها فذكر سيبويه أنَّ العرب اختلفوا في تحريكها إن وليها ساكن ، فإذا كان الساكن همزة وصل غير همزة (الـ) جاز تحريكها بالفتح أو الكسر ، فتقول : مِنِ ابْنك أو مِنَ ابْنك ، وإن وليها همزة (الـ) حُرِّكت بالفتح ، فتقول : مِنَ اللهِ [٢] .

و (مِن) هي أقوى حروف الجر ، ولذلك دخلت على ما لم يدخل عليه غيرها ، وهو كلٌّ ظرف ملازم النصب على الظرفية[٣] . ولم يختلف النحويون في دلالتها على ابتداء الغاية ، إلَّا أنَّهم اختلفوا في معانيها الأخرى ، فذهب طائفة من حذَّاقهم إلى أنَّها لابتداء الغاية وأنَّ سائر المعاني التي ذكروها راجع إلى هذا المعنى[٤] ، ومنهم أبو العباس المبرّد ، يقول : ((ومنها (مِنْ) وأَصلها ابتداءُ الغاية ، نحو : سرت من مكّة إلى المدينة ، وفي الكتاب : من فلان إلى فلان ، فمعناه أَنَّ ابتداءَه من فلان ومحلَّه فلان ، وكونها في التَّبعيض راجعٌ إلى هذا ، وذاك أَنَّك تقول : أَخذت مال زيد ، فإِذا أَردت البعض قلت : أَخذت من ماله ، فإِنَّما رجعت بها إلى ابتداء الغاية ، وقولك : زيدٌ أَفضل من عمرو . إنَّما جعلت غاية تفضيله عمراً ، فإِذا عرفت فضل عمرو علمتَ أَنَّه فوقه))[٥] ، وقد أوضح ابن السرَّاج مراد المبرد في رجوع بعض المعاني إلى

---

[١] ينظر : همع الهوامع : ٢/٤٦٠ .

[٢] ينظر : الكتاب : ٤/١٥٤ ـ ١٥٥ .

[٣] ينظر : حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٢/ ٣٠٥ ، وجاء في درة الغواص : ٣١ ـ ٣٢ : ((وَإِنَّمَا خصت من بذلك لِأَنَّهَا أم حُرُوف الْجَرّ، ولِأُمٍّ كل بَاب اخْتِصَاص تمتاز بِهِ وتنفرد بمزيته)) .

[٤] ينظر : توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك : ٢/٧٤٩ .

[٥] المقتضب : ١/٤٤ .

معنى ابتداء الغاية بقوله : ((أخذت من ماله ، إنَّما ابتداء غاية ما أخذ ، فدلَّ على التبعيض من حيث صار ما بقي انتهاء له والأصل واحد ... وقولك : زيدٌ أفضل من عمرو ، وإنَّما ابتدأت في إعطائه الفضل من حيث عرفت فضل عمرو فابتداء تقديمه هذا الموضع فلم يخرج من ابتداء الغايةِ)) [١].

ودلالة (مِن) على ابتداء الغاية لا يعني انحصار هذا المعنى في ما كان حدثاً ممتدًّا كما قرَّره الرضي[٢] ، بل المقصود بذلك الابتداء المطلق سواء كان الحدث ممتدًّا أم لم يكن ؟ لأنَّ ((معنى الغاية ... المسافة المكانية حيناً ، والمقدار الزمني حيناً آخر ، على حسب السياق ، بيان هذا : أنَّ الفعل وشبيهه المتعدي بمن الجارَّة له معنًى يستمر قليلاً أو طويلاً ، وابتداء هذا المعنى هو الاسم المجرور بمن ، وهذا الاسم هو الدال على زمان أو مكان ... وليس المراد معناها الحقيقي الذي هو آخر الشيء ، فالتسمية هنا من تسمية الكلِّ باسم الجزء))[٣] ، ولعلَّ كلام ابن جني في اللمع يشير إلى ما ذكرنا من دلالة (مِن) على الابتداء من غير تقييد بالغاية ، يقول : ((فمعنى (من) الابتداء ، تَقول : سرت من البصرة ، أَي : ابتدأت السّير من البصرة)) [٤] ، ويؤيِّد هذا ما تكرَّر في نهج البلاغة من قوله (عليه السلام) : ((**مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى** ...)) [٥].

وأمَّا النحويون الذين ذهبوا إلى تعدُّد معاني (مِن) فقد تفاوت عدد المعاني عندهم ، فأوصلها ابن هشام إلى خمسة عشر معنًى[٦] ، في حين أوصلها الأشموني إلى

---

[١] الأصول في النحو : ١/٤٠٩ ، وينظر : الجنى الداني : ٣١٥ .

[٢] ينظر : شرح الرضي على الكافية : ٤/٢٦٤ .

[٣] النحو الوافي : ٢/٤٥٩ ، وينظر : دليل السالك إلى ألفية ابن مالك : ٢/١٠ .

[٤] اللمع في العربية : ٧٣ .

[٥] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٦٣ ، ٤١٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ ، ٤٦٤ ، ٧٨٨ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ .

[٦] ينظر : مغني اللبيب : ١/ ٤١٩ .

عشرة معانٍ[١] ، ويبدو أنَّ هذا الأمر تابعٌ لاستقراء السياقات المختلفة التي بدت فيها (مِن) في غير موضعها ، وهو ما يستدعي منَّا التأمُّل في تلك السياقات لاستخراج الأسرار المحتجبة وراء النظم ، بغير لَيٍّ للنصوص أو إكراهٍ للمعاني ، بل بلطافة النظر وتوسيع الأفق ، وهو ما يقودنا إلى معرفة نصيب الحرف من الدِّلالة ومقدار إسهامه في السياق .

ومن روائع استعمال الحرف (مِن) قوله (عليه السلام) في رسالةٍ له إلى معاوية : ((**وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ وَ تَقْطَعُ الدَّابِرِ**))[٢] ، وقد بيَّن ابن أبي الحديد معنى (مِن) بقوله : ((قوله : واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة ، الضمير في (منه) راجع إلى الله تعالى ، و (من) لابتداء الغاية ، وقال الراوندي : (منه) ، أي : من البهتان الذي أتيته ، أي : من أجله و (من) للتعليل ، وهذا بعيد وخلاف الظاهر))[٣] ، وقراءة مقام هذه الرسالة يشير إلى الدِّقَّة في استعمال (مِنْ) فالإمام (عليه السلام) في مقام إنذار معاوية وتذكيره بعذاب الله عزَّ وجلَّ ، وهذا يمكن أن يكون من باب إلقاء الحُجة عليه ؛ حتَّى لا يقول قائل : إنَّ الإمام (عليه السلام) بادر معاوية بالحرب قبل إنذاره وتذكيره ، ويبدو أنَّه (عليه السلام) ذكر الجار والمجرور (منه) لتحديد ابتداء ذلك العذاب وكونه من الله تعالى ؛ إذ لو قال (عليه السلام) : وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ . لاحتمل أن يكون ذلك العذاب من غير الله تعالى ، كعذاب القتل على أيدي المؤمنين ، وهذا التعبير مشابهٌ إلى حدٍّ ما قوله تعالى : ﴿ **وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا** ﴾ [التوبة : ٥٢] .

---

(١) ينظر : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٧٠/٢ .

(٢) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٤٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٣٥/١٧ .

وتتكرر (مِن) في بعض نصوص النهج فتوحي بارتفاع وضخامة في الإيقاع ، وسرعة وقوة في النبض ، وبيان دقيق في التصوير والحركة ، ومن موارد ذلك ما يصوِّره هذا النص من استعراض لحالة المسلمين بعد رحيل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يقول (عليه السلام) : ((**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً** (صلى الله عليه وآله) **نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ وَ مُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ فَلَمَّا مَضَى** (عليه السلام) **تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ فَوَ اللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَ لَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ** (صلى الله عليه وآله) **عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَ لَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ** ...))[1].

ولم أجد عند شرَّاح النهج ما يكشف النقاب عن سرِّ استعمال (مِن) ـ هنا ـ أو يبيِّن وجه البلاغة في تكرارها ، فأنت ترى تكرار (مِن) وعدم انفكاكها عن ظرف الزمان (بعد) في الموارد الثلاثة (تنازُع المسلمين في أمر الخلافة ، وعدولهم بها عن أهل البيت ، وتنحيتها عن أمير المؤمنين (عليه السلام)) ، وهذا الأمر ـ بلا شكٍّ ـ ينطوي على سرٍّ معنوي لا يمكن أن يُستَفَاد من دونها ، إذ لا يتساوى معنى (مِن بعد) مع معنى (بعد) ؛ لأنَّ ذكر (مِنْ) يؤذن بأنَّ التنازع والعدول والتنحية ابتدأ من أوَّل زمان بعديَّة رحيل النبي (صلى الله عليه وآله) وهو ما يمثِّل حالة غريبة ؛ لأنَّ شأن التغيُّر والانقلاب على الأعقاب أن يتراخى زمانُه لا أنَّه يحصل بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله) مباشرة ، فوجود (مِنْ) يُشخِّص الزمان الذي ابتدأ منه التغيُّر بدقَّة متناهية ، كما أنَّه يحمل الدِّلالة على تعريضه (عليه السلام) بقلَّة وفائهم في حفظ العهد ورعاية المودَّة في القربى ، فضلاً عن ذلك فإنَّه يفسِّر لنا ما يترشح من استغراب عن قوله (عليه السلام) : ((**فَوَ اللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَ لَا يَخْطُرُ بِبَالِي ... فَمَا رَاعَنِي** ...)) .

والحقيقة أنَّ (مِن) في نصوص نهج البلاغة تنطوي على كنوز ثمينة لمَّا تُفتح خزائنها بعد ؛ ومحاولة الشرَّاح ـ بالتوسل بالتضمين أو النيابة ـ لن تجدي نفعاً في فكِّ

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٥١ . وانثيال : انصباب . ينظر : مقاييس اللغة . (نثل) : ٣٩٠/٥ .

المنغلق من أبوابها ، بل هي إضاعة لمعناها أو لمعنى سياقها في أحسن الأحوال ، وهو ما سنقف عنده في الموارد الآتية :

إيثار (مِن) على حرف الإلصاق (الباء) :

أثبت بعض النحويين معنى الاستعانة للحرف (من) ، وهذا المعنى هو أحد المعاني التي تؤديها الباء ـ بنظرهم ـ لذا فـ (من) أخذت معنى الاستعانة من الباء ، وقد مثَّل لها الأشموني[1] بقوله تباركت أسماؤه : ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى : ٤٥] أي : بطرف خفيّ ، ومستند هذا التأويل ـ كما يبدو ـ يعتمد على ما يناسب السياق من معنًى ، فالحرف لا يؤدِّي غير الدلالة التي يمليها عليه السياق ، ولئن وقع الحرف بين الفعل وما يُمكن أن يكون آلة له ، فمن الطبيعي أن يؤدِّي الحرف معنى الاستعانة ؛ ليتحقق الانسجام بين الفعل وآلته ، وهذا ما يظهر بشكل واضح في قول المرادي : ((تقول العرب : ضربته من السيف ، أي : بالسيف ، وهذا قول كوفي)) [2] .

ولو عملنا على الاستفادة من انضمام معنى (مِن) الى معنى السياق لحصلنا على دلالة جديدة ، فالابتداء المفهوم من الحرف (مِن) عندما يندمج مع سياق يوحي بالاستعانة ، فإنه سوف يُنتج تعاضداً دلالياً بين معنييهما ، فالسياق الذي يتطلب الإلصاق المنبعث عن الاستعانة سيندمج مع الحرف (مِن) الذي يتطلب الانفكاك والابتداء ، وعلى هذا التأويل لا يمكن تفسير (مِن) بالباء ؛ ففي المثال الذي نسبه المرادي إلى الكوفيين يمكن أنَّ نلحظ الفرق بين قولهم : ضربته من السيف ، وبين تفسيره : ضربته بالسيف . فالضرب بالسيف يدلُّ على شدَّة الضرب ؛ لدلالة (الباء)

---

[1] ينظر : شرح الاشموني على ألفية ابن مالك : ٧٢/٢ ، وينظر : حروف المعاني : ٥٠ . يقول الزجاجي (ت : ٣٣٧هـ) : ((وَقد تَأتي بِمَعْنى الْبَاء كَقَوْلِه تَعَالَى : {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ}[الرعد : ١١] أَي : بِأَمْر الله ، وَقَالَ تَعَالَى : {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ} [غافر : ١٥] أَي : بأَمْره)) .

[2] الجنى الداني : ٣١٤ .

على التصاق آلة الضرب بالمضروب ؛ و ((الإلصاق يُوجب شدَّة اتِّصال أحد الشَّيئين بالآخر))[١] ، في حين يدلُّ الضرب من السيف على ضعف الضرب ؛ لدلالة (مِن) على الابتداء في مدخولها وهو ما يعني الانفكاك والانفصال ، فكأنَّ الضرب لضعفه لا يكاد يلتصق بالمضروب حتَّى ينفك عنه .

وأمَّا الآية التي أوردها الاشموني فقد ذهب بعض النحويين الى أنَّ (مِن) فيها بمعنى الباء[٢] ، ورجَّح الدكتور فاضل السامرائي كونها للتبعيض ، يقول : ((ويترجَّح عندي أنَّها للتبعيض ، أي : ينظرون ببعض طرفهم ، وهو المناسب لمشهد الذُّل الذي هم فيه))[٣] ، وهو ما مال اليه الدكتور الخضري أيضاً [٤] ، وما ذكروه من معنًى ليس ناشئاً من الحرف (مِن) ، بل من الوصف (خفيّ) ؛ لأنَّ خفيَّ الطرف هو ضعيف الطرف[٥] ، جاء في التحرير والتنوير : ((ووصفه في هذه الآية بـ (خَفِيٍّ) يقتضي أَنَّه أُرِيدَ به حركة العين ، أَي : ينظرون نظراً خَفِيًّا ، أَي : لا حِدَّةَ له ، فهو كمُسارَقة النَّظر، وذلك من هول ما يرونه من العذاب))[٦] ، وهو ما ذهب اليه صاحب الأمثل ، يقول : ((إنَّ جملة (طرف خفي) تعني هنا النظر بعين نصف مفتوحة ؛ لأنَّهم لا يستطيعون فتح العين كاملةً من شدَّة الخوف والهول العظيم ، أو أنَّهم من شدَّة الانهيار والإعياء لا يستطيعون فتح العين بشكل كامل)) [٧].

ويبدو أنَّ الزمخشري قد أصاب كبد الحقيقة حينما ذهب إلى أنَّ (مِن) للابتداء ، يقول : ((ينظرون من طرف خَفِيٍّ ، أي : يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف

---

[١] اللباب في علل البناء والإعراب : ١/١٧٤ .
[٢] ينظر : مغني اللبيب : ١/ ٤٢٣ .
[٣] معاني النحو : ٣/٧٠ .
[٤] ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٣٥٦ .
[٥] ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٨/٣٤ .
[٦] التحرير والتنوير : ٢٥/١٢٧ .
[٧] الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل : ١٥/ ٥٦٢ .

خفيّ بمسارقة ، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف . وهكذا نظر الناظر إلى المكاره : لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها ، كما يفعل في نظره إلى المحابّ)) [١] ، وهذا المعنى هو ما يؤيّده الاستعمال القرآني ، فإذا تتبَّعنا ما جاء في القرآن الكريم فسنجد ثلاث آيات ، عُدِّي (ينظرون) بـ (مِن) في أحدها ، وعُدِّي الفعل (يبصرون) بـ (الباء) في اثنتين ، ولو تفحَّصنا مدخول حرف الجر في هذه الآيات لوجدنا الملاءمة التَّامَّة بينهما ، فالجفن ليس هو آلة الابصار ، بل عملية الابصار تبتدئ بفتح الجفن عن العين التي هي آلة الابصار وهو ما يناسبه الحرف (مِن) ، أمَّا إذا أُسند الابصار الى العين فالأولى استعمال الباء ؛ لأنَّ العين هي آلة الابصار ، قال سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الاعراف : ١٧٩] وقال عز وجل : ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الاعراف : ١٩٥] .

وهذا المعنى هو ما أفصح عنه باب مدينة علم المصطفى (صلى الله عليهما وآلهما) بقوله (عليه السلام) : ((اعْجَبُوا لِهَذَا الْإِنْسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ))[٢] ، فأنت ترى استعمال الباء مع الثلاثة الأُوَل ، والعدول عنها الى (مِن) مع الأخير ، وهو ما يَكسِرُ أفق التوقُّع عند المخاطب وينبِّهه على تلمُّس نكتة معنوية يؤذن تغيير اللفظ بورودها ، فالإبصار لا يحدث إلا بعد مماسّة العين لصورة المبصرات وهكذا الأمر مع الكلام والسمع ؛ فضلاً عن ذلك فالإنسان لا يمكن أن ينظر بغير عينه (شحم) ، ولا أن يتكلم بغير لسانه (لحم) ، ولا أن يسمع بغير أذنه (عظم) ، وإفادة هذه المعاني لا يمكن بغير حرف الإلصاق . وأمَّا (مِن) فهي تدل على أنَّ ابتداء

---

[١] الكشاف : ٢٣١/٤ .

[٢] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٧٠ .

التنفس من خرم وليس الخرم آلة التنفس ، بل الرئة هي آلته ، كما أنَّه يمكن للإنسان أنْ يتنفس من حلقه بدلاً من أنفه ، فكلاهما خرم [١].

وبتأمُّل ما جاء من إيثار لحرف الابتداء ومقارنته بمواضع أخرى أوثر فيها حرف الإلصاق نستطيع أن نتبيَّن المعنى الدقيق لكلٍّ واحد منهما ، فعندما نتابع المواطن التي تعدَّى بها الفعل (غرَّ) بالباء تارة وبـ (مِن) تارة أخرى ، سنجد أنَّه يتعدَّى بالباء في المواطن التي تُذكَرُ فيها الوسائل التي يتسلَّل الغرور بها الى الناس فيعيشون في غفلة عمَّا يُطلَبُ منهم ، يقول (عليه السلام) : ((**وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ ... غَرَّتْ بِزِينَتِهَا**))[٢] ، ويقول (عليه السلام) : ((**إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا ... غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ ... غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ**))[٣] ، ويقول (عليه السلام) : ((**وَالْأَنْفُسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ غَرَّتْهُمْ بِالْأَمَانِيِّ**))[٤] ، ويقول (عليه السلام) : ((**وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا**))[٥] ، وكذا المواطن التي تبيِّن ما يُصاحب المتَّصفُ بالغرور من وسائل للإبقاء على غروره واستمراره في غفلته ، يقول (عليه السلام) : ((**كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَ مَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ**))[٦] ، ويقول (عليه السلام) : ((**اشْتَرَى هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ هَذِهِ الدَّارَ**))[٧] ، فالغرور في هذه المُثُل مصاحب لما بعد الباء (الزينة ، والمداعبة ، والأماني ، والإخلاد ، والستر ، والأمل) ومخالط له ، فالدنيا تدسُّ غرورَها بظاهرها الأنيق وتُخفي ما ينطوي عليه باطنُها من سمٍّ زُعاف ، وهذه هي حقيقة الدنيا التي مثلها أمير المؤمنين (عليه السلام)

---

[١] ينظر : التقييد في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : عباس إسماعيل الغزَّاوي ، (رسالة ماجستير) ، الجامعة المستنصرية ، كلية التربية ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م : ٢١٧ .

[٢] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٦٧ .

[٣] المصدر نفسه : ٤١٨ .

[٤] المصدر نفسه : ٥٣٢ .

[٥] المصدر نفسه : ٤٠٠ .

[٦] المصدر نفسه : ٤٨٩ .

[٧] المصدر نفسه : ٣٦٤ .

بقوله : ((**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا قَاتِلٌ سَمُّهَا ... فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ**))[1].

وأمَّا مواطن تعدِّي الفعل (غرَّ) بـ (مِن) ، فليس مدخول (مِن) فيها هو وسيلة الغرور ، بل مدخولها الذات التي عَمِلَتْ وسائلُ متعدِّدة على التغرير بها وإظهارها بغير صفتها ، و(مِن) تُشعِرُ بأنَّ سبب الغرور المذكور قبل مدخولها هو المحلُّ الأول لابتداء الغرور مع إيحاء بأنَّه أبرز دواعيه ، فقد جاء في كتاب له (عليه السلام) إلى المنذر بن الجارود العبدي ، وقد خان في بعض ما ولَّاه من أعماله ، يقول (عليه السلام) : ((**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ وَ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً وَ لَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَاداً...**))[2] ، ومعلوم أنّه (عليه السلام) كان يعامل الناس على حسب الظاهر كما أنَّ اقواله (عليه السلام) كانت بتلك المثابة ، وإلَّا فالإمام (عليه السلام) يعلم الواقع وليس يغرُّه المنذر ومَن هو على شاكلته[3] ، وفي كلامه كلامه (عليه السلام) إشارة الى أكثر المواطن التي يبدأ غرور الانسان منها ؛ إذ ((كثيراً ما يغترُّ الإنسان بحال الآباء ؛ فيظنُّ أنَّ الأبناء على منهاجهم فلا يكون الأمر كذلك))[4] ، وهذا الموطن هو الأليق بالحرف (مِن) فهي التي تُفصِحُ عن أولوية تلك الوسيلة الوسيلة وتوضِّح المحلَّ الذي يُؤتَى منه الحَذِرُ .

ومن ذلك أيضاً قوله (عليه السلام) : ((**فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَا اللَّعِبُ وَالْحَقُّ لَا الْكَذِبُ وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ وَأَعْجَلَ حَادِيهِ فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ**))[5] ، وقد فُسِّرت

---

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٥٨ .

(2) المصدر نفسه : ٤٦١

(3) ينظر : توضيح نهج البلاغة : ٢٤٥/٤ .

(4) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٥٧/١٨ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٨٠/٥ .

(5) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٩٠ .

(من) ـ هنا ـ بمعنى الباء ، فيكون المعنى : لا يغرنَّك الناسُ بنفسك[1] ، ولا يخفى ما في هذا التأويل من بخسٍ للمعنى ؛ إذ تكون النفس وسيلة الناس في إغواء المخاطب ، وهو ـ وإن كان صحيحاً في نفسه ـ بخلاف ما يظهر من العبارة من ((أنّ المراد دفع الوهم ، بأنّ الإنسان في كلّ وقت يرى عدداً لا يحصون ، فيقول : كما لم يمت هؤلاء الجمع الكثير لا أموت أنا))[2] ، وهو خلاف ما تدلُّ عليه (مِن) من كون مدخولها مغرَّرٌ به ، لأنَّه ((اسند الغرور الى سواد النّاس لكونه مادّته ؛ لأنّ كثيراً ما يرى الإنسان الميّت محمولاً ، فيتداركه من ذلك روعة ورقّة ، ثمّ يأمره الوسواس الخنّاس باعتبار كثرة المشيّعين له من النّاس أن يجعل نفسه من الأحياء الكثيرين))[3] ، وهذا ـ بلا شك ـ هو أحد دواعي الغفلة عن الموت ، بل هو أعمُّها وأوسعها انتشاراً ، فكثرة الناس الأحياء يمثَّل أبرز دواعي الغفلة لا يتفاوت فيه الناس كالدواعي الأخرى التي تقتصر على طبقة من الناس كالغنى والصحة والقوة وغيرها ؛ ولذا فهو بداية الغرور ، ممَّا يترتب عليه عدم الاشتغال بإصلاحها ، وهذا المعنى لا يُتحصَّل بغير (مِن) ؛ فهي تومئ الى الثغرة الأولى التي تلج منها النفس الأمارة فتسول للإنسان دوام العيش ورغد الحياة .

إيثار (مِن) على حرف المجاوزة (عن) :

حاول الدكتور أحمد مختار عمر أن يجد المسوِّغ لأداء (من) معنى (عن) فقال : ((واشتراك الحرفين في بعض المعاني كالتعليل والمجاوزة وهما من المعاني الأساسية للحرف (عن) يسوِّغ قبول النيابة))[4] ، أمَّا ابن مالك فقد سوَّغ ذلك بمصاحبتها لأفعل التفضيل ، فلو قيل : زيد أفضل من عمرو، فكأنَّه يعني : جاوز زيد عمراً في الفضل .

---

(1) ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٦٨/٨ .
(2) بهج الصباغة : ٢٠٨/١١ .
(3) الدرة النجفية : ١٧٣.
(4) معجم الصواب اللغوي : ١٠٠٤/٢ .

وجعل هذا القول أولى من قول سيبويه في دلالتها على الابتداء مستدلاً على هذه الأولوية بعدم جواز وقوع (الى) بعدها ، ثم أوَّل الامثلة التي جاء بها سيبويه للدلالة على أنَّ ابتداء الغاية قد يُقصد دون إرادة مُنْتَهى[1] . ولسنا بصدد الدفاع عن رأي سيبويه فقد كفانا النحويون مؤونة ذلك ، يقول ابن هشام : ((وقد يقال : ولو كانت للمجاوزة لصحَّ في موضعها (عن)))[2] ، ويقول المبرد : ((وقولك : زيد أَفضل من عمرو ، إنَّما جعلت غاية تفضيله عمراً ، فإذا عرفت فضل عمرو علمت أَنَّه فوقه))[3] ، ومعنى ذلك أنَّ فضلَ زيدٍ ابتدأ من عمرو ، فلزم منه أنَّه فوقه .

ومن الموارد التي كثرت التأويلات فيها قوله (عليه السلام) : ((**وَ لَكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً فَقُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ : عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا**))[4] وقد أوَّل ابن أبي الحديد (مِن) بـ (عن) ، فقال : ((و(من) ـ هاهنا ـ بمعنى (عن) ، وقد جاءت في كثير من كلامهم كذلك ... ويصير ترتيب الكلام وتقديره : فما صرفك عمَّا بدا منك ، أي : ظهر ، والمعنى : ما الذي صدَّك عن طاعتي بعد إظهارك لها ؟ وحذف الضمير المفعول المنصوب كثير جداً ، كقوله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا** ﴾[5] ، أي : أرسلناه ، ولا بُدَّ من تقديره كي لا يبقى الموصول بلا عائد))[6] ، وذهب ابن ميثم البحراني الى أنَّ (مِن) لبيان الجنس ، يقول : ((والحقّ أن يقال يقال : إنَّ عدا بمعنى جاوز و(من) لبيان الجنس والمراد : ما الّذى جاوز بك عن بيعتي ممَّا بدا لك بعدها من الأمور الّتي ظهرت لك ؟ وحينئذ تبقى الألفاظ على

---

[1] ينظر : شرح تسهيل الفوائد : ٣/١٣٤ ـ ١٣٥ .
[2] مغني اللبيب : ١/ ٤٢٣ .
[3] المقتضب : ١/٤٤.
[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٧٤ . وعريكة : يقال : فلان لين العريكة ، إذا لم يكن ذا إباء ، وكان سلسا . ينظر : مقايس اللغة . (عرك) : ٤/٢٩١ .
[5] سورة الزخرف ، الآية : ٤٥.
[6] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢/١٦٣ .

أوضاعها الأصليّة مع استقامة المعنى وحسنه))[١] ، وخالفهم الشيرازي فذهب الى أنَّ (مِن) ابتدائية ، يقول : ((يقال : عداه الأمر ، بمعنى : صرفه ، وبدا ، بمعنى : ظهر، (من) للاستبداء ، أي : ما الذى صرفك مما ظهر منك ـ فى الحجاز ـ من بيعتي ؟))[٢].

ويظهر أنَّ تفسير (مِن) بمعنى (عن) سيغير المعنى ولا يحدِّد ما يسأل عنه الامام (عليه السلام) بدقَّة ؛ لاختلاف دلالة الحرفين ، فقولنا : أخذت المال منك . يختلف عن قولنا : أخذت المال عنك ؛ لأنَّ (مِن) تدلُّ على أنَّ أخذ المال قد بدأ منك ، فالأخذ مباشر لك ، أي : بغير وساطة ، وأمَّا (عن) فتدل على أنَّ أخذ المال جاوزك الى غيرك فأُخِذ منه ، فالأخذ غير مباشر لك ، أي : بالوساطة ؛ لأنَّ ((المجاوزة ـ كما قالوا ـ ابتعاد شيء مذكور، أو غير مذكور، عمَّا بعد حرف الجر))[٣] ؛ ولذا فسيكون المعنى على النيابة : أيُّ شيء صرفك عن طاعتي ؟ فالسؤال عن سبب الانصراف الذي لا يتعلق بأمر الطاعة ، أي : السؤال عن الأمر الخارجي الذي دفع الزبير الى التخلِّي عن الطاعة . وعلى غير النيابة يكون المعنى : أيُّ شيء صرفك من طاعتي ؟ فهو(عليه السلام) يسأله عن السبب المباشر والخلل المتعلِّق بالطاعة نفسها وابتدأ انصراف الزبير بسببه ، أي : السؤال عن الخلل الذي وجده الزبير في طاعة أمير المؤمنين (عليه السلام) فانصرف بسببه عنها . وبعبارة أوضح : أي شيء صرفك من التزامك بطاعتي ممَّا لا يُعجبك و لا تستطيع قبوله ؟! أهو تسويتك بغيرك في العطاء أم رفض طلبك في تولي الكوفة أم غيرهما[٤] ؟ ولذا لم يسأله (عليه السلام) عن السبب

---

[١] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم :٦١/٢ ، وينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٢٠٩/١ ، والدرة النجفية :٩٣ .

[٢] توضيح نهج البلاغة : ١٦٨/١ .

[٣] النحو الوافي : ٤٦٣/٢.

[٤] ذكر ابن أبي الحديد في هذا المجال ما نصه : ((وأراد طلحة أن يوليه البصرة ، وأراد الزبير أن يوليه الكوفة ، فلما شاهدا صلابته في الدين و قوته في العزم وهجره الادهان والمراقبة ورفضه المدالسة و المواربة وسلوكه في جميع مسالكه منهج الكتاب و السنة، وقد كانا يعلمان ذلك قديما من طبعه وسجيته إلا أنه ليس الخبر كالعيان... حالا عنه وتنكرا =

الخارجي ؛ لأنّه يعلم أنَّ المطالبة بدم عثمان ليست هي السبب الحقيقي ـ كما ادَّعى الزبير وأمثاله ـ فهم مَن حرَّض على قتله ، ولذا فالإمام (عليه السلام) يسأل الزبير عن السبب الحقيقي . وقد ألمح السيد عباس الى هذا المعنى بقوله : ((عرفتني بالحجاز أيام السقيفة عند ما وقفت إلى جانبي وطالبت بحقي وأبيت أن تبايع أبا بكر ثمَّ عندما جعلها عمر شورى كنت معي وقد بايعتني ... وجهلتني ولم تعرفني في العراق حيث قدت الجيوش لحربي وقتالي... ثم قال له (ما عدا ممَّا بدا) ما الذي ظهر لك من أموري حتى تنكرت لما ابتدأت به من بيعتي ومتابعتي؟))[1].

ويؤيِّد هذا الأمر ما يشير إليه (عليه السلام) في أكثر من موطن ، ومنها ما قاله (عليه السلام) في طلحة والزبير : ((**لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً وَ أَرْجَأْتُمَا كَثِيراً ، أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ ... وَ أَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْوَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي ...**))[2] ، فضلاً عن ذلك فاستعمال (مِن) ينسجم تماماً مع المعنى المراد ؛ فالذي يتبنَّى مذهباً لفترة زمنيَّة طويلة ويستميت في الدفاع عنه ، ثمَّ ينصرف عنه إلى الجهة المعادية ، فمن المنطقي أن يُسأل عن الخلل الذي وجده في ذلك المذهب حتَّى جعله يتخلَّى عنه .

ولم يشفِ أحدٌ من الشرَّاح الغليل في معنى (مِن) في قوله (عليه السلام) من رسالة له إلى معاوية : ((**فَاقْعَسْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ وَلَا تُمَكِّنِ**

= له و وقعا فيه وعاباه و غمصاه و تطلبا له العلل و التأويلات ... وانتقلا من ذلك إلى الوقيعة فيه بمساواة الناس في قسمة المال... واستنجدا عليه بالرؤساء من المسلمين كان عمر يفضلهم و ينفلهم في القسم على غيرهم– والناس أبناء الدنيا و يحبون المال حبا جما فتنكرت على أمير المؤمنين (عليه السلام) بتنكرهما قلوب كثيرة ونغلت عليه نيات كانت من قبل سليمة)) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١١/١١ .

[1] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١/٢٥٠ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٢١ .

الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِك))[1] ، ويُفهم من كلام ابن ميثم البحراني أنَّ (مِن) بيانية ، وأمَّا مجيؤها مع الفعل (أغفل) فعلى تضمينه معنى الفعل (ترك) ، يقول : ((أي : إن لم تفعل ما آمرك به أُعلمك ما تركت من نفسك . ومفعول تركت ضمير (ما) . وقوله : من نفسك . بيان لذلك الضمير وتفسير له وإغفاله لنفسه تركه إعدادها بما يخلصه من أهوال الحرب وعذاب الآخرة ، وهو ملازمة طاعة اللّه واقتناء الفضائل النفسانيّة ... ويمكن أن يكون (من نفسك) متعلّق (أغفلت)))[2].

ويبدو أنَّ الفعل (غفل) يتعدَّى غالباً بـ (عن) لوجود المناسبة المعنوية بينهما فدلالة (عن) على المجاوزة تنسجم مع دلالة الفعل (غفل) على ابتعاد الشيء المغفول عنه ومجاوزته محلَّ التذكر وغيبته عن بال الانسان[3] ، ولا أدري كيف استنتج الدكتور أحمد مختار عمر أنَّ استعمال (مِن) مع الفعل (غفل) من قبيل الاستعمال المرفوض بعد وروده في أكثر من آية كريمة ؟ وقد استشهد هو بواحدة منها ، يقول : ((ذكرت المعاجم القديمة والحديثة تعدية الفعل (غفل) ومشتقاته بـ (عن) دون (من). ولكن يصحِّح الاستعمال المرفوض الاستخدام القرآني الذي راوح في آياته بين (من) و (عن) فقال في آية : ﴿ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [4] ، وفي آية أخرى: ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[5]))[6].

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :٣٦٩ ، جاء في (الهامش) من منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ، للراوندي : ٢٤/٣ ، (عن) بدل (من) . واقعس : تأخَّرْ . ينظر : لسان العرب . (قعس) : ١٧٧/٦ .

[2] شرح نهج البلاغة (ابن ميثم) : ٣٧٤/٤ .

[3] المصباح المنير . (غفل) : ٤٤٩/٢ ، يقول الفيومي : ((وقد استُعمِلَ فيمَنْ تركهُ إهمالاً وإعراضاً كما في قوله تعالى : {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ١])) .

[4] سورة القصص ، الآية : ١٥ .

[5] سورة الروم ، الآية : ٧ .

[6] معجم الصواب اللغوي : ٥٦٣/١ .

وأمَّا الإغفال فهو ترك الشيء إهمالاً من غير نسيان له ، جاء في مقاييس اللغة : (((غَفَلَ) الغَينُ والفاء واللَّام أَصل صحيح يَدلُّ على ترك الشَّيء سهواً ، ورُبَّما كان عن عمد . من ذلك : غَفَلتُ عن الشَّيء غفلة وغُفُولاً ، وذلك إذا تركته ساهياً . وأَغفلته ، إذا تركته على ذكر منك له))[1] ، ولا يخفى ما في دلالة الإغفال من تكلُّفٍ وتعمُّدٍ في إخفاء الشيء وجعله مغفولاً عنه ، وهذا نابعٌ من دلالة الهمزة ، يقول سيبويه : ((تقول: غفلت ؛ أي صرت غافلاً ، وأغفلت إذا أخبرت أنَّك تركت شيئاً ووصلت غفلتك إليه . وإن شئت قلت : غفل عنه فاجتزأت بـ (عنه) عن أغفلته ؛ لأنَّك إذا قلت عنه فقد أخبرت بالذي وصلت غفلتك إليه))[2] ، فالمغفول عنه يكون مجروراً بـ (عن) إذا تعلق بالفعل (غفل) ويكون مفعولاً إذا تعلق بالفعل (أغفل) .

ولو قيل : هذا يتعارض مع دلالة همزة التعدية التي تعني ((حمل الشيء على أصل الفعل ، فمعنى أعلمتك زيداً منطلقاً : حملتك على أن تعلم زيداً منطلقاً))[3] فيكون معنى (أغفلته) : جعلته غافلاً ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف : ٢٨] أي : ((جعلناه غافلاً ؛ لبطلان استعدادِه للذكر بالمرة))[4] ، نقول : إنَّ أصل الجملتين متشابه من حيث التركيب ، إلَّا أنَّه اختلف بعد بعد دخول همزة التعدية ، فلوقلنا : غفل زيدٌ عن خالدٍ ، فعند إدخال همزة التعدية سيصل الفعل الى المفعول بنفسه ، ولكن يمكن أن يكون هذا المفعول هو الاسم المجرور ، فتكون الجملة : أغفل زيدٌ خالداً ، أي : جعل زيدٌ خالداً مغفولاً عنه . ويمكن أن يكون المفعول هو الاسم الذي كان فاعلاً بالأصل ، فتكون الجملة : أغفل

---

(1) مقاييس اللغة . (غفل) : ٣٨٦/٤ .

(2) الكتاب : ٦١/٤ ، وينظر : كتاب الأفعال ، لعلي بن جعفر ، المعروف بابن القَطَّاع : ٤١٦/٢ .

(3) شرح الرضي على الكافية : ١٤١/٤.

(4) إرشاد العقل السليم : ٢١٩/٥ .

بكرٌ زيداً عن خالد ، أي : جعل بكرٌ زيداً غافلاً عن خالدٍ . وعلى هذا فهمزة التعدية تارة تجعل المجرور مفعولاً ، وأخرى تجعل الفاعل مفعولاً .

وقبل أن نُبيِّن دلالة (مِن) ينبغي أن نُبيِّن معنى (ما) الواردة في القول : ((**فَاقْعَسْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِك**)) ، وهي فيما يبدو تدلُّ على (العقاب) ؛ لأنَّ السياق يضجُّ بالتهديد والوعيد ، ويُلوِّحُ بالحساب الذي يلزم منه العقاب ، فضلاً عن ذلك فإنَّ (ما) تقع في حيز الجزاء من الجملة الشرطية (إلَّا تفعل ...) وهو ما يرفع من حدَّة التهديد.

ومن البيان السابق يظهر أنَّ قول الإمام (عليه السلام) لا يخرج عن أحد التأويلين الآتيين [1] :

التأويل الأوَّل : أن يكون المفعول به هو الاسم المجرور بـ (عن) ، فيكون الأصل : غفلتَ عن العقاب من نفسك ، ثم صارت الجملة : أغفلتَ العقاب من نفسك . أي : جعلت العقاب مغفولاً عنه من نفسك . وعلى هذا التأويل يكون التقدير : أعلمك العقاب الذي أغفلته من نفسك .

ويبدو أنَّ رأي ابن ميثم البحراني ينسجم مع هذا الاحتمال ، إلَّا أنَّه فسَّر (ما) بملازمة الطاعة .

التأويل الثاني : أن يكون المفعول به هو الفاعل في الأصل ، فيكون الأصل : غفل الناسُ من نفسك ، ثم صارت الجملة : أغفلتَ الناسَ من نفسك . أي : جعلت الناس

---

[1] هناك تأويل ثالث يجري على ما جاء في الرواية التي وردت في نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة ، لمحمد باقر المحمودي : ٤/١٧٤ ، وهي قوله (عليه السلام) : ((وإلا تفعل أعلمك ما أغفلك من نفسك)) وهنا يحتمل أن يكون المفعول به هو الفاعل في الأصل ، وشبه الجملة متعلقة بالفعل ، فيكون الأصل : غفلتَ من نفسك ، ثم صارت الجملة : شيءٌ أغفلك من نفسك .

غافلين من نفسك . وشبه الجملة متعلقة بالفعل . وقدرنا (ما) هنا بالناس ؛ لأنَّهم يمكن أن يُستَغفَلوا واستعملت (ما) معهم لتنزيلهم منزلة غير العاقل .

ودلالة (مِن) على الابتداء تختلف في كلِّ تقدير بسبب اختلاف متعلقها ، فشبه الجملة (مِن نفسك) ـ في التأويل الأوَّل ـ يُمكن أن تتعلَّق بالمفعول به (العقاب) فتكون في محلِّ نصبٍ (حال) ؛ لأنَّ شبه الجملة واقعة بعد اسم معرفة ، فيكون المعنى : أعلمك العقاب الذي أغفلته حال كونه من نفسك . وهذا الاحتمال بعيد عن المراد .

ويمكن أن تتعلق شبه الجملة (مِن نفسك) بالفعل (أغفلتَ) ، فيكون المعنى : أعلمتك العقاب الذي بدأت من نفسك غفلتك عنه . فغفلة معاوية عن العقاب ناشئة من طينته الخبيثة ونفسه المنغمسة في الرذائل والموبقات ، ولا ريب في ذلك فهو ابن آكلة الأكباد .

وعلى التأويل الثاني فإنَّ شبه الجملة تتعلق بالفعل (أغفلت) ، ولا يمكن أن تتعلق بالمفعول به (الناس) ؛ لعدم وجود العلقة المعنوية واللفظيَّة بينهما . وهنا نجد عدولاً من الحرف (عن) الى الحرف (مِن) ، وهو ما يدعونا الى البحث عن السرِّ في ذلك . ويبدو أنَّ استعمال (عن) يسبب إيهاماً في المعنى ؛ لأنَّها توهم أنَّ هذه الغفلة طارئة ، بمعنى أنَّهم كانوا منتبهين لحقيقتك ثمَّ غفلوا عنها ، بخلاف (من) التي تشير الى كون غفلتهم مستحكمة ابتدأت منذ مبايعتهم إياك ولمَّا تنتهِ بعد .

إيثار (مِن) على حرف الظرفيَّة (في) :

اختلف النحويون في مجيء (مِن) لابتداء الغاية في الزمان ؛ فذهب البصريون إلى أنَّه لا يجوز استعمالها في الزمان ، وذهب الكوفيون إلى جواز ذلك[١]. ولاريب أنَّ مجيء ظرف الزمان بعد حرف الجر (مِن) سوف يُلِحُّ على معنى الظرفية ويغري به ؛

---

[١] الإنصاف في مسائل الخلاف (مسألة ٥٤) : ٣٠٦/١ .

ولهذا ذهب جملة من النحويين إلى إثبات معنى (في) للحرف (مِن) ، جاء في شرح الرضي على الكافية : ((وأجاز الكوفيون استعمالها في الزمان أيضاً ، استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة : ١٠٨] ، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ [الجمعة : ٩] ... وأنا لا أرى في الآيتين معنى الابتداء... فمن في الآيتين بمعنى (في) ، وذلك لأنَّ (من) في الظروف كثيراً ما تقع بمعنى (في) نحو: جئت من قبل زيد... وإقامة بعض حروف الجر مقام بعض غير عزيزة))[1] ، ولم يرتضِ البصريون بهذا القول فتأوّلوا الآية الأولى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والتقدير : من تأسيسِ أوّل يوم ، وهذا التأويل فيه دلالةٌ على استعمالها في غير الزمان ؛ لأنَّ التأسيس مصدرٌ ، وليس بزمانٍ[2] ، وبناء على هذا التأويل استنتج المالقي قاعدة تُبيِّن دخولها على الزمان ، يقول : ((ولا تدخل على الزمان إلَّا على تقدير المصدر))[3] ، وذهب الدكتور الخضري الى أنَّ (مِن) فيها ((هي من الابتدائية ، ولها دلالاتها في أنَّ هذا المسجد كان منذ اللبنة الأولى التي وضعت لتأسيسه مصحوباً بالتقوى مبالغة في صدق النوايا وإخلاص العمل لوجه الله إبَّان التفكير فيه ، ومن بداية العمل في بنائه))[4] ، أمَّا آية الجمعة فيرى أنَّ (مِن) فيها للتبعيض ، فيكون التقدير : ((إذا سمعوا النداء لصلاة الجمعة من بعض هذا اليوم لبَّوا نداء الله تعالى))[5] ، ومن الواضح أنَّ هذا التقدير فيه أكثر من مسامحة ، فلا يُعلَمُ من أين استنتج الدكتور الخضري أنَّ (الصلاة) المُنادَى لها هي صلاة الجمعة ؟ لأنّها لم تُشرَّع بعد حتَّى يُقال : إنَّ (الـ) للعهد ، وعلى هذا فما الفرق بينها وبين (في) لو قدرناها (إذا سمعوا النداء

---

[1] شرح الرضي على الكافية : ٢٦٤/٤ ، وينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، لجلال الدين السيوطي : ٥٣١/٢ .
[2] ينظر : شرح المفصل : ٤٦٠/٤.
[3] رصف المباني : ٣٢٢ .
[4] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٣٦٦ .
[5] المصدر نفسه : ٣٦٥ .

لصلاة الجمعة في هذا اليوم ...) ؟ فضلاً عن ذلك فما الداعي للجمع بين (مِن) وكلمة (بعض) في قوله ؟

ويرى الباحث أنَّ القول الفصل في حسم دلالة (مِن) ـ هنا ـ متفرِّعٌ من معرفة متعلقها ، فإن قيل : هي متعلقة بالفعل (نودي) ، فسيكون التقدير : إنْ تحقق وقت نودي من يوم الجمعة للصلاة فيه فيجب السعي ، ويبدو أنَّ هذا التعليق ـ كما استظهر ذلك محيي الدين الدرويش[1] ـ هو منشأ القول بأنَّ (مِن) بمعنى (في) . وإن قيل : تتعلَّق بمحذوف مضاف للصلاة ؛ لأنَّ الصلاة ليست من اليوم بل وقتها منه[2]، فسيكون التقدير : إنْ تحقَّق وقت نُودي فيه لوقت الصلاة من يوم الجمعة فيجب السعي . وإن قيل : ((هي بيان لإذا وتفسير له))[3] ، فسيكون التقدير : إنْ تحقَّق وقت من يوم الجمعة نُودي فيه للصلاة فيجب السعي . ويظهر أنَّ أحد هذين القولين هو منشأ القول بدلالة (مِن) على التبعيض . وإن قيل : هي متعلقة بمحذوف يقع حالاً من الصلاة[4] ، فسيكون التقدير : إنْ تحقَّق وقت نُودي للصلاة كائنةً من يوم الجمعة فيجب السعي .

ولا أجدُ بُدًّا من اختيار هذا الوجه الأخير ؛ لِما له من دلالة جديدة يمكن استفادتها من الحرف (مِن) ؛ إذ يدلُّ على تشخيص هذه الصلاة ، وتشخيص بداية وقتها في آنٍ

---

[1] ينظر : اعراب القرآن وبيانه : ٩٣/١٠ .

[2] ينظر : مفاتيح الغيب : ٥٤٢/٣٠ .

[3] الكشاف : ٥٣٢/٤ ، وينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي : ٣٣٠/١٠ . وقد أورد عليه الآلوسي ما نصه : ((أورد عليه أن شرط مِنْ البيانية أن يصح حمل ما بعدها على المبين قبلها وهو منتف هنا لأن الكل لا يحمل على الجزء واليوم لا يصح أن يراد به هنا مطلق الوقت لأن يوم الجمعة علم لليوم المعروف لا يطلق على غيره في العرف ولا قرينة عليه هنا)) روح المعاني : ٢٩٤/١٤ .وما ذكره الآلوسي هو الغالب فيها ؛ لأنَّ ((ما قبلها في الغالب جنس عام يشمل ما بعدها ، فما قبلها أكثر وأكبر ... وقد يكون العكس، نحو: هذا السوار من ذهب ، وهذا الباب من خشب)) النحو الوافي : ٤٥٩/٢ .

[4] ينظر : المجتبى من مشكل إعراب القرآن : ١٣٢٠/٤ ، والجدول في إعراب القرآن الكريم ، لمحمود بن عبد الرحيم الصافي : ٢٤٩/٢٨، و اعراب القرآن وبيانه : ٩٣/١٠ .

واحد ، وهو ما لا يتوفر في الوجوه الأخرى مجتمعةً ؛ فدخول (مِن) على الظرف يدلُّ على أنَّ هذه الصلاة لا يجب السعي لها إلَّا إذا كانت بهذه الحال (كونها من الجمعة) ويتفرع من ذلك أنَّ وقتها يبدأ عند وقت النداء ؛ لأنَّ الحال ((يُبيِّنُ هيأة ما قبله ... وقت وقوع الفعل))[1].

وما ذكرناه لا يُلغي ما تشترك به هذه الصلاة مع غيرها كالأذان وغيره ؛ لأنَّه يُفهم من السياق ، ولكنَّها ـ تبعاً لدلالة مِن ـ اختلفت عنها بأحكام كثيرة ترتَّبت على تشريعها كوجوب السعي لها ، وترك البيع ، وغير ذلك ممَّا هو مسطور في كتب الفقه ، بخلاف الوجوه الأخرى التي لا تُبيِّن مزيَّة العدول من الحرف (في) الى الحرف (مِن) لاشتراك دلالاتها في نهاية المطاف ؛ فكلُّ تلك الوجوه ـ بما فيها تأويل (مِن) بـ (في) ـ تُشير الى نداء لصلاة ما في يوم الجمعة قد تكون هي الظهر أو العصر أو الجمعة .

ولتقريب هذه الفكرة نأتي بمثال للتفريق بين دلالة (مِن) و(في) ، نقول : أكلَ الناسُ الفاكهةَ في فصل الصيف . ولا شك أنَّ الجار والمجرور في هذه الجملة يتعلقان بالفعل (أكلَ) فتكون دلالة (الفاكهة) احتمالية ، بمعنى أنَّها يمكن أن تكون من فواكه فصل الصيف ، كما يمكن أن تكون من فواكه فصل الشتاء ولكنها أُكِلَت في فصل الصيف . ونقول : أكلَ الناسُ الفاكهةَ من فصل الصيف . والجار والمجرور ـ هنا ـ متعلقان بكلمة (الفاكهة) فتكون قطعية الدِّلالة ؛ لأنَّ المعنى أنَّهم أكلوا الفاكهة التي هي من فصل الصيف ، أي : أكلوها حال كونها من فصل الصيف ، وهو ما يلزم منه الدِّلالة على أنَّهم أكلوها في فصل الصيف ؛ لأنَّ الحال وصف ، يبين هيأة ما قبله وقت وقوع الفعل كما تقدَّم .

---

[1] النحو الوافي : ٢/٣٦٣ ـ ٣٦٤ .

ومن هنا يمكننا أن نلمح مقدار الحيِّز الدلالي الذي تشغله (مِن) ولا يفتأ يتردد في مواضع شتَّى من نهج البلاغة ، كقوله (عليه السلام) : ((**فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ**))[1] ، وقد بيَّن الخوئي دلالة (مِن) بقوله : ((والتّوبة من ورائكم ، كلمة (من) بمعنى (في) وهو واضح))[2] ، ويبدو أنَّ الاستعمال الكثير لكلمة (وراء) في ما يدلُّ على الزمان[3] سهَّل تفسير (مِن) بـ (في) ، يقول الرضي : (((من) الداخلة على الظروف غير المتصرِّفة : أكثرها بمعنى (في) ، نحو : جئت من قبلك ومن بعدك))[4] ، وعلى هذا التأويل يكون المعنى : والتوبة في زمن وراءكم . ولنا أن نسأل الخوئي عن الفرق بين وجود (مِن) بهذا التأويل ، وعدم وجودها ؛ إذ لا نجد حينئذٍ فرقاً بين (التوبة من وراءكم) ، و(التوبة وراءكم) ؛ فبهذا التأويل أُقصِيت دلالة الحرف من السياق .

ولو تأمَّلنا في مقام الخطبة وسياقها لظفرنا بما يُعيننا على تحديد دور الحرف (مِن) ، فهذه الخطبة هي أولُّ خطبة خطب بها (عليه السلام) بعدما بُويع بالخلافة ، وهذه الجمل فيها إشارة إلى الغوغاء التي حصلت بعد مقتل عثمان بن عفان ؛ ولذا أمرهم (عليه السلام) بالعودة إلى بيوتهم والاعتزال من إثارة الفتن والتفكير في سبيل الوحدة والألفة ، وكذلك أمر المنحرفين عنه الذين ارتكبوا شططاً في بعض المواقف في أيام الخلفاء الثلاثة ، أمرهم أن يتداركوا ذلك بالتوبة وأن لا يخافوا على أنفسهم من سطوته ونقمته ولهذا رفع لهم راية الأمن والامان[5] بقوله (عليه السلام) : ((وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ)) ، وأمَّا السياق فنجد فيه العدول من الانشاء الطلبي الى الاخبار ، فلم يَقُل (عليه السلام) :

---

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٨ ، جاء في البيان والتبيين ، للجاحظ : ٣٤/٢ : ((استتروا ببيوتكم وأصلحوا فيما بينكم، والتوبة من ورائكم)) .

(2) منهاج البراعة ، للخوئي :٢٣٣/٣ .

(3) ينظر : المصباح المنير . (وري) : ٦٥٦/٢ .

(4) شرح الرضي على الكافية : ٤٩٥/١ .

(5) ينظر : شرح نهج البلاغة ، للقزويني : ٢٢/٢ ، وشرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٦١/١ .

(فاستتروا ... وتوبوا) ؛ مبالغةً في الطلب وتنبيهاً على تيسير المطلوبِ وسرعة الامتثال[1] ، ووجود (مِن) يصبُّ في الاتجاه نفسه ، فلم يَقُل (عليه السلام) : التوبة وراءكم ؛ لأنَّها تحتمل اتصال زمنها بهم وتحتمل تباعده عنهم ، ولا يخفى ما فيه من تسويف للتوبة وفتح لباب اليأس وربّما القنوط وهو ما لا ينسجم وطريق الدعوة الى الله تعالى ، بخلاف (مِن وراءكم) فهي تنص على اتصال زمن التوبة بهم وقربها منهم ، فبداية حبل التوبة متصل بكلِّ واحد منهم ، ولا يخفى ما في هذا من تطميع للعصاة المتمردين بالرّجوع إلى اللّه تعالى ، وتطمين لهم بعدم فوت محل التوبة [2] .

ولا أحسب أن يجد المتطلِّعُ إلى معرفة أسرار التعبير بـ (مِن) ألذَّ من إدراك الفرق بين قوله (عليه السلام) : ((**لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ**))[3] ، وقوله (عليه السلام) : ((**إِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ**))[4] ، والغريب أنَّ ابن أبي الحديد لا يرى فرقاً بين القولين ويحاول أن يجعلهما بمنزلة واحدة ، يقول : ((فإن قلت : المسموع المعروف لسان العاقل من وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه كيف نقله إلى المؤمن والمنافق ؟ قلت : لأنَّه قلَّ أن يكون المنافق إلَّا أحمقَ وقلَّ أن يكون العاقل إلَّا مؤمناً فلأكثرية ذلك استُعمل لفظ المؤمن وأراد العاقل ولفظ المنافق وأراد الأحمق))[5] ، وقد ردَّ الشارح التستري ببيان الفرق بينهما ولكن بلحاظ الفرق بين الألفاظ ، يقول : ((وليس الأمر كما قال ... بل قلّ أن يكون المنافق أحمقَ كيف وأكثر المنافقين دهاة ؟ وإنَّما مراده (عليه السلام) أنَّ المؤمن لسانه من وراء قلبه لا

---

[1] ينظر : الطراز : ١٦٢/٣ ، والجملة العربية والمعنى : ١٨٩ .

[2] ينظر : توضيح نهج البلاغة : ١٠٧/١ ، و شرح نهج البلاغة ، لشارح من القرن الثامن : ٢١٢ .

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٧٦ .

[4] المصدر نفسه : ٢٥٣ .

[5] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٧/١٠ .

يتكلم لسانه إلّا بما شهد قلبه أنَّه ليس مُخلًّا بدينه ، والمنافق لا يراعي الدين إنَّما يراعي دنياه ، وأمَّا الأحمق فلا يراعي دنياه أيضاً)) [1].

والحقيقة أنَّ ما ذكره التستري في غاية الدِّقَّة والاحكام ، إلَّا أنَّه لم يذكر ما تكتمل به صورة الفرق بين العبارتين ؛ إذ لا نجد دلالة (العاقل) في هذه المعادلة ، ولا نلمس دور (مِن) فيها .

وللتعمُّق في تلمُّس ايحاءات الحرف (مِن) سنحاول أن نُحلل العبارتين ليتجلى أثرها الدلالي ، فلفظة (العاقل) تدلُّ على الذي يمتنع عن الوقوع في القبيح[2] ، وخلافه (الأحمق) الذي يصل جهله الى عدم المعرفة حتَّى بالأمور الجارية في العادة[3] ، وأمَّا (المؤمن) فهو المُعتقِدُ بقلبه والمُقِرُّ بلسانه[4] ، وبخلافه (المنافق) ؛ لأنَّه يُظهِر الإيمان بلسانه ويُضمِرُ الكفر بقلبه [5] ((وسمِّي بذلك تشبيها بما يفعله اليربوع ، وهو أن يجعل يجعل بجحره باباً ظاهراً وباباً باطناً يخرج منه إذا طلبه الطالب))[6] ، وبنظرة كليَّة للعبارتين نجد أنَّ المحور الرئيس فيهما هو بيان نوع العلاقة بين القلب واللسان[7] ، ومن هذه النقطة ترتسم الحدود الدلاليَّة للحرف (مِن) ؛ إذ أنَّ وجود (مِن) يشير الى قرب المسافة بين القلب واللسان وقوة تأثير أحدهما في الآخر بحيث لا يصدر إلَّا عنه ، فحيث ينتهي أحدهما يبدأ الآخر بلا فاصل ، ومَن له الأسبقية هو الذي يملك زمام الأمور ، فقلب المؤمن يُهيمن على لسانه ويسخِّره له ، فهو لا ينبس إلَّا بما يُقِرُّه القلب ، ولا ينطق إلَّا بعد التفكير في سلامة المنطوق الدِّينيَّة ومقدار نفعه والمصلحة التي

---

(1) بهج الصباغة : ١٢/٣٣١ .

(2) ينظر : الفروق اللغوية : ٥٤٧ .

(3) ينظر : المصدر نفسه : ٣٠٢ .

(4) ينظر : التعريفات : ٤٠ ، وموسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، لمحمد بن علي التهانوي : ١/٢٩٨.

(5) ينظر : التعريفات : ٢٤٥ ، والتعريفات الفقهية ، لمحمد عميم الإحسان المجددي : ٣٢٠ .

(6) الفروق اللغوية : ٥٤٧ .

(7) ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٢/٥٣٤ .

يحقِّقها ، وبهذا يكون اللسان مرآة القلب ؛ فيتوحَّد الظاهر والباطن ، وأمَّا قلب المنافق فهو مسخَّرٌ لصالح لسانه ، لا يُظهر إلَّا ما يوافق المتطلبات التي ينتفع بها دنيوياً ، وإن كانت على خلاف ما يتبنَّاه القلب ، فهو يظهر الإيمان لتحقيق مصالحه وإن كان قلبه مثقلاً بالكفر ، وبهذا يتباين القلب واللسان ؛ فيوارى زيفَ الباطن تحت زُخرُفِ الظاهر .

أمَّا عدم وجود (مِن) فيعني وجود الفراغ بين القلب واللسان وهو ما يمكن أن يملأه مَن له الأسبقية ، فالعاقل ليست لقلبه مراقبةُ قلبِ المؤمن التي تزن كلَّ ما يُقال ، بل يمكن أن يفلت من لسان العاقل ما لا يتوافق مع دينه وإن كان موافقاً لدنياه ، مع إمكانية تداركه وتلافي ضرره . وبخلافه الأحمق فلسانه لا يدع مجالاً لقلبه فلا يفكر فيما يقول حتَّى على مستوى المصلحة الدنيوية ، وإن حصل مثل ذلك وبدرت في قلبه بادرة الخير فسوف يظهرها لسانه بشكل مقلوب لذلك قيل في المثل : ((رُبَّمَا أَرَادَ الأَحْمَقُ نَفْعَكَ فَضَرَّكَ))[1] ، وبهذا يتضح أنَّ ((الإضرار في موضع النَّفع ، والنَّفع في موضع الإضرار من أظهر علائم الحمق))[2] .

إيثار (مِن) على حرف الاستعلاء (على) :

ذهب الأخفش (ت ٢١٥هـ) والزجَّاج وابن قتيبة وغيرهم الى أنَّ (مِن) قد تكون بمعنى (على) مستشهدين لذلك بآية كريمة ، يقول الزجَّاج : ((وقد تُوضَع مَوضِع (على) ، كقوله تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [الأنبياء : ٧٧] أَي : على القوم))[3] ، وقد تقدَّم شيء من مناقشة الآراء التي حاولت توجيه دلالة (مِن) في الآية

---

[1] مجمع الامثال ، لأحمد بن محمد الميداني : ٣٠٨/١ .

[2] الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة : ٥٦٣ .

[3] حروف المعاني والصفات : ٥٠ ، وينظر : معاني القرآن ، للأخفش : ٥١/١ ، و تأويل مشكل القرآن : ٣٠٢ ، وفتح وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ، لزكريا بن محمد السنيكي : ٢٣٥ .

، ونزيد هنا رأياً مختلفاً عمَّا سبقه ، ذكره السيوطي في معترك الاقران ، يقول : ((إنَّما تعدَّى نصرناه بـ (مِن) ؛ لأنَّه مطاوع انتصر المتعدي بمن))[1] ، ولعلَّ مراده أنَّ انتصر هو مطاوع نصر لا العكس ؛ لأنَّه يقال : نصرته فانتصر ، ومع أنَّ المطاوعة قليلة في باب (افتعل) ، كما ذكر ابن عصفور (ت٦٦٩ هـ)[2] ، فلو سلَّمنا بهذه المقولة فإنَّنا لا نُسلِّم بأنَّ الفعل (انتصر) يتعدى بـ (مِن) ، ويبدو أنَّ الذي أغرى السيوطي بهذا القول ما وجده في قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ** ﴾ [محمد :٤] إلَّا أنَّ ذلك ليس صائباً ــ وفقاً لموازين النيابة أو التضمين ـ لأنَّ المفسرين التمسوا ما يصحِّح تعدي الفعل (انتصر) في الآية الكريمة ، فذهبوا الى تضمين الفعل (انتصر) معنى الفعل (انتقم) ، يقول ابن عاشور : ((وتَعدِيةُ (انتَصَرَ) بحرف (مِنْ) مع أَنَّ حَقَّه أَن يُعدَّى بحرف (على) لتضمينه معنى : انتقم)) [3] .

وقد استحسن الدكتور الخضري الرأي القائل بالمطاوعة وقوَّاه بدلالة السياق ، يقول : ((وهو وجه لطيف له ما يدلُّ عليه ، ذلك أنَّ الآية التي قبل هذه الآية صرَّحت بتنجية الله تعالى لنوح وذلك هو نصره من عدوه ... فما فائدة قوله : ﴿ **وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ** ... ﴾ إلَّا أن يكون زيادة بيان بالدِّلالة على الانتقام منهم))[4] ، ولا أدري كيف تخلَّى الدكتور الخضري عن طريقته في استنباط معنى الحرف ولجأ إلى هذا التضمين في الوقت الذي عقد فيه فصلاً لدحض التضمين وبيان أضراره ؟!

وعند قراءة مشهد الطوفان بدقَّة وتفحُّص السياق والأخذ بنظر الاعتبار ما ذُكر فيه من وسيلة لتحقيق النصر وهي (الإغراق) وارتباطها بالفعل (نصرناه) بوساطة فاء

---

[1] معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٥٤٨/٢ .

[2] ينظر : المنصف (شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني) ، لابن جني : ٧٥ ، والممتع الكبير في التصريف ، لابن عصفور الاشبيلي : ١٣١ ، و شرح شافية ابن الحاجب : ١٠٨/١ .

[3] التحرير والتنوير : ٨٣/٢٦ ، وينظر : الكشاف : ٣١٨/٤ ، و روح المعاني : ١٩٩/١٣ .

[4] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٣٦٣ .

التعقيب (نصرناه ... فأغرقناهم ...) سنجد أنَّ (مِن) لم تتخلَّ عن دلالتها على الابتداء ، فهي تحدَّد موضع الومضة الأولى التي بدأ منها تحقيق النصر ، فالطوفان بدأ عند قوله جلت قدرته : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ... ﴾ [هود :٤٠] والتنور ـ كما رجَّح المفسرون ـ قد استُعمل بمعناه الحقيقي المعروف (تنور الخبز) ، ولا يبعد ذلك فقد ((وعد الله ـ تعالى ـ المؤمنين النجاة فلا بُدَّ أن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعيَّن))[١] ، فنَصْرُ الله تعالى لنوح (على نبينا وآله وعليه السلام) بدأ من بيوت أعدائه ومحلِّ سُكناهم ؛ إذ فار تنور كلِّ بيت منها بالماء[٢] ، وجاءهم العذاب من حيث لم يحتسبوا .

ويبدو أنّ مصاديق إيثار (من) على (على) نادرة الورود في نهج البلاغة ؛ إذ لم نظفر بذلك إلا في موردين احتُمل فيهما ذلك ، وهو قوله (عليه السلام) : ((**وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَانْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ**))[٣] ، وقوله (عليه السلام) : ((**وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ وَإِذَا غَابَ اغْتَابَه**))[٤] ، ولهذا لجأ المجلسي الى تضمين النصرة معنى الانتقام لتصحيح ورود (مِن) ، يقول : (((نصرة أحدكم) ، أي : انتقامه من أحدهم بإضافة المصدر إلى الفاعل))[٥] ، في حين أشار الشيرازي الى نيابة (مِن) عن (على) ، جاء في توضيح نهج البلاغة : (((إلَّا كانتصار العبد من ربّه) أي : سيّده فكما لا يتمكَّن العبد أن ينتصر من سيّده كذلك لا تتمكّنون من الانتصار عليهم))[٦] ، وجمع السيد عباس

---

[١] التفسير الوسيط : ٧/٢٠٥ .
[٢] الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل : ٦/٥٣٣ .
[٣] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٣٧ .
[٤] المصدر نفسه : ١٤٣.
[٥] شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار : ١/٣٣١ .
[٦] توضيح نهج البلاغة : ٢/٩٩ .

الموسوي بين التضمين والنيابة ، يقول : ((نفى أن يقدر أحد من الناس على الانتصار على أحدهم أو الانتقام منه)) [1].

وعلَّل أحد الباحثين مجيء (مِن) في هذين الموضعين بإبقائها دالة على الابتداء بسبب انتفاء معنى (على) ، وبعبارة أخرى : بما أنَّ النصر مع (على) يدلُّ على استعلاء المنتصر على خصمه ، فإذا استبدلت (على) بـ (من) فلا يكون المنتصر مستعلياً على خصمه ، وهو ما يلزم منه الضعف وعدم التكافؤ ، يقول : ((ويمكن أنْ يُبقي البحث (من) على معناها ... ومن ثمَّ عُدِّي الانتصار بـ (من) ؛ لأنَّ تعديته بـ (على) يعني استعلاء الطرف المظلوم على الظالم ، وتكافؤه معه عدَّة وعدداً ، ولم يكن الأمر كذلك ، ونحن نقول : (مَنْ ينصُرُنا على العدو) إذا كنَّا كفؤاً له ، ونقول : (مَنْ ينصرنا مِنْه) إنْ لم نتكافأ معه)) [2].

ونحن نؤيِّد ما ذهب إليه الباحث من أنَّ عدم وجود (على) يقتضي انتفاء معنى الاستعلاء وهو واضح وجلي ، إلَّا أنَّنا لا نستشعر دلالة (مِن) على الابتداء في كلامه ، كما أنَّ استدلاله على معنى الابتداء بانتفاء معنى الاستعلاء ليس في محلِّه ؛ لأنَّه لا ربط لانتفاء الاستعلاء بدلالة (مِن) على الابتداء .

والذي يبدو أنَّ دلالة (مِن) لا تخرج عن الإطار الذي قرَّرناه في الآية الكريمة ، فالنصر قد يبدأ من العدو نفسه ؛ إذ يضعف من الداخل ويتضعضع كيانه ، وهو ما يؤدِّي إلى انكساره ، بغض النظر عن الوسيلة التي أدَّت الى ذلك الضعف سواء كانت كونية كالخسف والطوفان ، أم غيرها ؟ ولإثبات هذا المدَّعى نحتاج إلى بيان مقام القولين وسياقهما ، فالقولان يخبران عن فتنة بني أمية ويصوران شدَّة بطشهم بالناس من جهة ، وحالة الضعف التي تعيشها الأمَّة من جهة أخرى ، وهو ما ينتفي معه تحقيق النصر بالمعنى المعروف ، أي : باستعلاء المظلوم على الظالم ، إلَّا أنَّ ذلك

---

[1] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢/١٥٣.

[2] ينظر : التقييد في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٢١٦ .

لا ينفي تحقُّق النصر بصورة مطلقة ، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) وأثبته التاريخ ، يقول (عليه السلام) : ((**إِنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِرْوَداً يَجْرُونَ فِيهِ وَلَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ كَادَتْهُمُ الضِّبَاعُ لَغَلَبَتْهُمْ**))[1] ، يقول ابن ابي الحديد معلقاً على هذا القول : ((هذا إخبار عن غيب صريح ؛ لأنَّ بني أمية لم يزل ملكهم منتظماً لمَّا لم يكن بينهم اختلاف ... فلمَّا ولي الوليد بن يزيد ، وخرج عليه ابن عمه يزيد بن الوليد وقتله ، اختلف بنو أمية فيما بينهما وجاء الوعد وصدق مَن وعد به ؛ فإنَّه منذ قتل الوليد دعت دعاة بني العباس بخراسان و ... وزال ملك بني أمية وكان زوال ملكهم على يد أبي مسلم وكان في بدايته أضعف خلق الله وأعظمهم فقراً ومسكنة وفي ذلك تصديق قوله (عليه السلام) : ثمَّ لو كادتهم الضباع لغلبتهم)) [2].

وأمَّا السياق فهو يوحي بهذا المعنى أيضاً ؛ لأنَّه شُبِّه انتصارهم ـ في القولين ـ بنصرة العبد من سيده[3] ، ثمَّ فسَّر ذلك بما يحصل في أضعف حالات السيد ، وهي غيبته التي هي ناشئة من إرادة ذلك السيد .

---

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٥٧ . ومرود : إمهال . ينظر : مقاييس اللغة . (رود) : ٤٥٢/٢ .

(2) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٨٢/٢٠ ، وينظر : بهج الصباغة : ١٢٠/٦ .

(3) معنى (ربّه) في قوله (عليه السلام) : ((كنصرة العبد من ربِّه)) هو سيده . ينظر: شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٢٦/٢ .



أسرار التعبير بأحرف الجرِّ الثلاثيَّة والرُّباعيَّة في نهج البلاغة

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأوَّل : أسرار التعبير بالحرف (إلى)

المبحث الثاني : أسرار التعبير بالحرف (على)

المبحث الثالث : أسرار التعبير بـ (رُبَّ) و (حتَّى)

الفصل الثالث

أسرار التعبير بأحرف الجر الثلاثيَّة والرُّباعيَّة في نهج البلاغة

المبحث الأوَّل

أسرار التعبير بالحرف (إلى)

هي حرفُ جرٍّ مبنيٌّ على السكون ، تجرُّ الظاهر والمضمر، و يجب قلب ألفها ياء إذا كان المجرور بها ضميراً ، فإن كان الضمير ياء المتكلم أدغمت الياءان [1]؛ كقوله (عليه السلام) : ((**فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ وَ اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَ ...**)) [2] .

ولم يتفق النحويون على عدد المعاني التي تدلُّ عليها[3] ، إلَّا أنَّهم لم يشكِّكوا في دلالتها بطريق الأصالة على معنى انتهاء الغاية المكانية أو الزمانية[4] ، ولم يذكر سيبويه غيره ، جاء في الكتاب : ((وأمَّا (إلى) فمنتهى لابتداء الغاية ، تقول : من كذا إلى كذا... يقول الرجل : إنَّما أنا إليك ، أي : إنَّما أنت غايتي ... فهذا أمر (إلى) وأصله وإن اتسعت))[5] ، وتابعه المبرد في ذلك ، يقول : ((وأمَّا (إلى) فإنَّما هي للمنتهى ألا ترى أنَّك تقول : ذهبت إلى زيد وسرت إلى عبد الله ووكلتك إلى الله))[6].

---

[1] ينظر : النحو الوافي : ٢/ ٤٦٨ ـ ٤٧١ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٩٣ .

[3] ينظر : حروف المعاني : ٦٥ ـ ٦٦ ، والمقدمة الجزولية في النحو ، لعيسى بن عبد العزيز الجزولي : ١٢٥ ، وحاشية الاجرومية ، لعبد الرحمن بن محمد النجدي : ١٥ .

[4] ينظر : اللمع في العربية : ٧٣ ، وأوضح المسالك : ٤٤/٣ ، وظاهرة التقارض في النحو العربي ، لأحمد محمد عبد الله ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، الجامعة الاسلامية ،كلية اللغة العربية ، العدد ٥٨ : ٢٦٨ .

[5] الكتاب : ٢٣١/٤ .

[6] المقتضب : ١٣٩/٤ ، وينظر : علل النحو : ٢٠٩ .

وقد ترتَّب على أصالتها في هذا المعنى أنَّها تدلُّ على الغاية بشكل مطلق ، فهي تعمُّ الزمان والمكان ، فضلاً عن أنَّها تجرُّ الآخر وغيره ، يقول ابن مالك : ((أردت بقولي للانتهاء مطلقاً شيئين : أحدهما : عموم الزمان والمكان ، كقولك : سرت إلى آخر النهار ، وإلى آخر المسافة. والثاني : أنَّ منتهى العمل بها قد يكون آخراً وغير آخر، نحو : سرت إلى نصف النهار ، وإلى نصف المسافة))[1] ، وهي لا تقتصر على أوَّل الحدِّ في مدخولها ، بل يمكن أن تدلَّ على التوغُّل فيما بعدها من غير أن تتجاوزه ، يقول ابن السرَّاج : ((وجائز أن تقول : سرت إلى الكوفة وقد دخلت الكوفة ، وجائز أن تكون بلغتها ولم تدخلها ؛ لأنَّ (إلى) نهاية فهي تقع على أوَّل الحدِّ ، وجائز أن تتوغَّل في المكان ولكن تمتنع من مجاوزته ؛ لأنَّ النهاية غاية))[2] ، وكلُّ ذلك يعتمد على قرائن الكلام ، فذهب بعضهم إلى أنَّ مدخولها ((إن كان من جنس الأول دخل ، وإلَّا فلا . وهذا الخلاف عند عدم القرينة ، والصحيح أنَّه لا يدخل ، وهو قول أكثر المحقِّقين ، لأنَّ الأكثر مع القرينة ألَّا يدخل ، فيحمل عند عدمها على الأكثر، وأيضاً فإنَّ الشيء لا ينتهي ما بقي منه شيء ، إلا أن يتجوَّز فيجعل القريب الانتهاء انتهاء. ولا يحمل على المجاز ما أمكنت الحقيقة ؛ فهو إذاً غير داخل)) [3] .

ويبدو أنَّ هذا الاتساع في دلالتها هيَّأ الأرضية المناسبة للتقارُب الدلالي بينها وبين حروف أخرى ، فإذا أضيف إلى ذلك ما يتركه السياق من ظلال وإيحاءات ، فسوف يتحقَّق الجو المثالي للقول بالنيابة أو التضمين . وقبل أن نخوض في استجلاء بعض الأسرار المغيَّبة بسبب تلكم التأويلات التي لم تعطِ حرف الغاية حقَّه الكامل في الدلالة نقف عند بعض الخصائص الدلالية التي تترشَّح من حرف الغاية في واحد من روائع التعبير في نهج البلاغة ، يقول (عليه السلام) عندما استبطأ أصحابُه إذنَه لهم في القتال

---

[1] شرح تسهيل الفوائد : ٣/١٤٤.

[2] الاصول في النحو : ١/٤١٢.

[3] الجنى الداني : ٣٨٥ ، وينظر : مغني اللبيب : ١/٢٧ ، ومصابيح المغاني في حروف المعاني : ١٠٢ .

بصفين : ((أَمَّا قَوْلُكُمْ أَ كُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ فَوَ اللَّهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ)) [١] وإيثار حرف الغاية في هذا الموضع على الحروف الأخرى يشي بمعنًى دقيق ؛ لأنَّه يوسِّع دائرة نفي الخوف ، ويدفع بها إلى أقصى حدودها ، ولا سيَّما في ظلِّ هذا السياق الذي يصبُّ في المعنى نفسه .

فالجملة تبدأ بالقسم ، مع أنَّه (عليه السلام) البارُّ الصادق ، ولكنَّ هذا القسم يؤكِّد أنَّه (عليه السلام) ((لا يهمه الموت ولا يحسب له حساباً سواء قصده الموت أم هو قصد الموت ؛ فإنَّ الموت لا يُخيف المتقين الصادقين ، فكيف يُخيف الأولياء المقرَّبين ؟!)) [٢] ، ثمَّ تشخيص الموت ، وذلك عن طريق ((نسبة الدخول على الموت والخروج إليه نسبة مجازيّة تستلزم ملاحظة تشبيهه بحيوان مخوف))[٣] ، فضلاً عن ذلك فالمقابلة بين الدخول والخروج توحي بـ ((الفرق بين الورود على الشيء ، وورود الشيء عليه ؛ فإنّ الاوّل يجامع العلم بخلاف الثّاني ، وتوضيح ذلك أنّ الانسان تارة يُقدِم على أمر خطير فيه مظنّة الموت أو العلم به وتارة لا يُقدم عليه بل يفرُّ عنه ومع ذلك يأتيه الموت بغتة)) [٤].

ولا ريب في أنَّ هذا السياق ـ من الجانب اللفظي ـ لا يمنع المجيء بأيِّ واحد من حروف الجر التي يمكن أن تتعلق بالفعل (دخل) ، كـ (في ، والباء ، وعلى ، وإلى) لاستعماله معها في الكلام الفصيح[٥] ، ولكنَّ الدلالة على التوسُّع تُرجِّح حرف الغاية على الأحرف الأخرى ؛ لأنَّه يضع الموت موضع الغاية ، وذلك يؤذن بأنَّه (عليه السلام) لايعبأ بالموت ، ولايعبأ بكلِّ ما ينتهي به إلى الموت كخوض الحروب ومنازلة

---

[١] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٩١ .
[٢] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٣٦٣/١ .
[٣] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ١٤٦/٢ .
[٤] مفتاح السعادة : ١٦٧/٧ .
[٥] ينظر : معجم اللغة العربية المعاصرة ، د. أحمد مختار . (دخل) : ٧٢٧/١ .

الشجعان ، وهذا يرجِّحه على استعمال حرف الظرفية أو الإلصاق اللذين يقتصر النفي معهما على دائرة الظرف الذي يقع فيه الموت ، عند أول مجيئه أو حين الخوض في غمراته ، ومن جهة أخرى فإنَّ حرف الغاية منفتح الدلالة على جميع النواحي التي يمكن أن يدخل إليه الموت منها ، وهذا يؤثره على حرف الاستعلاء ، فهو يوحي بالورود من جهة واحدة ، هي جهة العلو بخلاف (الى) التي تشمل جميع الجهات فهي أوسع من هذه الجهة ، فضلا عن أنَّ حرف الاستعلاء يوحي الضرر والإيذاء من قبل الداخل ، وهذا لا يمكن أن يتصور مع سيِّد الأوصياء (عليه السلام) ؛ ((اذ كان رئيس أولياء اللّه وقد علمت أنَّ محبة الموت أُنسٌ لهم ؛ لكونه وسيلة لهم الى لقاء محبوبهم الأعظم))[1] ، و لاريب في ذلك فهو القائل : ((**وَاللَّهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ**))[2].

ولا بُدَّ أن نشير ـ هنا ـ إلى ما يُلاحظ على كلمات النحويين ـ بخصوص حرف الغاية ـ في الموارد التي خالفت مقتضى الظاهر ، مع إمكانية تأويلها وفق مذهب النيابة أو التضمين ، ما يُلاحظ هو وصفهم لها بقلَّة الاستعمال أو الوقوف بالمورد على السماع أو أنَّه لا ينبغي القياس عليه ، وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أنَّ الخروج عن مقتضى الظاهر ـ في التعبير الفنِّي ـ يعود إلى التأثير المتبادَل بين الحرف وسياقه ، كما أنَّه يؤذن بوجود سرٍّ دلالي جُعِل اللفظ علامة على وجوده .

---

(1) اختيار مصباح السالكين : ١٠٠.

(2) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٢ ، وقد بيَّن الشرَّاح مجموعة من النكات تتعلق بهذا القول الشريف ، منها : ما ذكره القزويني في (شرح نهج البلاغة ، للقزويني : ٢١٩/١) يقول : ((لأن محبة الطفل و ميله إلى ثدي امه أمر طبيعي حيواني فهو في معرض الزوال، يعني إذا كبر الطفل و تجاوز سن الرضاع يزول ذلك الانس ، و لكن انس علي بالموت لا يزول مهما عاش ، و كيف يخاف علي عليه السلام و أولياء اللّه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون ، و علي سيد أولياء اللّه)) ، ومنها ما أشار إليه السيد عباس الموسوي في (شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٢٩/١) يقول : ((فكما أن الطفل لا يرى في الوجود إلا ثدي أمه و لا يحب شيئا غيره و إذا وصل إليه هش و بش و كان ذلك غاية أمنيته كذلك كانت حالة الإمام مع الموت بل أشد أنسا و هذا ما يفسر لنا قوله عند ما ضربه ابن ملجم «فزت و رب الكعبة» لأن بالموت تحصل السعادة و يدرك الأمنية الغالية التي ينتظرها)) .

إيثار حرف الغاية على حرف الإلصاق (الباء) :

أشار الأخفش إلى نيابة (إلى) عن (الباء) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذا خلوا إِلَى شياطينهم ﴾ [البقرة : ١٤] ، يقول : ((وأمَّا قوله : ﴿ وَإِذا خلوا إِلَى شياطينهم ﴾ ، فإنَّك تقول : خلوت إلى فلان في حاجة ، كما تقول : خلوت بفلان ، إلَّا أنَّ (خلوت بفلان) له معنيان : أحدهما هذا ، والآخر سخِرْتُ به))[١] ، وتأوَّلها بعض المفسرين على معنى المصاحبة [٢] .

ويبدو أنَّ الاستعمال الكثير للفعل (خلا) متعدِّياً بالباء هو الذي حمل الأخفش على تجويز هذه النيابة ، على الرغم من اعترافه بالفرق بين معنيي الحرفين ، وهذا ما ألمح إليه أبو حيان بقوله : ((ويتعدَّى خَلَا بالباء وبإِلى ، والباء أَكثَرُ استعمالاً ، وَعُدِلَ إلى (إلى) ؛ لأَنَّها إذا عُدِّيَت بالباء احتملت معنيين : أَحدهما : الانفِرَاد ، والثَّاني : السُّخرِيَة ، إذ يُقال في اللغة : خَلَوتُ به ، أَي : سَخِرتُ منه ، وإِلى لا يحتمل إِلَّا معنًى واحداً))[٣] ، ومن هنا رجَّح بعض المفسرين تضمين الفعل (خلا) لمعنى أفعال أخرى أكثر انسجاماً مع حرف الغاية ، جاء في التسهيل لعلوم التنزيل : ((وتعدِّي خلا بإلى ضمّن معنى مشوا وذهبوا أو ركنوا ، وقيل : إلى بمعنى مع ، أو بمعنى الباء))[٤] ، وضمَّن السيوطي (خلا) معنى الفعل (سخر) ، يقول : ((وأمَّا تقدير الكلام : فهو هكذا : (واذا

---

[١] معاني القرآن ، للأخفش : ٥١/١ ، وينظر : جوامع الجامع ، للفضل بن الحسن الطبرسي : ٧٠/١ .

[٢] ينظر : الهداية إلى بلوغ النهاية ، لمكي بن أبي طالب القيسي : ١٦٣/١ ، وبناء على ذلك استظهر الدكتور محمد الامين الخضري الفرق بين الحرفين ، يقول : ((إنَّ تعدي الفعل بالباء اكتسب من معنى المصاحبة فيها دلالته على الانفراد به ، وإلى خلعت من معناها عليه ما دلَّ على قصده والانتهاء إليه ، وكشفت في الآية عن دخائل نفوس المنافقين وغايتهم ... ولو جاء التعبير : خلوا بشياطينهم ، لما أفاد غير الانفراد بهم ، ولضاع غرض النظم من الكشف عن توجههم النفسي ، ووحدة الغاية التي تربطهم بحلفائهم)) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٢٨٤ .

[٣] البحر المحيط : ١١٣/١ .

[٤] التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جزي الكلبي الغرناطي : ٧٢ .

خلوا) أي : سخروا مُنهين إليهم))[1] ، أمَّا الزمخشري وابن عاشور فقد تأوّلاه على تضمين معنى الإنهاء ، يقول ابن عاشور : ((إنَّ تعديته بإلى في قوله تعالى : ﴿ إِلَى شياطينهم ﴾ لتضمُّنه معنى الإنهاء ، أي : وإذا أَنهَوْا إليهم السخرية)) [2] .

وما يمكن استنتاجه من العرض السابق هو أنَّهم مجمعون على أنَّ التعبير غير جارٍ على مقتضى الظاهر ، وهذا الأمر دفع بعض النحويين ، كالهروي وابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) ، إلى القول بنيابة (إلى) عن (الباء) ، جاء في الأزهية : ((وتكون مكان الباء ، قال كثير[3] :

وَلَقَدْ لَهَوْتُ إِلَى الكَوَاعِبِ كَالدُّمَى   بِيْضِ الوجُوهِ حَدِيْثُهُنَّ رَخِيْمُ

أراد : لهوت بكواعب)) [4] .

والحقيقة أنَّ بين التعبيرين فرقاً دقيقاً ؛ لأنَّ دلالة الباء على الإلصاق تلقي بظلالها على معنى الفعل (لها) ، فيستلزم الاقتراب الشديد منهنَّ ، ويشير إلى ما يترتب على ذلك من اللمس وغيره ، بخلاف (إلى) فهي تقف باللهو عند حدٍّ أدنى من ذلك الحدِّ ، مما لا يقتضي المقاربة الشديدة ، جاء في لسان العرب : ((يُقال : لهَوتُ بالشَّيءِ أَلهُو به لَهْواً وتلهَّيتُ به إذا لَعِبتَ به وتشاغلت وغفلتَ به عن غيره ... ولَهَتِ المرأَةُ إلى حديث المرأَة تَلهُو لُهُوًّا ولَهواً : أَنِسَت به وأَعجبها))[5] ، والقرائن الموجودة في البيت تشهد على هذا المعنى ، فهو يذكر جهة اللهو التي تتمثل ببياض وجوههن وحديثهن الرخيم .

---

[1] نواهد الأبكار وشوارد الأفكار ، لجلال الدين السيوطي : ٤٠٥/١ .
[2] ارشاد العقل السليم : ٤٦/١ ، وينظر : الكشاف : ٦٥/١ .
[3] البيت لكثير عزة كما جاء في الأزهية في علم الحروف : ٢٧٤ ، وأمالي ابن الشجري ، لضياء الدين ابن الشجري : ٦٠٩/٢ ، وليس في ديوانه .
[4] الأزهية في علم الحروف : ٢٧٤ ، وينظر : أمالي ابن الشجري : ٦٠٩/٢ .
[5] لسان العرب . (لها) : ٢٥٩/١٥.

ومن الموارد التي تضع الحدَّ الفاصل بين معنى الحرفين ، قوله (عليه السلام) في الدنيا : ((وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْه)) [1] وقد علَّق الشريف الرضي على هذه المفارقة في استعمال الحرفين بقوله : ((إذا تأمَّل المتأمِّل قوله (عليه السلام) : ومن أبصر بها بصرته وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره لا سيَّما إذا قرن إليه قوله : ومن أبصر إليها أعمته ؛ فإنَّه يجد الفرق بين أبصر بها ، وأبصر إليها واضحاً نيراً وعجيباً باهراً)) [2] .

وقد التفت شُرَّاح النهج إلى محورية حرفي الجر التي أشار إليها الرضي ودورهما في استلهام المعنى ، فذهب بعضهم إلى أنَّ الباء في (بها) للسّببيّة ، فيكون المعنى : من أبصر بسبب تغيّرات الدّنيا واعتبر بعبرها بصّرته الدّنيا[3] ، في حين ذهب آخرون إلى أنَّ الباء للاستعانة ، أي : الداخلة على آلة الفعل[4] ، فيكون المعنى : مَن جعل الدنيا آلة لإبصاره ومرآة للوصول إلى غيرها تجعله الدّنيا صاحب بصيرة [5] .

أمَّا (إلى) فذهب ابن أبي الحديد إلى أنَّها غير مسموعة مع الفعل (أبصر) ثمَّ تأوَّل ذلك على التضمين ، يقول : ((فإن قلت : المسموع أبصرت زيداً ، ولم يسمع أبصرت إلى زيد . قلت : يجوز أن يكون قوله (عليه السلام) : ومن أبصر إليها ، أي : ومَن أبصر متوجهاً إليها ، كقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ ﴾[6] ، ولم يقل : مرسلاً ، ويجوز أن يكون أقام ذلك مقام قوله : نظر إليها ، لما كان مثله))[7] ، ورجّح الخوئي الاحتمال الأوَّل بقوله : ((وتعدية (أبصر) بالحرف في قوله : ومن أبصر إليها

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٠٦ .
[2] المصدر نفسه : ١٠٦ .
[3] ينظر : بهج الصباغة : ٤٢٣/١١ ، و اختيار مصباح السالكين : ١٨٩ ، والدرة النجفية : ١٢٢ .
[4] ينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٣٤/٥ .
[5] ينظر : توضيح نهج البلاغة : ٣٠٨/١ .
[6] سورة النمل ، الآية : ١٢ .
[7] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٦/ ٢٤٠ .

، مع كون الفعل في أصله متعدّياً بنفسه ، إمَّا من أجل تضمينه معنى التّوجه والالتفات ، أو من أجل تضمين معنى النظر ، والأوّل أنسب وأقرب لزيادة ظهور الفرق))[١] ، فيكون المعنى : مَن كان نظره وتوجّهه إلى الدنيا وهمّته معطوفة عليها تجعله الدّنيا أعمى[٢].

والحقيقة أنَّ فهم المراد من الجملتين يستدعي فهم الأطراف الثلاثة المكونة لهما وهي :

الفعل أبصر + حرف الجر (الباء ، أو ، إلى) + الضمير العائد على الدنيا .

وذلك يساعد في التوصُّل إلى مدى تأثير كلّ واحد منها بالآخر ، فأمَّا معنى الإبصار فقد بيَّنه ابن فارس بقوله : ((البَاءُ والصَّادُ والرَّاءُ أَصلان : أَحدهما العِلمُ بالشَّيء ؛ يُقال : هو بَصِيرٌ به . ومن هذه البَصِيرَةُ ... وَالبَصِيرَةُ : البُرهَانُ ... ويُقال : بَصُرتُ بالشَّيء : إذا صِرتَ به بصيراً عالماً ، وأَبصرتُه : إذا رأَيتَه . وأَمَّا الأَصل الآخر فَبُصْرُ الشَّيء غلظه . ومنه البصر)) [٣] ولا يخفى أنَّ المعنى الأوَّل هو المراد المراد ؛ لوجود القرينة عليه ، وهي قوله (عليه السلام) : (بصَّرته ، أعمته) ، وحمله على المعنى الثاني يستلزم كون الانشغال بالدنيا يسبب الإصابة بعمى البصر ، وهو غير صحيح .

وهذا العلم يتبع إرادة فاعله ، ويختلف باختلاف الوجهة التي يكشف عنها ، فإذا واجه الفاعل شيئاً ما ، فله أحد موقفين : تارة يقف عند ظاهر الشيء ، ويُسَخِّر علمه في سبيل استجلابه والحصول عليه ، فيكون ذلك الظاهر غاية له ، يبذل طاقته للوصول إليها ، وتارة يتخطَّى الظاهر كاشفاً عمَّا يتوارى خلفه ، ليدرك حقيقة ذلك

---

[١] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٣٤/٥ .

[٢] ينظر : المصدر نفسه : ٣٤٠/٥ ، وحدائق الحقائق : ٣٧٨/١ .

[٣] مقاييس اللغة . (بصر) : ٢٥٣/١-٢٥٤ .

الشيء ويحدِّد موقفه منه ، وهذان المعنيان يمكن تقريبهما بالمرآة ، فالذي يقتصر ببصره على المرآة وصقالتها وشكلها وما يتعلق بظاهرها ، يختلف عن الذي يبصر ما تعكسه تلك المرآة .

ومن جهة الحرفين فإنَّ انتهاء غاية الشيء المدلول عليها بالحرف (إلى) ـ مع عدم القرينة على التوغُّل[١] ـ تستلزم الوقوف عند ظاهر مدخول الحرف ، بخلاف الباء فهي تدلُّ على الإلصاق الذي يقتضي الملابسة وتخطِّي حدود الظاهر [٢]. أمَّا مدخول الحرفين (الدنيا) فله وجهان : ظاهر ، يتمثل بزخارفها وبهارجها وهو خدَّاع وزائف ، وباطن ينبئ عن حقيقتها وتقلبها وتصرمها ، وهذا المعنى أشار إليه (عليه السلام) بقوله لسلمان (رضي الله عنه) : ((**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا قَاتِلٌ سَمُّهَا**)) [٣] .

وبناء على ما تقدَّم ، فإنَّ الفاعل مع حرف الغاية يقف على طرف النقيض من الفاعل مع حرف الإلصاق ؛ لأنَّ الثاني يتخطَّى ببصيرته ذلك الظاهر ويتدبَّر فيما يتوارى خلفه ، وهذا الموضع أليق بحرف الإلصاق ؛ لأنَّه يستلزم التعرُّف على حقيقة المبصَر وكنهه ، فهو يرى ما تخفيه الدنيا من خير أو شر ، فيتزوَّد بما ينفعه منها لآخرته ، ولكون هذا الإبصار إبصار اعتبار واستدلال ، فهو يورث البصيرة ، ويضيف علماً الى علم ؛ لأنَّ النظر في الدليل على وجهه يجب أن يولِّد العلم بالمعلوم

---

[١] ينظر : النحو الوافي : ٢/٤٦٨ ، يقول الأستاذ عباس حسن : ((والغالب أن نهاية الغاية نفسها لا تدخل في الحكم الذي قبل (إلى) ما لم توجد قرينة تدل على دخوله)) .

[٢] وهذا الأمر دفع ببعض الباحثين إلى القول بنيابتها عن (في) ، ينظر : التقييد في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٢٣١ يقول الباحث : ((فكون الباء هنا جاءت بمعنى (في) يتبيّن أنّ عيوب الدنيا اتضحت لذلك العبد البصير الذي شغل بصيرة قلبه في أحوال الدنيا ، فاتضحت له مساوئها ، وخواتمها المردية ، فاحترز منها ، ولم يقع في شيء من ذلك)) والحقيقة أن بين الحرفين فرقاً خلاصته : أنَّ في ـ بسبب دلالتها على التوغل والاستقرار ـ تشير إلى أن الابصار حصل في مرحلة التوغل في عيوب الدنيا واستقراره فيها مدَّة من الزمن ، بخلاف الباء التي تدل على أن الإبصار قد حصل قبل المرحلة التي تشير (في) إليها .

[٣] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٥٨ .

[1] . وأمَّا الأوَّل فهو يُسَخِّر علمه للوصول إلى ظاهر الدنيا ، وهذا الموضع أليق بحرف الغاية ؛ لأنَّه يوحي ببُعد المُبصِر عن حقيقة المُبصَر ، فكأنَّ ذلك المغرور بعيد بفكره عن حقيقة الدنيا ، فهو يمدُّ إلى ظاهرها الأنيق بصر بصيرته ، ويتطلَّع إليه بعين قلبه محبّة وعشقاً ، فأعمى عين بصيرته عن إدراك أنوار اللّه والاهتداء لكيفيّة سلوك سبيله[2] ، ويؤيِّد ما ذهبنا إليه قوله (عليه السلام) : ((**وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا ، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ وَ الْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ**))[3] ، وما أروع التعبير ـ هنا ـ عن الفكرة السابقة ؛ إذ ((جانسَ الإمام بين لفظتي (شاخص) التي تعني ... (البعيد) والثانية التي تعني (الناظر إلى أَمر أدهشه) فقد أوهَم السامعَ بأنَّ معناها واحد من خلال تشابه اللفظتين إلَّا أنَّ السياقَ قد دلَّ على اختلافِ معنييهما محققاً الانسجام بينهما)) [4] .

وممَّا حُمل على النيابة ، قوله (عليه السلام) : ((**مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا ، وَلَا زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا**))[5] ، وهنا فسَّر ابن أبي الحديد حرف الغاية بحرف الإلصاق ، يقول : ((وقوله : يعتصم إليها ، أي : بها ، فأناب (إلى) مناب (الباء) كقول طرفة [6] :

وَإِنْ يَلتَقِ الحَيُّ الجَمِيْعُ تُلاقِنِي إِلَى ذِرْوَةِ البَيْتِ الرَّفِيعِ المُصْمَدِ))[7].

---

[1] ينظر : معارج نهج البلاغة : ١٥٤

[2] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٢٣٠/٢ ، و شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٤٥٦/١.

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٩١ .

[4] الخطاب في نهج البلاغة ، دراسة موضوعية فنية : إيمان عبد الحسن علي ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ٢٠٠٨م : ١٣٦ ـ ١٣٧ .

[5] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٨٢. وزوافر : الزافِرة: عشيرة الرجل ؛ لأنهم قد يتحملون بعض ما ينوبه . ينظر : مقاييس اللغة . (زفر) : ١٥/٣ .

[6] ديوانه : ٢٤ .

[7] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٠٦/٨ ، والحقيقة أنَّ النحويين يستشهدون بهذا البيت على نيابة (إلى) عن (في) . ينظر : النحو الوافي : ٤٧٠/٢ ، وظاهرة التقارض في النحو العربي : ٢٦٨ .

وأيَّد أحد الباحثين رأي ابن أبي الحديد مستدلاً على ذلك بكون الفعل (يعتصم) يتعدّى بالباء[1] ، ومن ذلك قوله (عليه السلام) : ((**فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ**))[2] ، وقوله (عليه السلام) : ((**فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَ رَزَقَكَ وَ سَوَّاكَ** ...)) [3] ، ومع أنَّ ما ذهب إليه الباحث هو التعبير الشائع في النهج[4] ، إلَّا أنَّ ذلك لا يسوغ إلغاء استعمال حرف الغاية في هذا الموضع قبل التأمُّل فيما يشتمل عليه من نكتة معنوية لا يمكن التوصل إليها عن طريق استبداله بحرف الإلصاق .

والذي يبدو أنَّ بين التعبيرين بُعداً دلالياً بقدر البُعد بين معنى الإلصاق ومعنى الغاية ، ومدخول الحرف في المواضع التي استعمل فيها الحرفان يشهد بهذا البُعد ؛ فمدخول حرف الغاية (زوافر العز) التي هي أنصار المرء[5] لا يُحتاج إليها على نحو الدوام ، ولا يُلجأ إليها إلَّا عند الحاجة ، أمَّا مدخول حرف الإلصاق (التقوى ، والذي خلقك ، و ...) فهي ممَّا لا يُستغنى عنه في الأحوال كلِّها ، ولو تأمَّلنا سياق الحرفين ـ في الأمثلة التي ذكرناها ـ لخرجنا بأمور أخرى ترفد هذا المعنى ، ففي المورد الذي استعمل فيه الحرف (إلى) نجد أنَّ الإمام (عليه السلام) في مقام التوبيخ ، فهو ((بعد أن ذكر أصحاب معاوية وأوصافهم التي يستحقون عليها القتال ومن أجلها القتل ، توجَّه إلى أصحابه مؤنِّباً لهم على عدم استجابتهم له))[6] ، واستعمال الأسلوب الخبري المنفي ، ولا سيَّما الجملة الاسمية التي تدلُّ على الثبوت واللزوم[7] ، وتأكيد النفي بـ

---

[1] ينظر : حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ١٥ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٨١ .

[3] المصدر نفسه : ٣٩٣ .

[4] ينظر : الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه : ٢٨٦ .

[5] أساس البلاغة . (زفر) : ٤١٦/١ ، يقول الزمخشري : ((رأيته يزفر زفرة الثكلى ، وله زفير. وعلى ظهره زفر من الأزفار : حمل ثقيل يزفر منه ، وقد زفره يزفره: حمله. ولهم زوافر : إماء يحملن القرب . ومن المجاز : هم زافرته وزوافره : لعشيرته ؛ لأنهم يزفرون عنه الأثقال)) .

[6] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٣٥٣/٢ .

[7] ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د. فاضل السامرائي : ١٥ .

(لا) الزائدة ، يبيِّن مدى عدم استجابة هؤلاء القوم ، وهذا المعنى يتناسب تماماً مع حرف الغاية ؛ لأنَّ (إلى) توحي بالمستوى المتدنِّي لاستجابتهم أيضاً ، فمع أنَّهم لم يكونوا ممَّن يُعتصم إليه إلَّا في مثل هذه الظروف ، فهم لا يلبون النداء ولا ينهضون بالواجب.

أمَّا الموردان اللذان استعمل فيهما حرف الإلصاق ، فقد استعمل فيهما الأسلوب الإنشائي الطلبي المتمثل بفعل الأمر (اعتصموا ، واعتصم) ، وهو ظاهر في معنى الوجوب[١] ، وهذا يدلُّ على أهمية المأمور به وكونه ممَّا لا يُرخِّص الآمر بتركه أو التخلِّي عنه ، وهذا ينسجم تماماً مع حرف الإلصاق ؛ لأنَّه يدلُّ على الملازمة والارتباط الوثيق ، ويُشعر بالتقارُب بين مدخوله وما قبله ، فالتخلِّي عن تقوى الله أو تمزيق الارتباط بالخالق يستلزم الوقوع في مهاوي الرذيلة والهلاك .

إيثار حرف الغاية على حرف الظرفية (في) :

تأوَّل بعض النحويين جملة من الموارد التي يُتراءى فيها عدم التوافق بين الحرف (إلى) وما بعده ، بالحرف (في) ؛ لأنَّه يُحقِّق الانسجام اللفظي بينهما ، جاء في شرح التسهيل : ((وأشرت بموافقة (في) إلى قول الشاعر[٢] :

فلا تتركنّي بالوعيد كأنّني ... إلى الناس مَطْلِيٌّ به القارُ أجربُ

... أراد : في الناس ... ويمكن أن يكون من هذا قوله تعالى : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [٣] و ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [٤]))[٥] ، والذي يُلاحظ على هذه النيابة

---

[١] ينظر : أصول المظفر ، للشيخ محمد رضا المظفَّر : ٤٨/١ ، وشرح الأصول من الحلقة الثانية : ٢١٨/١ .
[٢] البيت للنابغة الذبياني ، ديوانه : ٧٣ .
[٣] سورة النساء ، الآية : ٤٧ ، وسورة الأنعام ، الآية : ١٢ .
[٤] سورة الجاثية ، الآية : ٢٦ .
[٥] شرح تسهيل الفوائد : ١٤/٣ ، وينظر : اللمحة في شرح الملحة : ٢٢٥/١.

النيابة قلَّة الشواهد التي ترفدها ، ولعلَّ هذا الأمر هو الذي دفع بعضهم إلى جعلها لا ترقى إلى مصافّ الكلام الذي يُقاس عليه ، جاء في رصف المباني : ((أن تكون بمعنى (في) وذلك موقوف على السماع لقلَّته ، كقولك : جلست إلى القوم ، أي : فيهم))[١] ، ولعلَّ هذا الأمر هو السبب الذي دفع بعض النحويين إلى إنكار هذه النيابة ، يقول المرادي : ((ردَّ ابن عصفور كون (إلى) بمعنى (في) ، بأنَّها لو كانت بمعنى (في) لساغ أن يقال : زيد إلى الكوفة ، أي : في الكوفة . فلمَّا لم تقله العرب وجب أن يتأوَّل ما أوهم ذلك . وتأوَّل البيت على أنَّ قوله : مطلي ضُمِّن معنى مبغض . وأوَّله غيره على تقدير : كأنَّني مضافٌ إلى الناس . فإلى تتعلق بمحذوف دلَّ عليه الكلام))[٢] ، وكذلك تأوَّل بعض المفسرين الآيتين على تضمين الفعل (يجمع) معنى الفعل (يحشر) أو (يبعث) ، فيكون المعنى : ((لَيَجْمَعَنَّكُم إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، أي : ليحشرنَّكم إليه))[٣] ، أو يكون ((ليحشُرنَّكم من قبوركم إلى يومِ القيامةِ))[٤] ، أو يكون ((ليجمعنَّكم في القبور مبعوثين إلى يوم القيامة ، فيجازيكم على شرككم)) [٥].

والغريب ـ هنا ـ أنَّ الصبَّان دافع عن هذه النيابة ، غير مكترث بما يستلزمه ذلك من فساد اللفظ والمعنى على حدٍّ سواء ، يقول : ((واعترض جعل (إلى) بمعنى (في) بأنَّه لو صح ذلك لساغ أن يقال : زيد إلى الكوفة ، بمعنى : فيها ، وهو لا يجوز ، فتجعل (إلى) متعلقة بمحذوف ، أي : مضافاً إلى الناس ، وفيه نظر ؛ إذ الظاهر

---

[١] رصف المباني : ٨٣ ، وينظر : البحر المحيط : ١١٣/١ .

[٢] الجنى الداني : ٣٨٨ ، وينظر : ظاهرة التقارض في النحو العربي : ٢٦٨ . يقول الرضي : ((والظاهر أنها بمعناها، وذلك لأن معنى مطلي به القار أجرب: مكرة مبغض، والتكريه يتعدى بإلى، قال تعالى: (وكره إليكم الكفر...) ، حملا على التحبب المضمن معنى الامالة، قال تعالى: (وحبب إليكم الأيمان) ، كما قيل: بعت منه، حملا على: اشتريت منه)) شرح الرضي على الكافية : ٢٧٢/٤ .

[٣] الكشاف : ٥٤٥/١ ، وينظر : البحر المحيط : ٦/٤ .

[٤] إرشاد العقل السليم : ٢١١/٢ .

[٥] أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١٥٦/٢ .

جواز زيد إلى الكوفة ، بمعنى : فيها ، على مذهب الكوفيين ، الذي عدَّ هذه المعاني عليه))[1] ، ولا أدري هل يكون قولهم : زيد إلى الكوفة ، كلاماً مفيداً يحسن السكوت عليه ؟!

والذي يبدو أنَّ وجود الظرف أو ما يمكن تأويله على الظرفية بعد حرف الغاية ، هو السبب وراء القول بهذه النيابة ، فهو يجعل السياق مناسباً لحرف الوعاء ؛ لوجود الملاءمة بين دلالتيهما ، فضلاً عن ذلك فإنَّ الظرف يلقي بظلاله على دلالة حرف الغاية ؛ فهو يُصيِّر دلالة (إلى) احتمالية ، فيكون ما قبلها منتهياً عند أوَّل الحد أو متوغلاً فيما بعده ، وهذا ما أشار إليه ابن يعيش بقوله : ((وجائزٌ أن تقول : سرت إلى الكوفة ، وقد دخلت الكوفةَ ، وجائزٌ أن تكون قد بلغتَها ، ولم تدخلها ؛ لأنّ (إلى) نهايةٌ ، فجائزٌ أن تقع على أوّل الحدّ ، وجائزٌ أن تتوغّل في المكان)) [2].

ومع أنَّ وجود الظرف بعد حرف الغاية يُمكِّننا من استبداله بحرف الظرفية ـ على المستوى اللفظي ـ إلَّا أنَّ ذلك لا يُبقي الدلالة كما هي ، بل ينحى بالمعنى منحًى آخر ؛ فالحرف (إلى) مع وجود الظرف يدلُّ على أمرين : أولهما قطعي ، وهو وصول الفعل إلى أول حدود الظرف ، وثانيهما احتمالي ، وهو وقوع الفعل في الظرف ، وهذا بخلاف الحرف (في) فهو يدلُّ على أمر قطعي واحد يتمثَّل بوقوع الفعل في الظرف الذي بعد الحرف ، فقولنا : سرتُ إلى الكوفة ، لا يمكن أن يساوي قولنا : سرتُ في الكوفة ؛ لأنَّ تعدِّي الفعل (سار) بالحرف (إلى) يدلُّ بشكل قطعي على وجود سير قبل الكوفة ، ويشير إلى احتمالية وجود سير في الكوفة ، أمَّا إذا تعدَّى الفعل (سار) بالحرف (في) ، فهو لا يدلُّ على وجود سير حاصل قبل الكوفة ، بل يُثبت السير في الكوفة فقط .

---

[1] حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣١٨/٢ .

[2] شرح المفصل : ٤٦٣/٤ .

ومع وجاهة ما قرَّره الأستاذ عباس حسن من كون معنى حرف الغاية في مثل هذه المواضع هو ((من المعاني الدقيقة التي يؤديها الحرف (إلى)))[1] ، إلَّا أنَّنا لا نتَّفق معه فيما ذهب إليه من تفسير ذلك بنيابتها عن (في) ، بل هي في هذه المواضع تُنبئ عن نكات طريفة لا يفي بالدلالة عليها غيرها .

ومن روائع ذلك ما نجده من تعدية الفعل (نظر) في نهج البلاغة ، فهو يتعدَّى بالحرفين (إلى ، وفي) لأداء معنيين مختلفين ، وقد حاول بعض اللغويين أن يجد الفرق بينهما ، جاء في المصباح المنير : ((قال بعضهم : يتعدَّى إلى المُبصَرات بنفسه ، ويتعدَّى إلى المعاني بـ (في) ، فقولهم : نَظَرتُ في الكتاب ، هو على حذف معمول ، والتَّقدير : نَظَرتُ المَكتُوبَ في الكتابِ))[2] ، ولا أرى فرقاً ـ بعد هذا التقدير ـ بين التعديتين ؛ لأنَّ المكتوب من المبصرات ، ولذا ذهب الدكتور أحمد مختار إلى أنَّ ((الوارد في المعاجم تعدية الفعل (نظر) بمعنى (تأمَّل) بحرف الجر (في))) [3].

ومع أنَّ ما ذهب إليه الدكتور هو فهم صادق لتعدية الفعل إلَّا أنَّه مبني على مذهب التضمين ـ وهو غير مقبول مع حروف الجر كما تقدَّم ـ لذا فالقريب المختار هو أنَّ دلالة الحرف هي التي توجِّه معنى الفعل ، فهو يتعدَّى بـ (إلى) ليدلَّ على الغاية التي ينتهي عندها النظر ، وهي تتمثل بظاهر المنظور إليه ، كما في قول النبي (صلى الله عليه وآله) : ((**النظر إلى وجه علي عبادة**))[4] ، وقول الإمام (عليه السلام) في صفات

---

[1] النحو الوافي : ٢/٤٧٠.

[2] المصباح المنير . (نظر) : ٢/٦١٢ .

[3] معجم الصواب اللغوي : ٧٦٠ .

[4] بحار الأنوار : ٣٢٤/٢٥ ، وينظر : الفائق في غريب الحديث ، لمحمود بن عمرو الزمخشري : ٤٤٦/٣ ، وقد بيَّن ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر ، لمبارك بن محمد ابن الأثير : ٧٧/٥) معنى الحديث بقوله : ((مَعْنَاهُ أَنَّ علِيا رَضِيَ اللَّه عَنْهُ كَانَ إذَا بَرَز قَالَ الناسُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، مَا أشرَفَ هَذَا الفَتى! لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، مَا أعلَمَ هَذَا الْفَتى! لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، مَا أكرَمَ هَذَا الْفَتى! أَيْ : مَا أتْقَى ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، مَا أشْجَعَ هَذَا الْفَتى! فَكَانَتْ رؤيَتُه تَحْمِلُهم عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ)) .

المتقين : ((**يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ**))[1] ، فالذي ينظر إلى ظواهرهم يحكم بكونهم مرضى ((لما يرى عليهم من آثار الضّعف وصفرة الوجه وما أشبه (وما بالقوم من مرض) ؛ إذ ما يُشاهَد فيهم من آثار الصيام والصلاة والسهر))[2].

أمَّا إذا تعدَّى بـ (في) فإنَّه يدلُّ على أنَّ النظر قد تجاوز ظاهر المنظور إليه ، وغار في أعماقه ، كقوله (عليه السلام) : ((**مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ**))[3] وقوله (عليه السلام) لمعاوية : ((**وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَ لَا إِلَى غَيْرِكَ**))[4] ، فالفرق بين الحرفين ـ هنا ـ يشبه إلى حدٍّ ما الفرق بين رأى الحُلمية ورأى البصرية ، من جهة أنَّ وجود (في) يدلُّ على التوغُّل في الشيء ، وهذا يستلزم التعرف على جزئياته بالبحث الباطني فيه ، بخلاف (الى) التي تنتهي ـ على الاغلب ـ بحدِّ الشيء الخارجي ، وهذا يستلزم الاقتصار على المعرفة الإجماليَّة به .

وبناءً على هذا الفهم يمكننا أن نتلمَّس سرَّ التعبير في بعض الموارد التي يظهر منها أنَّ أحد الحرفين ناب عن الحرف الآخر ، كقوله (عليه السلام) في المحتضر : ((**فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ ... يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ**))[5] ، فهنا يتوقَّع السامع وجود حرف الغاية ؛ لوجود القرينة اللفظية (طرفه ، وجوههم) ، ولكنَّ التمعُّن في القرائن السابقة واللاحقة يكشف عن سرِّ إيثار حرف الظرفية ، فالإمام (عليه السلام) يبيِّن في هذه العبارة

---

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٠٣ ، ومنه قوله (عليه السلام) : ((النَّظَرُ إِلَى الْخُضْرَةِ نُشْرَةٌ)) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٤٦ .

(2) توضيح نهج البلاغة : ٢٣٦/٣ .

(3) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٣٦ .

(4) المصدر نفسه : ٣٦٨ .

(5) المصدر نفسه : ١٥٩ .

المرحلة التي تسبق خروج الروح ، بعد تعطُّل جميع الحواس ، يقول (عليه السلام) : ((**لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ وَ لَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ ... يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ**))[1] ، فهو لا ينظر إلى وجوههم نظرة استقلالية ، بل يدقِّق النظر في ملامحها وما توحي به من دلالات محاولاً فهم أقوالهم من خلال النظر .

وعلى عكس ما تقدَّم فقد يتوقَّع السامع وجود حرف الظرفية ؛ لكون مدخول الحرف من مقولة الباطن التي يليق بها حرف الوعاء ، كقوله (عليه السلام) مخاطباً طلحة والزبير : ((**وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ ... فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ... فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا**))[2] ، وقوله (عليه السلام) : ((**إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا**))[3] ، فالفعل (نظر) تعدى بـ (إلى) في الموضعين وهما ممَّا يقتضيان التنقيب والتقصِّي والتدقيق ، ويبدو أنَّ السرَّ في هذا العدول مرتبط بالشخص الناظر وما يمتلكه من إمكانيات وقدرات تجعل من النظريات العويصة بديهية عنده ، وإلى هذا أشار المناطقة إلى أنَّ ((قضية واحدة قد تكون بديهية عند شخص نظرية عند شخص آخر ، وليس ذلك إلَّا لأنَّ الأوَّل عنده من قوة الحدس ما يستغني به عن النظر والكسب ... دون الشخص الثاني))[4] ، وهذا هو القدر المتيقَّن في الموردين ؛ لأنَّ اتضاح صورة الباطن عندهم وتجلِّيها أمامهم يجعلها بمنزلة الأمور الظاهرة .

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٥٩ .

[2] المصدر نفسه : ٣٢٢ .

[3] المصدر نفسه : ٥٥٢ .

[4] المقرَّر في توضيح منطق المظفَّر ، للسيد رائد الحيدري : ٢٨/١ ، والحدس : سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب، ويقابله الفكر، وهو أدنى مراتب الكشف . التعريفات : ٨٣ ، وينظر : التوقيف على مهمات التعاريف ، لعبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي : ١٣٧.

كيف والناظر هو القائل : ((**أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْض**)) [1] وهو من قال فيه المصطفى (صلى الله عليه وآله) : ((**أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا ، فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ**)) [2] فليس من العجب أن تكون حقائق الكتاب كلّها حاضرة عند من عنده علم الكتاب[3] ، ولا غرو في ذلك ، فهذه الورقة من تلك الشجرة وهذا القبس من تلك النار، ويؤيِّد هذا الأمر ما رواه ابن عباس من أنَّ عمر بن الخطاب قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) : ((يا أبا الحسن إنَّك لتعجل في الحكم والفصل للشئ إذا سئلت عنه ، قال : فأبرز عليٌّ كفَّه وقال له : كم هذا ؟ فقال عمر : خمسة ، فقال : عجلت أبا حفص ، قال : لم يخفَ عَلَي ، فقال عليٌّ : وأنا أسرع فيما لا يخفى عَلَي)) [4].

إيثار حرف الغاية على حرف الابتداء (من) :

لم يُشر كثير من النحويين الى نيابة (الى) عن (من)[5] ، ويبدو أنَّ السبب في ذلك ـ عندهم ـ يعود الى التناقض بين دلالتيهما ، يقول ابن يعيش : ((اعلم أنّ (إلى) تدلّ على انتهاء الغاية كما دلّت (مِنْ) على ابتدائها ، فهي نقيضتها ؛ لأنَّها طَرَفٌ بإزاء طَرَف (مِنْ)))[6] إلَّا أنَّ ورود (إلى) في مواضع قليلة ـ يبدو فيها أنَّ (إلى) نائبة عن

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٨٠ .

[2] المستدرك على الصحيحين ، لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري : ٣/ ١٣٧ رقم الحديث ٤٦٣٧ ، وقد علق الحاكم النيسابوري على هذا الحديث بقوله : ((هذا حديث صحيحُ الإِسنَادِ، وَلم يُخَرِّجَاه)) .

[3] التبيان في تفسير القرآن : ٢٦٣/٦ ، وينظر : تفسير الصافي : للمولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني : ٧٩/٤ ، جاء في تفسير العياشي ، لمحمد بن مسعود العياشي:٢٣١/٢ : ((عن عبدالله بن عطاء قال : قلت لابي جعفر عليه السلام : هذا ابن عبدالله بن سلام ـ بن عمران ـ يزعم ان اباه الذى يقول الله : (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) قال :كذب ، هو علي بن أبي طالب عليه السلام)) .

[4] بحار الأنوار : ١٤٧/٤٠ .

[5] ينظر : العوامل المائة النحوية : ١٠٧ ـ ١٠٨ ، و رصف المباني : ٨٠ ـ ٨٣ ، وكتاب الأزهية في علم الحروف : ٢٧٢ ـ ٢٧٤ ، ومصابيح المغاني في حروف المعاني : ١٠٢ ـ ١٠٨ .

[6] شرح المفصل : ٤٦٣/٤ ، وينظر : اللباب في علل البناء والإعراب : ٣٥٦/١ .

(من) ـ أغرى بعض النحويين بالقول بنيابتها عن (من) ، جاء في شرح التسهيل : ((ومثال موافقة (من) قول ابن أحمر [١] :

تَقُولُ وَقَدْ عَالَيْتُ بِالكُوْرِ فَوْقَهَا ... أيُسْقَى فَلَا يَرْوَى إلَيَّ ابْنُ أَحْمَرَا

أي : فلا يروى مني))[٢] ، وهذا القول صريح في نيابة (إلى) عن (من) التبعيضية عند بعضهم[٣] ، أو الابتدائية عند آخرين[٤] ، وقد خرَّجه المرادي على التضمين ، فيكون التقدير : فلا يأتي إليَّ الرواء [٥].

وعلى الرغم من أنَّ هذا القليل لا يحسن القياس عليه ـ كما صرَّح الأستاذ عباس حسن [٦]ـ فإنَّ عدم تبنِّي النحويين القائلين بالنيابة لنظرية أخرى يجعلهم مضطرين للقياس عليه ؛ لتسويغ وجود حرف الغاية في غير سياقه المعهود ، ولو أنَّهم بحثوا عن سرِّ هذا العدول اللفظي ، لتوصلوا إلى النكات الدلالية التي يؤذن بوجودها حرف الغاية وتجنَّبوا الخلط بين معنيي الحرفين .

وقد اضطربت كلمات الشرَّاح والباحثين في تفسير بعض الموارد التي يمكن تفسيرها على أساس النيابة أو التضمين ، ومن ذلك قوله (عليه السلام) جواباً لكتاب معاوية الذي يطلب فيه أن يترك له الشام[٧] : ((**وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ**

---

(١) ينظر : المعجم المفصل في شواهد العربية : ٣/ ١٤١.

(٢) شرح تسهيل الفوائد : ١٤٤/٣ ، وينظر : همع الهوامع : ٤١٦/٢ ، وحاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣١٨/٢ .

(٣) ينظر : مغني اللبيب : ٢٨/١ ، والنحو الوافي : ٤٧٠/٢.

(٤) ينظر : أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير ، دراسة نظرية وتطبيقية على سورتي آل عمران والنساء : علي ابن مناور بن ردة الجهني ، (رسالة ماجستير) ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، ١٤٢٨هـ ـ ١٩٩٧م : ٥١

(٥) ينظر : الجنى الداني : ٣٨٩ .

(٦) ينظر : النحو الوافي : ٤٧٠/٢.

(٧) ينظر : تصنيف نهج البلاغة : ٥٥٠ ، وشرح نهج البلاغة ، لمحمد عبده : ١٨/٣ ، جاء في شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٨١/٤ : ((ثم إنه في أيام صفين الشديدة قال معاوية إلى عمرو بن العاص : قد رأيت أن أعاود علياً =

لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْس))[1] ، يقول الخوئي : ((كلمة (إلى) بمعنى (من) ، أي : طلبك منّي الشّام))[2] ، ويبدو أنَّ الذي دعا الخوئي إلى هذا التأويل هو ما ذكره في تفسير قوله (عليه السلام) : ((**فَوْتُ الحاجَةِ أهْوَنُ مِنْ طَلَبِها إلى غَيْرِ أهْلِها**)) [3] يقول : ((إلى غير أهلها متعلق بطلبها ، و(طلب منه) أشهر من (طلب إليه) ، وكأنّ العدول من لفظة (من) إلى لفظة (إلى) يُشعر بأنَّه جرّ الحاجة إلى غير مظان حصولها))[4] ، وهذا التفسير يتلمَّس الفائدة المعنوية المترتبة على مخالفة مقتضى الظاهر ، وبناء على ذلك استظهر أحد الباحثين قاعدة عامَّة تتعلَّق بدلالة الفعل (طلب) عندما يُعدَّى بأحد الحرفين ، يقول : ((وهذا يعني أنَّ الطلب يعدّى بـ (من) إذا كان معقولاً أو مرضيًّا ، وإذا كان غير ذلك فيعدَّى بـ (إلى) ، ويوضِّح ذلك قول الإمام (عليه السلام) مخاطباً

= وأسأله إقراري على الشام فقد كنت كتبت إليه ذلك فلم يجب إليه ولأكتبن ثانية فألقي في نفسه الشك و الرقة. فقال له عمرو بن العاص وضحك : أين أنت يا معاوية من خدعة علي ...)) وقد بيَّن ابن قتيبة في كتابه (الامامة والسياسة : ١٣٧/١) تحت عنوان : ما سأل معاوية من علي من الاقرار بالشام ومصر ، مراد معاوية بقوله : ((وإنَّما أراد معاوية في طلبه الشام ومصر ألا يكون لعلي في عنقه بيعة، وأن يخرج نفسه مما دخل فيه الناس، فكتب إلى علي يسأله ذلك، فلما أتى عليا كتاب معاوية عرف أنها خدعة منه)) واللطيف ـ هنا ـ أنه لما اتى معاوية كتاب علي (عليه السلام) كتمه عن عمرو بن العاص أياما ، ثم دعاه فأقرأه إياه ، فشمت به عمرو ، وقال في ذلك شعراً ، منه قوله :

أ تطمع لا أبا لـك فـــي عليٍّ	وقد قرع الحديد على الـحديد
وترجو أن تحيره بشـــــــك	وتأمـــــل ان يهابك بالوعيـد
وقد كشف القناع وجر حـــــرباً	يشيب لهولها رأس الولـــــيد
وما هي من أبي حسن بنكــــــر	و لا هو من مسائك بالـبعـيد
وقلت له مقالة مستكـــــــــين	ضعيف الرأي منقطع الوريـــد
دعن لي الشام حسبك يابن هند	من السوآت و الرأي الزهيـد
ولو اعطاكها ما ازددت عـــــزاً	و لا لك لو أجابك من مـزيد
فلم تكسر بذاك الرأي عــــوداً	لركته و لا ما دون عـــــــود

ينظر : مصادر نهج البلاغة وأسانيده ، للسيد عبد الزهراء الحسيني : ٣/ ٢٢٨.

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٧٤ .

[2] منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٤٠/١٨ .

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٧٩ .

[4] منهاج البراعة ، للخوئي : ١٠١/٢١ .

معاوية : ((وأَمّا طلبُكَ إليّ الشّامَ ...)) ، وهذا أفضل من طلبك منِّي ؛ لأنَّه طلب غير مرضٍ))[1] .

وليس الأمر كما ذهب ؛ لأنَّه يتعارض مع موارد أخرى ، كقوله (عليه السلام) في صفة الباري سبحانه وتعالى : ((أَحصَى إحسانَهُ إليكُم فاستَفتحُوهُ واطلبُوا إليهِ))[2] ، وقوله (عليه السلام) في وصف المتقين : ((أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً ... يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِم))[3] ، فلا يمكن أن يُفسَّرَ الطلب ـ هنا ـ بكونه غير معقول أو غير مرضٍ ، وقد كان شرَّاح النهج ملتفتين إلى هذه المسألة ؛ لذا عدلوا إلى مذهب التضمين في تفسيرها ، يقول ابن أبي الحديد : ((طلبت إليك في كذا : سألتك ، والكلام على الحقيقة مقدَّر فيه حال محذوفة يتعلق بها حرف الجرّ ، أي : يطلبون سائلين إلى الله في فكاك رقابهم ؛ لأنَّ طلب لا يتعدّى بحرف الجرّ))[4] ، ولم يسلم هذا الرأي من الاعتراض ؛ إذ جُوبِهَ باعتراضين :

الأوَّل : إنَّ تعليق شبه الجملة (إلى الله) بالسؤال يُغيِّر المعنى المراد ؛ لأنَّ السؤال لا يفي بدلالة الطلب ؛ فالطلب لا يكون إلَّا مع الرغبة والجهد والمبالغة[5] ، وهذا ما يتناسب مع حال المتقين ، فلمَّا كانت غايتهم تخليص رقابهم من النار ، و لاريب في أنَّ ذلك لا يكون بمجرد السؤال وحسب ، وإنَّما بالمدوامة والعبادة ، وهو ما يشير إليه سياق الكلام من ذكر الأعضاء السبعة التي تباشر الأرض في الصلاة وهي الجبهة

---

[1] حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ١٥.

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٠٩ .

[3] المصدر نفسه : ٣٠٣ .

[4] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٠/١٤٤.

[5] ينظر : لسان العرب . (طلب) : ١/٥٦٠ ، وتاج العروس . (طلب) : ٣/٢٧٤ .

والكفان والركبتان والقدمان ، والمجيء بها بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار [١].

الثاني : إنَّ تضمين الفعل (يطلب) لمعنى (سأل) وتعليق شبه الجملة به لا يزيد الإشكال إلَّا إشكالاً ؛ لأنَّ (سأل) لا يتعدَّى إلى المفعول الأوَّل بحرف الجر أيضاً ؛ لذا لم يرتضِ الخوئي ما ذهب إليه ابن أبي الحديد ، وفسَّر ذلك على تضمين الطلب معنى التضرُّع ، يقول : ((وقوله : يطلبون إلى اللّه في فكاك رقابهم ، تعدية الطلب بحرف الجرّ أعني (إلى) لتضمينه معنى التضرع و (في) للظرفية المجازية ، أي : يتضرّعون إليه سبحانه في فكاك رقابهم . وأمَّا ما قاله الشارح المعتزلي من أنّ الكلام على الحقيقة مقدّر فيه حال محذوفة يتعلّق بها حرف الجرّ ، أي : يطلبون الى اللّه سائلين في فكاك رقابهم ؛ لأنّ طلبت لا يتعدّى بحرف الجرّ فليس بشيء ؛ لأنّ تأويل الطلب بالسؤال لا ينهض بإثبات ما رامه كما لا يخفى)) [٢].

وبناءً على ما تقدَّم فلا يمكننا الركون إلى أحد التأويلات السابقة ، لاختلافها وتخلُّفها ؛ فليست هي أكثر من تسويغ لوجود حرف الجر في غير سياقه المتعارف . ولو أنَّهم تأملوا في دلالة حرف الغاية لأمكنهم المجيء بمعنى يناسب كلَّ هذه الموارد من غير اضطراب في الدلالة ولا تكلُّف التقديرات المختلفة التي تنحرف بالمعنى المراد ، ولهذا اختار أحد الباحثين ((إبقاء (إلى) على معناها الأشهر (انتهاء الغاية) ؛ فهو أرجح من موازنتها بـ (من) ؛ لأنَّ الذي يطلب شيئاً يبحث عنه ، فيكون غاية له ، وقد كان إبقاء معاوية على إمرة الشام يُعدُّ بالنسبة له منتهى غايته ، وكان قد سعى

---

[١] ينظر : مستويات التلقي في شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري : محمد مهدي حسين الساعدي ، (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م : ١٧١ .

[٢] منهاج البراعة ، للخوئي : ١١٣/١٢.

لها ، إلَّا أنَّ الإمام (عليه السلام) رفض ، ومن ثمَّ كان استعمال (إلى) أولى من (مِنْ))) [١].

ولعلَّ أفضل ما يُقال ـ هنا ـ في الفرق بين استعمال الحرفين هو ما أشار إليه ابن يعيش بقوله : ((إنَّ كلَّ فاعلٍ أخذ في فعل فلفعله ابتداءٌ منه يأخذ ، وانتهاءٌ إليه ينقطع ، فالمبتدأُ تُباشِره (مِنْ) ، والانتهاءُ تُباشِره (إلى)))[٢] ، وعلى هذا فالفرق في الدلالة بين حرف الابتداء وحرف الغاية ـ مع الطلب ـ يكمن في بيان المرحلة التي وصل إليها الطالب في الحصول على مطلوبه أو الغاية التي يريد إدراكها ، فالحرف (من) يُمثِّل بداية الطريق وأوليات الطلب ، وهذا يستلزم وجود خيارات أخرى للطالب يمكنه التوسُّل بها لتحقيق مطلوبه ، وهذا ما يشير إليه قوله (عليه السلام) مخاطباً معاوية : ((**وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً**)) [٣].

أمَّا الحرف (إلى) فهو يمثِّل الغاية التي يروم الطالب الحصول عليها ومن ثَمَّ فهو يمثل أكمل مراتب الحصول وأجلها ، فضلاً عن أنَّه يوحي بأنَّ الطلب قد استنفد كلَّ طرقه ووسائله ، وهي لم تكن مجدية ولا مسعفة فلم يبق إلَّا هذا الطريق . ويشير إلى ذلك قوله (عليه السلام) : ((**فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا**))[٤] ، وهذا ما ينطبق على حال معاوية كما ينطبق على حال المتقين ، فمعاوية قد استنفد كلَّ طرق المكر في الحصول على إمرة الشام بما فيها الخيار العسكري ، إلَّا أنَّها لم تكن لتصمد أمام صلابة الإيمان العلوي ؛ فاضطر لآخر الدواء ، ورمى بآخر ما في كنانته من خديعة . وهكذا الحال مع المتقين ، فهم يجدون الحصول على فكاك رقابهم هو غاية المنى ومنتهى الرغبة ، ولا يرون طريقاً في الهرب من الله تعالى إلَّا إليه عزَّ وجلَّ .

[١] التقييد في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٢٢٠ .
[٢] شرح المفصل : ٤/٤٥٩ .
[٣] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٦٩ .
[٤] المصدر نفسه : ٤٧٩ .

ومن الموارد الأخرى التي أخضعها بعض الشرَّاح لمبدأ النيابة أو التضمين ، قوله (عليه السلام) : ((**أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ**))[1] ، جاء في منهاج البراعة : (((إلى) في قوله : أحمده إلى نفسه ، لانتهاء الغاية ... وفي قوله : كما استحمد إلى خلقه ، لانتهاء الغاية أيضاً أو بمعنى (من)))[2] ، والاحتمالان مترتبان على دلالة صيغة (استحمد) ؛ لأنَّ (استفعل) تدلُّ على الطلب[3] ، فيكون معنى (استحمد) : طلبَ الحمدَ ، وعلى هذا فتقدير الجملة : طلبَ الحمدَ إلى خلقه ، وهنا يأتي الكلام الذي تقدَّم في المورد السابق ، فيكون تأويل وجود حرف الغاية وفق مذهب التضمين بتقدير حال تتناسب وحرف الظرفية : طلب الحمد موجّهاً طلبه إلى خلقه[4] ، فالإمام (عليه السلام) ((يحمد اللّه حمداً يكون به عند اللّه مرضيًّا ومحموداً ؛ لأنَّه على وفق ما أحبَّ سبحانه وأراد))[5] ، وأمَّا على مذهب النيابة ، فيكون التقدير : طلب الحمد لنفسه من خلقه [6] ، فهو (عليه السلام) يحمد الله تعالى ((حمداً يوافق ما طلبه من حمد خلقه له بأن يكون حمداً خالصاً له جامعاً لشرائط القبول والرضى)) [7] .

والتأويلان السابقان ليسا أكثر من بحث عن المخرج الذي يصحُّ معه التركيب ، فهما لا يكشفان عن سرِّ العدول إلى حرف الغاية ، وهذ ما اعترف به الخوئي نفسه ،

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٦٥ .

[2] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٧٦/١٠ .

[3] ينظر : المنصف (شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني) : ٧٨ ، ، والمفتاح في الصرف ، لعبد القاهر الجرجاني : ٥١ ، والممتع الكبير في التصريف : ١٣٢ ، واللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل ، لمحمد علي السَّراج : ٣٠ .

[4] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٨٠/١٠ .

[5] في ظلال نهج البلاغة : ٤٠/٣ .

[6] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٩٦/٣ ، و توضيح نهج البلاغة : ١٠٦/٣ .

[7] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢٠١/٣ .

يقول ـ بعد أن ذكر الاحتمالين ـ : ((والمآل واحد ، والمراد بيان فضل الحمد وكونه على وجه الكمال وخلوصه عن شوب الشرك والريا)) [١].

ولو حاولنا أن نتبيَّن موقف اللغويين إزاء التعبيرين لوجدنا ما يُشير إلى الفرق بينهما ؛ فقد ذهب بعضهم إلى أنَّه ((إذا كان الطلب رجاء قلنا : طلبت إليه ، وإذا كان الطلب أمراً أو مطالبة بحق قلنا : طلبت منه ، ولكنّ بعضاً آخر لا يفرِّق بين طلب إليه ومنه))[٢] ، ولا يخفى أنَّ الدلالة على الأمر أو الرجاء مرتبطة بمنزلة الطالب والمطلوب منه ، ولا مدخلية ـ هنا ـ لحرف الجر في بيانها ؛ فالطلب إذا كان صادراً ممَّن هو أعلى رتبة من المطلوب منه كان الطلب أمراً ، وإن كان العكس فالطلب رجاء [٣].

وقد ذهب أحد الباحثين إلى أنَّ السرَّ في استعمال (إلى) يرتبط بكون ((أسباب الثناء والحمد المتعلقة بذاته المقدسة واصلة إلى خلقه ظاهرة عندهم كي يحمدوه وهذا من لطفه وتمام نعمته ... وكأنّ الإمام (عليه السلام) أراد أن يكون هذا الحمد على وفق ما أحبَّ سبحانه غاية ونهاية إليه))[٤] ، وهذا هو المعنى الذي يظهر من كلمات بعض الشرَّاح ، يقول ابن أبي الحديد : ((استحمد إليهم : فعل ما يوجب عليهم حمده)) [٥] وعلى الرغم من وجاهة هذا الكلام ، إلَّا أنّه يفتقر إلى ما يسوغه من جهة الصناعة الصناعة اللغوية .

---

[١] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٨٠/١٠

[٢] معجم الصواب اللغوي : ٥٠٨/١ .

[٣] ينظر : مفتاح العلوم : ليوسف بن أبي بكر السكاكي : ٣١٨ ، وجواهر البلاغة ، لأحمد بن إبراهيم الهاشمي : ٧١ ، وعلوم البلاغة (البيان ، المعاني ، البديع) : ٧٥ .

[٤] جهود حبيب الله الخوئي النحويَّة في شرح نهج البلاغة : ٢٠٢ .

[٥] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١١٣/١٠، وينظر : الدرة النجفية : ٢١٥ .

والذي يبدو لي أنَّ الفرق بين استعمال الحرفين يترتَّب على تأثيرهما على معنى صيغة الفعل (استحمد) ، فإن تأولنا حرف الغاية بحرف الابتداء ، أي : استحمد من خلقه . فسيكون معنى صيغة (استحمد)هو الطلب ، أي : طلب من خلقه أن يحمدوه ، ولا ريب أنَّ هذا النوع من الحمد يتحقَّق بأدنى مراتب الحمد ، وأمَّا إذا أبقينا على دلالة حرف الغاية : استحمد إلى خلقه . فسيكون معنى صيغة (استحمد) هو معنى الفعل (حمد) ؛ لأنَّ استفعل يأتي بمعنى فعل[1] ؛ فيكون المعنى : أحمده كما حمد نفسه إلى خلقه ، ولا إشكال في كون ذلك الحمد هو أعلى مراتب الحمد ، ويؤيِّد هذا المعنى ما في صيغة (استحمد) من زيادة على صيغة (حمد) للدلالة على المبالغة [2].

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ الفرق بين المعنى المؤدَّى بالحرف (إلى) والمعنى المؤدَّى بالحرف (من) ، هو الفرق بين الحمد الذي يُطلَب من العبد أن يؤدِّيه بالصورة التي يراها ذلك العبد ، وبين الحمد الذي يؤدِّيه العبد بالصورة التي أرادها الله سبحانه وتعالى ، فالأولى تقع في بداية مراتب الحمد ، وأمَّا الثانية فهي تتبوأ غاية مراتب الحمد وأكملها ، وهي المرتبة التي تليق بمقام التوحيد الخالص الذي يمثله أمير المؤمنين (عليه السلام) .

---

(1) ينظر : الممتع الكبير في التصريف : ١٣٢ ، وشرح شافية ابن الحاجب : ١/ ١١٠ ، واللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل : ٣٠ .

(2) ينظر : أبنية المصادر في نهج البلاغة : فائزة عبد الأمير شمران الخاقاني ، (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية التربية للبنات ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩ م : ٣٢٣ ، أبنية المبالغة وأنماطها في نهج البلاغة ، دراسة صرفيَّة نحويَّة دلاليَّة : حيدر هادي خلخال الشَّيْباني ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م : ٨٥ ، ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل : ٩٩ . وقد صرح الرضي بذلك في (شرح الرضي على الشافية : ٨٣/١) ، يقول : ((اعلم أن المزيد فيه لغير الالحاق لابد لزيادته من معنى، لأنَّها إذا لم تكن لغرض لفظي كما كانت في الالحاق ولا لمعنى كانت عبثا ، فإذا قيل مثلا : إنَّ (أقال) بمعنى (قال) ، فذلك منهم تسامح في العبارة)) .

المبحث الثاني

أسرار التعبير بالحرف (على)

هو حرف جرٍّ مبنيٌّ على السكون ، يجرُّ الظاهر والمضمر[1] ، ويجب قلب ألفه ياء ياء إذا كان المجرور بها ضميراً ، فإن كان الضمير ياء المتكلم أدغمت الياءان ، كقوله (عليه السلام) للأشعث : ((**مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي ، عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ**)) [2].

ولا ريب عند النحويين في أنَّ معنى الاستعلاء هو أصل معانيها[3] ، وأكثرها استعمالاً[4] ، بل هو المعنى الغالب[5] ؛ ولهذا ((لم يثبت لها كثير من البصريين غيره ، وأوَّلوا ما أوهم خلافه))[6] على التضمين ، وأمَّا المعاني الأخرى التي قيل بدلالة حرف الاستعلاء عليها ، فهي نابعة من تجويز النيابة بين حرف الاستعلاء وبعض حروف الجر الأخرى ، وهو ما قال به الكوفيون ، ومَن وافقهم [7] .

وممَّا يُحسَبُ للنحويين ـ في بحثهم لمعنى الاستعلاء ـ تسليطهم الأضواء على دلالة الاستعلاء ، وذلك من جهتين :

الجهة الأولى : تحديد الدائرة الدلالية لمعنى الاستعلاء ، فذهبوا إلى أنَّ الاستعلاء إمَّا أن يكون : حقيقيًّا ، وهو يشمل الاستعلاء الحسِّيّ ، كقوله تعالى : ﴿ **وَعَلَيْهَا وَعَلَى**

---

[1] اللمحة في شرح الملحة : ٢٢٩/١ ، وينظر : معجم القواعد العربية : ٤١٢ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٦١ .

[3] ينظر : توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك : ٧٥٩/٢ .

[4] ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٣٧/٣ ، والنحو الوافي : ٢/ ٥٠٩ .

[5] ينظر : شرح التصريح على التوضيح : ٦٥٠/١ .

[6] توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك : ٧٥٩/٢ .

[7] ينظر : الجنى الداني : ٤٨٠ .

الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [1] ، والاستعلاء المعنوي ، كقوله تعالى : ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ [2] ، أو مجازياً ، كقوله تعالى : ﴿ **أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى** ﴾ [3] ، وقد اختلف النحويون في ضابطة المعنى المجازي ، فذهب بعض النحويين كابن هشام والصبَّان إلى أنَّه يصدق إن كان الاستعلاء على ما يقرب من المجرور[4] ، ولذا تأوَّل تأوَّل الدماميني الآية الكريمة بقوله : ((أو أجد على المكان الذي هو قريب من النار هادياً يدلني على الطريق))[5] ، وذهب غيرهم إلى أنَّ الاستعلاء يكون ((مجازاً فيما ما ما يغلب الإنسانَ ، كقولك : عليه كآبة ، أَي : تغلبه وتظهر عليه ، وعليه دَيْنٌ ، أَي : لزمه الانقياد بسببه كانقياد المركوب لراكبه ، وهو معنى قول الفقهاء (على) للإيجاب)) [6].

الجهة الثانية : تتبُّعهم للسمات الدلالية المترتبة على معنى الاستعلاء من خلال الاستعمال الفني له ، وقد أجاد النحويون في بيانها واستظهارها ، فابن جني يرصد الدلالات التي تلزم من علو شيء على آخر ، وهي أنَّ المرتفِع على غيره سيكون خافضاً لما تحته وشاقًّا عليه ، جاء في الخصائص : ((وإنَّما اطَّردت (على) في الأفعال ... مثل : خربت عليه ضيعته ، وموتت عليه عوامله ، ونحو ذلك ، من حيث كانت (على) في الأصل للاستعلاء. فلمَّا كانت هذه الأحوال كلفاً ومشاق تخفض الإنسان وتضعه وتعلوه وتفرعه حتَّى يخضع لها ويخنع لما يتسدَّاه منها ، كان ذلك من مواضع (على)))[7] ، واستظهر ابن مالك والسيوطي دلالتي الثقل والتمكُّن ، جاء في

---

[1] سورة المؤمنون ، الآية : ٢٢ .
[2] سورة البقرة ، الآية : ٢٥٣ .
[3] سورة طه ، الآية : ١٠ .
[4] ينظر : مغني اللبيب : ١/٥٤ ، و حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٢/٣٣٣ .
[5] شرح الدماميني على مغني اللبيب : ٢/٢٤ .
[6] اللباب في علل البناء والإعراب : ١/٣٥٩ .
[7] الخصائص : ٢/٢٧٤ .

شرح التسهيل : ((ومن الاستعلاء المعنوي وقوعها بعد كبر وضعف وعسر وعظم مما فيه معنى ثقُل ، وكذلك ما دلَّ على معنى تمكُّن ، نحو ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [1] ، و (أنا على عهدك ووعدك ما استطعت))) [2].

وفي ظل هذه الدلالات والايحاءات ، وجد الباحثون في لطائف التعبير ضالتهم في تلمُّس النكات الدلالية التي تضع الحد الفاصل بين حرف الاستعلاء وسائر الحروف الأخرى ، ففي الآيات التي تتحدَّث عن نعمة الفلك ، نجد اختلاف التعبير بحرف الجر مع وحدة الفعل (حمل) ، كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ﴾ [هود : ٤٠] .

ويكفينا ـ هنا ـ أن نأتي بنموذجين من الأقوال التي حاولت تفسير هذا التغاير اللفظي ؛ ليظهر لنا الفرق بين المتوقِّفين عند عتبة الألفاظ وبين المنقبين في مناجم المعنى ، فقد اكتفت الطائفة الأولى بالقول : ((﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [3] مجازها : وفي الفلك تحملون))[4] ، أو ذهبت إلى أنَّه ((لمَّا كان الفُلْكُ يَصِحُّ أَن يُقال فيه : حَمَلَ في الفُلك ، كقوله: ﴿ احْمِلْ فِيهَا ﴾ [5] ، وَيَصِحُّ أَن يُقال فيه : حَمَلَ على الفُلك ، اعتُبِر لفظ على لمناسبة قوله : وعليها ، وإن كان معنى في صحيحاً))[6] ، أمَّا أمَّا الطائفة الثانية فذهبت إلى أنَّ (((على) في هذا الموضع أوضح ، من جهة أنَّ غيره ممَّا ذُكر فيه ما يكون باطن الفلك ، وهو الأكثر ، فغلب ، فكانت (في) أحسن

---

[1] سورة البقرة ، الآية : ٥ .

[2] شرح تسهيل الفوائد : ١٦٣/٣ ، وينظر : همع الهوامع : ٤٣٩/٢ .

[3] سورة المؤمنون ، الآية : ٢٢.

[4] مجاز القرآن ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى : ١٩٥/٢ .

[5] سورة هود ، الآية : ٤٠ .

[6] البحر المحيط : ٢٧٦/٩ ، وينظر : الكشاف : ١٨١/٤ ، ومفاتيح الغيب : ٥٣٤/٢٧ .

لتحقُّق معنى الظرفية وبعد معنى (على) ، لأنَّ المذكور محمولٌ ثمَّ الأزواج كلّها ، وكان أكثرها في باطن الفلك ، وأعلى السفن مخصوص بالآدميين على ما هو العادة ، فلما خصوا في قوله : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [١] ، كانت (على) أوضح . وفي هذا الموضع لم يُرَد ذلك المعنى من الأزواج وإنَّما أريد المخاطبون خاصة ، وليسوا في العادة في باطن الفلك ، وإنَّما يكون على ظاهرها ، فأتى بما يدلُّ على معنى الاستعلاء تنبيهاً على هذا المعنى)) [٢] .

ولا ريب في أنَّ استعمال حرف الاستعلاء في نهج البلاغة لم يكن بعيداً عن موازين البلاغة القرآنية ، فهو يجمع بين أناقة اللفظ وعمق المعنى ، ومن بدائع هذا الاستعمال ما جاء في كتابه (عليه السلام) إلى معاوية ، يقول (عليه السلام) : ((**ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَ أَمْرِ عُثْمَانَ ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ وَ أَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ أَ مَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ ، أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْه**)) [٣] ، وهنا تظهر البراعة العلوية في الجمع بين الفعل (أتى) وحرف الاستعلاء لوصف الكيفية التي حصل فيها قتل عثمان بن عفان ، فدلالة الفعل (أتى) تؤذن بسهولة المجيء [٤] ، فضلاً عن كونها محاطة بمعاني الشك والغموض والجهل [٥] ، فإذا انضم إلى هذه الدلالة ما يوحي به حرف الاستعلاء من ثقل الآتي وشدَّة وطأته فسيكون التعبير بـ ((أتى على الشيء بمعنى أهلكه)) [٦].

وفي ظلِّ هذا التلاقح الدلالي بين الحرف وسياقه يرتسم أمامنا مشهد القتل بكلِّ حرارته وبكلِّ حيويته ، فهو يشي بأنَّ القتل قد حصل في ظرف من الغموض والملابسات ، وأنَّه قد تمّ بصورة سهلة ويسيرة ؛ لتخاذل أنصاره عنه ، وتثبُّطهم عن

---

[١] سورة المؤمنون ، الآية : ٢٢.

[٢] أمالي ابن الحاجب ، لعثمان بن عمر ابن الحاجب الكردي : ٢٥٥/١ .

[٣] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٨٧ .

[٤] المفردات في غريب القرآن : ٦٠ .

[٥] ينظر : الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق ، د. محمد نور الدين المنجد : ١٤٦ .

[٦] معجم الصواب اللغوي : ٨/١ . ومن ذلك قوله تعالى: {مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} [الذاريات : ٤٢].

نصرته ، فضلاً عن رغبة قاتليه بقتْلهِ ؛ إذ استسهلوا ذلك ولم يجدوا صعوبة فيه ، لأنّهم اعتقدوه مستحقاً لذلك[1].

وبناء على ما تقدَّم ، فإنَّه يمكننا أن نجد سرَّ التعدُّد في معاني الحرف (على) وتفسير ما ذهب إليه النحويون من التداخل بينه وبين الحروف الأخرى ؛ والذي يبدو أنَّ ذلك متعلق بالمتكلم ، فهو يقصد أحياناً الإيماء إلى لوازم معنى الاستعلاء ، فيأتي بالحرف (على) ، فإن وقع ذلك في سياق لم يكن يألف حضور حرف الاستعلاء ، فيترتب عدم الانسجام اللفظي الذي حاول النحويون أن يجدوا المخرج منه باللجوء إلى النيابة أو التضمين ، بدلاً من التعمُّق في فهم المعنى المقصود بهذا التعبير المتفرِّد .

إيثار حرف الاستعلاء على حرف الإلصاق (الباء) :

استدل الفرَّاء والأخفش على هذه النيابة بما وجداه من تعاقب الحرفين على موضع واحد في كلام العرب ؛ فذهبوا إلى أنَّ ((العرب تجعل الباء في موضع على))[2] ، وهذا الأمر ليس بصحيح ؛ لأنَّ قبول الكلام لأكثر من حرف يستلزم تغيُّراً دلالياً ، إلَّا أنَّ ذلك قد يكون واضحاً وجليًّا بسبب التباعد الدلالي بين الحرفين ، كقولنا : خرجت من البيت ، وخرجت إلى البيت ، فالبيت ـ في الجملة الأولى ـ هو مبدأ الخروج ، أمَّا في الثانية فهو غاية الخروج ، وقد يكون خفيًّا بسبب التقارب الدلالي بين الحرفين ، كقولنا : ركبت في السيارة ، وركبت بالسيارة .

وعلى الرغم من ضعف هذا المستند فقد تمسَّك به بعض النحويين والمفسرين وأسقطوه على أفصح الكلام ، فتأوَّلوا ـ على أساسه ـ بعض الآيات القرآنية ، كقوله تعالى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [الأعراف : ١٠٥] جاء في الجنى الداني : ((السابع : موافقة الباء ، كقوله تعالى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ ﴾ أي : بألَّا أقول .

---

[1] ينظر : مستويات التلقي في شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري : ١٣١ .

[2] معاني القرآن ، للفراء : ٥٠٣ ، وينظر : معاني القرآن ، للأخفش : ٣٣٤/١ .

وقرأ أُبَي [١]: بأن ، فكانت قراءته تفسيراً لقراءة الجماعة . وقالت العرب : اركب على اسم الله ، أي : باسم الله))[٢] ، وما ذكره المرادي قابل للمناقشة ؛ لأنَّ التسليم بقراءة أُبَي لا يقتضي كونها تفسيراً للقراءة المشهورة ، أمَّا إيثار حرف الاستعلاء في قول العرب فهو ينطوي على نكتة دلالية ستأتي الإشارة إليها لاحقاً .

وقد تباينت مواقف النحويين والمفسرين في التوصل إلى القول الفصل في تأويل حرف الاستعلاء في هذا الموضع[٣] ، فمنهم مَن أيَّد مذهب النيابة واستحسنه[٤] ، ومنهم مَن تأوَّلها على تضمين (حقيق) معنى (حريص)[٥] ، أمَّا الزمخشري فيبدو أنَّ رأيه هو الأقرب إلى روح المعنى ، يقول : ((والرابع ـ وهو الأوجه ـ الأدخل في نكت القرآن : أن يعرق[٦] موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لا سيَّما وقد روي أنَّ عدو الله فرعون قال له ـ لمَّا قال : ﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ﴾ ـ كذبت ، فيقول : أنا حقيق عليَّ قول الحق ، أي : واجب على قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ، ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به)) [٧].

والحقيقة أنَّ شرَّاح النهج لم يحيدوا عن المسار الذي رسمه النحويون ؛ إذ فسَّروا بعض الموارد بالطريقة نفسها ، كما يتضح ذلك في قوله (عليه السلام) : ((**قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ**)) [٨] يقول الخوئي : ((الظاهر أنّ لفظة (على) بمعنى باء المقابلة ، وقد صرّح في شرح التصريح بأنَّ أحد معانيها موافقة الباء))[٩] ، وقد أيَّد أحد الباحثين هذا الرأي موجِّهاً

---

[١] ينظر : معجم القراءات ، د. عبد اللطيف الخطيب : ١١٤/٣ .
[٢] الجنى الداني : ٤٧٨ ، وينظر : شرح تسهيل الفوائد : ١٦٥/٣ ، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٩٣ .
[٣] ينظر : نواهد الأبكار وشوارد الأفكار : ٤٣٦/٣ .
[٤] ينظر : التحرير والتنوير : ٣٨/٩ .
[٥] ينظر : البحر المحيط : ١٢٨/٥ .
[٦] لعلَّه (يغرق) ؛ جاء في أساس البلاغة . غرق : ٧٠٠/١ : ((ومن المجاز: أنا غريق أياديك. وأغرق الرامي النزع ، ومنه: الإغراق في القول وغيره وهو المبالغة والإطناب)) .
[٧] الكشاف : ١٣٨/٢ .
[٨] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٧٧ .
[٩] منهاج البراعة ، للخوئي : ٨٦/٢١ ، وينظر : شرح التصريح على التوضيح : ٦٥١/١ .

معنى العبارة بقوله : ((أي : بمقدار همّة الرجل وعلوِّ نفسه يكون قدره ، فالهمَّة هي المعيار الصحيح الذي يجب أن يُقابَل به قدر الرجل))[1] ، ولا إشكال في صحَّة هذا المعنى ؛ لأنَّ تلك الأمور المذكورة بعد حرف الجر هي مقاييس للفضائل المذكورة قبله ، ولكنَّ دلالة الجملة لا تتوقف عند هذا المقدار من المعنى ، وإلَّا لكان استعمال حرف الإلصاق هو الأليق بهذا الموضع ، فيكون كقوله (عليه السلام) لطلحة والزبير : ((**وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ**))[2] .

والذي يبدو أنَّ المجيء بحرف الاستعلاء ينطوي على نكتة لطيفة تتجلَّى في دلالته على أنَّ هذه الأمور الأربعة (قدر الرجل ، وصدقه ، وشجاعته ، وعفته) إنَّما تتولَّد من تلك الملكات النبيلة ، وتنمو على تلك الأسس ، فهي أمور ظاهرة للعيان ، ولكنَّها ترتبط بأمور باطنية ، وتكشف عن مكنون نفسي ، فكأنَّها فروع تعلو على ذلك الأصل الطيِّب ، ومن البديهي أنَّه كلَّما كان الأصل ثابتاً كان الفرع سامقاً ، ولولا دلالة الحرف (على) على الاستعلاء والتمكُّن والظهور لما تمكَّن التعبير من رسم هذه الملامح ، ولا استطاع بيان العلاقة المتبادلة بين تلك الأطراف ، فلا وجود ـ مثلاً ـ لفضيلة الشجاعة ما لم ينطو صاحبها على أنفة وعزَّة نفس ، فضلاً عن أنَّ استبانة الشجاعة وظهورها تكشف عن مقدار أنفة صاحبها ، وهكذا الأمر مع الأمور الأخرى ، ولعلَّ أبا الطيب المتنبي ما كان ليبلغ غاية الإبداع إلا حين ترجم هذه المعاني في شعره ، ومن ذلك قوله المشهور [3]:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ   وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ .

---

(1) حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٣٤ .

(2) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٤٥ .

(3) ديوانه : ٣٨٥ ، وينظر : شرح ديوان المتنبي ، لأبي البقاء العكبري : ٣٧٨/٣ .

وتتوالى تعبيرات كثيرة في النهج بيان هذه الحقيقة ، نقتطف منها قوله (عليه السلام) : ((**سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ**))[1] ، وفُسِّر حرف الاستعلاء على الطريقة المألوفة من نيابة حرف الاستعلاء عن حرف الإلصاق ، وبهذا التوجيه يكون المعنى : ((أي : سيروا ملتصقين باسم الله أو مستعينين باسم الله))[2] ، وهذا التأويل يتطابق مع توجيه النحويين ، جاء في اللمحة : ((وتكون بمعنى (الباء) ، كقولك : سِرْ على اسمِ الله)) [3] .

ولا ينبغي أن يخالجنا شكٌّ في أنَّ إيثار الحرف (على) في هذا التعبير ينبئ عن لمسة بيانية ، وقد أجاد الرضي في الإشارة إليها بقوله : ((سِر على اسم الله ، أي : ملتزماً به ، فكأنَّه مركب يحملك إلى مقصودك))[4] ، والقراءة المتأنية للسياق الذي ورد فيه هذا التعبير والمقام الذي قيل فيه ، تكشف عن سرِّ العدول إلى حرف الاستعلاء ، ومن ثمَّ يبدو استعماله حتميًّا ومنطقيًّا ، فالسياق بصدد الردِّ على مزاعم ذلك المنجِّم الذي حذَّرهم من المسير إلى العدو في تلك الساعة ، يقول (عليه السلام) : ((**أَ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ وَاسْتَغْنَى عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ** ...)) ثم ينتقل إلى تقوية روح الإقدام في الجماعة المقاتلة ويكفكف فيها شعور التراجع والتردُّد ، وهو مقام يحتاج إلى لفتة فيها توكيد وتشديد ، فيقول (عليه السلام) : ((**سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ**)) فحرف الاستعلاء هو الأنسب بهذا الموضع ؛ لأنَّه يُكسِب التعبير ثوباً من المبالغة في الحماية والحفظ ، مع ما يُشعر به من المغالبة والقهر ، فكأنَّ هذا الاسم المبارك جُنَّة يتدرعون بها ويستعلون بها على خوفهم .

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٠٥ .
[2] حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٣٤ .
[3] اللمحة في شرح الملحة : ٢٣١/١ .
[4] شرح الرضي على الكافية : ٣٢٢/٤ .

إيثار حرف الاستعلاء على حرف المجاوزة (عن) :

يظهر من كلمات النحويين أنَّ مسوِّغ التناوب بين الحرفين مرتبط بالتقارب الدلالي بينهما ، فإذا وقعت (على) بعد ما يدلُّ على البُعد ازداد ذلك التقارب إلى الحدِّ الذي يصحِّح نيابتها عن الحرف (عن) ، جاء في شرح التسهيل : ((واستعماله للمجاوزة كوقوعها بعد بَعُد وخفي وتعذّر واستحال وحرم وغضب وأشباهها ، ولمشاركتها (عن) في المجاوزة تعاقبها في بعض المواضع نحو رضي عنه ورضي عليه ، وأبطأ عنه وعليه ، وأحال عنه وعليه ، إذا عدل عنه ، وولّى بودّه عنه وعليه))[1] ، وبهذه الطريقة تأوَّلوا قول الشاعر[2] :

إذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ ... لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا

أي : عني[3] ، وقد جوَّز ابن هشام تضمينه لمعنى الفعل (عطف) المتعدِّي بحرف الاستعلاء[4] ، وضمَّنه غيره معنى لفعل (أقبل)[5] ، أمَّا الرضي فقد فسَّر ذلك بالحمل على الضدِّ ؛ إذ ((حمل (رضيت) في التعدِّي على ضدِّه ، أي : سخطت ، كما حمل (بعت منه) ، على : اشتريت))[6] ، ورجَّح ابن عصفور التأويلين الأخيرين على مذهب مذهب النيابة بقوله : ((وإنَّما كان هذا أولى من جعل (على) بمعنى (عن) ؛ لأنَّ التصرُّف في الأفعال أولى من التصرُّف في الحروف ، وأيضاً فإنَّ الفعل إذا عُدِّي

---

(1) شرح تسهيل الفوائد : ١٦٣/٣ ، وينظر : أوضح المسالك : ٣٨/٣ ، والجنى الداني : ٤٧٧ ، و اللمحة في شرح الملحة : ٢٣٠/١ ، والنحو الوافي : ٢/ ٥١٠ .

(2) البيت لقحيف العامري ، ينظر : المعجم المفصل في شواهد العربية : ٢٧٩/٨ .

(3) ينظر : شرح شذور الذهب : ٢/ ٥٤٨ ، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٢/ ٩٢ ، و ضياء السالك إلى أوضح المسالك : ٢٨٤/٢ .

(4) ينظر : مغني اللبيب : ٥٤/١ .

(5) ينظر : شرح التصريح على التوضيح : ٦٥١/١ .

(6) شرح الرضي على الكافية : ٣٢١/٤ ، وينظر : الخصائص : ٣١٤/٢ .

خلاف تعدِّيه الذي له في الأصل كان لذلك مسوِّغ وهو حمل الفعل على نظيره في المعنى أو نقيضه ، وليس لجعل الحرف بمعنى حرف آخر مسوِّغ)) [١].

وعلى الرغم من اختلاف الآراء المتقدِّمة في معالجة العدول اللفظي إلَّا أنَّها تتفق في الهدف ؛ لكونها تتجه صوب إيجاد المبرر لورود الحرف في غير موضعه المتعارف عليه ، وليس همها الوصول إلى السرِّ الذي ينطوي عليه ؛ ولذا فإنَّا نحس بأنَّ كلَّ حرف من حروف الجر له ملامحه المميِّزة ، ومحوره الذي تتجذب إليه ظلاله المعنويَّة ، وفي مقام إثبات ذلك فإنَّ نصوص نهج البلاغة تبلغ في بيان هذه الحقيقة مبلغاً حاسماً جازماً ، لا سبيل إلى تمويهه ؛ لأنَّها من القوَّة والوضوح بحيث لا تقبل الجدال ! ويظهر ذلك جليًّا في المواضع التي تراوح في الاستعمال بين (على) و (عن) ، كما نلحظ ذلك مع موضوع الصبر ؛ إذ أوثر معه الحرف (عن) في أربعة مواضع ، جاءت كلُّها في الصبر عن أمر محبوب ، كقوله (عليه السلام) على قبر رسول اللَّه (صلى الله عليه وآله) ساعة دفنه : ((**إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ**))[٢] ، وقوله (عليه السلام) عند عند دفن سيِّدة النِّساء فاطمة (عليها السلام) : ((**قَلَّ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي**))[٣] وقوله (عليه السلام) : ((**وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ**)) [٤] .

أمَّا المواضع التي جيء فيها بالحرف (على) فهي كثيرة ، جاءت كلُّها في الصبر على المكروه ، كقوله (عليه السلام) : ((**وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ**))[٥] ، وقوله (عليه السلام) : ((**فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ**))[٦] .

---

[١] شرح جمل الزجاجي ، لابن عصفور الإشبيلي : ٥٣٢/١ .
[٢] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٢٧ .
[٣] المصدر نفسه : ٣١٩ .
[٤] المصدر نفسه : ١٦٧ .
[٥] المصدر نفسه : ٦٠٣ .
[٦] المصدر نفسه : ٤٨ .

ولو مضينا نستقرئ المعطيات السياقية في قوله (عليه السلام) : ((**الصَّبْرُ صَبْرَانِ صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ وَ صَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ**))[1] لرأينا ما يُلخِّص الدِّقة في اختيار حرفي الجر ؛ إذ جيء بـ (على) مع المكروه الذي تنفر النفس منه ؛ لما في وقوعه من الضرر والثقل ، فكأنَّه مستعلٍ على مَن وقع عليه وجاثمٌ على صدره ، كما يُلحظ ذلك في الأمثلة السابقة ، فـ [المكروه ، وطول المدة التي اغتصب فيها حقُّه ، وطاعة الله المتمثلة بالإتيان بجميع أوامره واجتناب جميع نواهيه] كلُّها أمور تصعب على النفس وتشق عليها ؛ أمَّا (عن) فقد جيء بها مع أمرٍ محبوب زوي عن راغب فيه ، ونجد ذلك في مفارقته (عليه السلام) لحبيبه المصطفى (صلى الله عليه وآله) ، وفراقه لسيدة النساء (عليها السلام) ، ومفارقة أبناء الدنيا لشيء لزخارفها ، ولا شك في أنَّ النوع ((الأول أشقُّ من النوع الثاني ؛ لأنَّ الأول صبر على مضرة نازلة ، والثاني صبر على محبوب متوقَّع لم يحصل))[2] .

وربَّما يقال : إنَّ رزية فقد النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وابنته الصديقة (عليها السلام) من أشدِّ الرزايا وأعظم المصائب ، فلماذا يستعمل معهما حرف المجاوزة ؟ والحقيقة أنَّ دلالة (عن) تتكامل مع سياقها في رسم صورة المعاناة التي أحاطت بقلبه (عليه السلام) ، فدلالة حرف المجاوزة ((على أنَّ شيئاً كان ملابساً لشيء ثمَّ عرِّي عن تلك الملابسة))[3] تشير إلى أنَّ انفصام عرى التجاذب الروحي بين الذوات الطاهرة قد حطَّم حواجز الصبر في نفسه (عليه السلام) ، فإذا أضيف إلى ذلك ما جاء في سياق القولين فستكتمل الصورة المهولة لذلك المصاب ، فأسلوب القصر الوارد في القول الأوَّل يؤذن بمدى مرارة الحدث ؛ إذ أنَّه يوحي بأنَّ الصبر يتخلَّف عن صفة الحُسن ، فلا يكون جميلاً وحسناً في هذا المورد ، وأمَّا القول الثاني فتصديره بالفعل (قلَّ) واستعمال النداء الذي

---

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٧٨ .

(2) شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٨٩/١٨ .

(3) كتاب شرح الجمل في النحو للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١هـ) تحقيق ودراسة : خديجة محمد حسين ، (رسالة ماجستير) ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٨هـ : ١٨٠ .

يوحي بالاستنجاد وطلب العون فضلاً عن إضافة الصبر إلى نفسه القدسية ، كلُّ ذلك يرشدنا إلى أنَّ الصبر قد وصل إلى أقصى مراحله ، وبلغ مبلغاً كبيراً ؛ كيف لا وهو القائل في رثائه [1]:

نَفْسِي عَلَى زَفَرَاتِهَا مَحْبُوسَـةٌ   يَا لَيْتَهَا خَرَجَتْ مَعَ الزَّفَـرَاتِ

لَا خَيْرَ بَعْدَكَ فِي الحَيَاةِ وَإِنَّمَا   أَخْشَى مَخَافَةَ أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

ومن الموارد التي قيل فيها بالنيابة قوله (عليه السلام) : ((**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأَمُوُرِ ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ ، فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ**))[2] ، ولكون الفعل (منع) متعدِّياً بالحرف (عن)[3] فقد تأوَّله بعض الشرَّاح على هذا الأساس ، جاء في مفتاح السعادة : ((الظّاهر أنَّ الفاعل في قوله (عليه السلام) : امتنع ، هو اللّه تعالى ، أي : امتنع اللّهُ تعالى عن أن يكون مرئيًّا بالأبصار والعيون الظّاهرة)) [4] ، وقد حاول أحد الباحثين أن يبرِّز السرَّ في اختيار حرف الاستعلاء بقوله : ((ويبدو أنَّ دلالة هذا الحرف على المجاوزة لم تكن دلالة مجرَّدة ، وإنَّما دلالة يشوبها معنى الاستعلاء ... إذ المعروف أنَّ البصير يرى كلَّ شيءٍ إلَّا الله سبحانه وتعالى ، فمهما بلغت قدرة العين فإنَّها تجاوز الله سبحانه وتعالى وتبتعد عنه ، وهذا ما دلَّ عليه تعلق الجار والمجرور (على عين) بالفعل (امتنع) مع استشفاف دلالة العلو ، وكأنَّ الامتناع أعلى من عين البصير))[5] ، وهذا الكلام لا يخلو من المسامحة ؛ لأنَّ البصير لا يتمكن من رؤية كلِّ الموجودات لتناهيها في الصغر أو تماديها في البعد ، فضلاً عن أنَّ ربط الامتناع بعدم قدرة العين يوحي بأنَّ الاستعانة بما يجاوز نظر العين يرفع ذلك الامتناع .

---

(1) بهج الصباغة : ٢/ ٥٠٢ .

(2) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٨٧ .

(3) ينظر : أساس البلاغة . (منع) : ٢٢٩/٢ ، والمصباح المنير . (منع) : ٥٨٠/٢ .

(4) مفتاح السعادة : ٢٦/٧ .

(5) تعلق شبه الجملة في نهج البلاغة : محمود عبد حمد اللامي ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م : ٦٩ .

والذي يدقِّق النظر في دلالة حرف الاستعلاء سيتجلَّى له أنَّ هذا التعبير الفريد قد صيغ على جانب كبير من الدِّقة في إيثار حرف الاستعلاء ، لانسجامه مع سياقه الذي وضعت كلُّ مفرداته لتحقيق استحالة رؤيته تعالى ؛ فاستعمال صيغة (افتعل) من الفعل (منع) يدلُّ على المبالغة في حصول المنع وشدته[١] ، ولا يمكن أن يكون مطاوعاً للفعل (منع) لعدم انسجام معنى المطاوعة مع اسناد الفعل إلى الله تعالى ، وإضافة العين إلى البصير للدلالة على شمول الامتناع لكلِّ مبصر سواء كان إنساناً أم حيواناً أم غير ذلك ممَّا هو أكثر قدرة على الإبصار؟ ثمَّ إنَّ المجيء بحرف الاستعلاء يمثِّل انزياحاً ينبِّه على معنًى لطيف يرتبط بما يستلزمه الاستعلاء من دلالات ، فمع هيمنة ذاته تعالى وإحاطتها بكلِّ شيء ، وهذا يعني قربها وحضورها ، فهي ـ في الوقت نفسه ـ ممتنعة عن الرؤية امتناعاً ذاتياً ؛ لاستعلائها على الجسمية والمادية ؛ إذ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، وهذا المعنى المستفاد من حرف الاستعلاء يتطابق مع قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الانعام:١٠٣] ، ولو رحنا نستبدل الحرف (على) بالحرف (عن) لما حصلنا على المعنيين المذكورين ، بل تقتصر الدلالة حينئذٍ على مجاوزة الذات المقدسة لأن تكون محلاً للرؤية ، وليس فيها ما يؤذن بالهيمنة والاحاطة .

إيثار حرف الاستعلاء على حرف الظرفية (في) :

صرَّح كثير من النحويين بنيابة حرف الاستعلاء عن حرف الظرفية[٢] متأوّلاً بعض الآيات الكريمة على أساس هذه النيابة ، جاء في الهمع : ((وبِمَعْنى (فِي) ، أَي : الظَّرفيَّة ، نَحْو : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [٣] أَي : فِي ملكه ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ﴾ [٤] أَي : فِي حِين))[٥] ، وقد حاول بعض النحويين أن

---

[١] ينظر : شذا العرف ، لأحمد بن محمد الحملاوي : ٣٣ .

[٢] نسب الأزهري هذا القول إلى الكوفيين . ينظر : شرح التصريح على التوضيح : ٦٥١/١ .

[٣] سورة الْبَقَرَة ، الآية : ١٠٢.

[٤] سورة الْقَصَص ، الآية : ١٥.

[٥] همع الهوامع : ٤٣٩/٢ .

يضع الضابطة التي يمكن على أساسها الحكم بنيابة حرف الاستعلاء عن حرف الظرفية ، يقول الأستاذ عباس حسن : ((إذا جرَّت (على) الظرف كانت بمعنى (في) وقد نص (الخضري) [1] على هذا في باب الإضافة)) [2].

ويبدو أنَّ هذا الأمر هو الذي دعا بعض الباحثين إلى تقدير الظرف بعد حرف الاستعلاء لتسويغ هذه النيابة في قوله تعالى : ﴿ **وَاتبعُوا مَا تتلوا الشَّيَاطِين على ملك سُلَيْمَان** ﴾ [سورة البَقَرَة : ١٠٢] ؛ لأنَّ مدخول الحرف (مُلْك) ليس من الظروف ، فلا تنطبق عليه القاعدة ، فضلاً عن أنَّ الفعل (تلا) ((يتعدَّى بعلى إذا كان مُتَعلِّقُها يُتلَى عليه ؛ لقوله : يُتلَى على زَيدٍ القُرآنُ ، وليس المُلك هنا بهذا المعنى ، لأنَّه ليس شخصاً يُتلى عليه)) [3] لهذا تأوَّلها الدكتور أحمد محمد عبد الله بقوله : ((أي : ما تتلو الشياطين في زمن ملكه ، ويحتمل أن تكون (على) في الآية حقيقتها إذا ضمِّن (تَتْلُو) معنى (تقول) ، فيكون بمنزلة ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ** ﴾ [4])) [5] .

وإذا تأمَّلنا في الأقوال السابقة فإنَّنا نجدها لا تذهب أبعد من تحقيق الانسجام اللفظي ولو على حساب المعنى ، ولو تدبَّر القائلون بها في الظلال المعنوية لحرف الاستعلاء لأدركوا أنَّ الإبقاء على حرف الاستعلاء هو القول الفصل في المسألة ، جاء في التحرير والتنوير : ((وَيَتَعَلَّقُ (عَلى حِينِ غَفْلَةٍ) بِ (دَخَلَ) ، و(على) للاستعلاء المجازيِّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ **عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ** ﴾ [6] ، أَي : مُتمكِّناً مِن حينِ غَفلَةٍ .

---

[1] حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ، للشيخ محمد بن مصطفى الخضري : ٤٠٩

[2] النحو الوافي : ٢/ ٥٠٩ ، وينظر : تعجيل الندى بشرح قطر الندى ، لعبد الله بن صالح الفوزان : ٢١٥ .

[3] البحر المحيط : ٥٢٢/١ ، وينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٢٨/٢ ، واللباب في علوم الكتاب : ٣٢٤/٢ .

[4] سورة الحاقة ، الآية : ٤٤.

[5] ظاهرة التقارض في النحو العربي : ٢٧٤ ، وينظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، لأحمد بن محمد الصوفي : ١٤٤/١ ، والجدول في إعراب القرآن الكريم : ٢١٥/١ .

[6] سورة البقرة ، الآية : ٥ .

وحِينُ الغَفلَةِ : هو الوقتُ الذي يَغفُلُ فيه أَهل المدينة عمَّا يجري فيها وهو وقت استراحة النَّاس وتُفرِّقهم وخُلُوِّ الطَّريق منهم))[١] ، وأمَّا الآية الثانية فقد ألفت الدكتور محمد الأمين الخضري إلى ما يرافق معنى الاستعلاء من ظلال معنوية ، يقول : ((ولا أحسب أنَّ بنا حاجة إلى القول بتضمين الفعل معنى تقول ، و لا إلى القول بأنَّ على بمعنى الظرفية ؛ لأنَّه حينئذٍ يكون الحرف الموضوع لهذا المعنى أساساً أولى بموضعه ، ما لم يكن في العدول إليه ما يدلُّ على معنًى زائد ، وهو الدلالة على ما ألحقه الشياطين من ضرر بسمعة سليمان ، والافتراء على ملكه ، وتشويه حقائق التاريخ ، وما ألصقوه بهذا النبي من زيف وأباطيل ، في محاولة لطمس معالم الإعجاز الإلهي بتسخير الجن والإنس لسليمان ، وخلط خوارق القدرة الإلهية بأباطيل السحر ، وفتن المشعوذين ، و(على) تدلُّ بطبيعة الاستعلاء فيها على الضرر ، وتحميل مجرورها أثقالاً حسيَّة أو معنويَّة)) [٢].

ولا ريب في أنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) هو ربيب القرآن ينسج على منواله ، فمن كلام له (عليه السلام) و قد سأله سائل عن أحاديث البدع وعمَّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر فقال (عليه السلام) : ((**إنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَ بَاطِلًا ... وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ** (صلى الله عليه وآله) **عَلَى عَهْدِهِ حَتَّى قَامَ خَطِيباً فَقَالَ : مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** ...)) [٣] وقد تأوَّل بعض الشرَّاح حرف الاستعلاء بحرف الظرفية ، يقول السيِّد الشيرازي : (((ولقد كذب على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) على عهده) أي

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٠/٨٨ .

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٦٧ ، جاء في (تفسير الامام العسكري ، تفسير منسوب إلى الامام أبي محمد الحسن بن علي العسكري (عليهم السلام) : ١٠٢) : (((واتبعوا ما تتلوا) كفرة (الشياطين) من السحر والنيرنجات (على ملك سليمان) الذين يزعمون أن سليمان به ملك ونحن أيضاً به نظهر العجائب حتى ينقاد لنا الناس ونستغني عن الانقياد لعلي عليه السلام)) .

(٣) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٢٥ .

: في زمان حياته))[1] ، وهذا التأويل هو عين ما ذكره النحويون ، جاء في كتاب الأزهية : ((ويقال : أتيته على عهد فلان ، أي : في عهد فلان)) [2] .

ولو توقَّفنا عند المقام الذي ورد فيه هذا التعبير لوجدنا ما يرجِّح استعمال حرف الاستعلاء ، فالإمام (عليه السلام) يذكر وقوع الكذب في حياة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) على الرغم من أنَّ السائل يسأل عن اختلاق الأحاديث بعد رحيل المصطفى (صلى الله عليه وآله) ، ويبدو أنَّه (عليه السلام) أراد بهذه الطريقة أن يبرهن للسائل وقوع الكذب في المرحلة المسؤول عنها بطريق الأولوية ، ويرفع استبعاد الكذب على النبي (صلى الله عليه وآله) بعد وفاته[3] ، وهذا التعبير ـ بلا شكٍّ ـ ينطوي على ((بيانٍ لجرأة المنافقين في عهد رسول اللَّه وانَّهم قد كذبوا عليه في حال حياته يريدون الطعن في الدين وتشويه ما جاء به النبي))[4] ، والمجيء بحرف الظرفية في هذا الموضع لا يؤيِّد هذه الدلالة ، بل ينحو بالمعنى منحًى آخر ؛ لأنَّه يوحي بتخفِّي أولئك الكذابين ، وعدم انكشاف حقيقتهم ولا ظهور كذبهم وانتشاره ، وهذا لا يتناسب مع تهديده للكذابين بالعذاب ، كما لا يتناسب مع قوله (صلّى اللّه عليه وآله) في حجة الوداع ؛ إذ أخبر بكثرة الكذابين وانتشار أكاذيبهم ، الأمر الذي دعاه إلى وضع قاعدة لتمييز الأحاديث ، يقول (صلّى اللّه عليه وآله) : ((**قد كثرت عليَّ الكذابة وستكثر فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به**)) [5].

---

[1] توضيح نهج البلاغة : ٣٠٧/٣ ، وينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٩/١٤ ، و شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٤٦٥/٣ .

[2] كتاب الأزهية في علم الحروف : ٢٧٥ ، وينظر : اللمحة في شرح الملحة : ٢٢٩/١ .

[3] ينظر : بهج الصباغة : ٢٠٩/٧ .

[4] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٤٦٥/٣ .

[5] بحار الأنوار : ٢٢٥/٢ ، جاء في (موسوعة الامام الجواد (عليه السلام) ، للجنة العلمية في مؤسسة ولي العصر عليه السلام للدراسات الإسلامية : ٤٠٤/٢) : ((روي أن المأمون بعد ما زوج ابنته أم الفضل أبا جعفر (عليه السلام)=

أمَّا حرف الاستعلاء فهو الأليق بهذا المقام ؛ لأنَّه يوحي بتمكُّن المنافقين وبلوغهم درجة عالية من الاحتراف في نسج الأباطيل وتشويه الحقائق ، فضلاً عن أنَّه يؤذن بظهورهم ومعروفيتهم فهم يفعلون ذلك على مرآى من المسلمين ، وقد أجاد ابن أبي الحديد في الاستدلال على هذا الأمر بقوله : ((ألا ترى أنَّه قيل له : ﴿ **وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً** ﴾ [١] ؛ فهذا يدلُّ على أنَّه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلَّا كان النهي له عن الصلاة عليهم تكليف ما لا يطاق))[٢] ، ومن أمثلة الافتراءات الظاهرة ما ذكره ابن ميثم البحراني من ((أنّ رجلاً سرق رداء الرسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) وخرج إلى قوم ، وقال : هذا رداء محمّد أعطانيه لتمكّنوني من تلك المرأة ، واستنكروا ذلك فبعثوا مَن سأل الرسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) عن ذلك ، فقام الرجل الكاذب فشرب ماء فلدغته حيّة فمات ...)) [٣].

وما أروع النظم في التعبير العلوي في قوله (عليه السلام) عندما سمع رجلًا من الحَرُوريَّةِ[٤] يتهجَّد ويقرأ القرآن ، فَقَالَ (عليه السلام) : ((**نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ فِي شَكٍّ**

=كان في مجلس ، وعنده أبو جعفر (عليه السلام) ويحيى بن أكثم وجماعة كثيرة . فقال له يحيى بن أكثم : ما تقول يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الخبر الذي روي ، أنه نزل جبرئيل (عليه السلام) على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال : يا محمد ! إن الله عز وجل يقرؤك السلام ، ويقول لك : سل أبا بكر ، هل هو عني راض ! فإني عنه راض !! فقال أبو جعفر (عليه السلام) : لست بمنكر فضل أبي بكر ، ولكن يجب على صاحب هذا الخبر ، أن يأخذ مثال الخبر الذي قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع : قد كثرت عليَّ الكذابة ، وستكثر بعدي، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث عني فاعرضوه على كتاب الله عز وجل وسنتي ، فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به ، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به. وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله ، قال الله تعالى: (ولقد خلقنا الأنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[ق : ١٦] . فالله عز وجل خفي عليه رضاء أبي بكر من سخطه حتى سأل عن مكنون سره ؟ ! هذا مستحيل في العقول)) .

[١] سورة التوبة ، الآية : ٨٤ .

[٢] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٤١/١١ .

[٣] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٢١/٤ .

[٤] يقال لهم : الحروريّة ؛ لانّهم نزلوا بحروراء ، و هو موضع بالنهروان، اجتمع الخوارج فيه ، وناظرهم امير المؤمنين (عليه السلام) ، فرجع منهم ألفان ، وبقي هناك نفر من الخوارج ، فقال امير المؤمنين (عليه السلام) : ممّا اسميّكم انتم الحروريّة لاجتماعكم بحروراء ، و كان ذلك الرجل الذى يصلّي هو عروة بن أُذينة، و كان مبغضا لعليّ، الّا انّه كان متعبّدا=

))[1] ، وأوَّل ما يلفت النظر في هذا التعبير هو المقابلة ((بين النوم والصلاة ، من جهة ، واليقين [و] الشك، من جهة أخرى ، وغيرُ خافٍ أنَّ النوم لا يقابل الصلاة في اللغة ، ولكنَّ سياق الاستعمال هو الذي جعلهما يرتبطان بعلاقة التقابل ، ذلك أنَّ الصلاة تتطلَّب اليقظة والنشاط))[2] وبعكسها النوم ، ثمَّ الاختيار الدقيق لحرفي الاستعلاء والظرفية كلٌّ في موضعه اللائق به ؛ للإشعار بالبون الشاسع بين مرتبتي اليقين والشك ، فاستعملت (على) في جانب اليقين ، و(في) في جانب الشك ؛ لأنَّ صاحب اليقين كأنّه مستعلٍ على سفينة نجاة يعرف وجهته ويصرّف نظره كيف شاء ، فهو يسير على هدى ويمضي على بصيرة ، وكلُّ حركة ولو كانت يسيرة فهي تدفعه نحو هدفه وتقرِّبه من مراده ، أمَّا صاحب الشك فكأنّه في لجة بحر قد أُحيط بالحيرة والتردُّد فلا يتطلَّع منها ليرى أين يتوجَّه ، فكلَّما أجهد نفسه في الخروج إلى برِّ الأمان لم يزدد إلَّا انغماساً ، ولم يحصل إلَّا على التعب والإرهاق ، وهذا هو الذي جعل النوم أفضل من الصلاة ، لأنَّ ((عبادة الجاهل على شكّ فيما ينبغي تيقّنه من أصول العبادة ممّا لا ينبغي لما فيه من اتعاب البدن من غير فائدة ... وأراد ما هم عليه من الشّكّ في إمامة إمام الوقت الّذى هو مبدأ تعليم العبادات و كيفيّتها ... فانّ الشّكّ فيه يستلزم عدم الاستفادة منه والشّكّ في كثير ممّا يحتاج إليه فيه كعلم التّوحيد وأسرار العبادات وكيفية السّلوك إلى اللّه تعالى بطاعته)) [3] .

= وفاز به معاوية في أيام ملكه و قتله، و سأل غلامه عن حاله، يعني عن حال عروة بن أُذينة. فقال له غلامه : ما اتيته بطعام قطّ نهاراً ، و لا فرشت له فراشاً بالليل قطّ ، يعني كان أبدا يصوم نهاره، و يصلّى ليله. و عروة هذا هو اوّل من سلّ من الخوارج السّيف و ضرب به بغلة الأشعث بن قيس . ينظر : معارج نهج البلاغة : ٤١٢ ـ ٤١٣ .

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٨٥ .

[2] أساليب البديع في نهج البلاغة دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية : خالد كاظم حميدي الحميداوي ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م : ١١٠ .

[3] الدرة النجفية : ٣٦٢ .

إيثار حرف الاستعلاء على حرف الابتداء (من) :

استظهر الفرَّاء والنحَّاس نيابة (على) عن (من) في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين :٢] يقول الفرَّاء : ((يريد : اكتالوا من الناس ، وهما تعتقبان : (على) و (مِن) ، في هذا الموضع ؛ لأنَّه حقٌّ عليه ، فإذا قال : اكتلتُ عليك ، فكأنَّه قال : أخذتُ ما عليك ، وإذا قال : اكتلت منك ، فهو كقولك : استوفيت منك))[١] ، وقد أخذ بعض النحويين قول الفرَّاء على نحو المسلَّمات ، جاء في كتاب الأزهية : ((وتكون مكان (من) قال الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي : من الناس)) [٢] .

ولم يكن قول الفرَّاء مقبولاً عند جميع النحويين ، فالبصريون لم يرتضوا به ، متأولين ذلك على تضمين الفعل (اكتالوا) معنى الفعل (حكموا) ، فيكون المعنى : إذا حكموا على الناس في الكيل يستوفون[٣] ، ولا يخفى ما فيه من البعد ؛ لعدم وجود المناسبة بين الفعلين ، أمَّا الزمخشري فقد كان دقيقاً في توجيهه لوجود حرف الاستعلاء ، يقول : ((لمَّا كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم : أبدل (على) مكان (من) للدلالة على ذلك ، ويجوز أن يتعلق (على) بـ (يستوفون) ، ويُقدَّم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية ، أي : يستوفون على الناس خاصَّة ، فأمَّا أنفسهم فيستوفون لها))[٤] ، واحتمال التعليق بالفعل (يستوفون) لا يبتعد عن المعنى

---

[١] معاني القرآن ، للفراء : ٣/٢٤٦ ، وينظر : معاني القرآن ، لأبي جعفر النحاس : ٢/٣٨٠ .
[٢] الأزهية في علم الحروف : ٢٧٥ ، وينظر : مصابيح المغاني في حروف المعاني : ٢٨٤ ، و شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٩٣ ، و حاشية الآجرومية : ١٥ ، وحروف الجر دلالاتها وعلاقاتها : ٨٤ .
[٣] ينظر : الجنى الداني : ٤٧٨ .
[٤] الكشاف : ٤/٧١٩ ، وينظر : الجملة العربية والمعنى : ١٦١ .

الأوَّل أيضاً ؛ لأنَّ ((المراد بالاستيفاء المعدَّى بـ (على) على ذلك الإضرار، فكأنَّه قيل : إذا اكتالوا يضرون الناس خاصَّة ، ولا يضرون أنفسهم بل ينفعونها)) [١] .

وقد حاول السيوطي أن يستدل على صحَّة هذه النيابة بضمِّ قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ • إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ** ﴾ [٢] إلى قوله (صلى الله عليه وآله) : ((**احفظ عَوْرتك إلاَّ مِنْ زوجتك أو ما ملكت يمينك**))[٣] ، جاء في معترك الأقران : ((الابتداء كمنْ ، نحو ... ﴿ **لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ • إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ** ﴾ ، أي : منهم ، بدليل ((**احفظ عَوْرتك إلاَّ مِنْ زوجتك**)))) [٤].

وقد توحي النظرة الإجمالية للتعبيرين بمتانة هذا الاستدلال ولا سيَّما مع وحدة الفعل (حفظ) فيهما ، وهو يقتضي محفوظاً منه ، إلا أنَّ النظرة الفاحصة لهما تأبى هذا الحكم ؛ لوجود بعض الفروق المقالية والمقامية التي تجعل كلَّ واحد منهما يستأثر بالحرف الذي يليق به ، فعلى مستوى الألفاظ نجد لفظ (الفروج) في التعبير الأوَّل ، في حين نجد لفظ (العورة) في التعبير الثاني ، ولا يخفى أنَّ (العورة) أعم من (الفرج) ؛ لأنَّها تشتمل عليه وعلى غيره ، أمَّا المقامان فهما مختلفان أيضاً ؛ لأنَّ الآية الكريمة تتحدَّث عن النكاح ، في حين أنَّ الحديث الشريف وارد في بيان حكم النظر الى العورة ، وقد أورده الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) في باب اللباس ، جاء في المستدرك : ((قال : قلتُ : يا رسول الله ، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : احفظ عورتك إلَّا من زوجتك أو ما ملكت يمينك . قلت : أرأيت إن كان قوم بعضهم فوق بعض قال : إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينَّها . قلت : أرأيت إن كان خالياً ؟ قال : فالله

---

[١] روح المعاني : ٢٧٥/١٥ .

[٢] سورة المؤمنون ، الآية : ٥ ـ ٦ .

[٣] المستدرك على الصحيحين : ٢٠٤/١٧ ، وقد ورد في ص ٢٠٩ : ((عن علي ، رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تبرز فخذيك ولا تنظر إلى فخذ حيٍّ ولا ميت »)) .

[٤] معترك الأقران : ٦٢٣/٢ ، وينظر : ظاهرة التقارض في النحو العربي : ٢٧٦ .

أحق أن يستحيى منه))[1] ، فعلى في (على أزواجهم ...) تُشعر بحقٍّ يقع على عاتق الحليلة بشكل خاص ، فهي توحي بأنَّ التمكين حقٌّ يملكه الرجل ، أمَّا (من) فهي تؤذن بأنَّ الحليلة هي مبدأ جواز النظر ، لجواز نظرها من غير تقييد بعدم الشهوة ، مع أنَّ غيرها من المحارم يجوز له النظر ولكن من دون شهوة [2].

ومن بدائع التعبير ما جاء في قوله (عليه السلام) : ((**فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَ جَهْدَهُ الْجَهِيدَ ... فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ**))[3] ، وبالرجوع إلى معجمات اللغة نجد أنَّ معنى الفعل (سلم) يقتضي أمراً يسلم الفاعل منه ؛ لأنَّ ((السَّلامة : أَن يَسلَمَ الإنسان من العاهة والأذى . قال أَهلُ العلم : اللَّهُ جَلَّ ثناؤُهُ هو السَّلام ؛ لسلامته ممَّا يَلحَقُ المخلوقين من العيب والنَّقص والفناء ... ومن الباب أَيضاً الإسلام ، وهو الانقياد ؛ لأَنَّهُ يسلَمُ من الإباء والامتناع))[4] ، وبهذا يكون أيسر الآراء هو القول بنيابة حرف الاستعلاء عن حرف الابتداء في هذا الموضع ، ومن هنا تأوَّل محمد جواد مغنية حرف الاستعلاء بقوله : ((على اللّه (على) بمعنى (من) ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ** ﴾))[5] ، وهذا الرأي أوضح ممَّا ذكره البحراني من أنَّ ((قوله : يسلم على اللّه . في معنى : يرجع إليه سالماً من

---

[1] المستدرك على الصحيحين : ٢٠٤/١٧ ، رقم الحديث : ٧٤٦٥ .

[2] ولهذا استثنى الفقهاء من شرط المماثلة في تغسيل الميت ثلاثة أصناف ، جاء في (منهاج الصالحين ، للسيد أبي القاسم الخوئي) : ٧٥/١ ـ ٧٦) : (((مسألة ٢٧٥) : يجب في المغسل أن يكون مماثلا للميت في الذكورة والانوثة ، فلا يجوز تغسيل الذكر للانثى ، ولا العكس ، ويستثنى من ذلك صور : الاولى : أن يكون الميت طفلا لم يتجاوز ثلاث سنين ، فيجوز للذكر وللانثى تغسيله ، سواء أكان ذكرا ، أم أنثى ، مجردا عن الثياب ، أم لا وجد المماثل له ، أو لا . الثانية : الزوج والزوجة ، فإنه يجوز لكل منهما تغسيل الآخر ، سواء أكان مجردا أم من وراء الثياب ، وسواء وجد المماثل أم لا ، من دون فرق بين الحرة والامة ، والدائمة والمنقطعة ، وكذا المطلقة الرجعية إذا كان الموت في أثناء العدة .
الثالثة : المحارم بنسب ، أو رضاع ، أو مصاهرة ، والاحوط – وجوبا – اعتبار فقد المماثل ، وكونه من وراء الثياب)) .

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٨٧ .

[4] مقاييس اللغة . (سلم) : ٩٠/٣ .

[5] في ظلال نهج البلاغة : ١٠٩/٣ ، وينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ١١/ ٢٦٥ .

طرده ولعنته وعذابه))[1] ، فضلاً عن ذلك يمكن للقائلين به أن يجدوا ما يؤيِّده من الاستعمال ؛ إذ ورد الفعل (يسلم) متعدياً بحرف الابتداء في قوله (عليه السلام) : ((**أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا**)) [2].

ولا يسعنا القبول بهذا التوجيه لمجرد انسجام حرف الابتداء مع الفعل (يسلم) ؛ لما يترتَّب على ذلك من إهمال لما يقصده المتكلم من الإخبار عن معنًى خاص جُعِل العدول إلى حرف الاستعلاء دليلاً عليه ، ويبدو أنَّ هذا الأمر دعا بعض الشرَّاح إلى عدم إهمال الأثر الدلالي لحرف الاستعلاء ، ولعلَّ السيِّد الشيرازي كان أقرب من غيره إلى بيان سرِّ ذلك العدول ، يقول : (((يسلم على اللّه) من عقابه ، والإتيان بـ (على) لأنَّه يشبه الضرر في أنَّ اللّه يريد شيئاً ، ويريد العاصي شيئاً آخر خلاف إرادته سبحانه (بمثل معصية) أي : في حال كونه آتياً بمثل معصية الشّيطان ، وهو الكبر)) [3].

ولعلَّ تضييق دائرة البحث واقتصارها على الجملة الواحدة ، وعزلها عن محيطها ، هو الذي أدَّى إلى انغلاق المعنى ، واضطرهم إلى هذه التأويلات ؛ ولذا فاستجلاء المعنى الدقيق لحرف الاستعلاء يتوقَّف على فهم معنى الفعل في إطار ما تقدَّمه من أسلوب إنشائي صيغ بطريقة الاستفهام الانكاري الإبطالي [4] ، وهو قوله (عليه السلام) : ((فَمَنْ ذَا ...)) ولا يخفى أنَّ الاستفهام الإبطالي يقتضي أنَّ ما بعده غير واقع وأنَّ مدعيه كاذب[5] ، وبناءً على هذا ستظهر لنا دلالة النفي فيكون المعنى : لا يسلم أحدٌ على الله بمثل معصية إبليس . وهذا التعبير يُشبِه إلى حدٍّ ما قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ذَا

---

[1] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٢٤٨/٤ ، وينظر : اختيار مصباح السالكين : ٤٥١ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٩٤ .

[3] توضيح نهج البلاغة : ١٨٠/٣.

[4] ينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٧٨/١١ ، و شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢٨٨/٣ .

[5] ينظر : مغني اللبيب : ٤/١ .

الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ [الاحزاب : ١٧] فهو بمعنى : ((فلا عاصِمَ لكم من نُفُوذِ مُراده فيكم))[١] ، والذي أراه ـ وأرجو أن يكون سديداً ـ هو أنَّ تصدير الجملة بالاستفهام الإنكاري يكشف عن طبيعة الطغيان الذي يعيشه المتصف بالتكبُّر، فهو ((يفعل فعل إبليس ثمَّ تراوده نفسه بأن لا تلحقه اللعنة ولا يحبط عمله كما حبط عمل إبليس)) [٢] ، وليس هذا وحسب ، بل إنَّه يستصغر معصيته ، ويرى أنَّ له الحظوة عند الله ، وهذا المعنى هو ما يُؤذِن به حرف الاستعلاء ؛ لأنَّ (على) تشعر بمغالبة ذلك المتكبر لتبعات معصيته وتعاليه على إرادة الله تعالى ، ويؤيِّد هذا المعنى ما جاء في قوله (عليه السلام) لزياد : ((**أَ تَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ !**)) [٣] .

ومن كتاب له (عليه السلام) إلى المنذر بن الجارود العبدي ، وقد خان في بعض ما ولَّاه من أعماله ، يقول (عليه السلام) : ((**وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ ...**))[٤] ، وعلى الرغم من عدم تأييد ابن أبي الحديد لهذه الرواية بقوله : ((ومن الناس من يرويها (على خيانة) ، وهكذا رواها الراوندي ، ولم يروِ الرواية الصحيحة التي ذكرناها نحن))[٥] ، فإنَّ القرائن القرائن تدلُّ على صحَّة رواية الراوندي ؛ لأنَّ ((ابن ميثم أيضاً مثل الراوندي ونسخته بخط المصنف))[٦] ، وقد اختلف القائلون بهذه الرواية في تأويلها ، فذهب بعضهم إلى

---

[١] التحرير والتنوير : ٢٩١/٢١ ـ ٢٩٢ .

[٢] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢٨٨/٣ .

[٣] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٧٧ .

[٤] المصدر نفسه : ٤٦١.

[٥] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٥٨/١٨ .

[٦] بهج الصباغة : ١١٣/٨.

إلى تقدير مضاف ، فيكون معناها : يؤمن على دفع خيانة[1] ، في حين فسَّرها الراوندي بـ (من) والتقدير : ((أي : يكون مأموناً من أن يخون)) [2] .

وقد استحسن أحد الباحثين ما ذهب إليه التستري (ت ١٤١٤هـ) من تأويل حرف الاستعلاء بالظرف (مع) ، معلِّلاً ذلك بأنَّ ((هذا التوجيه يدلُّ على عدم استحقاق هذا الشخص أن يؤتَمَنَ ، لمصاحبته الخيانة))[3] ، ولم يلتفت هذا الباحث إلى أنَّ التسليم بهذا التوجيه يؤدي إلى خسارة كلّ إيحاءات الحرف (على) باستثناء دلالة الملازمة .

والذي يبدو لي أنَّ الدلالة على تمكُّن الوصف من الموصوف هو ما دعا لاستعمال حرف الاستعلاء ؛ فكأنَّ الخيانة تمكَّنت من المنذر وتحوَّلت إلى ملكة من ملكاته ، فضلاً عمَّا تشي به (على) من الظهور والانكشاف ، وهو ما يؤذن بوصول هذا الخائن إلى حدِّ المجاهرة بالخيانة ، وهذا المعنى ينسجم مع سياق هذا الكتاب ؛ إذ يقول (عليه السلام) : ((**فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَاداً تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ** ...)) [4] ، فضلاً عن إيحاء حرف الاستعلاء بحجم هذه الخيانة وخطرها ، وما يترتَّب عليها من إضرار بالمصالح العامَّة .

---

[1] ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ١٨٩/٤ ، و توضيح نهج البلاغة : ٢٤٦/٤ ، وشرح نهج البلاغة ، لمحمد عبده : ١٤٥/٣.

[2] منهاج البراعة ، للراوندي : ٢٥٥/٣ .

[3] الدلالة النحويَّة في شرح نهج البلاغة لميثم بن علي البحراني : أحمد راضي جبر الشمَّري ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٤٣هـ ـ ٢٠١٣م : ١٦٠ .

[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٦١ .

المبحث الثالث

أسرار التعبير بـ (رُبَّ) و (حتَّى)

أوَّلاً : أسرار التعبير بحرف الجر (رُبَّ) [1]:

هو حرف جرٍّ مبنيٌّ على الفتح عند البصريين ، إلَّا أنَّ الكوفيين ذهبوا إلى اسميتها [2] . وبناءً على أنَّه حرف جر ، فهو يوصف بأنَّه حرف شبيه بالزائد ؛ لكونه ((يؤدِّي معنًى جديداً خاصًّا لا يمكن الاستغناء عنه . ولكنَّه مع ذلك لا يحتاج مع مجروره إلى متعلق))[3] ، وبهذا القيد الأخير يفترق عن الأصلي ؛ لاحتياجه إلى متعلق .

وقد اختلف النحويون في دلالة (رُبَّ) على مذاهب متعدَّدة ؛ فذهب أكثر النحويين إلى دلالتها على التقليل[4] ، ((وبه قال جلَّة النحويين ، وكبراء البصريين ، وأنَّها ضد (كم) . كالخليل ، وسيبويه ... وكذلك جلَّة الكوفيين ، كالكسائي ، والفراء ...)) [5] ورتَّب بعضهم على المقابلة بينها وبين (كم) الخبرية ، أنَّها موضوعة لغاية التقليل كما

---

[1] اختلف النحويون في (رُبَّ) اختلافاً كبيراً عبَّر عنه الأستاذ عباس حسن في (النحو الوافي : ٥٢٢/٢) بقوله : ((ليس بين حروف الجر ما يشبه هذا الحرف في تعدد الآراء فيه . واضطراب المذاهب النحوية واللغوية في أحكامه ونواحيه المختلفة : التي منها ناحية معناه ، وناحية حرفيته ، وناحية زيادته أو شبهها ، وتعلقه بعامل أو عدم تعلقه ، ونوع الفعل الذي يقع بعده ، والجملة التي يوصف بها مجروره ... و ...)) .

[2] ينظر : مصابيح المغاني في حروف المعاني : ٢٥٣ .

[3] النحو الوافي : ٤٤١/١ ، وقد ذكر بعض النحويين أنَّها تتعلق بفعل محذوف ، لم يُذكر استغناء بذكر الصفة ، جاء في (اللباب في علل البناء والإعراب : ٣٦٥ .) : ((وأمّا الْفِعْل الَّذِي تتعلَّق بِهِ (ربّ) فَيجوز إظهاره غير أنَّهم اكتفوا بِالصّفةِ عَنهُ فِي كثير من الْمَوَاضِع لظُهُور مَعْنَاهُ)) وعلل ذلك ابن يعيش في (شرح المفصل : ٤٨٥/٤) بقوله : ((وإنما حُذف الفعل العامل فيها كثيرًا؛ لأنها جوابٌ لمن قال لك: "ما لقيتَ رجلاً عالمًا"، أو قدّرتَ أنه يقول، فتقول في جوابه: "رُبَّ رجلٍ عالمٍ"، أي: لقد لقيتُ، فساغ حذفُ العامل إذ قد عُلم المحذوف من السؤال، فاستُغني عن ذكره بذلك)) .

[4] ينظر : الجنى الداني : ٤٣٩ .

[5] إيضاح شواهد الإيضاح ، للحسن بن عبد الله القيسي : ٢٨٨/١ .

أنَّ (كم) موضوعة لغاية التكثير ، والجامع بينهما الغاية في طرفي العدد[١] ، وفي مقابل هذا الرأي ذهب آخرون إلى دلالتها على التكثير [٢] .

والذي يبدو أنَّها تدلُّ على التقليل ؛ لأنَّها ((قد جاءت في مواضع ، لا تحتمل إلَّا التقليل ، وفي مواضع ظاهرها التكثير ، وهي محتملة لإرادة التقليل ، بضرب من التأويل ؛ فتعين أن تكون حرف تقليل ؛ لأنَّ ذلك هو المطَّرد فيها))[٣] ، ويؤيِّد دلالتها على التقليل جملة من أحكامها ، نذكر أهمها :

١. تختصُّ (رُبَّ) بالدخول على النكرة ؛ لإمكانية دلالة النكرة على التقليل بدخول (رُبَّ) عليها ، أمَّا المعرفة فلا يتصور بحقِّها تقليل أو تكثير[٤] ، وبذلك تخالف حروف الجر الأخرى ؛ لأنَّ حروف الجر الأخرى تدخل على الاسم الخاصّ والعام ، و(رُبَّ) لا تدخل إلَّا على الاسم العام [٥] ، وذهب بعضهم إلى أنَّها دخلت على النكرة حملاً لها على نقيضتها (كم) الخبرية [٦].

٢. تقع دائماً في بداية الجملة بخلاف حروف الجر الأخرى ؛ لأنَّ معناها مشبه لمعنى النفي ، فالتقليل نفي للكثرة ؛ ولذا لا يُقدَّم عليها ما في حيِّزها [٧] ، فضلاً عن ذلك فإنَّ

---

[١] ينظر : اللباب في علل البناء والإعراب : ٣١٤ .

[٢] ينظر : شرح تسهيل الفوائد : ٣/ ١٧٦ ، يقول ابن مالك : ((قلت: والصحيح أن معنى رب التكثير، ولذا يصلح (كم) في كل موضع وقعت فيه غير نادر)) .

[٣] الجنى الداني : ٤٤٠ .

[٤] ينظر : رصف المباني : ١٨٩ ، وشرح المفصل : ٤/ ٤٨٣ .

[٥] ينظر : التعليقة على كتاب سيبويه : ٢/٢٠ ـ ٢١ .

[٦] ينظر : شرح المفصل : ٤/٤٨١ .

[٧] ينظر : التعليقة على كتاب سيبويه : ٢/ ٢١ ، كتاب الأزهية في علم الحروف : ٢٥٩ ، و اللباب في علل البناء والإعراب : ٣١٤ .

فإنَّ النحويين كالمجمعين على أنَّ (رُبَّ) جواب لقول مقدَّر ، فلو قلت : رُبَّ رجلٍ عالمٍ لقيتُ ، فهو جواب لقول تقديره : ما رأيت رجلاً عالماً [1] .

٣. لزوم المجرور بها للوصف ؛ لأنَّ وصف النكرة يُضيِّق دائرة دلالتها ، فتكون أبلغ في التقليل ، فقولنا : رُبَّ رجلٍ عالمٍ ، أقلُّ وجوداً من قولنا : رُبَّ رجلٍ ، ولأنَّهم لمَّا حذفوا العامل ، فكثُر ذلك عنهم ؛ ألزموها الصفةَ ؛ لتكون الصفة كالعوض من حذف العامل [2].

إيثار (رُبَّ) على (كم الخبريَّة) :

استعملت (رُبَّ) في مواضع قليلة من نهج البلاغة ؛ إذ وردت في سبعة وعشرين موضعاً كانت في أكثرها واضحة الدلالة على التقليل ، كقوله (عليه السلام) : ((**رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ**))[3] ، وقوله (عليه السلام) : ((**رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ**))[4] ، وقوله (عليه السلام) : ((**رُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ**)) [5] .

وما يهمنا ـ هنا ـ هو أن نقف عند بعض الموارد التي يُتراءى فيها أنَّ (رُبَّ) استعملت بمعنى (كم) الخبرية الدالة على التكثير ، ومن تلك الموارد التي وقع الخلاف فيها بين شُرَّاح النهج قوله (عليه السلام) : ((**رُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ**))[6] ، وقد ذهب محمد جواد مغنية إلى دلالتها على التكثير ، يقول : (((ربّ) هنا للتكثير لا للتقليل إذا أردنا بالضرر ما يشمل حساب الآخرة وعقابها))[7] ، في حين رأى غيره أنَّها للتقليل ، يقول

---

[1] ينظر : الأصول في النحو : ٤١٧/١ .

[2] ينظر : ترشيح العلل في شرح الجمل : ٢٠٣ ، والجنى الداني : ٤٥٠ ، والنحو الوافي : ٥٢٥/٢ .

[3] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٠٢.

[4] المصدر نفسه : ٥٤٣ .

[5] المصدر نفسه : ٤٠٢ .

[6] المصدر نفسه : ٤٠٢.

[7] في ظلال نهج البلاغة : ٥١٦/٣ .

ابن ميثم البحراني : ((استعمل سلام اللّه عليه ههنا لفظ (رُبَّ) المقتضية للتقليل ، وهذه الكلمة مستلزمة لوجوب التّيقّظ والاحتراز في المساعي والاجتهاد في تمييز نافعها من مضرّها ولزوم القانون العدليّ في تعرّف كيفيّة السّلوك للصّراط المستقيم ؛ فإنَّ الباطل قد يكون بصورة الحقّ بالنّسبة الى أوهام كثير من الخلق ، والكذب في كثير من مخارجه قد يتشبّه بالصّدق)) [١].

والتدبُّر في مقام هذا القول يؤيِّد ما ذهب إليه البحراني من الدلالة على التقليل ، فالجملة تقع ضمن وصيته (عليه السلام) للإمام الحسن (عليه السلام) ، ومعلوم أنَّ مقام الوصية يقتضي التنبيه على بعض الأمور التي يُحتمل عدم التفات الموصَى إليها ؛ لقلتها أو ندرتها ، وأمَّا ما يرتبط بالسياق فهو يدلُّ أيضاً على هذا المعنى ، فلفظة (ساعٍ) الواقعة صفة لموصوف محذوف تقديره (شخص) لا يُعقل أن يكون المتصف بها عالماً بكون سعيه سينتهي بضرره ثمَّ يسعى لتحقيق ذلك ؛ لأنَّ هذا يتنافى مع الفطرة السليمة ، وإن وقع ذلك فعلى نحو الشذوذ والقلَّة .

وقد يقال : إنَّ ما يحصل هو أنَّ الانسان قد ينخدع بظواهر الأمور فيظنُّ أنَّها في صالحه فيندفع باتجاه تحقيقها من غير تحقيق أو تمحيص لبعض الأمور التي لا يحسب لها حساباً فينتهي به الأمر إلى ما لا يحمد عقباه ؛ ولذا نبَّه (عليه السلام) على ذلك ، وهذا الأمر ينطبق على كثيرين ، بل إذا اتجهنا بمعنى السعي نحو الضرر الأخروي فستبلغ النسبة أقصاها ، فكيف يمكن القبول بدلالة التقليل ؟ والذي يبدو أنَّ الإبقاء على دلالة التقليل أبلغ من الحمل على التكثير ، وإلَّا لقال (عليه السلام) : كم من ساعٍ فيما يضره ؛ والسبب في أرجحية الدلالة على التقليل في هذا الموضع ، هو أنَّ التحذير من السعي الذي ينتهي بالضرر ـ مع المجيء بـ (رُبَّ) الدالة على كون الساعين فيما يضرهم قليلين ـ يكون من باب قياس الأولويَّة ، فيكون المراد أنَّ الساعين

---

[١] شرح مائة كلمة ، لميثم بن علي بن ميثم البحراني : ١٦٤ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٣٥٤/٤ .

إلى ما يضرهم لو كانوا قليلين لوجب التدقيق فيما نسعى فيه ، فكيف ينبغي أن يكون التمحيص والتدقيق فيما لو كان الساعون إلى ما يضرهم كثيرين ؟!

ومن روائع استعمال حرف التقليل ما جاء في قوله (عليه السلام) : ((**عِبَادَ اللَّهِ إِنَّكُمْ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ أَجَلٌ مَنْقُوصٌ ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ ، فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٍ**))[1] ، ولم يذكر الشُّرَّاح دلالة الحرف (رُبَّ) إلَّا أنَّ تقدير الخوئي يوحي بدلالتها على التكثير ، يقول : ((يعني : كم من مجدٍّ في العبادة متعب نفسه في الإتيان بها مضيّع لها بما يلحقها من العجب والرّياء ... وكم من ساعٍ خاسر ، وهم الأخسرون أعمالاً ... الّذين يأتون بالطاعات فاقدة لشرائطها المعتبرة في القبول كطاعة الخوارج والنّواصب والغلاة ومن يحذو حذوهم))[2] ، وعلى هذا التقدير ؛ فإنَّه يرى أنَّها بمعنى (كم) الخبريَّة .

ولنا ـ هنا ـ أن نسأل الخوئي أنَّه إذا كان معنى (رُبَّ) مساوياً لمعنى (كم) الخبرية المفيدة للتكثير ، فلماذا استعمل الإمام (عليه السلام) (رُبَّ) ؟ ولِمَ لم يأتِ بـ (كم) كما جاءت في مواطن كثيرة من النهج ؟ كقوله (عليه السلام) في الدنيا : ((**كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ**))[3] ، وقوله (عليه السلام) : ((**كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكَلَاتٍ**))[4] ، وقوله (عليه السلام) : ((**كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ**)) [5] .

وربَّما يقال : إنَّ ما ذهب إليه الخوئي هو الأقرب لدلالة سياق الحال ؛ لأنَّنا نجد انطباق ذلك على كثير من الناس ؛ إذ يقصدون بعملهم الصلاح إلَّا أنَّه قد يقع على وجه الغلط فيحصل بذلك انحراف عن الدين وضلال عن الحقِّ فيضيَّع العمل ويخسر

---

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٨٧.
(2) منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٣١/٨ .
(3) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٦٤ .
(4) المصدر نفسه : ٥٠١ .
(5) المصدر نفسه : ٥٠٦ .

الكدح ، كدأب الخوارج وأهل الكتاب ونحوهم [1] ممَّن يصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا • الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف:١٠٣ ـ ١٠٤] ؟

والذي يبدو أنَّ استعمال الحرف المفيد للتقليل في مورد هو مظنَّة لمعنى التكثير ؛ يوحي بنكتة دلالية ؛ فهاتان ((الجملتان لتحريض الانسان على أن يصحِّح أعماله ، ويجعلها بحيث ينتفع منها في الآخرة))[2] ، وهذا الأمر يستلزم رفع نسبة الحذر من عدم القبول أو الوقوع في هاوية الخسران وذلك عن طريق استعمال برهان الأولوية ؛ إذ يصل بالتحريض على مراقبة العمل والتدقيق في مقدماته إلى أقصى درجاتها ؛ فإذا كان الحذر ممَّا ينبغي الاتصاف به مع قلَّة الخاسرين ، فمن الأولى أن يكون أكبر عند العلم بكثرة الخاسرين ، فلا تكون العبرة بكثرة العمل ولا بالمواظبة عليه ، بل المدار على التقوى ، والعقيدة الصحيحة[3] ؛ لأنه ﴿ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة :٢٧] ، ويؤيِّد هذا التأويل ما نجده من استعمال لحرف التكثير (كم) في مجال الترغيب في الزهد وترك بهارج الدنيا في قوله (عليه السلام) : ((اعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَ زَادَ فِي الدُّنْيَا فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ)) [4] فهو (عليه السلام) يُخبر بكثرة الرابحين الذين لا يأبهون بالنقص في جانب الدنيا ، وكثرة الخاسرين المتكالبين على حطامها ، وهذان الأمران يهونان على مريد الزهد أمرَه ؛ إذ يُشعِر الأوَّل بسهولة طريقه وكثرة سالكيه ، ويوحي الثاني بخسارة تاركيه .

---

(1) ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ١٤٢/٣ .
(2) توضيح نهج البلاغة : ٢٨٠/٢ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٣٧١/٢ .
(3) ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٢٥٩/٢ .
(4) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٨١٥ .

ثانياً : أسرار التعبير بحرف الجر (حتَّى) :

هي حرف مبنيٌّ على السكون ، ترد في الكلام على ثلاثة أنواع[1] ، وقد جعل النحويون المرجع في تحديد نوع (حتَّى) مرتبطاً بما يأتي بعدها ، فإذا ((وقع بعدها اسم مفرد مجرور أَو مضارع منصوب ، فحرف جر ، واسم مرفوع أَو منصوب فحرف عطف ، أَو جملة فحرف ابتداء)) [2] .

وربَّما يُقال : إنَّ القول بكونها حرف جرٍّ ـ عند دخولها على اسم مجرور ـ أمر مقبول ؛ لصلاحية الاسم للجر ، ووجود العلامة الاعرابية الدالة على ذلك في أكثر الأسماء ، أمَّا القول بذلك مع الفعل المضارع المنصوب فهو غير مقبول ؛ لعدم صلاحية الفعل للجر ، فضلاً عن العلامة الاعرابية ؛ وهذا ما دفع النحويين باتجاه إيجاد المخرج اللغوي المناسب ، فيرى ((سيبويه أنَّها حرف جر، والفعل بعدها نُصِب بأنْ مضمرة ، ولا يجوز إظهارها ؛ لأنَّ (حتَّى) صارت لطولها بدلاً من اللفظ بأنْ . وعند الكوفيين النصب بعد (حتَّى) بها ... والمختار قول سيبويه ، لأنَّه لو كانت حتَّى هي الناصبة للفعل للزم إمَّا حُسن الخفض بالجار المحذوف ، وإمَّا كون حتَّى تعمل الجر في الأسماء ، والنصب في الأفعال ، ولظهر الجار قبلها))[3] ، ولسنا بصدد

---

(1) ينظر : مغني اللبيب : ١/ ٤٦ . وقد أضاف ابن مالك نوعاً رابعاً ، جاء في (شرح تسهيل الفوائد : ١٦٦/٣) : ((حتَّى على أربعة أقسام : عاطفة ، وحرف ابتداء ، وبمعنى كي، وجارة)) والنحويون يجعلونها بمعنى (كي) حينما تكون حرف جر .

(2) همع الهوامع : ٤٢٨/٢ .

(3) شرح تسهيل الفوائد : ٤/ ٢٤ ـ ٢٥ ، وينظر : الكتاب : ١٧/٣ ، وعلل ابن جني ذلك في (الخصائص : ٢٦٤/٣) بقوله : ((فمن ذلك قول سيبويه في بعض ألفاظه : حتَّى الناصبة للفعل ، يعني في نحو قولنا : اتق الله حتَّى يدخلك الجنة . فإذا سمع هذا من يضعف نظره اعتدها في جملة الحروف الناصبة للفعل ، وإنما النصب بعدها بأن مضمرة . وإنما جاز أن يتسمح بذلك من حيث كان الفعل بعدها منصوبا بحرف لا يذكر معها ؛ فصارت في اللفظ كالخلف له، والعوض منه، وإنما هي في الحقيقة جارة لا ناصبة)) .

البحث عن صحَّة أحد القولين ؛ لارتباط ذلك بنظرية العامل ، وهو ما يخرج بالبحث عن مراده في استخراج اللطائف الدلالية لاستعمال الحرف .

وبعد البحث في موارد (حتَّى) في نهج البلاغة تبيَّن أنَّها وردت في مئتين وتسعة وثلاثين مورداً ، وعلى الرغم من كثرة هذه الموارد إلَّا أنَّها لم تدخل على الاسم إلَّا في مورد واحد عملت فيه الجر ، وكان مدخولها ظرف الزمان (يوم) في قوله (عليه السلام) : ((**فَوَ اللَّهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآله وسَلَّمَ حتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا**)) [1] ، وهذا يعني أنَّ (حتَّى) العاطفة غير واردة في النهج . وقد دفعنا هذا الأمر لمقارنة ذلك مع حتَّى الواردة في القرآن الكريم ، إذ وجِد أنَّها وردت في مئة وثمانية وثلاثين مورداً ، وبعد التدقيق في هذه الموارد تبيَّن أنَّها وردت جارة لظرف الزمان في ستة موارد ، وقد دخلت في خمسة منها على لفظ (حين) ودخلت في السادس على لفظ (مطلع الفجر) وهذا يعني أنَّها لم ترد عاطفة أيضاً .

أمَّا دخولها على الفعل المضارع ، فقد لوحظ أنَّه جاء بعدها منصوباً في كلِّ الموارد ما عدا مورداً واحداً ، وهو قوله (عليه السلام) : ((**وَلَا تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ وَ ذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ وَ حَتَّى تُعْجَلُ عَنْ قِعْدَتِكَ**)) [2] .

وإذا مضينا باتجاه البحث عن دلالة (حتَّى) الجارة ، فإنَّنا سنجد اختفاء مذهب التضمين بشكل كامل ، الأمر الذي يدلُّ على عدم صلاحيته في هذه المواضع ، ولا سيَّما التي دخل فيها حرف الجر على الفعل ؛ ولذا اتفقت كلمة النحويين على تفسير (حتَّى) بحملها على مجموعة من الأحرف الأخرى ، وليس هذا إلَّا مذهب النيابة .

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٣ .
[2] المصدر نفسه : ٤٥٣ .

وما يهمنا ـ هنا ـ التمييز بين (حتَّى) الجارة والحروف التي حملت عليها ، وهي ثلاثة أحرف ، تبعاً لمدخولها ؛ فإذا كان مدخولها اسماً مجروراً فهي بمعنى (إلى) ، يقول الهروي : ((تكون حرفاً جاراً على جهة الغاية ، بمعنى إلى ، كقولك : سرتُ حتَّى الليلِ ، وقعدت حتَّى طلوعِ الشمسِ . تريد : إلى الليلِ ، وإلى طلوعِ الشمسِ)) [1]، وإذا كان مدخولها فعلاً مضارعاً منصوباً ، فلها معنيان مشهوران : ((أحدهما الغاية ، نحو ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ [2] ، والثاني التعليل ، نحو : لأسيرَنَّ حتَّى أدخل المدينة . وعلامة كونها للغاية أن يحسن في موضعها (إلى أن) وعلامة كونها للتعليل أن يحسن في موضعها (كي) ، وزاد ابن مالك في التسهيل معنى ثالثاً ، وهو أن تكون بمعنى (إلَّا أن) ، فتكون بمعنى الاستثناء المنقطع ... وهو معنى غريب))[3] ، ولذا وصفه ابن هشام بأنَّه ((أقلّها وقلَّ مَن يذكره)) [4] .

وقد أشار النحويون إلى جملة من الفروق بين دلالة (حتَّى) على الغاية ودلالة (إلى) عليها ، وهذه الفروق هي :

١ـ (إلى) أمكن في الدلالة على الغاية من (حتَّى) لاقتصار الأخيرة على جرِّ الآخر أو ما اتصل به ، فيجوز أن تقول : سرت البارحة إلى نصفها ، ولا يجوز أن تقول : حتَّى نصفها ، وكذا تقابل (إلى) (من) ، ولا يجوز ذلك مع (حتَّى) [5] ، ويبدو أنَّ هذا هو السبب الذي حملهم على القول بنيابة (حتَّى) عن (إلى) دون العكس .

---

[1] كتاب الأزهية في علم الحروف : ٢١٤ .

[2] سورة طه ، الآية : ٩١ .

[3] الجنى الداني : ٥٥٥ .

[4] مغني اللبيب : ٤٦/١ .

[5] ينظر : مصابيح المغاني في حروف المعاني : ٢٣٢ ، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٧٢/٢ .

٢ـ تقتضي دلالة (حتَّى) التدرُّج والتمهُّل في انقضاء ما قبلها ، فهو لا يحصل دفعة واحدة أو على نحو السرعة ، بل يتحقق شيئاً فشيئاً [١] ، نحو : تسلقت الجبلَ حتَّى القمَّة . فالتسلُّق لم يحصل دفعة واحدة بل على مراحل متعددة .

٣ـ عدم دخول نهاية الغاية مع (إلى) إلَّا بقرينة ، أمَّا (حتَّى) فهي على العكس ؛ إذ تدلُّ على دخول نهاية الغاية ، ولا يُحكم بخروجها إلَّا بقرينة ، فإذا لم ينصب المتكلم قرينة على دخول ما بعد حرف الغاية أو عدم دخوله ، فرأي جمهور النحويين أنَّه يدخل مع (حتَّى) دون (إلى) ؛ حملاً على الغالب في البابين ؛ لأنَّ الأكثر عدم الدخول عند استعمال (إلى) ، والدخول عند استعمال (حتَّى) فوجب الحمل عليه عند التردُّد [٢].

٤ـ تدلُّ (حتَّى) على كون ما بعدها ((ممَّا يُستبعَد وجوده في العادة ، كقولنا : قاتلتُ السِّباعَ حتَّى الأُسودِ ، فقتالُه الأسدَ أبعدُ من قتاله لغيره ، وكذلك : اجترأ عليَّ الناسُ حتَّى الصبيانِ ؛ لأنَّ اجتراء الصبيان أبعدُ في النفوس من اجتراء غيرهم ، ولو جعلنا مكانَ (حتَّى) (إلى) ؛ لَمَا أدَّى هذا المعنى)) [٣] ، ورأى بعض النحويين أنّ هذه الفائدة الدلاليَّة هي المسوِّغ المعنوي لوجود ما بعد (حتَّى) ؛ لأنَّ في ذكر ما قبلها غنًى عن ذكره ، فلا يبقى سوى ((قصد التنبيه على أنَّ فيه زيادة ضعف أو قوة أو تعظيم أو تحقير)) [٤].

ولم يغفل بعض شرَّاح النهج ممَّن يملك الحس اللغوي عن بعض هذه اللطائف عند استظهاره دلالة (حتَّى) ، فعلى الرغم من تفسيرهم لـ (حتَّى) الجارة للاسم على أساس

---

[١] ينظر : النحو الوافي : ٤٨٢/٢ .

[٢] ينظر : ترشيح العلل في شرح الجمل : ٢٠٤ ، وهمع الهوامع : ٢/ ٤٢٩ .

[٣] شرح المفصل : ٤/ ٤٦٧ .

[٤] شرح تسهيل الفوائد : ١٦٦/٣ .

النيابة عن (إلى) في قوله (عليه السلام) : ((**فَوَ اللَّهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا**)) [(١)] إلَّا أنَّهم أشاروا إلى النكتة الدلالية لإيثار (حتَّى) في هذا الموضع ، يقول الخوئي : (((حتَّى) في قوله : حتَّى يوم النّاس ، بمعنى (إلى) ، والإتيان بها دون (إلى) للإشارة إلى دخول ما بعدها في حكم ما قبلها إذ الغالب في (حتَّى) مع الخلوّ من القرينة هو الدّخول ، كما أنّ الغالب في (الى) العكس)) [(٢)] .

ولا ريب في صحَّة ما استظهره الخوئي ، إلَّا انَّه لا يندفع بالدلالة إلَّا خطوة واحدة ولا يشير إلَّا إلى نُكتة ظاهرة ؛ ولذا سنحاول قراءة معطيات السياق التي تتناغم فيما بينها لإنتاج الدلالة النهائية التي تندمج فيها دلالة الحرف (حتَّى) ، فالتعبير بصدد إبراز الحجم الكبير لمظلوميته (عليه السلام) ؛ لذا نجده يُحشِّد ـ للدلالة على ذلك ـ جملة من التعبيرات ؛ فيبدأ كلامه (عليه السلام) بالقسم لينبِّه على أهمية المُقسَم عليه ، ثمَّ يستعمل الفعل الدال على الاستمرار (ما زلتُ) ليوحي باستمرار المظلومية وعدم انقطاعها ، ثمَّ يأتي بـ (منذ) للإيحاء بتكرار الحدث الذي تتعلَّق به ؛ لاشتراط كون عاملها متكرراً ، يقول الخضري : ((أمَّا الداخلة على الفعل ، والجملة الاسمية فليست حرف جر بل اسم بمعنى الزمن ... وشرط عاملهما كونه ماضياً إمَّا منفياً يصح تكرره ... أو مثبتاً متطاولاً)) [(٣)] ، ومعلوم أنَّ التكرار يستلزم انقضاء الحدث ثمَّ ابتداء حدث آخر ، وهو ما يصوِّر الواقع المؤلم من تتابع الفتن واتصالها .

وهذا السياق المتدرِّج المتكرِّر يوحي بتصاعد وتيرة الظلم المتوجِّه نحوه (عليه السلام) ، وهنا يأتي دور حرف الغاية (حتَّى) في إيصال الحدث إلى أعلى مراحله ؛ فمع كونه

---

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٣ .

(٢) منهاج البراعة ، للخوئي : ١٤٣/٣، وينظر : مفتاح السعادة : ٦٠/٤ ، وفي ظلال نهج البلاغة : ١١١/١ .

(٣) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل : ٣٧٥/١ ، وينظر : حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣٠٨/٢ .

يوسِّع الدلالة بإدخال ما بعده في حكم ما قبله ، فهو يشير إلى كون هذا اليوم يمثل الغاية في اغتصاب حقِّه ودفعه عنه ؛ إذ وصلت فيه الأمة إلى مرحلة متدنية ، تمثلت بانقلابها على إمامها ، وإعلانها حرب الجمل التي هي أولى الحروب التي فُرِضت على الإمام (عليه السلام) ، بل الأغرب من ذلك أنَّ قادة الحرب كطلحة والزبير كانوا من المبايعين للإمام (عليه السلام) ثمَّ نكثا البيعة وجيَّشا الجيوش لقتاله . ولم يتوقف الزخم الدلالي عند هذه النقطة ؛ لأنَّ مدخول الحرف (يومِ) قد أضيف إلى (الناس) ولم يضف إلى ياء المتكلم (يومي) أو التعبير بـ (اليوم) ، وهذا ((يمكن أن يكون لدقيقة وهي أنَّ اليوم وهو يوم خلافتي بحسب الظّاهر ليس يومي بل يوم النّاس ؛ وذلك لأنَّ يومي هو اليوم الذّى أكون قادراً على إحياء الحقّ وإماتة الباطل ... أمَّا اليوم فلا أقدر على إجراء هذا المعنى لقلّة المؤمنين وكثرة المخالفين المعاندين يفعلون ما يشاءون ويذهبون حيث يميلون ويريدون)) [(١)] .

والملاحظ أنَّ الشرَّاح لم يتعاملوا مع (حتَّى) الداخلة على الفعل المضارع بالطريقة التي تعاملوا بها في المورد السابق ، بل اقتصروا على القول بنيابتها عن أحد الأحرف الثلاثة (إلى ، وكي ، وإلَّا) من غير التفات إلى الفروق الدلاليَّة بينها ، وسنقف ـ هنا ـ عند النيابة الأولى والثالثة دون الثانية ؛ لأنَّها ستُبحث في المعاني المشتركة ، وسنقتطف بعض النماذج التي قيل فيها بالنيابة عن (إلى) ، ومنها قوله (عليه السلام) للأشعث بن قيس : ((**وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ ، وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ وَالسَّلَامُ**)) [(٢)] ، ولم أجد عند الشرَّاح ما يبيِّن الدور الدلالي

---

(١) مفتاح السعادة : ٦١/٤ .

(٢) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٦٦ .

للحرف (حتَّى) إلَّا الخوئي الذي لم يتأوَّلها بأكثر من قوله : ((والظّاهر أنَّ كلمة (حتَّى) بمعنى (إلى أن)))[١] ، فيكون المعنى : وأنت من خُزَّانِهِ إلى أن تُسَلِّمَهُ إِليَّ .

ولكن السؤال الذي لم نجد له جواباً هو : إذا كان معنى (حتَّى) مساوياً لمعنى (إلى أن) فما هو المرجِّح لاستعمال (حتَّى) في هذا الموضع ؟ في حين استعملت عبارة (إلى أن) في مواضع أخرى ، كقوله (عليه السلام) : ((**أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ**))[٢] ، وقوله (عليه السلام) : ((**أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ**)) [٣] .

ويبدو أنَّ الجواب يكمن في اختلاف المقام والسياق الذي أوثر فيه كلُّ واحد من الحرفين ، فمقام الرسالة يختلف عن مقام الأقوال الأخرى ؛ لكون الرسالة موجَّهة لرجل النفاق المشهور الأشعث بن قيس ، وقد لخَّص ابن أبي الحديد حال الأشعث بقوله : ((كان الأشعث من المنافقين في خلافة علي (عليه السلام) وهو في أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) كما كان عبد الله بن أبي بن سلول في أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) كلُّ واحد منهما رأس النفاق في زمانه))[٤] ، وقد كتبها الإمام (عليه السلام) بعد رجوعه من حرب الجمل ، وكان الأشعث من عمَّال عثمان على آذربيجان ؛ فكتب إليه بالبيعة وطالبه بمال آذربيجان [٥] ، وذكر المسعودي أنَّه (عليه السلام) : ((بعث إلى الأشعث بن قيس يعزله عن أذربيجان وأرمينية ، وكان عاملاً لعثمان عليها)) [٦].

---

[١] منهاج البراعة ، للخوئي : ١٧٤/١٧ .

[٢] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٨٢ .

[٣] المصدر نفسه : ٣١٩ .

[٤] شرح نهج ، لابن أبي الحديد : ٢٩٥/١ ، وذكر أيضاً في (٢٧٨/٢) ما نصه : ((قلت : كلُّ فساد كان في خلافة علي (عليه السلام) وكلُّ اضطراب حدث فأصله الأشعث))

[٥] ينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٥٠/٤ .

[٦] مروج الذهب : ٣٢٢/١ .

أمَّا سياق الرسالة فهو مشبعٌ بالتعريض بهذا الرجل ، وقد ذكر نصر ابن مزاحم (ت ٢١٢هـ) ما جاء في بداية الرسالة ـ وهو ما لم يذكره الرضي ـ وهي قوله (عليه السلام) : ((**أمَّا بعد ، فلولا هنات كن فيك كنت المقدَّم في هذا الأمر قبل الناس** ...))[1] ، فضلاً عمَّا جاء في قوله (عليه السلام) : ((**وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ** ...))[2] ، فهذا الحشد الدلالي يوحي بعدم أمانة الرجل ، وكون تسليمه المال أمراً يُستبعَد حصوله في العادة ، وهذا يستدعي استعمال الحرف الذي يوحي بذلك ، وهو الحرف (حتَّى) ، ولولا أنَّ الإمام(عليه السلام) تدارك الأمر لحصل ذلك ؛ إذ عزم الأشعث على اللحوق بمعاوية ، يقول ابن قتيبة : ((ذكروا أنَّ الاشعث رجع إلى منزله ، فدعا أهل ثقته من أصحابه ، فقال لهم : إنَّ كتاب عليٍّ جاءني ، وقد أوحشني ، وهو آخذي بمال أذربيجان وأنا لاحقٌ بمعاوية))[3] ، ولكنَّ الإمام (عليه السلام) كتب إليه كتاباً آخر يوبخه فيه ويأمره بالقدوم عليه ، وبعث به حجر بن عدي ، فلامه حجر ولم يزل به حتَّى أقدمه إلى الكوفة [4].

وربَّما يقال : لماذا ذكر الإمام (عليه السلام) لفظ الترجي في نهاية الكتاب بقوله (عليه السلام) : ((**وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ**)) إذا كان المخاطب بهذه الصفة ، وهذا لا ينسجم مع التوجيه المذكور ؟ والتأمُّل في هذا النص يرشد إلى أنَّه (عليه السلام) ((أتى بلفظ الترجّي إطماعاً له بعدم الإيقاع به ، والمؤاخذة له كي لا يفرّ الى العدوّ ؛ لأنَّه كان خائفاً منه)) [5].

---

[1] وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم المنقري : ٢١ . وهنات : خصلات شر . ينظر : مقاييس اللغة . (هنا) : ٦٨/٦ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٦٦ .

[3] الإمامة والسياسة : ٨٤/١ .

[4] ينظر : الدرة النجفية : ٢٩٩ .

[5] اختيار مصباح السالكين : ٤٧٥ ، وينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ١٨٦/١٧ ، وشرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ١٣٥/٤ .

ومن بدائع استعمال الحرف (حتَّى) ما جاء في قوله (عليه السلام) : ((**وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ وَلَسْنَا نُرْعِدُ حتَّى نُوقِعَ وَلَا نُسِيلُ حتَّى نُمْطِرَ**))[1] ، وقد احتمل الخوئي في (حتَّى) أن تكون ((في الموضعين إمّا بمعنى (إلى) كما في قوله سبحانه : ﴿ **حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى** ﴾ [2] أو بمعنى (إلّا)))[3] ، وبهذا التأويل سيكون المعنى : لسنا نُرعدُ إلى أن نوقعَ ، إلَّا أن نوقعَ ، ولا نسيل إلى أن نُمطرَ ، إلَّا أن نُمطرَ .

وهنا يأتي الإشكال السابق الذي يتعلق بالمرجِّح لاستعمال (حتَّى) دون الحرفين ، مع أنَّهما واردان في مواضع أخرى ، وقد ذكرنا بعض الأمثلة لاستعمال (إلى أن) في المورد السابق ، أمَّا استعمال (إلَّا أن) فقد ورد في موارد متعددة أيضاً ، كقوله (عليه السلام) : ((**وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهَدٍ إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلَاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ**))[4] ، وقوله (عليه السلام) : ((**فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ وَ لَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ**)) [5].

وإذا ما أردنا التوصل إلى السرِّ الذي أوثِر لأجله حرف الغاية (حتَّى) على الحرفين الآخرين ، فلا بُدَّ من الوقوف على المعنى الدلالي لكلِّ واحد من الأحرف الثلاثة ، ولتوضيح الفرق بينها نأتي بالمثال الآتي ، إذا قلنا : لا ننامُ إلى أن تطلعَ الشمسُ ، فالحرف (إلى) يدلُّ على استمرار نفي حصول الفعل إلى بداية طلوع الشمس ، أمَّا إذا قلنا : لا ننامُ إلَّا أن تطلعَ الشمسُ ، فالحرف (إلَّا) يدلُّ على استمرار نفي حصول الفعل إلَّا في وقت واحد وهو طلوع الشمس دون غيره من الأوقات ، فهو ينام في هذا

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٤ .
[2] سورة طه ، الآية : ٩١ .
[3] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣/ ١٥٩ .
[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٢٥ .
[5] المصدر نفسه : ٣٦٨ .

الوقت وحسب ، فإذا قلنا : لا ننامُ حتَّى تطلعَ الشمسُ ، فإنَّ الحرف (حتَّى) يدلُّ على أن استمرار نفي حصول الفعل يكون باقياً إلى حين اكتمال طلوع الشمس .

وبناء على ما تقدَّم فإنَّ استعمال الحرف (حتَّى) سيكون هو الأبلغ في قوله (عليه السلام) : ((**وَلَسْنَا نُرْعِدُ حتَّى نُوقِعَ وَلَا نُسِيلُ حتَّى نُمْطِرَ**)) ؛ لأنَّ المقام يقتضي استمرار النفي إلى ما بعد تحقُّق مدخول الحرف ؛ إذ هو بصدد المقارنة بين جبهتين تقفان على طرفي نقيض ، تمثَّلت الجبهة الأولى بأصحاب الجمل الذين اتصفوا برذائل كثيرة ، ومنها الرذيلة المرتبطة بكثرة التهديد والوعيد وقد كنَّى عنها بقوله (عليه السلام) : ((**وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ**)) ، وممَّا يُلاحظ هنا وجود (قد) الدالة على التوكيد المستلزم للمبالغة في وجود هذه الرذيلة ، ثمَّ أنَّه (عليه السلام) قابلها بذكر نقيضها ، مؤثراً الحرف (حتَّى) لدلالته على استمرار نفي حصول الوعيد والتهديد وعدم ظهوره قبل نضوج الفعل واكتماله ؛ ليوحي بأنَّ ((فعله يتقدَّم على قوله ؛ لأنَّ القول إذا تقدَّم فربَّما لا يوافقه الفعل ، أمَّا اذا سبق الفعل القول ، فالقول لا يكون إلَّا صادقاً))[1] ، وهذا الأمر يشبه السحاب ؛ لأنَّ فضيلة السحاب لا تتحقق إلَّا عند نزول المطر ، وكذا السيل فلا يمكن أن يحصل إلَّا بعد هطول المطر و ((مفهوم ذلك أنَّ خصمه يهدِّده بالحرب من غير قوَّة نفس ولا إيقاع لها فأشبه ذلك الرعد من غير إيقاع للمطر، والسيل من غير مطر ؛ فكأنّه قال : كما لا يجوز سيل بلا مطر فكذلك ما يوعدونه ويهدّدون به من إيقاع الحرب بلا شجاعة ولا قوّة عليها ، وفي ذلك شيمة التحدّي))[2] ، فضلاً عن ذلك فإنَّ في التهديد والوعيد نوعاً من الكشف عن خطَّة الحرب كذكر أهم المدن التي تُمثل أوَّل الأهداف أو الأشخاص الذين سيتم استهدافهم ، وغير ذلك من الرسائل النافعة للعدو ؛ لكونها تُقدِّم المعلومات القيِّمة من دون مقابل .

---

[1] أعلام نهج البلاغة : ٥٥ ، وينظر : توضيح نهج البلاغة : ٨٩/١ .

[2] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٢٨٤/١ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٣٧/١ ، ومفتاح السعادة : ١٠٧/٤ .

أمَّا الحرف (إلَّا) المستعمل في الموارد التي ذكرناها ، فهو الأوفق بها ؛ لأنَّه يشير إلى أنَّ النهي في قوله (عليه السلام) : ((**لَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ**)) لا يرتفع إلَّا في حالة واحدة هي ((**أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلَاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ**)) وكذا النفي في قوله (عليه السلام) : ((**لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا**)) فهو لا يرتفع إلَّا في حالة واحدة هي ((**أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ**)) .

وممَّا يثير الانتباه في استعمال الحرف (حتَّى) في نهج البلاغة ما نجده من تفاوت في الحركة الإعرابية في موضع واحد ، وهو قوله (عليه السلام) لأبي موسى الأشعري : ((**وَايْمُ اللَّهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، وَلَا تُتْرَكُ حتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ ، وَحتَّى تُعْجَلُ عَنْ قِعْدَتِكَ ، وَ تَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِك**))[1] ، وما يلفت النظر في هذا القول ما نراه من التفاوت في استعمال الفعل المضارع بعد (حتَّى) ؛ إذ جاء منصوباً في المرَّة الأولى ، في حين جاء مرفوعاً في المرَّة الثانية ، على الرغم من وحدة السياق ، ومجيئهما في معرض التهديد .

وليس في كلمات الشرَّاح ما يشير إلى الفرق بين الموضعين ، ويبدو أنَّ السبب في تغيير الحركة الإعرابية مرتبط بالحرف (حتَّى) ؛ لأنَّ ((التي ينصب بعدها الفعل هي التي تخفض الاسم ، والتي يُرفع الفعل بعدها هي بمنزلة حرف من حروف الابتداء)) [2] ، وهذا الأمر ينعكس على دلالة الفعل المضارع بعدها ، إذ يكون دالاً على المستقبل في حالة النصب ، في حين يكون دالاً على الحاضر في حالة الرفع ، جاء في مغني اللبيب : ((ولا ينتصب الفعل بعد (حتَّى) إلَّا إذا كان مستقبلاً ... وكذلك لا يرتفع الفعل بعد (حتَّى) إلَّا إذا كان حالاً)) [3] .

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٥٣ .

[2] التعليقة على كتاب سيبويه : ١٤٨/٢ .

[3] مغني اللبيب : ٤٨/١ .

وانطلاقاً من هذه الدلالة نستطيع أن نفهم أنَّ الفعل (تُعْجَلُ) يدلُّ على الزمن الحاضر ، فهو أسبق تحقُّقاً من الفعل (يُخْلَطَ) ؛ لدلالته على المستقبل ، ولإثبات هذا الأمر نحتاج إلى معرفة المناسبة التي كُتبت فيها الرسالة والأحداث التاريخية المرافقة لها ، فضلاً عن المراد بما جاء في قوله (عليه السلام) : ((**يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ**)) ، وقوله (عليه السلام) : ((**تُعْجَلُ عَنْ قِعْدَتِكَ**)) .

أمَّا المناسبة التي كُتِبَت فيها الرسالة ، فيلخِّصها المسعودي بقوله : ((وسار عليٌّ من المدينة بعد أربعة أشهر ... فانتهى إلى الربَذَة بين الكوفة ومكَّة ... وكَاتَبَ عليٌّ من الربذة أبا موسى الأشعري ليستنفر الناس ، فَثَبَّطَهم أبو موسى ، وقال : إنَّما هي فتنة ، فنمي ذلك إلى عليٍّ ، فولَّى عليٌّ الكوفة قَرَظَة بن كعب الأنصاري ، وكتب إلى أبي موسى : اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموماً مدحوراً ، فما هذا أول يومنا منك ، وإنَّ لك فينا لهنات وهنيات))[1] ، ويبدو أنَّ هذا العزل هو ما عبَّر عنه الإمام (عليه السلام) بالفعل المضارع المرفوع في قوله : ((**حتَّى تُعْجَلُ عَنْ قِعْدَتِكَ**)) أي : إنَّك تُطرَد من وظيفتك وتعزل من عملك في الزمن الحاضر ، جاء في توضيح نهج البلاغة : (((وحتَّى تعجل) أي : يؤتى بما يسبِّب تعجيلنا (في قعدتك) هي بمعنى هيئة القعود والمراد ولايته ، والمعنى نضع واحداً مكانك ، ونعزلك عن الولاية))[2] ، ويقول محمد جواد مغنية : ((المراد بالقعدة هنا الوظيفة والولاية ، أي : تطرد منها)) [3].

أمَّا الاستعارة في قوله (عليه السلام) : ((**يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ**)) فقد فسَّرها ابن أبي الحديد بقوله : ((هذا مثل ، ومعناه : لتفسدن حالك ولتخلطن ، وليضربن ما هو الآن منتظم من أمرك))[4] ، والذي يبدو من هذا التعبير أنَّه يشير إلى

---

[1] مروج الذهب : ٣١٦/١ ، وينظر : الاعلام ، لخير الدين الزركلي : ١١٤/٤.

[2] توضيح نهج البلاغة : ٢٢٢/٤ .

[3] في ظلال نهج البلاغة : ١٥٦/٤ .

[4] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٤٧/١٧ .

ما جرى على أبي موسى الأشعري بعد عزله ؛ فـ (حتَّى) تُشير إلى تصاعد الأحداث التي تؤذن بانقلاب أحوال هذا الرجل وصولاً إلى أخبثها على الإطلاق ، فبعد عزله أخرجه مالك الأشتر من الكوفة [1]، فانقلبت حاله ، ووصل أمره إلى ما وصفه ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) بقوله : ((وعزله عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عنه عنها ، فلم يزل واجداً منها على عليٍّ ، حتَّى جاء منه ما قال حذيفة ، فقد روي فيه لحذيفة كلام كرهت ذكره ... ثمَّ كان من أمره يوم الحكمين ما كان))[2] ؛ إذ وصل في ذلك اليوم إلى قمَّة الخلط والتخبُّط حين وهم أنَّه عزل إمام زمانه ، فعبّر بحماقته هذه عن دوره المخزي في التاريخ مرّة أُخرى ، وجرَّ المجتمع الإسلامي إلى هاوية الدمار [3].

[1] ينظر : موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ ، لمحمد الريشهري ، السيد محمد كاظم الطباطبائي ، السيد محمود الطباطبائي : ٣٠/١٦ .

[2] الاستيعاب ، ليوسف بن عبد الله القرطبي : ٩٨٠/٣.

[3] ينظر : موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ : ٣٠/١٦ .



الفصل الرابع

أسرار المعاني المشتركة لحروف الجرِّ في نهج البلاغة

الفصل الرابع

أسرار المعاني المشتركة لحروف الجر في نهج البلاغة

توطئة :

ذكر النحويون جملة من المعاني المشتركة التي يؤدِّيها غيرُ واحدٍ من حروف الجرِّ ، وهذا دفعهم إلى البحث عن إيجاد الحرف الأكثر استعمالاً في هذا المعنى ليحملوا غيرَه عليه ، معتمدين في ذلك على مجموعة من القرائن ، جاء في النحو الوافي : ((إنَّ المعنى الواحد قد يؤدِّيه حرفان أو أكثر، وللمتكلم أن يختار من الحروف المشتركة ... ما يناسب السياق ، غير أنَّ الحروف المشتركة في تأدية المعنى الواحد قد تتفاوت في هذه المَهمَّة ، فبعضها أقوى على إظهاره من غيرها ؛ لكثرة استعمالها فيه ، وشهرتها به)) [1].

ولسنا ـ هنا ـ بصدد البحث عن كلِّ المعاني التي قيل باشتراك حروف الجر في أدائها ؛ لأنَّ ذلك مبحوث في مجال النيابة ، فالظرفية مثلاً ـ وفق مذهب النيابة ـ ستكون من المعاني المشتركة ، مع أنَّها معنًى يختص به الحرف (في) وإن قيل بدلالة مجموعة من الحروف عليه كما تقدَّم ؛ ولذا سنقتصر ـ هنا ـ على المعاني المشتركة بشرط كونها ممَّا لا يختصُّ بها أحد أحرف الجر ؛ فيترتَّب على ذلك التداخل بين معانيها .

ولم يلتفت شرَّاح النهج عند استظهارهم إلى الفروق الدلالية بين الحروف المستعملة في موارد مختلفة من نهج البلاغة ؛ إذ جعلوها بمنزلة واحدة من الدلالة ، بل سلَّموا بمقولة النحويين وطبقوها على تلك الموارد ، غير آبهين بالتفاوت الدلالي الذي يترتب

---

[1] النحو الوافي : ٢/٤٥٥ .

على استعمال كلِّ حرف ، وسنقف ـ هنا ـ للبحث عن أسرار تلك المعاني وبيان الفروق الدلالية بينها .

و تنقسم المعاني المشتركة على ثلاثة معانٍ [1]:

أولاً : معنى التعليل .

ثانياً : معنى القسم .

ثالثاً : معنى المصاحبة .

---

[1] التوكيد معنى رابع مشترك لأحرف الجر ، إلا أنَّنا لم نذكره ـ هنا ـ لأنَّه دُرِس بشكل تفصيلي في : أساليب التأكيد في نهج البلاغة دراسة دلالية: أصيل محمد كاظم ، (رسالة ماجستير) ، جامعة القادسية ،كلية التربية ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م ؛ إذ أفردت الباحثة الفصل الأوَّل للتأكيد الحرفي فناقشت زيادة الحرف ودلالته على التأكيد في النهج ، فضلاً عن ذلك فقد صرَّح النحويون بأنَّ حروف الجر الزائدة لا ترتبط معنوياً بما قبلها ، جاء في مغني اللبيب ١٦٦/٢: ((يستثنى من قولنا لابد لحرف الجر من متعلق ستة أمور : أحدها : الحرف الزائد كالباء ومن في ... وذلك لأن معنى التعلق الارتباط المعنوي، والأصل أن أفعالاً قصُرت عن الوصول الى الأسماء فأعينت على ذلك بحروف الجر، والزائد إنما دخل في الكلام تقويه له وتوكيداً، ولم يدخل للربط)) وعلى هذا فإنَّ حروف الجر الزائدة ـ كما جاء في النحو الوافي : ٤٤١/١ ـ ((لا تجيء بمعنى جديد ، وإنَّما تزاد لمجرد تقوية المعنى ، وتوكيده ... ولا يحتاج حرف الجر الزائد مع مجروره إلى متعلق)).

ومع أنَّ موضوع التعليل بأحرف الجر قد دُرس في الفصل الثاني من : أنماط التعليل في نهج البلاغة ، دراسة نحوية ودلالية : تيسير حبيب رحيم ، (رسالة ماجستير) ، جامعة المثنَّى ، كلية التربية ، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤ م ، إلَّا أنَّ دراسته أخذت المنحى النحوي المعروف بإسناد معنى التعليل إلى حرف الجر ، من غير أن يتعمَّق الباحث في البحث عن الفروق الدلالية بين أحرف الجر ؛ لأنَّه لم يكن بصدد البحث عن المعاني الغامضة لتلك الأحرف ، فضلاً عن عدم استعماله المنهج التحليلي الذي يزاوج بين دلالتي الحرف والسياق .

والجدير بالذكر أنَّ هناك ظاهرتين تركيبيتين مشتركتين بين حروف الجر تمثلتا بـ (الحذف ، والتقديم) إلا أنَّنا لم نبحث فيهما لكونهما دُرِسَتا بشكل تفصيلي في أطروحة الدكتوراه : تعلق شبه الجملة في نهج البلاغة : محمود عبد حمد اللامي ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م ؛ إذ أفرد الباحث الفصل الرابع من الرسالة لبحثهما.

أوَّلاً : معنى التعليل :

يظهر من كلمات النحويين أنَّ التعليل هو أكثر المعاني المشتركة بين حروف الجر ؛ إذ تشترك في الدلالة عليه ـ بنظرهم ـ مجموعة من أحرف الجر ، كاللام ، والباء ، والكاف ، وعن ، وفي ، ومن ، وإلى ، وعلى ، وحتَّى .

وربَّما يُقال : إنَّ معنى التعليل من المعاني الخاصة بحرف اللام ، وهذا ما دفع النحويين لحمل الحروف الأخرى ـ عند ظهور هذا المعنى معها ـ عليها ، وهذا ليس بصحيح ؛ لأنَّ التعليل باللام ((راجع إلى معنى الاختصاص ؛ لأنَّك إذا قلت : جئتك للإكرام ، دلَّت اللام على أنَّ مجيئك مختصٌّ بالإكرام ؛ إذ كان الإكرام سببه ، دون غيره))[1] ، ويؤيِّد هذا الرأي ما نجده من أنَّ حمل بعض الحروف على معنى اللام لم يكن في خصوص معنى التعليل ، بل تُحمل عليها في معناها الأصلي وهو الاختصاص كما اتضح ذلك في المطالب المتقدِّمة .

وإذا ما أردنا أن تتجلى لنا حقيقة الفرق بين هذه الأحرف فعلينا أن ننظر إلى ما يترتب على وجود الحرف في الجملة ، وهو أمران :

الأوَّل : الربط ، وهذا ما تشترك به أحرف الجر ، والدليل على ذلك أنَّنا لو استبدلنا الحرف بغيره لبقي معنى التعليل ، كما في قولنا : أصابه المرض بما أخذه من المخدرات ، أو لِما أخذه من المخدرات أو فيما أخذه من المخدرات .

الثاني : المعنى الخاص لكلِّ حرف .

وبتأمُّل التركيب الذي حصل فيه معنى التعليل يظهر لنا أنَّه ينحلُّ الى ثلاثة أطراف ، هي : العلَّة ، والمعلول ، والحرف الرابط بينهما . فإذا اجتمعت هذه الاطراف

---

(١) الجنى الداني : ١٠٩ .

الثلاثة حصل معنى التعليل بغض النظر عن المعنى الذي يختص به الحرف ، وهذا يعني أنَّ الدِّلالة على التعليل أمر نحصل عليه من السياق بوجود الحرف الرابط كما هو واضح ، أمَّا ما يلقيه الحرف من معناه الخاص فهو لا يخرج عن دائرة معنى السياق (التعليل) ولكنَّه يضيف خصوصية لارتباط العلَّة بمعلولها ، فيتعمَّق بذلك معنى التعليل ، وهذا يعني أنَّ المعنى النهائي للحرف قد اختلطت دلالته بدلالة السياق .

ومن القرائن الواضحة على كون دلالة التعليل بسبب السياق ما نجده من قول النحويين في دلالة (حتَّى) على معنى التعليل ؛ إذ ذهبوا إلى نيابة (حتَّى) في كثير من الموارد عن (كي) ، ولم يقولوا بنيابتها عن (اللام) ؛ لأنَّهم وجدوا أنَّ العلة قد وقعت قبل حرف الجر بخلاف ما أثبتوه في (اللام) من كون العلَّة بعدها والمعلول قبلها [1] .

وأمَّا الحروف التي جاءت في سياق التعليل في نهج البلاغة ، فهي الأحرف السابقة التي ذكرها النحويون باستثناء الحرف (إلى) ، إلَّا أنَّ شرَّاح النهج فرضوا ـ في أكثر الموارد ـ أنَّ تلكم الأحرف نائبة عن حرف اللام ، فألغوا بهذا الصنيع ما يترتَّب على تنوّع الحرف في سياق التعليل من إضافة معنًى خاص للجملة ؛ ولذا سيكون البحث عن المزيَّة الدلالية الخاصَّة بكلِّ واحد من تلك الحروف .

التعليل بين (الباء) و (اللام) :

تُشابه الباء لامَ الجرِّ بجملة أمور ممَّا جعلها ـ بنظر بعض النحويين ـ تُحمَل عليها ، فكسروا الباء حملًا لها على لام الجرِّ، لاجتماعهما في عمل الجرّ، ولأنَّ كلَّ واحدة منهما ملازمة للحرفيَّة ، وكونِهما من أحرف الذَّلاقة [2].

---

[1] ينظر : النحو الوافي : ٤٧٣/٢ ، وقد صرَّح الأستاذ عباس حسن بذلك في قوله : ((التعليل ؛ بأن يكون ما بعدها علَّة وسببًا فيما قبلها ، نحو : الاكتساب ضروري ، لدفع الفاقة وذل الحاجة)) .

[2] ينظر : شرح المفصَّل : ٤٧٤/٤ .

ولم يقفوا عند هذا الحد من وجوه الشبه ، بل وجدوا أنَّهما تقعان بين شيئين أحدهما علَّة للآخر ، فحملوا الباء على اللام ؛ لأنَّ التعليل من المعاني المشهورة للام [١] ، فـ (((اللام) هي أمُّ باب التعليل والأصل فيه ؛ وذلك لِما تميَّزت به من مزايا هيَّأت لها أن تكون كذلك))[٢] ، وقد فرَّق الدكتور فاضل السامرائي بين دلالتيهما بقوله : ((التعليل بالباء إنَّما هو بمقابل شيء حصل ... وليست اللام كذلك ... تقول أرسلته لتجربته ، وأرسلته بتجربته ، فقد أفادت الأولى أنَّه أرسله ليجربه ، والثانية أرسله لأنَّه مجرِّب ، أي : مقابل تجربته التي حدثت قبل إرساله ...[و] العلَّة المقترنة بالباء تكون حاصلة قبل حدوث الفعل في الغالب وإنَّ الفعل حصل مقابلاً لها ، أمَّا العلة المقترنة باللام فقد تكون حاصلة قبل الفعل ، وقد تكون مراداً تحصيلها)) [٣] .

وليس ما ذكره الدكتور السامرائي نافعاً في التفريق بين جميع المواضع ؛ ولذا نجد الاضطراب واضحاً في قوله : ((فأمَّا (أخذته الصاعقة لظلمه) فمعناه أنَّ ظلمه سبب استحقاق العذاب ، أي : استحق العذاب لهذا ، وأمَّا (بظلمه) فمعناه مقابل ظلمه))[٤] ولا أرى فرقاً بينهما من الجهة التي ذكرها الدكتور السامرائي ؛ فالعذاب في الجملتين حاصل مقابل ظلمه ومعلول له .

ولو حلَّلنا الجملة إلى أطرافها الثلاثة (العلَّة ، والرابط ، والمعلول) ثمَّ أضفنا معنى الحرف الخاص ، لظهر لنا الفرق بين الحرفين ، ففي قولنا : (أُخِذَ برشوته ، و أُخِذَ لرشوته) نجد أنَّ الرشوة هي علَّة الأخذ في الجملتين وهذه هي الدرجة الأولى من الدِّلالة ، وهي متأتية من السياق بوجود الحرف الرابط بين الطرفين ، وأمَّا الدرجة الثانية فهي ترتبط بمعنى الحرف الخاص ، ففي الجملة الأولى دلَّت الباء على أنَّ

---

(١) ينظر : الجنى الداني : ١٠٩.

(٢) أنماط التعليل في نهج البلاغة ، دراسة نحوية ودلالية : ٣٠ .

(٣) معاني النحو : ٧٧/٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٣/ ٨٠ .

الأخذ قد حصل له وهو ملتصق بذنبه ومتلبس به ، وأمَّا في الجملة الثانية فقد دلَّت اللام على أنَّه استحق الأخذ لهذه العلة دون سواها ، فالأخذ ليس له علَّة إلَّا الرشوة ، وهو معنى الاختصاص . ويؤيِّد هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ** ﴾ [النحل : ٦١] فالباء تدلُّ على المعاجلة بأخذ الناس وعدم إمهالهم بل أخذهم وهم متلبسون بالظلم ، وقد ألمح القرطبي (ت ٦٧١هـ) إلى هذا المعنى بقوله : ((﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ** ﴾ أَي : بكفرهم وافترائهم ، وعاجلهم))[1] وذِكر التأخير بعدها قرينة على إرادة المعاجلة بها ، يقول سبحانه بعدها : ﴿ **وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ .

وإذا ما أردنا أن نتعرَّف على حقيقة الفرق بين الحرفين ـ عند استعمالهما في سياق التعليل ـ فينبغي علينا أنَّ نوازن بينهما في الموارد المتشابهة ، ولإثبات ذلك سنقف عند واحد من تلك الموارد ، يقول (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِه**))[2] ، ويقول (عليه السلام) : ((**إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ ، فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ**))[3] ، فالحرفان ـ عند شُرَّاح النهج ـ يدلان على التعليل ؛ إذ ((نهى (عليه السلام) عن الاستيحاش في طريق الهدى ؛ لأجل قلَّة أهله))[4] ، ونهى (عليه السلام) عن كفران النعمة ، فـ ((إذا ابتدأت نعم اللَّه تصل إليكم ... فلا تقطعوا استمرار تدفقها ولا ترفعوا أسباب وجودها وذلك إنَّما يحصل بقلَّة شكرها)) [5] .

ولا يخفى أنَّ استظهار الشرَّاح لمعنى التعليل لم يكن ليتخطى دلالة السياق ، ولذا فهو لا يتعمَّق في قراءة الخصوصيَّة التي تختلف باختلاف الحرف المستعمل في ذلك

---

[1] الجامع لأحكام القرآن : ١١٩/١٠ .

[2] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣١٩ .

[3] المصدر نفسه : ٤٧٠.

[4] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٦١/١٠ .

[5] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢١٦/٥ .

السياق ، وهذا الفهم يستلزم إسقاط الجزء المؤثِّر في تغيير دلالة التعليل في الجملتين ، ومن ثَمَّ يكون التعليل بمنزلة واحدة فيهما .

والذي يبدو أنَّ السرَّ في إيثار أحد الحرفين على الآخر منوط بالمقام والسياق الذي ورد فيه ، فالقول الأول واقعٌ في مقام الترغيب ، فقد ((أراد (عليه السلام) أن يُرَغِّبَ أصحابه في الثبات على ما هم عليه من طريق الحق والهدى))[1] ، ومن البديهي أنَّ تهوين الصعاب وتخفيفها والتقليل من شأنها هو الأليق بهذا المقام ؛ ولذا أوثرت (اللام) في المورد الأوَّل لكونها تؤذن بأنَّ الاستيحاش ليس له علَّة سوى قلَّة أهل الهدى ، ولا شكَّ في أنَّ هذا يهوِّن الخطب ، فضلاً عن ذلك فإنَّ دلالة اللام على الاختصاص تنسجم تماماً مع معطيات سياقها ؛ لأنَّها تتناسب مع سمة ارتباط العلة بمعلولها ، لأنَّ (قلة أهل طريق الهدى) هي العلة الوحيدة لوجود (الاستيحاش) ، وهذا ما أشار إليه اللغويون ، يقول ابن منظور : ((يُقَال للمكان الذي ذهب عنه الناس : قد أَوحَشَ)) [2] .

أمَّا الباء ، فهي واردة في مقام الزجر والتحذير[3] ، وهو مقام يقتضي مزيداً من التخويف والتهويل ؛ ولذا أوثرت الباء الدالة على الإلصاق ؛ لأنَّها توحي بسرعة حصول المعلول عند وجود علته ؛ فكأنَّ التلبُّس بقلَّة الشكر ملاصق لتنفير النعم وزوالها ، ولا يخفى ما في هذا الأمر من تخويف شديد يمنع المُنعَم عليه من الإقدام على قلَّة الشكر .

---

[1] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٣/٤٣٠ .

[2] لسان العرب . (وحش) : ٦/٣٦٨ ، وينظر : مقاييس اللغة . (وحش) : ٦/٩١ .

[3] ينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ٢١/٢٩ ، يقول الخوئي : ((نال المسلمون في عصره نعما لم يسبقوها و لم يكونوا يطمعوا فيها من السيادة و العزّة و الأموال الكثيرة ... و قد شاهد عليه السّلام كيف أثّر هذه الوضعية في روحية المسلمين و شرعت تفسدهم و تغررهم حتى كبار الصحابة أمثال طلحة و زبير و عمرو بن العاص، فخاف عليهم عواقب هذه الغرة والطغيان الموجب للكفران و زوال النعم، فقد كان عليه السّلام يتوقّع للإسلام نفوذا عاما يشمل البشريّة بأجمعها و يجعلها تخضع لحكومة واحدة عادلة ملؤها الأخلاق الفاضلة و التوحيد و العدل و السلام و الاسلام، و هي النعمة القصوى الّتي ينظر إليها بعينه النافذة، و حذر المسلمين من تنفيرها، و لكن هيهات هيهات و يا أسفا أسفا من هذه الخلافات الّتي نفرت هذه النعم و أبعدتها إلى ظهور الحجّة عجّل اللّٰه فرجه))

وما أكثر الموارد التي وئدت فيها دلالة الباء عندما فسرت باللام ، ومنها قوله (عليه السلام) : ((**سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَ مَعْبُوداً بِحُسْنِ بَلَائِكَ عِنْدَ خَلْقِك**))[1] ، يقول ابن أبي الحديد : ((فإن قلت الباء في قوله : (بحسن بلائك) بماذا تتعلق ؟ قلت : الباء ـ هاهنا ـ للتعليل بمعنى اللام ... فتكون متعلقة بما في (سبحانك) من معنى الفعل ، أي : أُسبِّحك لحسن بلائك ، ويجوز أن تتعلق بمعبود ، أي : يعبد لذلك))[2] ، أمَّا البحراني والخوئي فقد ذهبا الى أنَّ شبه الجملة تتعلق بما بعدها ، يقول الخوئي : (((بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً) أي : خلقت داراً بسبب ابتلاء عبادك ، وامتحاناً لهم وتميزاً بينهم وتفرقةً بين السّعداء ، أعني : الطالبين المشتاقين إلى تلك الدار، وبين الأشقياء وهم الرّاغبون المعرضون عنها ، والمراد بالدّار دار الآخرة)) [3] .

ويبدو أنَّ بوصلة الباء تتجه صوب ما ذهب إليه البحراني والخوئي ؛ لأنَّ الباء ـ الرابطة للعلَّة بالمعلول ـ لا تفيد مصاحبة المعلول لعلَّته إلَّا بعد إثبات وجود السببية بين الطرفين ، وهذا غير متحقِّق على رأي ابن أبي الحديد ؛ لأنَّه لا يتناسب ومقام أمير الموحدين (عليه السلام) ؛ فتسبيحه (عليه السلام) ليس مُسبَّباً عن وجود حسن البلاء ؛ لأنَّ التسبيح من شعب عبادته التي يصفها بقوله (عليه السلام) : ((**إلهي ما عبدتك** (حين عبدتك) **خوفا من نارك ، و لا طمعاً في جنتك ، بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك**)) [4].

وعلاقة العلِّيَّة جلية بين الدار الآخرة وحسن البلاء ، فالسياق قد تكفَّل ببيانها فوضع القرائن التي تدلُّ عليها ، فإرسال الداعي ليدعو إلى الدار الآخرة ، وعدم إجابة المدعوين له ولا رغبتهم فيما رغَّبهم به ولا شوقهم لما شوَّقهم إليه ، كلُّ ذلك ينبئ عن

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٥٩.

[2] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٠٥/٧ ، وينظر : في ظلال نهج البلاغة : ١٤٦/٢ ، وشرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢٣٤/٢ .

[3] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٢٩ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم :٦١/٣ .

[4] في رحاب نهج البلاغة :٦٧ ، وينظر : مستدرك نهج البلاغة : ١٦٤ ، و نهج البلاغة نبراس السياسة :٥٧ .

كونهم في محل الاختبار والابتلاء ، يقول (عليه السلام) : ((**خَلَقْتَ دَاراً وَ جَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً مَشْرَباً وَ مَطْعَماً وَ أَزْوَاجاً وَ خَدَماً وَ قُصُوراً وَ أَنْهَاراً وَ زُرُوعاً وَ ثِمَاراً ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا وَ لَا فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا وَ لَا إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ ...**)) ، وبعد ثبوت العلِّيَّة يأتي دور الباء في بيان علاقة حسن البلاء بالمكلفين ، فهي تدلُّ على مصاحبة حسن البلاء للمكلَّف وملاصقته له من أوَّل لحظةٍ يبزغ فيها فجره ، ولا يفارقه إلَّا عند أفول نجمه في ظلمات القبر ، وهو ما لا تفي به اللام .

التعليل بين (الكاف) و (اللام) :

أثبت بعض النحويين دلالة (الكاف) على التعليل[1] ، ولكنَّهم اختلفوا في مدخلية (ما) الكافَّة في ذلك ، فذهب ابن مالك إلى تأثير (ما) في إيجاد معنى التعليل ؛ إذ ((تحدث (ما) الكافَّة في (الكاف) معنى التعليل ، كقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾)) [2] في حين ذهب ابن هشام إلى عدم مدخليتها ((وأنَّ (ما) معهما مصدرية ، وقد سُلِّم أنَّ كلاًّ من الكاف والباء يأتي للتعليل مع عدم (ما) كقوله تعالى ... ﴿ وَيكأنّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾ وأنَّ التقدير : أعجب لعدم فلاح الكافرين)) [3] .

ومن الموارد التي قيل فيها بنيابة الكاف عن اللام ، ما جاء في قوله (عليه السلام) : ((**اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ ... اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ وَالدَّامِغِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ قَائِماً بِأَمْرِكَ مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِك**)) [4] وقد تأوَّلها محمد جواد مغنية على رأي ابن هشام ، يقول : ((كما حمل : الكاف هنا بمعنى لام التعليل ، و

---

[1] ينظر : همع الهوامع : ٤٤٧/٢ .
[2] شرح تسهيل الفوائد : ١٧٣/٣ .
[3] مغني اللبيب : ١١٧/١ .
[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٠١. ومستوفزاً : غير مستقر. ينظر : مقاييس اللغة . (وفز) : ١٣٠/٦ .

(ما) مصدرية))[1] ، ولا ريب في أنَّ هذا التأويل سيلغي دلالة الكاف على التشبيه ، بل يستبدلها بدلالة الاختصاص ؛ وهذا الأمر يلقي بظلاله على مراد المتكلم ، ويضيِّع المعنى المقصود .

ولعلَّ ابن ميثم البحراني وغيره من الشرَّاح كانوا ملتفتين إلى ما يلزم من القول بالنيابة ؛ لذا حاولوا توجيه المعنى بالإبقاء على دلالة التشبيه ، يقول ابن ميثم : ((وفي قوله : كما حمّل . لطف : أي : صلّ عليه صلاة مناسبة مشابهة لتحميلك له الرسالة وقيامه بأمرها ؛ لأنّ الجزاء من الحكيم العدل يكون مناسباً للفعل المجزّى ولأجل كونها جهة استحقاق طلب ما يناسبها)) [2] .

ومع أرجحيَّة ما ذهب إليه ابن ميثم البحراني ؛ فإنَّه لا يمكن القبول به أو بالتوجيه السابق إلَّا بعد التسليم بتعلُّق شبه الجملة (كما حُمِّل) بفعل الأمر (اجعل) ؛ لاحتمال تعلُّق شبه الجملة بما سبقها من أسماء عاملة عمل الفعل ، وهو ما ذهب إليه السيد الشيرازي ، يقول : ((كما حُمِّل فاضطلع) أي : فعل تلك الامور السابقة من الختم والفتح والإعلان والدفع والدمغ كما حمّل ، أي : كما حمّله اللّه سبحانه وأراد منه بغير زيادة أو نقصان))[3] ، وهو احتمال وجيه أيضاً ، وعلى كِلا الاحتمالين فلا حاجة بنا إلى القول بالنيابة .

ويبدو أنَّ استعمال الكاف ـ هنا ـ جاء مطابقاً لواقع التشبيه ؛ لأنَّ التشابه في الحالتين لم يصل إلى حدِّ التطابق ، بل يرصد التشبيه فيهما جهة واحدة ، تتمثَّل بالمشابهة من جهة المقدار ، مع الإبقاء على ما به الاختلاف بين المشبَّه والمشبَّه به

---

[1] في ظلال نهج البلاغة : ٣٥٢/١ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٤٠/٦ .

[2] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ١٩٩/٢ ، وينظر : اختيار مصباح السالكين : ١٨٠ ، منهاج الولاية : ٤٣١/١ ، والدرة النجفية : ١١٦ .

[3] توضيح نهج البلاغة : ٢٧٩/١ .

، فالتشابه بين شرائف الصلوات وبين ما حمِّل من جهة مقدارهما مع أنَّ شرائف الصلوات تختلف عن (ما حمل) في جهات أخرى ، وكذا الحال في أمر التشابه بين الأمور التي فعلها (صلى الله عليه وآله) وما حُمِّل ، فهي متشابهة من حيث المقدار مختلفة من حيث تعلق الفعل بالجوارح وتعلق (ما حُمِّل) بالقلب .

التعليل بين (في) و (اللام) :

عبَّر النحويون عن دلالة (في) إذا وردت في سياق التعليل بأنَّها للسببية أو للتعليل[1] أو أنَّها قائمة مقام اللام [2] ، واستشهدوا لذلك ببعض الآيات الكريمة ، كقوله تعالى : ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الانفال : ٦٨] ، ولسنا نماري في وجود العلِّيَّة بين (الأخذ) و(المس) ، فهي جلية واضحة ، ولكنَّ الدلالة لا تقف عند العلِّيَّة ، بل تتخطاها متَّجهة صوب بيان الظرف الذي يقع فيه المس ، وقراءة السياق والمقام تكشف عن هذا المعنى ، فالآية الكريمة واردة في سياق الحديث عن الأسرى ، وهي في مقام التنبيه على نقطة مهمة في الحرب ، فبعض المقاتلين كان يسعى للحصول على أكبر عدد من الأسرى لنيل الفدية ، ولا شك في أنَّ الانشغال بأسر العدو وشدّ وثاقهم ونقلهم إلى مكان آمن سيمنح العدو فرصة لجمع قواه وإعادة هجومه في ذلك الظرف الذي تضعف فيه صفوف المسلمين ، كما حدث في غزوة أحد ، حيث شغل بعض المسلمين أنفسهم بجمع الغنائم ، فاستغل العدوّ هذه الفرصة فحصل للمسلمين ما حصل [3] .

---

[1] ينظر : توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك : ٢/٧٥٦ ، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٢/٨٤ .

[2] ينظر : شرح الكافية الشافية : ٢/٦٧٢ .

[3] ينظر : التحرير والتنوير : ١٠/٧٨ ، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٥/٤٩٢ ـ ٤٩٣.

ومن الموارد التي حُملت فيها (في) على النيابة عن اللام قوله (عليه السلام) : ((**فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ وَ زَاحَتِ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ فِيهِ عَلَيْهِمْ وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُم**)) [1] وقد تأوّلها الخوئي على النيابة ، يقول : ((ولفظة (في) في قوله : ومدّت العافية فيه ، بمعنى اللّام ، كما في قوله تعالى : ﴿ **قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي** ﴾ [2] ، وقوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : إنّ امرأة دخلت النار في هرّة حبستها[3])) [4].

والحقيقة أنَّ مجيء (في) في سياق التعليل لا يلزم منه أن تتخلى عن دلالتها على الظرفية ، وهذا ما ذهب إليه المولى عبد الباقي الصوفي ؛ إذ يقول : ((**ومدّت العافية فيه ، أي : في ذاك الأمر**)) [5] . ولنا ـ هنا ـ أن نسأل الخوئي إن كانت (في) بمعنى اللام فلماذا عُدِل إليها في هذا الموضع المسبوق والملحوق باللام ((**وَزَاحَتِ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ ... وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُم**)) ؟!

والذي يبدو أنَّ (في) هي الأوفق بهذا الموضع ؛ لأنَّها تُحدِّد الظرف الذي ينعمون فيه بالأمان المعبَّر عنه بالعافية ، فهم لا ينعمون بالأمن إلَّا في الظرف الذي يتمسكون فيه بكلِّ أمر موصوف بالأوصاف المذكورة ، ولو جيء باللام لأصبح المعنى أنَّهم ينعمون بالعافية لخصوص تمسُّكهم بسببها من غير تعرُّض للوقت التي تبقى فيه تلك العافية .

---

[1] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٢٩٣/٤ . وقد ورد التعبير بالباء في (نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٩٥) .

[2] سورة يوسف ، الآية : ٣٢ . ويبدو أنَّ لفظة (فيه) سقطت عند النسخ .

[3] ينظر : بحار الأنوار : ٦١ /٢١٨ ، وصحيح مسلم : ١٧٦٠/٤ ، رقم الحديث : ٢٢٤٢ ، ونص الحديث : ((عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)) .

[4] منهاج البراعة ، للخوئي : ٣٥٧/١١ ، وينظر : توضيح نهج البلاغة : ٢٠٩/٣ .

[5] بهج الصباغة : ٤٠٥/١٤ .

التعليل بين (من) و (اللام) :

استظهر النحويون دلالة (من) على التعليل من مجموعة من النصوص ، والذي يبدو من تأوليهم لها أنَّهم يحملونها على اللام ، جاء في شرح التصريح : ((التعليل ـ عند جماعة ـ كقوله تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ [نوح: ٢٥] أي : أغرقوا لأجل خطاياهم ، فقدمت العلَّة على المعلول للاختصاص)) [١] .

ومن الموارد التي قيل فيها بنيابة (من) عن اللام قوله (عليه السلام) في الخطبة الشقشقية : ((**فَيَا عَجَباً بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا ، فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا ، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا وَ يَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا**)) [٢] ، وقد احتمل ابن أبي الحديد هذا المعنى ، بقوله : ((ويمكن أن تكون (من) ـ هاهنا ـ للتعليل والسببيَّة ، أي : ويكثر اعتذار الناس عن أفعالهم وحركاتهم لأجلها)) [٣] .

ويبدو أنَّ استعمال حرف الابتداء في سياق التعليل يومئ إلى المبدأ الذي يكثر بسببه الاعتذار ، فمهما كثر الخطأ والاعتذار فهو يعود إلى مبدأ واحد ، وهو مدخول حرف الابتداء ، وهو الضمير العائد إلى قوله (عليه السلام) : ((حوزة خشناء)) وهي تعبير عن طبيعة عمر بن الخطاب ذات الغلظة والشدَّة ، فالتعبير بـ (من) ينبِّه على مرجعية الكثرة في أخطاء عمر واعتذاره وهي كون ((منشأ ذلك وأمثاله غلبة القوّة الغضبيّة وغلظ الطبيعة))[٤] ؛ إذ كان يتسرَّع في إصدار الأحكام باسم اللّه وشرعه ، فإذا نُبِّه

---

[١] شرح التصريح على التوضيح : ٦٤٠/١ ، وينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٣٤/٣ـ٣٥ .

[٢] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٨ . وتشطَّرا : أخذ كل واحد نصفه . ينظر : مقاييس اللغة . (شطر) : ١٨٧/٣ . والحوزة : المجمع والناحية . ينظر : مقاييس اللغة . (حوز) : ١١٧/٢ .

[٣] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ١٧٠/١ .

[٤] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٢٥٨/١ .

على خطئه اعتذر، ثمَّ يتكرر منه ذلك [١] حتَّى ورد أنَّه قال في سبعين موضعاً : ((لولا عليّ لهلك عمر)) [٢].

التعليل بين (على) و (اللام) :

أشار النحويون إلى أنَّ (على) تأتي في بعض الموارد لإفادة معنى التعليل ؛ فتكون نائبة مناب اللام [٣] ، مكتفين بهذا المقدار من الدلالة ، جاء في شرح التصريح : ((وتأتي بمعنى اللام نحو: ﴿ **وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٨٥] أي : لهدايته إيَّاكم)) [٤] .

وقد سار بعض شُرَّاح النهج على خطى النحويين فتأوَّل حرف الاستعلاء بحرف الاختصاص في قوله (عليه السلام) : ((**فَيَا عَجَباً وَمَا لِيَ لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا ، لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ وَلَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ** ...)) [٥] فذهب الخوئي إلى أنَّ (على) : ((بمعنى (اللّام) كما في قوله : ﴿ **وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ** ﴾ . فتكون علّة للخطاء ...)) [٦] ، ولا ريب في أنَّ هذا التأويل لا يمسُّ بلاغة التركيب ، ، وإلَّا فما هو السرُّ في العدول عن (اللام) إلى (على) ؟

والذي يبدو أنَّ السرَّ في استعمال حرف الاستعلاء يكمن في قدرته على بيان شدَّة الاختلاف بين الفرق المشار إليها ، فهو يوحي بتمكُّن الاختلاف من تلك الفرق ، فكلُّ واحدة ((تدّعي لنفسها الحق فيما تذهب إليه ، بل تحصره فيها وتخطِّىء غيرها وتنعى

---

[١] ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٨٩/١ .

[٢] توضيح نهج البلاغة : ٥٩/١ ، وينظر : نهج البلاغة نبراس السياسة : ١٥٢ .

[٣] ينظر : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٩١/٢ ، و همع الهوامع : ٤٤٠/٢ ، وظاهرة التقارض في النحو العربي : ٢٧٢ .

[٤] شرح التصريح على التوضيح : ٦٥١/١ .

[٥] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٢١ .

[٦] منهاج البراعة ، للخوئي : ٦/ ٢٤٢ .

عليه حاله ومآله وترميه بالخطأ والشطط))[1] ، فكأنَّها مبنيَّة ومشيَّدة على الاختلاف فلا وجود لها من دونه ، ولكنَّها على الرغم من ذلك تتفق على نفي اتباع أثر نبي أو الاقتداء بعمل وصي أو غير ذلك من أمور الدين الأساسية التي ذكرها (عليه السلام) ، وهذا الأمر بلا شك يورث الدهشة والاستغراب ؛ ولذا نجد الجملة قد افتتحت بالتعجب والاستغراب للإيذان بوجود هذا الأمر الغريب شديد الغرابة .

دلالة (عن) في سياق التعليل :

ذهب بعض النحويين إلى دلالة (عن) على التعليل[2] مستظهرين ذلك من بعض النصوص ، كقوله تعالى : ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ** ﴾ [هود : ٥٣] بمعنى ((أَنْ يكونَ كلامُهُ عِلَّةً لِتركِهِم آلِهتَهم)) [3] .

ومن الموارد التي حُملت على هذا المعنى ما جاء في قوله (عليه السلام) : ((**فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ ؛ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ ...عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَة**)) [4] فتعلُّق شبه الجملة (عن كبر ساعة) بالفعل (أحبط) يشير إلى كون الإحباط مُسبَّباً عن الكبر ؛ وبهذا التقريب فهم بعض الشرَّاح دلالة (عن) على التعليل [5] ، فيكون المعنى : أحبط الله تعالى عمل إبليس لأجل كبر ساعة واحدة .

والذي يبدو أنَّ هذا التأويل ـ عند الشرَّاح ـ يبقى على حاله لو كان التعبير بحرف آخر كالباء أو في أو على أو غيرها ؛ لاقتصارهم على المعنى العام ، وعدم التفاتهم

---

[1] شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٤٠/٢ .
[2] ينظر : الجنى الداني : ٢٤٧ .
[3] التحرير والتنوير : ٩٨/١٢ .
[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٨٧ .
[5] ينظر : منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٦٥/١١ ، وأنماط التعليل في نهج البلاغة ، دراسة نحوية ودلالية : ١٢٨ .

إلى المعنى الخاص لكلِّ حرف ، ولا يخفى ما في هذا الأمر من جناية على بلاغة القول ، ومردود سلبي على مقصود المتكلم البليغ .

وبناء على ذلك فإنَّ التسليم بوجود العلِّية بين الإحباط والكبر لا يقتضي إلغاء دلالة المجاوزة ، بل يتكامل معها لإنتاج الدلالة النهائية للنص ، والذي يبدو أنَّ استعمال (عن) يوحي بخطورة هذه العلَّة وكونها ذات آثار كبيرة ؛ إذ يشير إلى كون المعلول قد وقع متراخياً عن علَّته وابتعد عنها ، وهذا يتناسب تماماً مع ما ذكره (عليه السلام) ؛ لأنَّه لمَّا كان الإحباط شاملاً لجميع أعمال إبليس السابقة للحظة كبره ، ناسبه المجيء بحرف المجاوزة لبيان امتداد آثار رذيلة الكبر فيحبط بسببها كلُّ عمل ولو كان بعيداً عنها ، كما حصل مع إبليس الذي أحبط بتكبره على أمر إلهي واحد عمل ستة آلاف سنة .

دلالة (حتَّى) في سياق التعليل :

عدل النحويون عن القول بنيابة (حتَّى) عن (اللام) إلى القول بنيابتها عن (كي)[1]؛ لأنهم وجدوا أنَّ ((ما قبلها علَّة وسبب فيما بعدها ، فهي مخالفة للام التعليل وأمثالها ممَّا يكون ما بعده هو العلَّة)) [2] ، ومثَّلوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢١٧] جاء في الكشاف : ((حتَّى معناها التعليل ، كقولك : فلان يعبد اللَّه حتَّى يدخل الجنة ، أي : يقاتلونكم كي يردّوكم))[3] .

وقد احتمل بعض شرَّاح النهج أن تكون (حتَّى) بهذا المعنى في بعض الموارد كقوله (عليه السلام) : ((**وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ ... حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَاحَ مِنْ**

---

[1] ينظر : الكتاب : ١٧/٣ ، و شرح الرضي على الكافية : ٥٩/٤ ، ومغني اللبيب : ٤٧/١ .

[2] النحو الوافي : ٤٨٣/٢ .

[3] الكشاف : ٢٥٩/١ ، وينظر : البحر المحيط : ٣٩١/٢ .

فَاجِرٍ))[١] ، يقول الخوئي : ((كلمة (حتَّى) إمَّا بمعنى (إلى) على حدِّ قوله سبحانه : ﴿ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى ﴾ أو بمعنى (كي) التعليليّة))[٢] ، ويمكن أن يؤخذ على كلام الخوئي أنَّه لم يشر إلى السرِّ في العدول إلى (حتَّى) وإيثارها على الحرفين .

ولو تأمَّلنا في معاني الأحرف الثلاثة (إلى ، كي ، حتَّى) سيتجلَّى لنا السرُّ في ايثار (حتَّى) على الحرفين ؛ لأنَّ تأويلها بـ (إلى) يدلُّ على تقييد المعنى بغايته دون ذكر العلَّة الحاملة عليه ، فيكون زمانُ وجوده مقيَّداً بغايته ، فلا وجود له بعد حصول تلك الغاية ، وعلى هذا التأويل ستكون حاجة الناس إلى أمير منتفيةً عند تحقُّق ما بعد الحرف . وهذا التأويل يناقض اللابديَّة المذكورة في بداية النص ((**لا بُدَّ للناس**)) ؛ لأنَّها تقتضي الاستمرارية .

أمَّا تأويلها بـ (كي) فهو يدلُّ على تقييد المعنى بعلَّته الحاملة عليه ، من غير الإشارة إلى غاية ذلك ، فما دام ما بعد الحرف متحقِّقاً ، فسيكون ما قبله متحقِّقاً ؛ لعدم انفكاك المعلول عن علَّته ، فيكون المعنى : بقاء حاجة الناس لوجود أمير مربوط بوجود ما بعد الحرف ، وهذا التأويل ـ وإن لم يتناقض مع اللابديَّة ـ لا يصل بنا إلى السر في إيثار (حتَّى) على (كي) .

والذي يبدو أنَّ السرَّ في استعمال (حتَّى) مرتبط بعدم اقتصار دلالتها على أحد الوجهين السابقين ، بل لها مزيَّة عليهما جميعاً ؛ فالدلالة على العلِّية مستفادة من السياق بوجود الحرف الرابط ، أمَّا الدلالة على الغاية ، فإنَّ دلالة (حتَّى) عليها مشوبة بالإيحاء بأنَّ العلَّة التي بعدها ممَّا يُستبعَد حصوله في العادة مع ما فيها من تنبيه على كون تلك العلَّة تُمثِّل العلَّة الأكمل لحاجة الناس إلى أمير ؛ ويؤيِّد هذا المعنى ما ذُكِر من أمور يمكن أن تكون علَّة لذلك ، وهي قوله (عليه السلام) : ((**يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ** ،

---

[١] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٨٢ .

[٢] منهاج البراعة ، للخوئي : ١٨١/٤ ، وينظر : شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار : ١٥٩/١ .

وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ ، وَيُبَلِّغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ)) [1] .

ثانياً : معنى القسم [2]:

شغل أسلوب القسم مساحة واسعة من نهج البلاغة ، ولعلَّ السبب في ذلك مرتبط بالطبيعة التركيبيَّة والنفسيَّة المعقَّدة لأهل ذلك العصر ، فالعناد والتشكيك والابتعاد عن جادة الصواب هو السمة السائدة لأكثر أهله على الرغم من قربهم من المعين الصافي للرسالة[3] ، وكلُّ ذلك يستدعي القسم ؛ لما فيه من توكيد وتقوية لمضمون الخبر[4] ، فضلاً عن ذلك فإنَّ هذا الاسلوب يكثر في خطب الإمام (عليه السلام) أكثر من رسائله ؛ لأنَّ لحظات القسم تستدعي المزيد من انشداد المسامع إليه فتُستَثمَر لبسط مزيد من المعاني عبر أساليب متنوعة من الجمل القصيرة [5].

المزايا الدلاليَّة لاستعمال التاء والباء والواو :

أشار النحويون إلى أنَّ (الباء ، والواو ، والتاء ، واللام ، ومن) هي الأدوات المستعملة في أسلوب القسم[6] ، إلَّا أنَّ التعبير في نهج البلاغة لم يستعمل سوى

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٨٢ .

[2] لم نتوسَّع في هذا المطلب كثيراً ، بل حاولنا تسليط الضوء على أحرف الجر الثلاثة محاولين إيجاد الفروق الدلالية بينها ؛ لأنَّ أسلوب القسم الوارد في نهج البلاغة بُحث في : الأساليب الانشائية غير الطلبية في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : حسين علي محمد الموسوي ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م ؛ إذ أفرد الباحث الفصل الاول له (ص٩ـ ٦٢) ، وفي : أساليب التأكيد في نهج البلاغة دراسة دلالية ، في المبحث الاول من الفصل الثالث (ص١٣٢ ـ ١٤٧) .

[3] ينظر : الأساليب الإنشائية غير الطلبية في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٣٨ .

[4] ينظر : الكتاب : ١٠٤/٣ ، واللمع في العربية : ١٨٣ .

[5] ينظر : الأثر القرآني في نهج البلاغة ، دراسة في الشكل والمضمون ، د. عباس علي الفحَّام : ١٢٧.

[6] ينظر : الأصول في النحو : ٤٣٠/١ ، وشرح تسهيل الفوائد : ١٩٩/٣ .

الأحرف الثلاثة المشهورة (الباء ، والواو ، والتاء) ، وهو يتفق في ذلك مع التعبير القرآني [١] .

وفي مجال الأصالة والفرعية فقد استدل النحويون على أصالة الباء وفرعية الحرفين بأَنَّ المُقسَم به مُعلَّق بفعل محذوف ، وهذا الفعل إذا ظهر لا يجوز أَن يُستعمَل معه إلّا الباء[٢] ، وأنَّها تدخل على المضمر، كما تدخل على المظهر، فتقول : بالله لأقومَنَّ ، وبه لأفعلَنَّ ؛ فرجوعُك مع الإضمار إلى الباء يدلُّ على أنَّها هي الأصل ؛ لأنَّ الإضمار يردّ الأشياء إلى أُصولها [٣] . ولم يتوقف بحثهم عند هذا الحد بل حاولوا المقاربة بين هذه الأحرف ، فذهبوا إلى أنَّ الواو ((بدل من الباء لتقارب معناهما ؛ لأَنَّ الواو جمع والباء للإلصاق ، وهو جمع في المعنى ، ولأَنَّهما من حروف مقدَّم الفم ، وأَنَّ التاء بدل من الواو))[٤] ، في حين فسَّر ابن القيم ذلك على كثرة الاستعمال فقال : ((والقسم لمَّا كان يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ثمَّ عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة والتاء في أسماء الله))[٥] .

.

فإذا مضينا باتجاه البحث الدلالي فسنجد أنَّ النحويين قد أشاروا إلى أنَّ الأحرف الثلاثة تشترك في الربط بين فعل القسم والمُقسَم به ، وهذا ما ذكره الخليل ، وسيبويه ، جاء في الكتاب: ((وإذا قلت : بالله والله وتالله فإنما أضفتَ الحَلْفَ إلى الله سبحانه)) [٦] ، وتفترق في بعض الملامح الدلالية المرتبطة بالجانب الاستعمالي لأحرف القسم ،

---

[١] ينظر : أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية : علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي ، (رسالة ماجستير) ، جامعة أم القرى ،كلية اللغة العربية ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م : ٣٣ .

[٢] ينظر : علل النحو : ٢١١ .

[٣] ينظر : شرح المفصل : ٤٩٢/٤ .

[٤] همع الهوامع : ٤٨٠/٢ .

[٥] التبيان في أقسام القرآن ، لابن قيم الجوزية : ٣ .

[٦] الكتاب : ٤٢١/١ .

، فالتاء تُستعمل في الدلالة على معنى التعجب[1] ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ [الأنبياء :٥٧] فكأنَّه تعجَّب من تسهُّل الكيد على يده مع كونه أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره ، لاسيَّما في زمن نمروذ المعروف بعتوّه واستكباره وقوة سلطانه [2] ، ومن هنا استنتج بعض الباحثين أنَّ ((القسم بحرف (التاء) أقوى وآكد من القسم بحرف (الواو) و(الباء) ؛ بدليل : امتلاك (التاء) لمعنى التعجب ... فاجتمعت قوتان ؛ وهما (قوَّة التعجب) ، و(قوَّة القسم) في حرفٍ واحدٍ ، ونتج عنهما : دلالة (التعظيم))) [3] .

ومع أنَّ هذا الفهم هو فهم صادق إلَّا أنَّ الذي يبدو أنَّ دلالتها على التعجب متأتية من كون المُقسَم عليه بعدها يتصف بكونه خارجاً عن العادة ، فهي تشير منذ البداية إلى غرابة المُقسَم عليه وقلَّة وجوده ، وبهذا الأمر يمكننا أن نفسِّر ندرة استعمالها ؛ لتناسب ندرة المواضع الخارجة عن العادة ، ويؤكِّد هذه الحقيقة ما ورد في نهج البلاغة ؛ إذ وردت في موضعين كان المقسم عليه فيهما غير متوقَّع الحصول عادة ، ففي قوله (عليه السلام) : ((وَتَاللَّهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمُ انْمِيَاثاً وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ))[4] نجد أنَّ (انمياث القلوب) و(سيل العيون) و(عُمِّرتم في الدنيا) أمور لا تحصل عادة ، فهي غير متوقَّعة ينتج عن حصولها دهشة واستغراب ، ويتكرَّر هذا الأمر في قوله (عليه السلام) : ((تَاللَّهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ وَ تَمَامَ الْكَلِمَاتِ وَ عِنْدَنَا ـ أَهْلَ الْبَيْتِ ـ أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَ ضِيَاءُ الْأَمْرِ))[5] ؛ فإنَّ (تبليغ الرسالات) أي : أداء الشرائع إلى المكلَّفين والحكم بينهم بما أنزل اللّه ، و(إتمام

---

[1] ينظر : الكتاب : ٤٩٧/٣ ، والأصول في النحو : ٤٣٠/١ ، وشرح المفصل : ٤٨٩/٤ ـ ٤٩٠ .

[2] ينظر : الكشاف : ١٢٢/٣ .

[3] أساليب التأكيد في نهج البلاغة، دراسةٌ دلاليةٌ : ١٤٤ ، و ينظر : معاني النحو : ١٣٩/٤ .

[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٩٠ . وانماثت : ذابت. ينظر : مقاييس اللغة . ٠موث) : ٢٨٤/٥ .

[5] المصدر نفسه : ١٧٦ .

العدات) أي : العلم بمواعيد رسول اللّه الخاصّة بواحد من الناس أو المتعلقة بأمر يحدث كأخبار الملاحم والأمور المتجدِّدة ، و(تمام الكلمات) أي : علم تأويل كلمات اللّه تعالى وبيانها [١]. هي مهام جسام وفضائل عظام يستحيل ـ عادة ـ أن تجتمع في شخص واحد ، فإذا اجتمعت في شخص واحد فهي تثير الدهشة والاستغراب ، وتدلُّ على أنَّ صاحبها خارجٌ عن أقرانه فائقٌ في صفاته ؛ ولذا يقول ابن أبي الحديد : ((وهذا مقام عظيم لا يجسر أحد من المخلوقين أن يدعيه سواه (عليه السّلام) ولو أقدم أحد على ادعائه غيره لكذَّب وكذَّبه الناس)) [٢].

أمَّا الباء ، فالذي يبدو أنَّها ـ بما فيها من معنى الإلصاق ـ توحي بملازمة المُقسَم به للمُقسِم ومصاحبته له في كونه محقًّا فيما يقول ، فضلاً عن ذلك فقد أشار النحويون إلى أنَّها تستعمل في القسم الاستعطافي الذي يُقصَد به تحريك النفس وإثارة شعورها بجملة إنشائية تجيء بعد جملة القسم[٣] ، نحو : باللَّه أَخبرني ، وباللَّهِ هل قامَ زيدٌ ؟ وعلى الرغم من أنَّها لم ترد في نهج البلاغة بهذه الدلالة لعدم مجيء الجملة الانشائية بعدها ، إلَّا أنَّ هذا الاستعمال يساعدنا في فهم المواطن التي ترد الباء فيها ؛ فهي قد استعملت في أربعة مواضع من نهج البلاغة ، وهي : قوله (عليه السلام) : ((**فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ**))[٤] ، وقوله (عليه السلام) لزياد : ((**وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَماً صَادِقاً لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ ثَقِيلَ الظَّهْرِ ضَئِيلَ الْأَمْرِ وَالسَّلَامُ**))[٥] ، وقوله (عليه السلام) لمعاوية : ((**وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَوْلَا بَعْضُ الِاسْتِبْقَاءِ لَوَصَلَتْ إِلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ تَقْرَعُ الْعَظْمَ وَتَهْلِسُ**

---

[١] ينظر : شرح نهج البلاغة ، للسيد عباس : ٢/ ٣٢٣ .

[٢] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٢٨٩/٧ .

[٣] ينظر : النحو الوافي : ٢/ ٤٩٩ .

[٤] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ١٥١ .

[٥] المصدر نفسه : ٣٧٧ . وقليل الوفر : قليل المال . ينظر : مقاييس اللغة . (وفر) : ١٢٩/٦ .

اللَّحْمَ))[1] ، وقوله (عليه السلام) لابن عباس : ((**وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي**)) [2].

والذي يبدو لي ـ وأرجو أن يكون سديداً ـ أنَّ التدبُّر في دلالة المُقسَم عليه ـ في الموارد الأربعة ـ يُظهِر أنَّها تشير منذ البداية إلى أنَّ المقسم عليه أمر فيه إثارة للنفس وتحريك لشعورها سواء كان جملة إنشائية أم لم يكن ؟ ويلزم من ذلك كونها أقوى من الواو في التوكيد ؛ لكونها تؤدي إلى جانب التوكيد وظيفة التأثير في نفسيَّة المخاطب فتكون بمثابة الحرب النفسيَّة عند الحرب ، أمَّا عند السلم فتكون رسالة تطمين للمخاطب لأدائها ، فقسمه (عليه السلام) على أنَّ دولة بني أُميَّة ستزول عن قريب وستتحول عنهم إلى أعدائهم من بني العباس ، خبرٌ مزلزل يجعلهم مضطربي الحال يحسبون كلَّ صيحة عليهم ، فضلاً عن أنَّ القسم على فعل ما توعَّد به زياد ومعاوية يزرع فيهما حالة الرهبة ويجعلهما يشعران بالخطر المحدق ، أمَّا قسمه (عليه السلام) على عدم سروره بالمال الحلال فهو يشعر المخاطب بسوء ما فعله ؛ فإذا كان المال الحلال ممَّا لا ينبغي للمؤمن أن يفرح به لما فيه من المساءلة والحساب ، فكيف يمكن الفرح بالمال الحرام ؟!

وأمَّا الواو فهي أكثر أحرف القسم استعمالاً في القسم[3] ، وقد ألمح ابن يعيش إلى علَّة ذلك بقوله : ((ثمّ أبدلوا الواو من الباء توسُّعًا في اللغة ، ولأنّها أخفُّ ، لأنَّ الواو أخفّ من الباء ، وحركتُها أخفّ من حركة الباء))[4] ، وبالجمع بين هذا الأمر وبين ما تقدَّم يمكن أن نفهم أنَّ الباء تأتي ـ غالباً ـ في غير مواطن التعجب والاستعطاف ، فهي تؤذن منذ البداية بالتوكيد المحض ، ومن ذلك قوله (عليه السلام) : ((**فَوَاللَّهِ مَا غُزِيَ**

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٤٦٣ .
[2] المصدر نفسه : ٤١٢ .
[3] الأصول في النحو : ٤٣٠/١ .
[4] شرح المفصل : ٤٨٩/٤ ـ ٤٩٠ .

قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا)) [1] وقوله (عليه السلام) : ((**وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ**)) [2]، ويؤيِّد هذا الأمر ما نجده من كثرة مجيئها في الجملة القسميَّة الاعتراضيَّة ، كقوله (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَ أَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا وَ لَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَ أَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا**))[3] وقوله (عليه السلام) : ((**قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ وَ أَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ**)) [4].

وأمَّا مجيء الواو في القسم على أمر يتصف بالغرابة ويبعث على التعجُّب فله ما يبرّره ، يقول (عليه السلام) في معرض وصف إحدى معاجز المصطفى (صلى الله عليه وآله) : ((**يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَوَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا وَجَاءَتْ وَ لَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ** ...)) [5] وهنا يمكن أن يُقال : أليس ((انقلاع الشجرة بعروقها ، وتحركها من مكان إلى آخر، أمر خارج عن نظائره فاستحق أن يُتعجب منه)) [6] ؟ فلماذا لم يقل : وتالله لانقلعت ...؟ وما سرُّ العدول إلى الواو ؟

والذي يبدو أنَّ السرَّ في العدول إلى الواو يحقِّق نكتة دلالية لا يمكن إيجادها باستعمال التاء ؛ فالتعبير بالاسم الموصول (الذي بعثه بالحق) يزيد من ارتباط المُقسَم به بالمُقسَم عليه ، ويحقِّق التناسق بينهما ؛ لما في ذلك من بيانٍ لصدق هذه الحقيقة الغيبيَّة (الذي بعثه بالحق) بحقيقة مماثلة ولكنَّها مرئيَّة (انقلاع الشجرة) ، ليتمكَّن

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٦٩.

[2] المصدر نفسه : ٢٤٩ .

[3] المصدر نفسه : ٢٥٠ .

[4] المصدر نفسه : ٢٦٢ .

[5] المصدر نفسه : ٣٠٠ .

[6] الأساليب الإنشائية غير الطلبية في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ٢٧ .

السامع من قياس الغائب على الشاهد[1] فضلاً عمَّا في ذلك من التنبيه على أنَّ ما حصل أمر إعجازي خارج عن قدرة البشر لا يمكن أن يتحقَّق إلا بتأييد الله تعالى .

ثالثاً: معنى المصاحبة :

استظهر النحويون دلالة بعض أحرف الجر على معنى المصاحبة ، ومن الطبيعي أن يجرَّهم هذا المعنى إلى تأويل تلك الحروف بالظرف (مع) ، وهذا الأمر ـ بلا شكٍّ ـ سينعكس على معنى الحرف الرئيس ، ويؤدِّي إلى ضياع دلالته .

ويبدو أنَّ ميل النحويين نحو هذا التأويل مبني بشكل رئيس على ما في سياق تلك الأحرف من دلالة على المصاحبة بين مدخول الحرف وما قبله ، فإذا أضيف إلى ذلك استلزام معنى الحرف للمصاحبة ، قوي ذلك التوجيه وانحاز المعنى باتجاه المصاحبة .

وعلى الرغم من تعدُّد الأحرف الدالة على المصاحبة ـ عند النحويين ـ فإنَّنا لم نجد في نهج البلاغة ـ ممَّا شخَّصه شرَّاح النهج ـ سوى أربعة منها حُمِلت على معنى (مع) ، وسنقف ـ إن شاء الله تعالى ـ عند نماذج منها لبيان أسرارها .

بين (الباء) و (مع) :

ذهب كثير من النحويين الى أنَّ الباء تأتي بمعنى (مع) [2]، معلِّلين ذلك بملازمة معنى المصاحبة لمعنى الإلصاق[3] ، وجعلوا لدلالة الباء على المصاحبة علامتين : ((إحداهما : أن يحسن في موضعها (مع) ، والأخرى : أن يُغني عنها وعن مصحوبها

---

[1] ينظر : من أسرار القسم في القرآن الكريم ، د. سليمان بن علي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، جامعة أم القرى ، الجزء ١٩ ، العدد ٣١ ، ١٤٢٥هـ : ٥٥٧ ، وأضواء البيان ، لمحمد الأمين الشنقيطي : ٤٤٣/٨ ، والتفسير البياني ، لعائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ : ٢٥/١ ، تقول : ((اختيار المقسم به تراعى فيه الصفة التي تناسب الموقف. وحين نتتبع أقسام القرآن في مثل آية الضحى، نجدها تأتي لافتة إلى صورة مادية مدركة وواقع مشهود، توطئة بيانية لصورة أخرى معنوية مماثلة، غير مشهودة ولا مدركة، يماري فيها من يماري)) .

[2] ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٣٢/٣ .

[3] ينظر : همع الهوامع : ٤١٨/٢ ، ومن أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٢٠٢ .

الحال ، كقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ﴾ [١] أي : مع الحق ، أو محقّاً ، و﴿ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ ﴾ [٢] أي : مع سلام ، أو مُسلَّماً عليك . ولصلاحية وقوع الحال موقعها ، سمَّاها كثير من النحويين باء الحال)) [٣].

ويظهر من كلام النحويين أنَّهم لا يفرِّقون بينهما ، بل اكتفى بعضهم ـ عندما ذكر معنى المصاحبة للباء ـ بقوله : ((وفيها معنى الإلصاق والاختلاط))[٤] ، وهو قول لا يُسمِنُ ولا يُغنِي من جوع ، إلَّا أنَّ الدكتور الخضري فرَّق بين الباء و(مع) بكون (((مع) لإثبات المصاحبة ابتداء ، والباء لاستدامتها))[٥] ، وهذا القول مع وجاهته إلَّا أنَّه لا يصدق على كلِّ الموارد ، فهو يصدق مثلاً على قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف :٣٦] إذ كان دخولهم في يوم واحد ، وكان خروج الفتيين من السجن قبله (عليه السلام) ، جاء في تفسير نور الثقلين : ((عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : لمَّا أمر الملك بحبس يوسف في السجن ألهمه الله علم تأويل الرؤيا، فكان يعبِّر لأهل السجن رؤياهم وإنَّ فتيين أُدخلا معه السجن يوم حبسه ...)) [٦] ، ولا يصدق على قوله تعالى على لسان بلقيس : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] ؛ لأنَّ إسلامها متأخر كما هو واضح ، ويبدو أنَّ هذا الأمر هو ما دعا أبا حيان الى القول : ((والظَّرفيَّةُ فيها مجازٌ، وإنَّما هو اسم يدلُّ على معنى الصحبة)) [٧] ، وهذا يبيِّن لنا المزيَّة الأولى للباء على (مع) ، فالباء تدلُّ على ملاصقة مدخولها لمصاحبه

---

[١] سورة النساء ، الآية : ١٧٠ .
[٢] سورة هود ، الآية : ٤٨ .
[٣] الجنى الداني : ٤٠ .
[٤] معاني النحو : ١٧/٣
[٥] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
[٦] تفسير نور الثقلين : ٣٣٠/٤ .
[٧] البحر المحيط : ٢٤٥/٨ .

منذ اللحظة الأولى وعدم انفكاكه عنه ملازماً له حتَّى يتمَّ ما يشتركان به ، أمَّا (مع) فهي تدلُّ على اجتماع مدخولها مع مصاحبه مطلقاً .

ولو تأمَّلنا تعريف النحويين لـ (مع) لحصلنا على ما يؤيِّد ذلك ، فهم يعرِّفونها بأنَّها ((اسم لمكان الاصطحاب أو وقته على ما يليق بالمصاحب))[1] ، فهي تدلُّ على اجتماع واصطحاب حصل في مكان ما أو زمان ما ، سواء أ كان الاصطحاب عند ابتداء الحدث أم في أثنائه أم في نهايته ؟ جاء في ارتشاف الضَرَب : ((وتقع ... دالة على حضور ، نحو ﴿ وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ ﴾ [الشعراء : ١١٨] وعلى قرب : إنَّ مع اليوم أخاه غد))[2] ، فهي كالواو من هذه الجهة ، ويؤيِّد ذلك ما بيَّنه الأنباري من علاقة بين الواو و (مع) ، بقوله : ((فإن قيل : فَلِمَ كانت (الواو) أولى من غيرها من الحروف ؟ قيل : إنَّما كانت الواو أولى من غيرها ؛ لأنَّ (الواو) في معنى (مع) ، ولأنَّ معنى (مع) المصاحبة ، ومعنى (الواو) الجمع ، فلمَّا كانت في معنى (مع) كانت أولى من غيرها)) [3].

والذي يبدو للباحث أنَّ هذا الفرق ليس هو الفرق الوحيد بينهما ؛ لأنَّ الباء تُشعِرُ بأنَّ مدخولها مُنفَعِلٌ بمصاحبه ومُنقادٌ له ، فهي تُلصِقُ فِعلَ ما تقدَّمها بما بعدها ، فقولنا : ذهب زيدٌ ببكرٍ ، يدلُّ على أنَّ زيداً وبكراً اشتركا في الذهاب ، وهذا معنى السياق ، ولكنَّ الباء تؤذن بأنَّ (زيداً) هو الفاعل الرئيس للذهاب و(بكراً) متأثِّرٌ به وتابعٌ له في الذهاب ، وقد تقدَّم ما يؤيِّد هذا المعنى في قوله (عليه السلام) : ((جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ))[4] ، وقد ألمح بعض المفسرين إلى هذا المعنى بقوله : ((قولك :

---

[1] توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك : ٨١٦/٢

[2] ارتشاف الضرب من لسان العرب : ١٤٥٧/٣ .

[3] أسرار العربية : ١٤٦ ، وينظر : الخصائص : ٣١٤/١ .

[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) :١٤٥

خلطتُ الماءَ باللبن يقتضي إيرادَ الماءِ على اللبن دون العكس)) [١] ، وأمَّا (مع) فإنَّها تُشعِرُ بأنَّ مصاحب مدخولها مُنفَعِلٌ بمدخولها ومُتأثِّرٌ به وتابعٌ له في فعله ، فقولنا : ذهب زيدٌ مع بكرٍ ، يدلُّ على اشتراكهما في الذهاب ، وهذا معنى السياق ، إلَّا أنَّ (مع) تؤذن بأنَّ (بكراً) هو الفاعل الرئيس للذهاب و(زيداً) تابعٌ له ، وهذا المعنى هو ما يُفهَمُ من الآيات التي وردت فيها (مع) ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ**﴾ [التوبة : ٨٧] ، يقول الآلوسي : ((والمراد ذمُّهم وإلحاقهم بالنساء في التخلُّف عن الجهاد)) [٢] ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ **قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [النمل: ٤٤] ولا شكَّ أنَّ بلقيس تابعةٌ له ومقتديةٌ به [٣] .

وبعد أن تبيَّن لنا ما يُميِّز الباء من (مع) فقد آن الأوان أن نتلمَّس سرَّها ونبصر جمالها المخفي وراء تمويهها بـ (مع) ، يقول (عليه السلام) : ((**وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ... ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ**))[٤] ، يقول الخوئي : ((والباء في قوله : (بالزاد المبلغ) بمعنى مع))[٥] ، فيكون المعنى أنَّهم سافروا إلى الآخرة مستصحبين ذلك الزاد ، كما يفعل المسافرون في الدنيا ، وهذا التأويل يُضيِّق المعنى الذي تؤدِّيه الباء ؛ لأنَّه يُسلِّط الضوء على جانب المصاحبة ويُلغي الجوانب الأخرى التي سنذكرها إن شاء الله تعالى .

ويبدو أنَّ الباء القابعة في هذا السياق تُشير الى معنًى لطيف لا يُفهَمُ إلَّا بتحليل سياقها ، ومعرفة ماهيَّة العلاقة بين المتصاحبين ، فالانقلاب هو الانتقال إلى الدار

---

[١] إرشاد العقل السليم : ٩٩/٤ .
[٢] روح المعاني : ٣٤٤/٥ .
[٣] ينظر : ارشاد العقل السليم : ٢٨٩/٦ .
[٤] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٨٣ .
[٥] منهاج البراعة ، للخوئي : ٨٢/١٩ .

الآخرة [1] ، والزاد المبلِّغ هو زاد التقوى [2] الذي وصفه تعالى بقوله : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة: ١٩٧] فإذا أردنا معرفة الترابط والعلاقة بين النفس الإنسانية وزادها المبلغ (التقوى) في مسيرها باتجاه غايتها وما ينتهي إليه أمرها من فلاح أو خسران لا يسعنا إلَّا أن نقف عند قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا • قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس:٧ ـ ١٠] فالآيات ـ كما ترى ـ لا تتعدَّى طور النفس ، بمعنى أنَّها تعدُّ النفس هي المخلوقة المسوَّاة ، وهي التي أضيف إليها الفجور والتقوى ، وهي التي تُزكَّى وتُدسَّى ، وهي التي يُفلح فيها الإنسان ويخيب ، فالإنسان سائر في مسير نفسه لا يسعه التخطِّي عنها ولو بخطوة ، والفلاح والخيبة مبنيان على أحوال وأخلاق نفسانيَّة مبنيَّة على أعمال من الإنسان [3] ((فتحلية النفس بالتقوى تزكية وإنماء صالح وتزويد لها بما يمدُّها في بقائها)) [4].

وبعد ما تقدَّم ، فهل تجد حرفاً أولى من الباء في بيان شدَّة الإلتصاق والارتباط بين المتقين وزادهم المبلِّغ ؟ فالتقوى مُلازِمة لنفوسهم لا تفارقها في مراحل سيرها ، وكذلك فهي وسيلة المتقين التي حَلَّوا بها أنفسهم فانقلبوا بها لبلوغ غايتهم ، ويؤيِّد هذا المعنى ما ورد في قوله (عليه السلام) : ((**أَلَا وَإِنَّ التَّقَوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا فَأَوْرَدَتْهُم الجَنَّةَ**)) [5] ومن هنا فالنظرة الفاحصة لا تقبل بتأويل الباء بـ (مع) ؛ لأنَّ (مع) لا تفي بتلكم الدلالات ، فهي لا تبيِّن الملازمة الشديدة بين المتقين والزاد المبلغ ، ولا تُفصِحُ عن استمرار الملازمة بينهما حتَّى نهاية الطريق ، ولا تشير الى فاعلية المتقين في اختيار التقوى والتحلِّي بها ثمَّ حصاد نتائجها .

---

(١) ينظر : توضيح نهج البلاغة : ١٩/٤ .

(٢) ينظر : بهج الصباغة : ١٧/٩ .

(٣) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ٩٢/٦ .

(٤) المصدر نفسه : ١٦٧/٢٠

(٥) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٧ .

ومن هذا الوادي قوله (عليه السلام) : ((**وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ** ...))[1] ، وذهب بعض شُرَّاح النهج الى تفسير الباء الواردة في الموضعين بـ (مع) ، جاء في الدرة النجفية : ((والباء في (بصفوكم) للمصاحبة وكذلك قوله : وخلطتم بصحّتكم مرضهم))[2] ، وتأويل الباء بـ (مع) يُذهِب المبالغة في التمازج والتداخل وشدَّة الاختلاط بين الطرفين واستيعاب كلّ أجزائهما ، وهو ما لا يُتَحَصَّل باستعمال (مع) ؛ لأنَّ معناها يصدق على أدنى مصاحبة للطرفين كما تقدَّم ، بل تأويل الباء بـ (مع) يضرُّ بالمعنى ؛ لأنَّ معنى الباء يقتضي إيراد الكدر والمرض على الصفو والصحَّة ، ومعنى (مع) يقتضي العكس .

فضلاً عن ذلك فإنَّ معنى الباء منسجمٌ مع سياقها كلَّ الانسجام ؛ إذ يتكامل المعنيان مشكِّلينِ تعاضُداً دلاليَّاً يعمل على إنتاج المبالغة المطلوبة لتصوير حالة التأثُّر والتبعيَّة ، فاستعارة الشرب والخلط تصبُّ في المعنى نفسه ؛ لأنَّ العرب ((من عادتهم إذا أرادوا العبارة عن مخامرة حُبٍّ ، أو بغض ، استعاروا له اسم الشَّراب ، إذ هو أبلغ إنجاع[3] في البدن))[4] ، ويقولون : ((خلط كذا بكذا على اعتبار أَحد الشَّيئَينِ المُختلِطَينِ مُتلابِسَينِ بالخلطِ)) [5].

بين (في) و (مع) :

إنَّ التأمُّل في العلاقة بين معنى الظرفية والمصاحبة يُظهر استلزام الظرفية للمصاحبة دون العكس ؛ لأنَّ الدلالة على الظرفية تستلزم مصاحبة المظروف لظرفه ، بخلاف المصاحبة ؛ إذ لا يلزم منها حلول أحد المتصاحبين في الآخر ، ومن هنا

---

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٨٩ .

(2) الدرة النجفية :٢٨٣ ، وينظر : أعلام نهج البلاغة : ٢١٢ .

(3) كذا ، والصحيح : إنجاعاً .

(4) المفردات في غريب القرآن : ٤٤٨ .

(5) التحرير والتنوير : ٢١/١١ .

ذهب بعض النحويين إلى تفسير (في) بمعنى (مع) ، وقد ساعدهم على ذلك ـ فيما يبدو ـ كون مدخول الحرف ليس دالاً على زمان أو مكان ، وهو ما يظهر جليًّا في شواهدهم التي استدلوا بها ، يقول المرادي : ((المصاحبة ، نحو : ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ ﴾ [١] أي : مع أمم)) [٢] .

ولم يرتضِ الدكتور السامرائي بهذا التأويل ؛ لوجود التفاوت الدلالي بين الأداتين ((فهناك فرق بين قوله : دخل معهم ، ودخل فيهم ، فمعنى دخل فيهم أنَّه أصبح من جملتهم ، ومعنى دخل معهم أنَّه مصاحب لهم وليس منهم)) [٣] ، ومن الواضح أنَّ (مع) تشير إلى أمر آخر وهو كونه تابعاً ومنقاداً ـ كما تقدَّم ـ بخلاف (في) التي تدلُّ على تمكُّنه واستقراره ، وهو ما يوحي بمكانته بينهم وهذا ما أشار إليه الدكتور أحمد مختار عمر بقوله : ((الوارد في المعاجم تعدية هذا الفعل بنفسه ، وبحرف الجر (إلى) ، كما سبق ، وبحرف الجرّ (في) بقصد إفادة التمكُّن في الدخول كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [٤])) [٥] .

ومن الموارد التي حُمِلت على هذه النيابة قوله (عليه السلام) : ((**ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ص بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الِانْقِطَاعُ وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الِاطِّلَاعُ ... وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا وَاقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا**))[٦] ، يقول الخوئي : ((قوله : في انقطاع من

---

[١] سورة الأعراف ، الآية : ٣٨ .
[٢] الجنى الداني : ٢٥٠ ، وينظر : البحر المحيط : ٤٨/٥ .
[٣] معاني النحو : ٥١/٣ .
[٤] سورة الحجرات ، الآية : ١٤ .
[٥] معجم الصواب اللغوي : ٣٧٠/١ .
[٦] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣١٤ . وأزف : اقترب ودنا . ينظر : مقاييس اللغة . (أزف) : ٩٤/١ .

مدَّتها ظرف لغو متعلّق بقوله : أزف . و(في) بمعنى (مع) ويحتمل أن يكون ظرفاً مستقرًّا متعلِّقاً بمقدَّر حالاً من قياد »[1] .

ولا أدري كيف يكون الظرف (في انقطاع) بعد النكرة (قياد) حالاً ، وليس صفة ؟! أمَّا تأويل (في) بالظرف (مع) فهو يؤدِّي إلى تغيير الدلالة ؛ لأنَّ اقتراب هذا القياد ، أي : أن تقاد الدنيا أو يُقاد أهلها بحصول سلسلة من الأحداث المتلاحقة ، سيكون مصاحباً لانقطاع مدَّة الدنيا ، وليس مؤثِّراً في ذلك الانقطاع ، وهذا لا يتناسب والظلال المعنوية التي تترشَّح عن حرف الظرفيَّة ؛ إذ يوحي بأنَّ تلك الأحداث المعبَّر عنها بالقياد ، لا تكون على هامش انقطاع مدة الدنيا بل مؤثِّرة في تعريض الدنيا وأهلها للزوال .

بين (إلى) و (مع) :

حمل النحويون (إلى) على (مع) في المواضع التي توحي باجتماع مدخول الحرف وما قبله ، وجعلوا من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ [النساء :٢] ، أي : مع أموالكم[2] .

ويبدو أنَّ عدم التقارب بين مدلول حرف الغاية ومدلول الظرف (مع) هو الذي دفع الفرَّاء إلى البحث عن الضابطة التي تُجوِّز استبدال (مع) بالحرف (إلى) من غير مساس بالمعنى ، يقول : « وإنَّما يجوز أن تجعل (إلى) موضع (مع) إذا ضممت الشيء إلى الشيء ممَّا لم يكن معه ، كقول العرب : إنَّ الذود إلى الذود إبل ، أي : إذا ضممت الذود إلى الذود صارت إبلاً . فإذا كان الشيء مع الشيء لم تصلح مكان (مع) (إلى) ... تقول : قدم فلان إلى أهله ، ولا تقول : مع أهله »[3] ، ولعلَّ مقصود

---

[1] منهاج البراعة ، للخوئي : ٢٩٩/١٢ .

[2] غريب القرآن : ١٠٥ ، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٥٥٦/٣ .

[3] معاني القرآن ، للفرَّاء : ١/ ٢١٨ .

الفرَّاء عدم صحَّة الاستبدال ـ في المثال الأخير ـ مع بقاء المعنى ؛ لظهور الاختلاف الدلالي بينهما ، أمَّا المثال الأوَّل فيحتاج إلى تجاوز الجانب اللفظي الذي تصلح فيه الأداتان ، والبحث عن السرِّ في إيثار (إلى) على (مع) .

وممَّا حُمِلَ على معنى المصاحبة قوله (عليه السلام) : ((**مَوَدَّةُ الْآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الْأَبْنَاءِ ، وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَحْوَجُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ**)) [1] ؛ إذ تأوَّلها أحد الباحثين بقوله : ((أي : القرابة مع المودة ؛ إذ لا خير في قرابة لا مودة معها ، فقد ضممنا القرابة مع المودة حتَّى تصبح أحوج من ضم المودة مع القرابة)) [2] ، وما ذهب إليه الباحث ليس بسديد ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى ضياع المعنى المراد ؛ إذ يكون التقدير : القرابة المصاحبة للمودة أحوج من المودة المصاحبة للقرابة . ولا أدري إلى أيِّ شيء تكون القرابة المصاحبة للمودة أحوج من المودة المصاحبة للقرابة ؟

والذي يبدو أنَّ صحَّة وقوع (مع) على المستوى اللفظي هو الذي أغرى الباحث بهذا التأويل ؛ ولذا فالرأي السديد يكون في الإبقاء على دلالة الغاية ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى تحقيق الانسجام اللفظي والمعنوي على حدٍّ سواء ، فدلالة اسم التفضيل (أحوج) تقتضي اشتراك ما قبله وما بعده بصفة (الحاجة) مع زيادة ما قبله في تلك الصفة ، فيكون التقدير : حاجة القرابة إلى المودة أكثر من حاجة المودة إلى القرابة . وبناء على هذا يظهر المعنى النهائي للجملة وهو يتمثَّل بتفضيل المودّة على القرابة ؛ لأنَّ القرابة أكثر حاجة إلى المودَّة في الانتفاع بها بين الخلق ، بخلاف المودَّة فهي أكثر استغناء عن القرابة في الانتفاع بها [3] .

---

[1] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٥٢٩ .

[2] حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : ١١.

[3] شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٣٩٧/٥ ـ ٣٩٨ ، وينظر : اختيار مصباح السالكين : ٦٥٠ ، و الدرة النجفية : ٣٨٠ .

بين (على) و (مع) :

تأوَّل كثيرٌ من النحويين والمفسرين حرف الاستعلاء في بعض المواضع بالظرف الدال على المصاحبة (مع) [1] ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَى المَالَ على حُبِّهِ ذَوِي القُربَى ﴾ [البقرة : ١٧٧] أي : مع حبِّه[2] ، وقوله سبحانه : ﴿ وإنّ ربَّكَ لَذُو مَغفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم ﴾ [الرعد : ٦] أي : مع ظلمهم [3] .

ولا ريب في أنَّ استعمال حرف الاستعلاء في هذه المواضع يُلقي بكلِّ الظلال المعنويَّة للحرف (على) على الجملة ، إذ يضفي على لحظة التصاحب روح الظهور والهيمنة والغلبة ، وهو ما لا يتحقق باستعمال الظرف (مع) ؛ لدلالته على المصاحبة المجرَّدة .

ولكي يتضح لنا الفرق بين التأويل المعتمد على القول بالنيابة ، والتأويل المبني على مزايا الحرف المستعمل ، سنقف عند واحدة من بدائع الاستعمال لحرف الاستعلاء في سياق يقبل تأويله ـ على مستوى اللفظ ـ بالظرف (مع) ، ولكنَّه يأبى ذلك وفق ميزان البلاغة والإبداع .

والحقيقة أنَّ هذا الاستعمال البديع يُلحظ في أقواله (عليه السلام) التي يشير فيها إلى عجيب خلق الأرض ، ومنها قوله (عليه السلام) : ((فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا))[4] ، وقد أثبت العلم ـ بعد عدَّة قرون من هذا القول ـ أنَّ باطن الأرض عبارة عن سائل متموج ، فبعد أن شرعت قشرتها بالجمود سعت المعادن الثقيلة إلى مركزها وباطنها في حين طفت

---

[1] شرح تسهيل الفوائد : ١٦٣/٣، وأوضح المسالك : ٣٩/٣ ، والجنى الداني : ٤٧٦ ، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٩١/٢ .

[2] ينظر : البحر المديد : ٢٠٦/١ ، وتفسير المراغي : ٥٦/٢ .

[3] ينظر : البحر المحيط : ٣٥٣/٦ ، والتحرير والتنوير : ٩٣/١٣ .

[4] نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٢٨ .

المواد الخفيفة على سطحها[1] ، ومن هنا نجد أنَّ شرَّاح النهج حاولوا إيجاد المناسبة بين هذه الحقيقة العلمية وبين التعبير العلويّ ، فذهب كثير منهم إلى بيان معنى (على) اعتماداً على موقعها الإعرابي ، يقول ابن أبي الحديد : ((فإن قلت : ما المراد بـ (على) في قوله : فسكنت على حركتها . قلت : هي لهيأة الحال ، كما تقول : عفوتُ عنه على سوء أدبه ، ودخلت إليه على شربه ، أي : سكنت على أنَّ من شأنها الحركة ؛ لأنَّها محمولة على سائل متموِّج))[2] ، في حين ذهب غيرهم إلى دلالة حرف الاستعلاء على معنى المصاحبة ، يقول التستري : ((فسكنت على حركتها ، أي : مع حركتها ، فإنَّ (على) في مثل الموضع بمعنى (مع)))[3] ، أمَّا السيد الشيرازي فقد احتمل المعنيين مفرِّقاً بينهما من جهة اقتصار الأول على وصف الأرض قبل خلق الجبال ، أمَّا الثاني فهو يتوافق مع معطيات العلم الحديث ، يقول : (((فسكنت) الأرض (على حركتها) أي : مع كونها متحركة ـ كما يقول العلم الحديث ـ أو في حال كونها متحركة ، إذ كانت قبل خلق الجبال)) [4].

والحقيقة أنَّ هذه الأقوال لا تعطي لحرف الاستعلاء نصيبه من الدلالة ، فتفسير شبه الجملة (على حركتها) على الحالية ، أي : فسكنت حال حركتها ، لا يَفرق فيه أن يكون الحرف (على) أو (في) أو (الباء) ؛ لأنَّ شبه الجملة إذا وقعت بعد المعرفة فستكون في محل نصب حالاً[5] ، أمَّا تأويل الحرف (على) بالظرف (مع) فهو يعني

---

[1] ينظر : الإعجاز العلمي عند الإمام علي (عليه السلام) ، د. لبيب بيضون : ٣٠ ، والقرآن وعلوم الأرض ، لمحمد سميح عافية : ٦٤ .

[2] شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد : ٥٨/١١ ، وينظر : شرح نهج البلاغة ، لابن ميثم : ٤/ ٢٧ ، ومنهاج البراعة ، للخوئي : ٧٠/١٤ ، وشرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار : ٤١٠/٢.

[3] بهج الصباغة : ٥١٥/١ .

[4] توضيح نهج البلاغة : ٣١٧/٣ .

[5] ينظر : مغني اللبيب : ١٦٦/٢ .

القضاء على دلالة الاستعلاء ، والإقصاء لكلِّ إيحاءاته وظلاله ؛ إذ يختصر الدلالة ويقصرها على المصاحبة بين السكون والحركة .

وبتأمُّل دلالة النص الذي ورد فيه هذا التعبير يظهر لنا أنَّه لا يمكن الاستغناء عن دلالة حرف الاستعلاء أو استبدالها ، فالنص مسوق لبيان القدرة الإلهية ؛ إذ يقول (عليه السلام) : ((**وَكَانَ مِن اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ يَبَساً جَامِداً ...**)) [١] وهكذا يمضي النص في بيان الكون المعجز ، مشيراً إلى محالِّ الإعجاز ، فالماء الزاخر يُجعل يبساً جامداً ، والأرض تستقر فوق موج هائج مضطرب ؛ إذ يبلغ ((ضغْط باطنِ الأرض ثلاثةَ آلاف وستمئة مليون ضغطٍ جويٍّ))[٢] ، وهذا دليل باهرٌ على عظمة جبروته تعالى ، وهنا تظهر المناسبة الكاملة بين حرف الاستعلاء وسياقه ، فدلالته على الاستعلاء تشير إلى كون الجزء الساكن من الأرض مستعلياً على الجزء السائل المتحرك ، وليس هذا وحسب ، بل إنَّه يوحي بالقهر والاستيلاء ويؤذن بهيمنة القدرة الإلهية وغلبتها على جميع الاسباب ؛ لأنَّه لمَّا كانت الحركة الشديدة لباطن الأرض من شأنها أن تمنع السكون على سطحها ، تدخلت المشيئة الإلهية فكبحت تلك القوَّة وجعلتها مذعنة وصاغرة ، ويؤيِّد هذا المعنى ما جاء من إسناد فعل الإرساء إليه تعالى ، في قوله (عليه السلام) : ((**وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ**)) [٣] .

---

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٣٢٨ .

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، لمحمد راتب النابلسي : ٤٨/٢ ، وقد ألفت المؤلف إلى حقيقة رائعة ، يقول : ((بعض الهيئاتِ العلميةِ استطاعتْ أنْ تضغطَ الفحمَ العاديَّ خمسةَ آلاف ضغطٍ جويّ بحرارة ألفيْ درجةٍ، فجعَلَتْه ماساً صناعياً ... ثمّةَ حقيقةٌ أَضَعُها بين أيديكم ، نستفيدُ منها في الأمورِ النفسيةِ ، وهي أنّ أكبرَ جوهرةٍ في العالَم ثمنُها مئةٌ وأربعون مليون دولار ، لو جئتَ بفحمةٍ في حجمِها ، ووازنْتَ بينهما وجدتَ أنّ الضغوطَ العاليةَ تُحِيلُ الفحمَ إلى ماسٍ . إذا آمنَ المؤمنُ بالله ، وآمنَ برسوله ، وعاشَ لقضيةٍ كبرى ، وتحمّل ضغوطاً عاليةً ؛ فإنّ هذه الضغوطَ تُحِيلُه إلى إنسانٍ مُتَأَلِّقٍ . هذا فحمٌ عاديّ ، لا تساوي القطعةُ منه قرشاً واحداً ، تصبحُ بالضغوطِ العاليةِ قطعةَ ماسٍ لا تُقَدَّرُ بثمنٍ)) .

(٣) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ٢٧٢ .



الخاتمة

الخاتمة

خُلاصةٌ بأهمِّ نتائج البحث

بعدَ هذه الرحلة الشائقة مع التعبير العلوي المبارك لا بُدَّ لنا أن نوجز أهمِّ النتائج التي انتهى إليها البحث ، ويمكن إجمالها بما يأتي :

١ـ أكَّد البحث أنَّ معالجة النحويين الأوائل ومَن تابعهم لقضية معاني حروف الجر لم تكن مبنيَّة على أُسس رصينة ؛ لخلطها بين مستويات الكلام ، وقياس الكلام الفني المُتقَن على كلام بُني على المسامحة اللفظية ، فضلاً عن التغاضي عن الفروق الدلالية الدقيقة بين الأحرف المتقاربة في المعنى ، وهذا يكشف عن أنَّ الهدف من محاولتي (النيابة والتضمين) لم يكن سوى إيجاد ما يصحِّح وقوع حرف الجر في غير سياقه المناسب له ؛ ولذا فالنظريتان عاجزتان عن الإجابة عن جملة من الأسئلة والإشكاليات ، يُلخصها ما في مذهب النيابة من محافظة على معنى متعلَّق الحرف بالتضحيَّة بمعنى الحرف نفسه ، وما في مذهب التضمين من محاولة المحافظة على معنى الحرف بإضاعة معنى متعلّقه .

٢ـ كشف البحث عن دور مدخول الحرف في التأثير على دلالة الحرف ، كما هو الحال في الأحرف التي قيل بنيابتها عن حرف الظرفية ، في حين نجد العكس مع حرف الظرفية ، فهو يُحمل على غيره عندما لا يكون مدخوله ظرفاً ، وهذا يعني أنَّ الأمر غير مقصور على عدم الانسجام بين الحرف ومتعلَّقه كما يظهر من مذهبي النيابة والتضمين .

٣ـ أظهر البحث أنَّ المذهب المفضَّل عند شُرَّاح نهج البلاغة هو مذهب النيابة ؛ إذ تأوَّلوا أغلب الموارد على أساسه ، ويبدو أنَّ السبب في ذلك مرتبط بسهولة تطبيقه ، أمَّا مذهب التضمين فقد اقتصر على بعض المواضع ؛ ولذا بيَّن البحث مواطن الخلل في الاستظهارات الدلالية التي نتجت عن تطبيقهما ، وأبرز مقدار الانحراف المعنوي المترتِّب على ذلك .

٤ـ أكَّد البحث حقيقة عدم التطابق بين دلالات حروف الجر ؛ فكلُّ حرف منها له ملامحه المميِّزة ، ومحوره الذي تنجذب إليه ظلاله المعنويَّة ، وقد بلغت نصوص نهج

البلاغة في إثبات هذه الحقيقة مبلغاً حاسماً جازماً ، ولا سيَّما في النصوص التي يكون حرف الجر هو المتغيِّر الوحيد فيها .

٥ـ توصَّل البحث إلى أنَّ القول بالتعاضد الدلالي بين معنى حرف الجر وسياقه يُمثِّل ـ بنظر الباحث ـ حلًّا منطقياً يتجاوز الإشكاليات المتوجهة لمذهبي النيابة والتضمين ، فهو يوازن بين دلالة السياق وبين ما يلقيه الحرف من الإيحاءات والدلالات المترشحة عن معناه الأصلي ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من التوصُّل إلى معانٍ جديدة وعميقة تُظهر عظمة اللغة العربية ، ولا سيَّما في نصوصها العالية كالقرآن الكريم ونهج البلاغة .

٦ـ أظهرت الدراسة التطبيقية لنصوص نهج البلاغة صلاحية القول بالتعاضد الدلالي لتفسير المواضع المُشكِلة ، وقدَّمت قراءة جديدة لاستعمال أحرف الجر في نهج البلاغة ، فضلاً عن كونها تفرَّدت بالكشف عن معانٍ لم تكن لترى النور لو فُسِّرت على أساس النيابة أو التضمين .

٧ـ أكَّد البحث حقيقة التشابه الأسلوبي في استعمال حروف الجر بين نهج البلاغة والقرآن الكريم في مواضع متعدِّدة ، فمن ذلك ما جاء في نهج البلاغة من استعمال حروف الجر التي استعملها القرآن الكريم ، وعدم استعمال الأحرف التي لم يستعملها القرآن الكريم ، وهي الأحرف الخمسة (خلا ، وعدا ، وحاشا ، ومذ ، ومنذ) ، ومنه أيضاً ما نجده فيهما من استعمال أحرف القسم الثلاثة (الباء ، والتاء ، والواو) دون غيرها.

٨ـ أظهر البحث مقدار التفاوت الدلالي بين أدوات التشبيه مع اشتراكها جميعاً في الإبقاء على الفرق بين المشبَّه والمشبَّه به ؛ إلَّا أنَّ ذلك الفرق يتقلَّص إلى درجة كبيرة عند استعمال الأداة (مثل) ، في حين يتوسَّع قليلاً عند استعمال الأداة (كأنَّ) ، أمَّا الكاف فهي تحافظ على المنحى المتوسِّط من التشابه .

٩ـ أثبت البحث مدخلية الدلالة الاحتمالية لبعض أحرف الجر في تداخلها مع أحرف أخرى مع احتفاظ كل حرف بدلالته وإيحاءاته ، ومن ذلك ما لحظناه من خلط بين دلالة (إلى) التي يحتمل فيها دخول ما بعدها ، بحرف (اللام) الذي يُقطع بدخول ما بعدها .

١٠ـ أكَّد البحث أثر المقام في اختيار حرف الجر المناسب ، فهو يفرض أحياناً استعمال حرف معيَّن ، فمقام الترغيب مثلاً تطلَّب استعمال حرف اللام في قوله (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِه**)) ، أمَّا مقام الترهيب فقد تطلَّب حرف الإلصاق في قوله (عليه السلام) : ((**إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ ، فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ**)) .

١١ـ أظهر البحث أنَّ الفهم المبني على التعاضد الدلالي يمكن أن يساعد في ترجيح بعض الروايات المختلفة على بعض من جهة الخصائص الدلالية لحرف الجر المستعمل فيها ، وهو ما لا يتوفر عند استعمال الطريقة السائدة عند النحويين .

١٢ـ رصد البحث جملة من الفروق اللغويَّة المترتبة على استعمال أحرف الجر ، نحو : الفرق بين : يعملون في الشبهات ، و يعملون بالشبهات ، والفرق بين : بعد ، ومن بعد ... وهذا الأمر يمكن أن يُسهم في مجال التصويبات اللغوية .

١٣ـ أثبت البحث أنَّ معنى التعليل معنًى سياقي يترتَّب على وجود العلَّة والمعلول المرتبطين بوساطة أحد أحرف الجر ، أمَّا الأثر الدلالي لحرف الجر فيتمثَّل بما يضيفه من خصوصية لارتباط العلَّة بمعلولها ، فيتعمَّق بذلك معنى التعليل .

١٤ـ أظهر البحث أن السرَّ في اختلاف استعمال أدوات القسم الثلاثة (الباء ، والواو ، والتاء) مرتبط بالمُقسَم عليه ، فهي توحي بالصفة التي سيكون عليها المُقسَم عليه قبل النطق به ؛ فاستعمال (التاء) يشير منذ البداية إلى كون المُقسَم عليه في غاية الغرابة وكونه أمراً غيرَ مألوف ، في حين تشير (الباء) إلى كون المُقسَم عليه ممَّا يُحرِّك المشاعر ويتعامل مع الحالة النفسية ، أمَّا (الواو) فتستعمل في القسم المحض المراد منه التوكيد لا غير ؛ ولذا يكثر استعمالها في الجمل القسميَّة ، ولاسيَّما الاعتراضيَّة منها .

١٥ـ كشف البحث عن المفارقة الدلالية بين الظرف (مع) والأحرف التي قيل بدلالتها على المصاحبة ، فـ (مع) تدلُّ على المصاحبة المطلقة ، أمَّا هذه الأحرف فليست المصاحبة معها سوى معنًى يستلزمه معناها الأصلي ، فالإلصاق والظرفية والاستعلاء معانٍ تستلزم المصاحبة ، فإذا وجِد في السياق ما يقوِّي معنى المصاحبة امتزجت الدلالتان وتكونت منهما مصاحبة خاصَّة ، وممَّا يؤيِّد استلزام الأحرف المذكورة لمعنى

المصاحبة ما وجدناه من اعتماد الفرَّاء على دلالة السياق في إثبات معنى المصاحبة لحرف الغاية ، وذلك لانعدام التقارب الدلالي بين الحرف (إلى) والظرف (مع) .



المصادر والمراجع

المصادر المراجع

أوّلاً : القرآن الكريم .

ثانياً : الكتب المطبوعة :

١ـ الإتقان في علوم القرآن : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

٢ـ الأثر القرآني في نهج البلاغة ، دراسة في الشكل والمضمون : الدكتور عباس علي الفحَّام ، العتبة العلوية المقدسة ، النجف الأشرف ، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م ،(د.ط) .

٣ـ اختيار مصباح السالكين : ميثم بن علي بن ميثم البحراني (٦٧٩هـ)، تصحيح : محمد هادي الأميني ، مجمع البحوث الاسلامية التابعة للآستانة الرضوية المقدسة ، مشهد ، إيران ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ .

٤ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب : أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) ، تحقيق : رجب عثمان محمد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

٥ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) : أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .

٦ـ أساس البلاغة : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

٧ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م .

٨ـ أسرار البلاغة : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، (د.ت) .

٩ـ أسرار العربية : عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري ، أبو البركات ، كمال الدين الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .
١٠ـ الأشباه والنظائر : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .
١١ـ أصول الفقه : الشيخ محمد رضا المظفَّر ، تحقيق : صادق حسن زاده المراغي ، مكتبة العزيزي ، قم ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م .
١٢ـ الأصول في النحو : أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (ت ٣١٦هـ) ، تحقيق : عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، بيروت ، (د . ت) .
١٣ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥ م .
١٤ـ الإعجاز العلمي عند الإمام علي (عليه السلام) : الدكتور لبيب بيضون ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م .
١٥ـ إعراب الجمل وأشباه الجمل : الدكتور فخر الدين قباوة ، دار القلم العربي ، حلب ، سورية ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .
١٦ـ إعراب القرآن وبيانه : محيي الدين درويش ، الطبعة الرابعة دار الإرشاد للشئون الجامعية ، حمص ، سورية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ .
١٧ـ الأعلام : خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس ، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ) ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشر ، ٢٠٠٢ م .
١٨ـ أعلام نهج البلاغة : علي بن ناصر السرخسي (ت بعد ٦٢٢هـ) ، تحقيق : عزيز الله العطاردي ، نشر عطارد ، طهران ، ١٤١٥ هـ (د.ط) ، (د.ت) .
١٩ـ الاقتراح في أصول النحو: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، ضبطه وعلق عليه: عبد الحكيم عطية ، راجعه وقدم له: علاء الدين عطية ، دار البيروتي ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٧ هـ ــ ٢٠٠٦ م .

٢٠ـ أمالي ابن الحاجب : عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس ، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي (ت ٦٤٦هـ) ، تحقيق : الدكتور فخر صالح سليمان قدارة ، دار عمار ، الأردن ، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م .
٢١ـ أمالي ابن الشجري : ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة ، المعروف بابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) ، تحقيق : الدكتور محمود محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩١م .
٢٢ـ الامامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق : الدكتور طه محمد الزيني ، مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧م .
٢٣ـ الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة : محمد الغروي ، مؤسسة النشر الاسلامي ، قم ، ١٤٠٧ هـ .
٢٤ـ الأَمْثَلُ في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل : آية الله العظمى الشَيخ نَاصِر مَكارم الشِيرازي (د.ط) ، (د.ت) .
٢٥ـ إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت ٦١٦ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م .
٢٦ـ الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية : الدكتور أحمد محمد ويس ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الحمرا ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م .
٢٧ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين : عبد الرحمن ابن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ، المكتبة العصرية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .
٢٨ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) ، محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ .

٢٩ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : عبد الله بن يوسف بن أحمد ، جمال الدين ، ابن هشام (ت ٧٦١هـ) ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ت).

٣٠ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير : جابر بن موسى بن عبد الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .

٣١ـ إيضاح شواهد الإيضاح : أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي ، تحقيق : الدكتور محمد بن حمود الدعجاني ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م .

٣٢ـ بحار الأنوار: الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ) ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م .

٣٣ـ بحر العلوم : أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٣هـ) ، (د.ت) .

٣٤ـ البحر المحيط في التفسير : أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) ، تحقيق : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ،١٤٢٠ هـ .

٣٥ـ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد : أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت ١٢٢٤هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الله القرشي رسلان ، القاهرة ، ١٤١٩ هـ .

٣٦ـ البرهان في علوم القرآن : أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٥٧ م .

٣٧ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٤١٦ هـ. ١٩٩٦ م .

٣٨ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة : عبد المتعال الصعيدي (ت ١٣٩١هـ) ، مكتبة الآداب ، الطبعة السابعة عشرة ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

٣٩ـ البلاغة العربية : عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ) ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ،١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

٤٠ـ البلاغة والأسلوبية : الدكتور محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، الجيزة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٤ م .

٤١ـ بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة : محمد تقي التستري(ت ١٤١٤هـ)، دار أمير كبير للنشر ، طهران ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ .

٤٢ـ البيان في ضوء أساليب القرآن : الدكتور عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، مدينة نصر ، القاهرة ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٤٣ـ البيان والتبيين : عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤٢٣ هـ .

٤٤ـ تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .

٤٥ـ تاج العروس من جواهر القاموس : محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ، أبو الفيض ، الملقّب بمرتضى ، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ) ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، (د.ت) .

٤٦ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، المكتبة التوفيقية ، (د.ت) .

٤٧ـ تاريخ بغداد وذيوله : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، دراسة وتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ .

٤٨ـ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) : محمد بن جرير الآملي ، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) ، دار التراث ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧ هـ .

٤٩ـ التبيان في أقسام القرآن : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .

٥٠ـ التبيان في تفسير القرآن :شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) ، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي ، (د.ت) .

٥١ـ التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي (ت ٦١٦هـ) : الدكتور عبد الرحمن العثيمين ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

٥٢ـ التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤ هـ .

٥٣ـ الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق : الدكتور محمد نور الدين المنجد ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧ م .

٥٤ـ ترشيح العلل في شرح الجمل : القاسم بن حسين الخوارزمي (ت ٦١٧ هـ) ، تحقيق : عادل محسن سالم العميري ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م .

٥٥ـ التسهيل لعلوم التنزيل : أبو القاسم ، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد الله الخالدي ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ .

٥٦ـ تصنيف نهج البلاغة : الدكتور لبيب بيضون ، مركز النشر التابع لمكتب الاعلام الاسلامي ، قم ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٧ هـ .

٥٧ـ التضمين النحوي في القرآن الكريم : الدكتور محمد نديم فاضل ، دار الزمان ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .

٥٨ـ تعجيل الندى بشرح قطر الندى : عبد الله بن صالح بن عبد الله الفوزان ، (د.ت) .

٥٩ـ التعريفات : علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م .

٦٠ـ التعريفات الفقهية : محمد عميم الإحسان المجددي البركتي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٦١ـ تعقبات العلامة بدر الدين الدماميني في كتابه (مصابيح الجامع الصحيح) على الإمام بدر الدين الزركشي في كتابه (التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح) في القضايا النحوية والصرفية واللغوية ، توجيه وعرض : الدكتور علي بن سلطان الحكمي ، دار البخاري ، بريدة ، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٦٢ـ التعليقة على كتاب سيبويه : الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل ، أبو علي (ت ٣٧٧هـ) ، تحقيق : الدكتورعوض بن حمد القوزي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٦٣ـ تفسير الامام العسكري : تفسير منسوب إلى الامام أبي محمد الحسن بن علي العسكري (عليهم السلام) ، تحقيق ونشر مدرسة الامام المهدي ، قم ، (د.ت).

٦٤ـ التفسير البياني للقرآن الكريم : عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت ١٤١٩هـ) ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، (د.ت) .

٦٥ـ تفسير الصافي : المولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ) صححه وقدم له وعلق عليه : الشيخ حسين الأعلمي ، مكتبه الصدر ، طهران ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ .

٦٦ـ تفسير العياشي : ابو النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمى السمرقندي ، المعروف بالعياشي ، تصحيح وتحقيق : السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، المكتبة العلمية الاسلامية ، تهران ، (د.ت) .

٦٧ـ تفسير الماوردي (النكت والعيون) : أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ) ، تحقيق : السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .

٦٨ـ تفسير المراغي : أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ) ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦م .

٦٩ـ تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) : أبو البركات عبد الله بن أحمد ابن محمود حافظ الدين النسفي (ت ٧١٠هـ) ، حققه وخرج أحاديثه : يوسف علي بديوي ، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو ، دار الكلم الطيب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

٧٠ـ تفسير نور الثقلين : الشيخ عبد على بن جمعة العروسي الحويزي قدس سره (ت ١١١٢هـ) ، (د.ت) .

٧١ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد سيد طنطاوي ، دار نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ م .

٧٢ـ تمام نهج البلاغة مما اختاره الشريف الرضي من كلام مولانا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) : السيد صادق الموسوي ، مؤسسة الأعلمي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٦ هـ .

٧٣ـ تهذيب اللغة : محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي ، أبو منصور (ت ٣٧٠هـ) ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م .

٧٤ـ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله المرادي (ت ٧٤٩هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م.

٧٥ـ توضيح نهج البلاغة : السيد محمد الحسيني الشيرازي ، دار تراث الشيعة ، طهران ، إيران ، (د.ت) .

٧٦ـ التوقيف على مهمات التعاريف : زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي الحدادي ثم المناوي القاهري (ت ١٠٣١هـ) ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ –١٩٩٠م .

٧٧ـ تيسيرات لغوية : الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .

٧٨ـ جامع البيان في تأويل آي القرآن : محمد بن جرير الآملي ، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ ــ ٢٠٠٠ م .

٧٩ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الخزرجي القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

٨٠ـ الجدول في إعراب القرآن : محمود بن عبد الرحيم الصافي ، دار الرشيد ، مؤسسة الإيمان ، دمشق ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٨ هـ .

٨١ـ الجملة العربية والمعنى : الدكتور فاضل السامرائي ، دار الفكر ، عمَّان ، الأردن ، الطبعة الثانية ، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩ م .

٨٢ـ الجنى الداني في حروف المعاني : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله المرادي (ت ٧٤٩هـ) ، تحقيق : د فخر الدين قباوة ، والأستاذ محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

٨٣ـ جوامع الجامع : الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري) ، تحقيق : مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، قم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ .

٨٤ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ) ، ضبط وتدقيق وتوثيق : الدكتور يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (د.ت) .

٨٥ـ حاشية الآجرومية : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي النجدي (ت ١٣٩٢هـ) ، (د.ت) .

٨٦ـ حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : الشيخ محمد بن مصطفى الخضري ، مكتبة مشكاة الاسلامية ، (د.ت) .

٨٧ـ حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك : أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ت ١٢٠٦هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ -١٩٩٧م .

٨٨ـ حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة : قطب الدين محمد بن الحسين البيهقي الكيذري (ت بعد ٦١٠هـ) ، تحقيق : عزيز الله العطاردي ، مؤسسة نهج البلاغة ، نشر عطارد ، قم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ .
٨٩ـ حروف الجر ، دلالاتها وعلاقاتها : الدكتور أبو أوس إبراهيم الشمسان ، (د.ت) .
٩٠ـ حروف المعاني : عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي الزجاجي ، أبو القاسم (ت ٣٣٧هـ) ، تحقيق : علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .
٩١ـ الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ) ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٩م .
٩٢ـ دراسات فنية في صور القرآن : الدكتور محمود البستاني ، (د.ت) .
٩٣ـ دراسة حول نهج البلاغة : محمد حسين الحسيني الجلالي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ .
٩٤ـ درة التنزيل وغرة التأويل : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ) ، تحقيق : د . محمد مصطفى آيدين ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .
٩٥ـ درة الغواص في أوهام الخواص : القاسم بن علي بن محمد بن عثمان ، أبو محمد الحريري البصري (ت ٥١٦هـ) ، تحقيق : عرفات مطرجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .
٩٦ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : أبو العباس ، شهاب الدين ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) ، تحقيق : الدكتور أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، (د.ت) .
٩٧ـ الدرة النجفية : إبراهيم بن حسين الخوئي ، (د.ت) .
٩٨ـ دليل السالك إلى ألفية ابن مالك : عبد الله بن صالح الفوزان ، دار المسلم ، ١٩٩٨م .

٩٩ـ دور الحرف في أداء معنى الجملة : الصادق خليفة راشد ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ١٩٩٦ م .

١٠٠ـ ديوان امرِئ القيس (امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (ت ٥٤٥ م) ، اعتنى به : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م .

١٠١ـ ديوان الخنساء : شرح معانيه ومفرداته : حمدو طمَّاس ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م .

١٠٢ـ ديوان كثير عزة : جمعه وشرحه : الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م .

١٠٣ ـ ديوان المتنبي : دار بيروت ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .

١٠٤ـ ديوان النابغة الذبياني : تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، (د.ت) .

١٠٥ـ رصف المباني في شرح حروف المعاني : أحمد بن عبد النور المالقي (ت ٧٠٢هـ) ، تحقيق : أحمد محمد الخراط ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، (د.ت) .

١٠٦ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ .

١٠٧ـ سر صناعة الإعراب : أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ،١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .

١٠٨ـ سُلَّم اللسان في الصرف والنحو والبيان : جرجي شاهين عطية ، دار الريحاني ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، (د.ت) .

١٠٩ـ الشافية في علم التصريف : عثمان بن عمر بن أبي بكر ، ابن الحاجب الكردي المالكي (ت ٦٤٦هـ) ، تحقيق : حسن أحمد العثمان ، المكتبة المكية ، مكة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥ م .

١١٠ـ شذا العرف في فن الصرف : أحمد بن محمد الحملاوي (ت ١٣٥١هـ) ، تحقيق : نصر الله عبد الرحمن نصر الله ، مكتبة الرشد الرياض ، (د.ت) .

١١١ـ شرح الأزهرية : خالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري ، وكان يعرف بالوقاد (ت ٩٠٥هـ) ، المطبعة الكبرى ببولاق ، القاهرة ، (د.ت) .
١١٢ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : علي بن محمد بن عيسى ، الأُشْمُوني (ت ٩٠٠هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .
١١٣ـ شرح الأصول من الحلقة الثانية : الشيخ محمد صنقور البحراني ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٨هـ .
١١٤ـ شرح تسهيل الفوائد : محمد بن عبد الله بن مالك ، جمال الدين (ت ٦٧٢هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد الرحمن السيد ، والدكتور محمد بدوي المختون ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ،١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م .
١١٥ـ شرح التصريح على التوضيح (التصريح بمضمون التوضيح في النحو) : خالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري ، وكان يعرف بالوقاد (ت ٩٠٥هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ،١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .
١١٦ـ شرح جمل الزجاجى : ابن عصفور الإشبيلي ، مكتبة مشكاة الاسلامية ، (د.ت) .
١١٧ـ شرح الدماميني على مغني اللبيب : محمد بن أبي بكر الدماميني (ت٨٢٨هـ) ، صححه وعلق عليه : أحمد عزو عناية ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .
١١٨ـ شرح ديوان المتنبي : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (ت ٦١٦هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، (د.ت) .
١١٩ـ شرح الرضي على الكافية : محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي ، نجم الدين (ت ٦٨٦هـ) ، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ، جامعة قاريونس ، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

١٢٠ـ شرح شافية ابن الحاجب : محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي ، نجم الدين (ت ٦٨٦هـ) ، تحقيق : محمد نور الحسن ، محمد الزفزاف ، محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م .

١٢١ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب : شمس الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الجَوجَري (ت ٨٨٩هـ) ، تحقيق : نواف بن جزاء الحارثي ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٤م .

١٢٢ـ شرح مائة كلمة : ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٧٩هـ) ، تحقيق : مير جلال الدين الحسيني الارموي المحدث ، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ، قم ، ١٣٩٠ هـ .

١٢٣ـ شرح المفصل للزمخشري : يعيش بن علي بن يعيش ، موفق الدين الموصلي ، المعروف بابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) ، قدم له : الدكتور إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

١٢٤ـ شرح نهج البلاغة : عز الدين أبو حامد عبد الحميد ابن ابي الحديد (ت ٦٥٦ هـ) ، المصحح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة آية الله المرعشي النجفي العامة ، قم ، إيران ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٨هـ .

١٢٥ـ شرح نهج البلاغة : السيد عباس علي الموسوي ، دار الرسول الأكرم ، و دار المحجة البيضاء ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ .

١٢٦ـ شرح نهج البلاغة : محمد كاظم القزويني ، النعمان ، النجف الأشرف ، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٩م .

١٢٧ـ شرح نهج البلاغة : ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٧٩هـ) ، دفتر نشر الكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ .

١٢٨ـ شرح نهج البلاغة : محمد عبده ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، (د.ت) .

١٢٩ـ شرح نهج البلاغة : شارح من القرن الثامن ، تحقيق : عزيز الله العطاردي ، مؤسسة نهج البلاغة ، نشر عطارد ، قم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ .

١٣٠ـ شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار : علي أنصاريان ، تحقيق : مرتضى حاج علي فرد ، مؤسسة الطباعة والنشر ، وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي ، طهران ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ .

١٣١ـ شعر زيد الخيل الطائي ، جمع ودراسة وتحقيق : أحمد مختار البزرة ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

١٣٢ـ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها : أحمد بن فارس القزويني الرازي ، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) ، محمد علي بيضون ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

١٣٣ـ صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .

١٣٤ـ الصناعتين : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٩ هـ .

١٣٥ـ ضياء السالك إلى أوضح المسالك : محمد عبد العزيز النجار ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

١٣٦ـ الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء ، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠هـ) ، تحقيق : زياد محمد منصور ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ .

١٣٧ـ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة ، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللّه (ت ٧٤٥هـ) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣ هـ .

١٣٨ـ عبقرية الإمام علي : عباس محمود العقّاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م .

١٣٩ـ علل الشرائع : الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) ، منشورات المكتبة الحيدرية ، النجف ، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦ م .

١٤٠ـ علل النحو : محمد بن عبد الله بن العباس ، ابن الوراق (ت ٣٨١هـ) ، تحقيق : محمود جاسم محمد الدرويش ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م .

١٤١ـ علوم البلاغة (البيان ، المعاني ، البديع) : أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ) ، (د.ت) .

١٤٢ـ العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية : عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، شرح الشيخ خالد الأزهري الجرجاوي (ت٩٠٥هـ) ، تحقيق : الدكتور البدراوي زهران ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، (د.ت) .

١٤٣ـ غريب القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق : أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م .

١٤٤ـ الفائق في غريب الحديث والأثر : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، لبنان ، الطبعة الثانية ، (د.ت) .

١٤٥ـ فتحُ البيان في مقاصد القرآن : أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن البخاري القِنَّوجي (ت ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري ، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا ، بَيروت ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢ م .

١٤٦ـ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري ، زين الدين أبو يحيى السنيكي (ت ٩٢٦هـ) ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٤٧ـ فتح القدير : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ) ، دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ .

١٤٨ـ فقه الصادق : السيد محمد صادق الحسيني الروحاني ، المطبعة العلمية ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ .

١٤٩ـ الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية : نعمة الله بن محمود النخجواني ، ويعرف بالشيخ علوان (ت ٩٢٠هـ) ، دار ركابي للنشر ، الغورية ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م .

١٥٠ـ في البلاغة العربية (علم البيان) : الدكتور محمد مصطفى هدارة ، دار العلوم العربية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

١٥١ـ في رحاب نهج البلاغة : مرتضى المطهري ، الدار الإسلامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .

١٥٢ـ في ظلال نهج البلاغة محاولة لفهم جديد : محمد جواد مغنية (ت١٤٠٠هـ) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ .

١٥٣ـ في النحو العربي نقد وتوجيه : الدكتور مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

١٥٤ـ القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف : محمد نعيم العرقسُوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثامنة ، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .

١٥٥ـ القرآن وعلوم الأرض : محمد سميح عافية ، الزهراء للإعلام العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤هـ .

١٥٦ـ الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه : السيد جواد المصطفوي الخراساني ، دار الكتب الاسلامية ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ .

١٥٧ـ الكامل في اللغة والأدب : محمد بن يزيد المبرد ، أبو العباس (ت ٢٨٥هـ) ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

١٥٨ـ الكتاب : عمرو بن عثمان بن قنبر ، أبو بشر، سيبويه (ت ١٨٠هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨ م .

١٥٩ـ كتاب الأزهية في علم الحروف : علي بن محمد النحوي الهروي (ت ٤١٥هـ) ، تحقيق : عبد المعين الملّوحي ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

١٦٠ـ كتاب الأفعال : علي بن جعفر بن علي السعدي ، أبو القاسم، المعروف بابن القَطَّاع الصقلي (ت ٥١٥هـ) ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م .

١٦١ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧هـ .

١٦٢ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن : أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، أبو إسحاق (ت ٤٢٧هـ) تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق : الأستاذ نظير الساعدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م .

١٦٣ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : أيوب بن موسى ، أبو البقاء الحنفي (ت ١٠٩٤هـ) ، تحقيق : عدنان درويش ، ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (د.ت) .

١٦٤ـ اللامات : عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي ، أبو القاسم (ت ٣٣٧هـ) ، تحقيق : مازن المبارك ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

١٦٥ـ اللامات ، دراسة نحويَّة شاملة في ضوء القراءات القرآنية : الدكتور عبد الهادي الفضلي ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ م .

١٦٦ـ اللباب في علل البناء والإعراب : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت ٦١٦هـ) ، تحقيق : د. عبد الإله النبهان ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م .

١٦٧ـ اللباب في علوم الكتاب : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل النعماني (ت ٧٧٥هـ) ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ـ١٩٩٨م .

١٦٨ـ اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل : محمد علي السَّراج ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .
١٦٩ـ لسان العرب : محمد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، ابن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤ هـ .
١٧٠ـ اللغة : جوزيف فندريس (ت ١٣٨٠هـ) ، تعريب : عبد الحميد الدواخلي ، محمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٠ م .
١٧١ـ اللغة العربية معناها ومبناها : تمام حسان عمر ، عالم الكتب ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٧هـ ـ٢٠٠٦م .
١٧٢ـ اللغة وعلم اللغة : جون ليونز ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، (د.ت).
١٧٣ـ اللمحة في شرح الملحة : محمد بن حسن بن سِباع ، المعروف بابن الصائغ (ت ٧٢٠هـ) ، تحقيق : إبراهيم بن سالم الصاعدي ،عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م .
١٧٤ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : فاضل بن صالح البدري السامرائي ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م .
١٧٥ـ اللمع في العربية : أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ) ، تحقيق : فائز فارس ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ، (د.ت) .
١٧٦ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : نصر الله بن محمد بن محمد ، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ،١٤٢٠ هـ .
١٧٧ـ مجاز القرآن : أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (ت : ٢٠٩هـ) ، تحقيق : محمد فواد سزگين ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ .
١٧٨ـ المجتبى من مشكل إعراب القرآن : الدكتور أحمد بن محمد الخراط ، أبو بلال ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، ١٤٢٦هـ .

١٧٩ـ مجمع الأمثال : أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت ٥١٨هـ) ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .

١٨٠ـ مجمع البيان : أمين الاسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ) ، (د.ت) .

١٨١ـ مجمل اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) ، دراسة وتحقيق : زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

١٨٢ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ) ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ .

١٨٣ـ المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها : محمد الأنطاكي ، دار الشرق العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، (د.ت) .

١٨٤ـ مروج الذهب : أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، (د.ت) .

١٨٥ـ المستدرك على الصحيحين : أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥هـ) ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١٨٦ـ مستدرك نهج البلاغة : الهادي كاشف الغطاء (من أعلام القرن الرابع عشر الهجري) ، مكتبة الأندلس ، بيروت ، (د.ت) .

١٨٧ـ مسند نهج البلاغة : محمد حسين الحسيني الجلالي ، تحقيق : محمد جواد الحسيني الجلالي ، مكتبة العلامة المجلسي ، الطبعة الأولى ، قم ، ١٤٣١هـ .

١٨٨ـ المشككون بنهج البلاغة والرد عليهم : علي الفتال ، دار المحجة البيضاء ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م .

١٨٩ـ مصابيح المغاني في حروف المعاني : محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٨٢٥هـ) ، تحقيق : الدكتور عائض بن نافع العمري ، دار المنار ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

١٩٠ـ مصادر نهج البلاغة وأسانيده : السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب ، دار الزهراء ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٩ هـ .

١٩١ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير : أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي ، أبو العباس (ت : نحو ٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية ، بيروت ، (د.ت) .

١٩٢ـ معارج نهج البلاغة : علي بن زيد البيهقي فريد خراسان (ت ٥٦٥هـ) ، تحقيق : محمد تقي داش ، مكتبة آية الله المرعشي النجفي العامة ، الطبعة الأولى ، قم ، ١٤٠٩هـ .

١٩٣ـ معاني حروف الجر بين الوصف النحوي القديم والاستعمال اللغوي المعاصر : مارينا النجار ، (د.ت) .

١٩٤ـ معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت ٢٠٧هـ) ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار ، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي ، دار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر ، الطبعة الأولى ، (د.ت).

١٩٥ـ معانى القرآن : أبو الحسن المجاشعي بالولاء ، البلخي ثم البصري ، المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) ، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

١٩٦ـ معاني القرآن : أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت ٣٣٨هـ) ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

١٩٧ـ معاني القرآن وإعرابه : إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) ، تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

١٩٨ـ معاني النحو : الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار الفكر ، عمان ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م .

١٩٩ـ معاوية بن أبي سفيان : عباس محمود العقاد ، نهضة مصر ، (د.ت).

٢٠٠ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٢٠١ـ المعجب في علم النحو : رؤوف جمال الدين ، دار الهجرة ، قم ، إيران ، (د.ت) .

٢٠٢ـ المعجم الأصولي : الشيخ محمد صنقور البحراني ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م .

٢٠٣ـ معجم الأفعال المتعدية بحرف : موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي ، (د.ت) .

٢٠٤ـ معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي : الدكتور أحمد مختار عمر (ت ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م .

٢٠٥ـ معجم الفروق اللغوية (الفروق اللغوية بترتيب وزيادة) : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت : نحو ٣٩٥هـ) ، تحقيق : الشيخ بيت الله بيات ، ومؤسسة النشر الإسلامي ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، قم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .

٢٠٦ـ معجم القراءات : الدكتور عبد اللطيف الخطيب ، دار سعد الدين ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .

٢٠٧ـ معجم القواعد العربية : عبد الغني بن علي الدقر (ت ١٤٢٣هـ) ، (د.ت) .

٢٠٨ـ معجم اللغة العربية المعاصرة : الدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .

٢٠٩ـ المعجم المفصل في شواهد العربية : الدكتور إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م .

٢١٠ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ، انتشارات اسلامي ، قم ، ١٣٧٨هـ .

٢١١ـ معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، (ت ٣٩٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

٢١٢ـ المعجم الوافي في أدوات النحو العربي : الدكتور علي توفيق الحمد ، ويوسف جميل الزعبي ، دار الأمل ، إربد ، الأردن ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م .

٢١٣ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : عبد الله بن يوسف بن أحمد ، جمال الدين ، ابن هشام (ت ٧٦١هـ) ، تحقيق : د. مازن المبارك ، محمد علي حمد الله ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٥م .

٢١٤ـ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠ هـ .

٢١٥ـ مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة : محمد تقي النقوي القايني الخراساني ، مكتبة المصطفوي ، طهران ، إيران ، (د.ت) .

٢١٦ـ مفتاح العلوم : يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (ت ٦٢٦هـ) ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

٢١٧ـ المفتاح في الصرف : أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل ، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ) ، تحقيق : الدكتور علي توفيق الحَمَد، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .

٢١٨ـ المفردات في غريب القرآن : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) ، تحقيق : صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ .

٢١٩ـ المفصل في صنعة الإعراب : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ، تحقيق : الدكتور علي أبو ملحم ، مكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .

٢٢٠ـ المقتصد في شرح الإيضاح : عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، تحقيق : د. كاظم بحر المرجان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨٢م .

٢٢١ـ المقتضب : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، أبو العباس، المعروف بالمبرد (ت ٢٨٥هـ) ، تحقيق : محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، (د.ت) .

٢٢٢ـ المقدمة الجزولية في النحو : عيسى بن عبد العزيز بن يَلَلْبَخْت الجزولي البربري المراكشي ، أبو موسى (ت ٦٠٧هـ) ، تحقيق : الدكتورشعبان عبد الوهاب محمد ، مطبعة أم القرى ، (د.ت) .

٢٢٣ـ المقرر في توضيح منطق المظفر : السيد رائد الحيدري ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .

٢٢٤ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل : أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) ، وضع حواشيه : عبد الغني محمد علي الفاسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت).

٢٢٥ـ الممتع الكبير في التصريف : علي بن مؤمن بن محمد، الحَضْرَمي الإشبيلي ، أبو الحسن المعروف بابن عصفور (ت ٦٦٩هـ) ، مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م .

٢٢٦ـ من أسرار التعبير في القرآن ، صفاء الكلمة : الدكتور عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

٢٢٧ـ من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : الدكتور محمد الأمين الخضري ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

٢٢٨ـ المنصف (شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني) : أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ) ، دار إحياء التراث القديم ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م .

٢٢٩ـ المنصف في النحو واللغة والإعراب : نصر الدين فارس ، وعبد الجليل زكريا ، دار المعارف ، حمص ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠ م .

٢٣٠ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة : حبيب الله بن محمد الخوئي (ت١٣٢٤هـ) ، تصحيح : السيد إبراهيم الميانجي ، المكتبة الاسلامية ، طهران ، إيران ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٠هـ .

٢٣١ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة : قطب الدين سعيد بن هبة الدين الراوندي (ت ٥٧٣هـ) ، تحقيق : السيد عبد اللطيف الكوهكمري ، مكتبة آية الله المرعشي النجفي العامة ، قم ، ١٤٠٦ هـ .

٢٣٢ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم بن محمد بن حسن، ابن حازم القرطاجني ، أبو الحسن (ت ٦٨٤هـ) ،(د.ت) .

٢٣٣ـ منهاج الصالحين : السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت١٤١١هـ ـ١٩٩١م) ، الطبعة الثامنة والعشرون ، قم ، ١٤١٠هـ .

٢٣٤ـ المنهاج الواضح للبلاغة : حامد عونى ، المكتبة الأزهرية للتراث ، (د.ت) .

٢٣٥ـ منهاج الولاية في شرح نهج البلاغة : المولى عبد الباقي الصوفي التبريزي (من أعلام القرن الحادي عشر الهجري) ، تحقيق : حبيب الله العظيمي ، آينة ميراث ، طهران ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ .

٢٣٦ـ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة : محمد راتب النابلسي ، دار المكتبي ، دمشق ، سورية ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .

٢٣٧ـ موسوعة الإمام الجواد (عليه السلام) : اللجنة العلمية في مؤسسة ولي العصر عليه السلام للدراسات الإسلامية ، قم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ .

٢٣٨ـ موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب و السنة و التاريخ : محمد الريشهري ، السيد محمد كاظم الطباطبائي ، السيد محمود الطباطبائي ، دار الحديث ، إيران ، قم ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٥هـ .

٢٣٩ـ موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ت : بعد ١١٥٨هـ) ، تقديم وإشراف ومراجعة : الدكتور رفيق العجم ، تحقيق : الدكتور علي دحروج ، نقل النص الفارسي إلى العربية : الدكتور عبد الله الخالدي ، الترجمة الأجنبية : الدكتور جورج زيناني ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م .

٢٤٠ـ الميزان في تفسير القرآن : السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧ م .

٢٤١ـ نتائج الفكر في النَّحو : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ – ١٩٩٢ م .

٢٤٢ـ نحو القرآن : أحمد عبد الستَّار الجواري ، مكتبة اللغة العربية ، بغداد ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤ م .

٢٤٣ـ النحو الوافي : عباس حسن (ت ١٣٩٨هـ) ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة عشرة ، (د.ت) .

٢٤٤ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي (ت ٨٨٥هـ) ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، (د.ت) .

٢٤٥ـ نفحات الولاية شرح عصري جامع لنهج البلاغة : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء ، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (ع) ، قم ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ .

٢٤٦ـ النهاية في غريب الحديث والأثر : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى ، ومحمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

٢٤٧ـ نهج البلاغة : الشريف أبو الحسن محمد الرضي بن الحسن الموسوي (ت ٤٠٦هـ) ، تحقيق : الدكتور صبحي الصالح ، قم ، إيران ، (د.ت) .

٢٤٨ـ نهج البلاغة فوق الشبهات والتشكيكات : الشيخ أحمد سلمان ، دار البيضاء ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م .

٢٤٩ـ نهج البلاغة في دائرة التشكيك : الشيخ يوسف علي سبيتي ، دار الهادي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م .

٢٥٠ـ نهج البلاغة لمن : الشيخ محمد آل ياسين ، الطبعة الأولى ، دار الأنوار ، بغداد ، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥ م .

٢٥١ـ نهج البلاغة نبراس السياسة ومنهل التربية : الدكتور لبيب بيضون ، وآخرون ، مؤسسة نهج البلاغة ، قم ، ١٤٠٤ هـ .

٢٥٢ـ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : محمد باقر المحمودي ، تصحيح : عزيز آل طالب ، مؤسسة الطباعة والنشر ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، طهران ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ .

٢٥٣ـ نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي) : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٥ م .

٢٥٤ـ الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه : أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق : مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي ، جامعة الشارقة ، بإشراف أ. د : الشاهد البوشيخي ، مجموعة بحوث الكتاب والسنة ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الشارقة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م .

٢٥٥ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت) .

٢٥٦ـ الوجوه والنظائر : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت : نحو ٣٩٥هـ)، تحقيق : محمد عثمان ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧ م .

٢٥٧ـ وقعة صفين : نصر بن مزاحم المنقرى (ت ٢١٢هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، المؤسسة العربية الحديثة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٢ هـ .

ثالثاً : الرسائل والأطروحات الجامعية :

١ـ أبنية المبالغة وأنماطها في نهج البلاغة ، دراسة صرفيَّة نحويَّة دلاليَّة : حيدر هادي خلخال الشَّيْباني ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م .

٢ـ أبنية المصادر في نهج البلاغة : فائزة عبد الأمير شمران الخاقاني ، (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية التربية للبنات ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٩ م .

٣ـ أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير ، دراسة نظرية وتطبيقية على سورتي آل عمران والنساء : علي بن مناور بن ردة الجهني ، (رسالة ماجستير) ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، ١٤٢٨هـ ـ ١٩٩٧م .

٤ـ الأساليب الانشائية غير الطلبية في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : حسين علي محمد الموسوي ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٥ـ أساليب البديع في نهج البلاغة دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية : خالد كاظم حميدي الحميداوي ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م .

٦ـ أساليب التأكيد في نهج البلاغة دراسة دلالية: أصيل محمد كاظم ، (رسالة ماجستير) ، جامعة القادسية ، كلية التربية ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

٧ـ أسلوب الشرط في نهج البلاغة ، دراسة نحوية تطبيقية : يُسرى خلف سمير ديوان السّعيدي ، (رسالة ماجستير) ، الجامعة المستنصرية ، كلية الآداب ، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩ م .

٨ ـ أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية : علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي ، (رسالة ماجستير) ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م .

٩ـ أنماط التعليل في نهج البلاغة ، دراسة نحوية ودلالية : تيسير حبيب رحيم ، (رسالة ماجستير) ، جامعة المثنّى ، كلية التربية ، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤ م .

١٠ـ تعلق شبه الجملة في نهج البلاغة : محمود عبد حمد اللامي ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .

١١ـ التقييد في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : عباس إسماعيل الغِرَّاوي ، (رسالة ماجستير) ، الجامعة المستنصرية ، كلية التربية ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م .

١٢ـ جهود حبيب الله الخوئي النحويَّة في شرح نهج البلاغة : ظافر عبيس عناد ، (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ،١٤٣١هـ ـ٢٠١٠م .

١٣ـ حروف المعاني في نهج البلاغة ، دراسة نحوية : عبد الواحد خلف وساك آل عجيل ، (أطروحة دكتوراه)) ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م .

١٤ـ الخطاب في نهج البلاغة ، دراسة موضوعية فنية : إيمان عبد الحسن علي ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ٢٠٠٨م .

١٥ـ الدلالة النحويَّة في شرح نهج البلاغة لميثم بن علي البحراني : أحمد راضي جبر الشمَّري ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بابل ، كلية التربية ، ١٤٤٣هـ ـ ٢٠١٣م.

١٦ـ كتاب شرح الجمل في النحو للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١هـ) تحقيق ودراسة : خديجة محمد حسين ، (رسالة ماجستير) ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٨هـ .

١٧ـ المباحث النحوية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ) : سجاد عباس حمزة ، (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٨ـ مستويات التلقي في شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري : محمد مهدي حسين الساعدي ، (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م .

١٩ـ النيابة والتضمين في حروف الجر في القرآن الكريم : رنا سفيان سلمان ، (رسالة ماجستير) ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

رابعاً : البحوث :

١ـ أثر حروف الجر في ظاهرة الأضداد ، دراسة في معجم لسان العرب : د. محمد قاسم أسود ، جامعة ديالى ، كلية التربية الأساسية ، مجلة ديالى (ص٣٩٢ ـ ٤٠٤) ، العدد ٦٥ ، ٢٠١٥ م .

٢ـ التضمين النحوي وأثره في المعنى : د. هادي أحمد فرحان الشجيري ، مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية (٢٩٣ ـ ٣٣٤) ، العدد ٣٠ ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

٣ـ حروف الجر بين النيابة والتضمين : د. أحمد مطر العطبة ، مجلة التراث العربي (ص٢٣٣ ـ ٢٦١) ، اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق ، العدد ١١٢ ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٤ـ حروف المعاني بين الأصالة والحداثة ، دمشق ، ٢٠٠٠م (موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت (http://www.awu-dam.org) .

٥ـ ظاهرة التقارض في النحو العربي : أحمد محمد عبد الله ، الجامعة الاسلامية ، كلية اللغة العربية ، (ص٢٣٣ ـ ٢٨٢) ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، العدد ٥٨ .

٦ـ من أسرار القسم في القرآن الكريم : د. سليمان بن علي ، جامعة أم القرى ، (ص٥٥٤ ـ ٥٧١) ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، الجزء ١٩ ، العدد ٣١ ، ١٤٢٥هـ .

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION AND SCINENTIFIC RESEARCH

DEPARTMENT OF ARABIC

COLLEGE OF ARTS

UNIVERSITY OF BASRA

Secrets of Expressing with the preposition in Nahj al-Balagha : An Analytical Grammatical study

A Thesis

Submitted to the Council of the college of Arts , University of Basra , In partial Fulfillment of the requirements for the Degree of Doctorate of Philosophy in Arabic Language and its Literature .

By

QASIM DIRHIM GATA AL-SAEEDI

Supervised by

ASSISTANT PROF . KHALEEL KHALEF BASHEER (phD)

2017 A.D. **1439 A.H.**

Abstract

Studying the literary heritage texts is of great advantage as it is the way of revealing the rhetoric of the Arabic language and its treasures , specifically if these texts are from nahj al –balagha for they hold the primacy in the purity of language and eloquence . Nahj al Balagha Talib , the master of eloquence , was written by lmam Ali Bin Abi and this prompts the researcher greatly to ponder on Nahj al-Balagha long enough and then study Secrets of Expressing with the preposition in Nahj al –Balagha : an Analytical Grammatical Study .

The nature of the study , however , requires to involves a preface , four chapter and a conclusion . The Preface deals with the theoretical ground to get at the vision selected in stating the meaning of the preposition in the ambiguous subject . so this required to discuss the views related to the meaning of the preposition used in the subjects where the sense is deepened , and the to come to an adequate view that the researcher depends upon in this study.

Consequently , the date , which the research got inductively , has been divided into four chapter . The first chapter studies the secrets of expressing with the one –letter preposition which includes three topics The first one deals with the secrets of expressing with the preposition : (*baa*) the second one with the letter (*kaaf*) and the third one with the letter (*laam*) The second chapter tackles the secrets of expressing with the two – letter prepositions which consists of three topics : the first one studies the secrete of expressing with the prepositions *(ann*) the second one with the prepositions (*fee*) and the third one with the preposition (*min*) the third chapter deals with the secrets of expressing with the three – letter and four – letter propositions . This chapter is made up of three topice : the first one analyzes the secrets of expressing with the prepositions (*illa*) the second one with the proposion *(ala*) and the third one with the prepositions (*rubba* and *hatta*) The fourth chapter studies the secrets of collective meaning (*explanation* , *oath* , *accompaniment*). Finally , the conclusion which includes the most important results of the study .

The approach followed in the study and in presenting the texts is an analytical approach because access to the ambiguous meaning requires deconstructions of the meaning into its components , reading the situations contexts accurately , and know what is associated with the context

This thesis has depended on various sources and references , particularly books of grammar marked By studying the meaning of letters , such as Al-Azhia in the Science of Letter by Al-Harawi , and others.

Regarding the explanations of Nahj al-Balagha , in fact , were great supports to expose the texts and understand the aimed at . Writing the thesis also depended on a number of those explanations and among them were Minhaj al- Bara'a by Al-khoel , The Explanation of Nahj al-Balagha by ibn Hadeed Al –Mu'tazili , and others.

Infact , writng in such a research is not easy and feasible because the topic concerns with the speech of the master of guardians (peace and blessing upon him) and the judgment on a particular questions is not facile , Such a research required extreme accuracy which cannot be realized without pondering on the texts of Nahj al-BaIagha and then understand them adequately.

Finally , I would like thank my tutor and my supervisor Dr . KHALEEL AHALEF BASHEER for his following up this thesis accurately . I also extend my thanks to all those who offered their beneficial advice, or a kind word , or a special invocation.

However , I want just to say that l do not claim to have a chieved a perfect work . in fact , l have tried to do something that will be of use for those who intend to study the rhetoric and eloquent saying of lmam Ali Bin Abi Talib for no one is able to touch on the secrets of the writings and saying . What is right in this study is certainly from the incapacitated and helpless soul . There fore , I beg God to accept my whatever l do seeking His forgiveness and mercy .